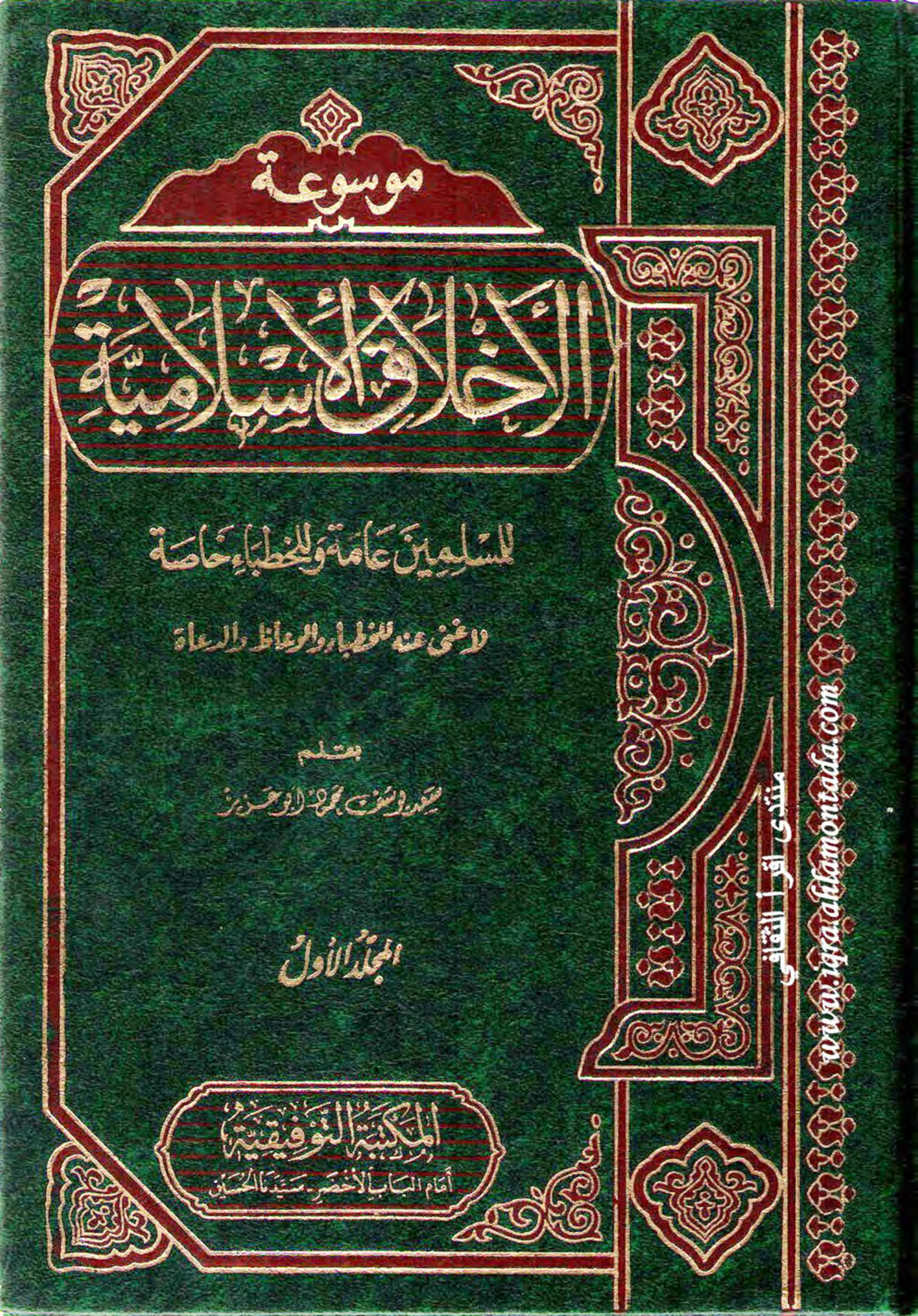

موسوعة
الأخلاق الإسلامية
للمسلمين عامة وللخطباء خاصة
لا غنى عنه للخطباء والوعاظ والدعاة
بقلم
سعيد يوسف محمد أبو عزيز
المجلد الأول
المكتبة التوفيقية
أمام الباب الأخضر - سيدنا الحسين
منتدى اقرأ الثقافي
www.iqra.ahlamontada.com

منتدى اقرأ الثقافي

www.iqra.ahlamontada.com

موسوعة

الأخلاق الإسلامية

للمسلمين عامة وللخطباء خاصة

لا غنى عنه للخطباء والوعاظ والدعاة

بقلم

سعد يوسف محمود أبو عزيز

الجزء الأول



أمام الباب الأخضر - سيدنا الحسين
٥٩٢٢٤١٠ ٥٩٠٤١٧٥



جميع الحقوق محفوظة

جميع الحقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة **لمكتبة التوفيقية (القاهرة-مصر)** ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنضيد الكتاب كاملا أو مجزءًا أو تسجيله على أشرطة كاسيت او إدخاله على الكمبيوتر أو برمجته على اسطوانات ضوئية إلا بموافقة الناشر خطيًا .

Copyright ©
All Rights reserved

Exclusive rights by Al Tawfikia **Bookshop (Cairo-Egypt)** No part of this publication may be translated, reproduced, distributed in any form or by any means, or stored in a data base or retrieval system, without the prior written permission of the publisher.

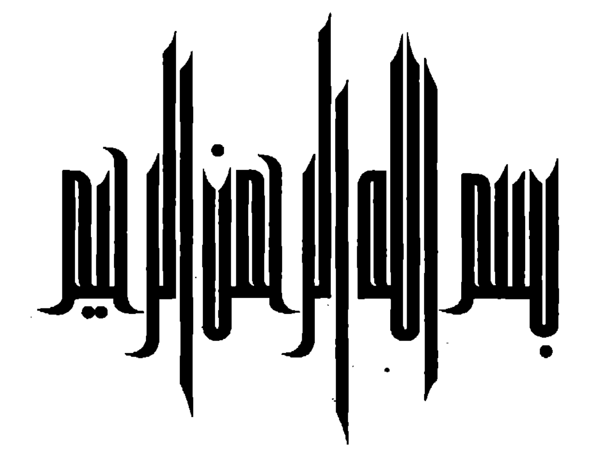
المكتبة التوفيقية

القاهرة – مصر
العنوان: أمام الباب الأخضر – سيدنا الحسين
تليفون: ٥٩٠٤١٧٥ – ٥٩٢٢٤١٠ (٠٠٢٠٢)
فاكس: ٦٨٤٧٩٥٧

Al Tawfikia Bookshop

Cairo-Egypt
Add.: In Fornt of the Green Door Of El Hussen
Tel : (٠٠٢٠٢) ٥٩٠٤١٧٥ - ٥٩٢٢٤١٠
Fax : ٦٨٤٧٩٥٧

إشراف
توفيق شعلان


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده، والصَّلاةُ والسَّلامُ على من لا نَبي بَعْده، سَيِّدنَا مُحمّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد ....:

فهذا الكتاب: «مَوْسُوعةُ الأَخْلاقِ الإسْلاميّة» يَضُمّ بين دَفَّتَيْه جُمْلة - عظيمة - من الأخلاق التي دعا إليها الإسلام، الهدف منها:

- تصحيح الاعتقاد.
- وتقويم السلوك.

ولا يَخْفى: أن سعادة الدّارين تُبْنَى على هَذَيْن الأَصْلَيْن:

- قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ [فصلت: ٣٠- ٣٢].

قال الإمامُ الفخر الرّازي - رحمه الله - : في الاسْتقامة قولان:

أحدهما: أن المراد منه الاستقامة في الدين والتوحيد والمعرفة.

الثاني: أن المراد منه الاستقامة في الأعمال الصالحة. ا.هـ [(١)]

وقال مجاهد - رحمه الله - في قوله تعالى: ﴿ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ ﴾ : «لا تخافوا الموت، ولا تحزنوا على أولادكم فإنّ الله خليفتكم عليهم» [(٢)].

---

(١) «مفاتيح الغيب» (٢٦/٦٣١).

(٢) «تفسير القرطبي» (١٥/٣٢٠).

وفي «صحيح مسلم» و «سُنَن الترمذي» عن سُفيان بْنِ عبد الله الثّقفيّ، قال: قلتُ: يا رسولَ الله، قل لي في الإسْلام قَوْلاً لا أسأل عنه أحَدًا بَعْدَك؟ قال: «**قُلْ: آمَنْتُ بالله، ثُم اسْتَقم**».

هذا، وقد راعيتُ عند تصنيف هذا الكتاب الآتي:

(١) شَرْح كُلّ «خُلُق» شَرْحًا وافيًا، دون تطويل مُمِلّ، ولا تقْصير مُخِلّ.

(٢) مُراعاة الترتيب، والتّنْسيق، تسهيلاً على القارئ الكريم.

(٣) انتقاءُ الأحاديث «الصّحيحة» - قدر الاستطاعة - مع بيان درجة كل حديث - تقريبًا -

(٤) اختيار «القصص» و «الحكايات» و «أبيات الشّعر» التي تُوافِق العقل، ولا تُعارض النّقْل.

(٥) تسليط الأضواء على «مشكلات العَصْر»، ومحاولة تقديم الحلول «الإسلامية» لها.

وأسأل الله - تعالى - أن يَتَقَبّلَ مني عَمَلِي، وأن يَغْفِرَ لي زَلَلِي، إنّهُ وليٌّ ذلك والقادر عليه.

وعلى الله قصد السبيل

خَطّه بيمينه

الرّاجي عَفْوَ رَبّه الكريم

سعد يوسف محمود أبو عزيز



تمهيد

مفهوم الأخلاق

الأخلاق لغة:

الأخلاق في «اللّغة» جمع خُلُق، والخُلقُ اسْم لسجيّة الإنسان وطبيعته التي خُلِق عليها، وهو مأخوذ من مادة «خ ل ق» التي تدلّ على تقدير الشيء.

قال الرّاغب: الخَلْقُ، والْخُلْقُ، والْخُلُقُ في الأصل واحد لكن خُصَّ الخَلْقُ بالهيئات والأشكال والصّور الْمُدْركة بالْبَصر، وَخُصّ الخُلُقُ بالقوى والسّجايا الُمدْركة بالبصيرة. قال تعالى:

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤].

والخُلُق العظيم هنا هو - كما يقول الإمام الطبري[1] - : «الأدب العظيم، وذلك أدب القُرآن الذي أدَّبه الله به وهو الإسلام وشرائعه، وقد رُوى هذا المعنى عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله تعالى:﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ المعنى: على دين عظيم وهو الإسلام».

وعن مجاهد في قوله: ﴿ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ قال: الدين.

وعن عائشة - رضي الله عنها - عندما سُئلت عن خُلُق رسول الله ﷺ قالت: «كان خُلُقُه القرآن».

قال قتادة: «تقول كما هو في القرآن»[2] ا.هـ.

---

(١) «تفسير الطبري» [مجلد ١٢، جزء ٢٨، ص ١٣] ط. الريان.

(٢) رواه مسلم (٨٤٦).

وقال الإمامُ الْجُنيد - رحمه الله - «سُمِّي خُلُقه عظيمًا لأنه لم تكن له همّة سوى الله تعالى».

وقيل: سُمّى خُلُقه عَظيمًا لاجتماع مكارم الأخلاق فيه، يدل عليه قوله ﷺ: «**إنّما بُعثْتُ لأتّمَمَ صَالِحَ الأَخْلاق**»[١]

وقال الماورديّ - رحمه الله - في الخلق العظيم ثلاثة أَوْجه:

أحدها: أدب القرآن.

الثاني: دين الإسلام.

الثالث: الطبع الكريم. وهو الظاهر.

وقال الفيروزابادي - رحمه الله - اعلم أن الدّين كلّه خُلُق فمن زاد عليك في الخُلُق زاد عليك في الدين، وهو يقوم على أربعة أركان:

الصّبر، والشجاعة، والعدل، والعفة.

وذكر أن كل واحد من هذه الأربعة يؤدّي إلى غيره من المكارم ويحمل عليه، فالصبّر «مثلاً»، يحمل على الاحتمال، وكظيم الغيظ، وإماطة الأذى، والأناة، والرفق، وعدم الطيش والعجلة وقال أيضًا: والتوسط منشأ جميع الأخلاق الفاضلة من هذه الأربعة. ا.هـ[٢]

الأخلاق اصطلاحًا:

قال الجاحظ: «إن الخُلُقُ هو حال النفس، بها يفعل الإنسان أفعاله بلا روية ولا اختيار. والخُلُق قد يكون في بعض الناس غريزة وطبعًا، وفي بعضهم لا يكون إلا بالرِّياضة والاجتهاد، كالسّخاء قد يوجد في كثير من الناس من غير رياضة ولا تعلّم، وكالشجاعة والحلم والعفّة والعدل وغير ذلك من الأخلاق المحمودة» ا.هـ[٣]

---

(١) صحيح: رواه ابن سعد، والبخاري في «الأدب المفرد» ، وغيرهما، وانظر «صحيح الجامع» (٢٣٤٩).

(٢) «بصائر ذوي التمييز» (٢/٥٦٨).

(٣) «تهذيب الأخلاق» للجاحظ (١٢).

وقال **الجرجاني**: «الخُلُق عبارة عن هيئة للنفس راسخة تصدر عنها الأفعال بسهولة ويُسر من غير حاجة إلى فِكْرٍ ورويّة، فإن كان الصادر عنها الأفعال الحسنة كانت الهيئة خُلُقًا حسنًا، وإن كان الصادر منها الأفعال القبيحة سُمِّيت الهيئة التي هي مصدر ذلك خُلُقًا سَيِّئًا، وإنما قلنا إنه هيئة راسخة لأن من يصدر منه بذل المال على الندور بحالة عارضة لا يُقال خُلُقه السّخاء ما لم يثبت ذلك في نفسه» ا.هـ [(١)].

مفهوم الأخلاق عند شيخ الإسلام ابن تيمية:

ومفهوم الأخلاق عند الإمام ابن تيمية - رحمه الله - مرتبط بمفهوم الإيمان، وما ينبثق عنه حيث إنه يقوم على عدّة عناصر، هي:

١- الإيمان بالله وحده خالقًا، ورازقًا بيده الْمُلْك «توحيد الربوبية».

٢- معرفة الله - سبحانه - معرفة تقوم على أنه وحده المستحق للعبادة «توحيد الألوهية».

٣- حُبّ الله - سبحانه وتعالى - حبًا يستولي على مشاعر الإنسان، بحيث لا يكون ثَمّة محبوب مُراد سواه سبحانه.

٤- وهذا الحبّ يستلزم أن يتّجه الإنسان المسلم نحو هدف واحد هو تحقيق رضا الله سبحانه، والالتزام بتحقيق هذا الرّضا في كل صغيرة وكبيرة منْ شئون الحياة.

٥- وهذا الاتجاه يستلزم من الإنسان سموًا عن الأنانية وعن الأهواء، وعن المآرب الدنيا، الأمر الذي يتيح له تحقيق الرؤية الموضوعية والمباشرة لحقائق الأشياء، أو الاقتراب منها، وهذه شروط جوهرية في الحُكْم الخُلقي.

٦- وعندما تتحقق الرؤية المباشرة والموضوعية للأشياء والحقائق، يكون السلوك والعمل خُلقًا من الدّرجة الأولى.

٧- وعندما يكون العمل خُلقًا من الدرجة الأولى، نكون ماضين في طريق تحقيق، أو بلوغ الكمال الإنساني[(٢)].

قلت: وهذا المفهوم للأخلاق أتَمّ.

---

(١) «التعريفات» للجرجاني (١٠٤).

(٢) «النظرية الخُلُقية عند ابن تيمية» لمحمد عبد الله عفيفي (٥٨ ، ٥٩).

الأخلاق الإسلامية:

عرّف بعضُ الباحثين الأخلاق في نظر الإسلام بأنها عبارة عن : « مجموعة المبادئ والقواعد المنظمة للسلوك الإنساني التي يُحدّدها الْوَحْيُ لتنظيم حياة الإنسان وتحديد علاقته بغيره على نحو يحقق الغاية من وجوده في هذا العالم على أكمل وجه »[١].

ويتضح من هذا التعريف أن الأخلاق في نظر الإسلام هي جمع شاملٍ في منظور متكامل بين مصدرها وطبيعتها ومغزاها الاجتماعي وغايتها.

هذا، وللنظام الأخلاقي في الإسلام طابعان مميزان:

الأول: طابع إلهي من حيث إنه مراد الله، إذ أنه يجب أن يتبع الإنسان في هذه الحياة رغبة الله في خلقه، ولذلك جاء الوحيُ بصورة هذا النظام.

الثاني: طابع إنساني من حيث إن هذا النظام عام في بعض نواحيه يتضمن المبادئ العامة، وللإنسان دوره في تحديد واجباته الخاصة والتعرف على طبيعة مظاهر السلوك الإنساني المعبّرة عن القيم. لذا تعد الأخلاق روح الإسلام، حيث يقول النبي ﷺ : « **البِرُّ حُسْنُ الْخُلُق** »[٢].

أخي المسلم:

وبعد هذا الإيضاح، نشرع في بيان المقصود، والله الموفق، لا إله غيره، ولا ربّ سواه.

۞۞۞۞۞

---

(١) « التربية الأخلاقية الإسلامية » لمقداد يالجين. رسالة دكتوراة (٧٥).

(٢) رواه مسلم (١٦/١١٠)، وانظر : « نضرة النعيم » (١/٦٦، ٦٧).

١ - حُسْنُ الْخُلُقِ

اعلم: أن الْخُلُقَ الْحَسَنَ، صفة سيِّد المرسلين، وأفضل أعمال الصِّدِّيقين، وهو على التحقيق شطْر الدِّين، وثمرة مجاهدة المتقين، ورياضة المتعبِّدين.

ولمكانته من الدين، فالحديث عنه يدور حول ثمانية أمور:

الأول: معنى حُسْن الْخُلُق.

والثاني: حقيقته.

والثالث: الحث عليه.

والرابع: أركانه.

والخامس: أقسامه.

والسادس: علاماته.

والسابع: أسباب تغير حسن الخلق.

والثامن: أمثلة عطرة من حُسْن أخلاق الأنبياء والصالحين.

والله الموفق لما يحب ويرضى.

أولاً: معنى حُسْن الْخُلُق:

قال الماورديُّ – رحمه الله تعالى –: «حُسْنُ الْخُلُق، أن يكون سَهْلَ العَرِيكة، لَيِّن الجَانب، طَلْقَ الْوَجْه، قَلِيلَ النُّفور، طَيِّبَ الكَلِمَة» ا.هـ[1].

(١) «أدب الدنيا والدين» (٢٩٨).

ثانيا: حقيقةُ حُسْنِ الخُلُق:

وحقيقته: أنه لصورةِ الإنسان الباطِنة وهي نَفْسُهُ، وأوصافُها، ومعانيها المُخْتَصَّة بها بمنزلة الخَلْقِ لِصُوَرتِها الظَّاهرة وأوصافِها ومعانِيها، ولها أَوْصَافٌ حَسَنَةٌ وقَبيحَةٌ.

والثَّوابُ والعقابُ يتعلَّقان بأوصاف الصُّور الباطنة أكثرَ ممَّا يَتعلَّقان بأوصافِ الصُّورة الظَّاهرة، ولذا تكررتِ الأحاديثُ في مَدْح حُسْنِ الخُلُق وَذَمِّ سُوئه[١].

ثالثًا: الحَثُّ على حُسْنِ الْخُلُق:

اعلم: أن التحلِّي بالأخلاق الحسنة، والتخلِّي عن سَيِّئها، مطلب عظيمٌ، وربع الرسالة المحمدية.

قال تعالى: ﴿ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ [الجمعة: ٢].

ولذا أقسم الله - ﷻ - أحد عشر قَسَمًا متتاليًا - لم تأت إلا في موضع واحد من القرآن الكريم - على أن الفلاح مَنوطٌ بتزكية النفس.

قال تعالى: ﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ۝٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ [الشمس: ١ - ١٠].

وتزكية النفس سببُ الفوز بالدرجات العُلَى، والنّعيم المقيم.

قال تعالى: ﴿ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَـٰتُ ٱلْعُلَىٰ ۝٧٥ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ [طه: ٧٥، ٧٦].

---

(١) «غذاء الألباب، شرح منظومة الآداب» لمحمد السافريني الحنبلي (١/٣٥٣).

لذا جاءت الأحاديثُ الشّريفة تحثُّ على حُسْن الخلق، وتبين ثمراته.

ومن هذه الأحاديث:

(١) عن أبي ذرّ رضي الله عنه قال:

قال رسول الله ﷺ: «**اتَّق الله حَيْثُمَا كُنْتُ، وأَتْبِعِ السَّيِّئة الحَسَنَة تَمْحُها، وخَالِق النّاس بِخُلُق حَسَن**»[١].

(٢) وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال:

قال رسول الله ﷺ: «**أَثْقَلُ شَيءٍ في ميزان المؤمن: خُلُقٌ حَسَنٌ؛ وإن الله يُبْغِضُ الفاحِشَ الْمُتَفَحِّشَ الْبَذيء**»[٢].

(٣) وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال:

قال رسول الله ﷺ: «**أكمَلُ المؤمنين إيمانًا، أَحْسَنُهم خُلُقًا، الموطَّأون أكْنَافًا، الّذين يَأْلَفونُ وَيُؤْلَفون، ولا خير في مَنْ لا يَأْلَفُ ولا يُؤْلَفُ**»[٣].

(٤) وعن أبي ثَعْلَبة الخُشَني رضي الله عنه قال:

قال رسول الله ﷺ: «**إنّ أحبَّكم إليّ وأقربَكم مني في الآخرة مَجَالسَ: أحاسنُكُم أَخْلاقًا، وإنّ أبغضكم إليّ وأبعَدكم مِني في الآخرة: أسوأُكُم أَخْلاقًا، الثّرثَارون، المتفيهقون[٤]، المتشدِّقون**»[٥].

(٥) وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت:

قال رسولُ الله ﷺ: «**إنّ الرَّجُلَ لَيُدْرِكُ بِحُسْن خُلُقه درجاتِ قائمِ اللّيل، صائمِ**

---

(١) حسن: رواه أحمد والترمذي، وغيرهما، وانظر: «صحيح الجامع» (٩٦).

(٢) صحيح: رواه البيهقي في «السُّنن»، وانظر «صحيح الجامع» (١٣٤).

(٣) حسن: رواه الطبراني في «الأوسط»، وانظر: «صحيح الجامع» (١٢٤٢).

(٤) المتفيهقون: المتكبرون.

(٥) صحيح: رواه أحمد والطبراني في «الكبير»، وغيرهما. وانظر «صحيح الجامع» (١٥٦٩).

النَّهار» [١].

(٦) وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ سُئل عن أكثر ما يُدْخل النّاس الجنة، فقال:

«**تقوى الله، وحُسْن الْخُلُق**».

وسُئل عن أكثر ما يدخل الناسَ النار، فقال:

«**الفَم**[٢]**، والفَرْج**[٣]» [٤].

(٧) وعن أنس ﷺ قال:

قال رسول الله ﷺ: «**عَلَيْكَ بحُسْنِ الْخُلُقِ، وطولِ الصَّمْتِ، فوالَّذي نَفْسِي بيده، مَا تَجَمَّلَ الخلائقُ بِمِثْلهمَا**» [٥].

والأحاديث في فَضَل «حُسْن الخلق» أكثر من أن تُحصى.

رابعًا، أركانُ حُسْنِ الْخُلُقِ :

قال الإمام ابن القيم: - رحمه الله تعالى - :

«حُسْنُ الْخُلُق يقوم على أربعة أركان، لا يُتصوّر قيام ساقه إلا عليها:

الصَّبْر، والعِفّة، والشجاعة، والعَدْل.

فالصبر: يحمله على الاحتمال وكظم الغيظ، وكفّ الأذى، والحلم، والشجاعة، والعدل.

والعفّة: تحمله على اجتناب الرذائل والقبائح من القول والفعل. وتحمله على الحياء وهو رأسُ كلّ خير، وتمنعه من الفحشاء، والبخل، والكذب، والغيبة، والنميمة.

---

(١) **صحيح**: رواه أحمد، والحاكم في «المستدرك»، وانظر «صحيح الجامع» (١٦١٧).

(٢) بسبب: أكل الحرام، والغيبة، والنميمة، والكذب، وشهادة الزور، وغير ذلك من الآفات.

(٣) بسبب: الزّنا، واللواط.

(٤) **صحيح**: رواه الترمذي، وصحّحه.

(٥) **حسن**: رواه أبو يعلى في «مسنده»، وانظر : «صحيح الجامع» (٣٩٢٧).

والشجاعة: تحمله على عزّة النفس، وإيثار معالي الأخلاق والشيم، وعلى البذل والندى، الذي هو شجاعة النفس وقوّتها على إخراج المحبوب ومفارقته. وتحمله على كظم الغيظ والحلم، فإنه بقوة نفسه وشجاعتها يُمْسك عنانها، ويكبحها بلجامها عن النزغ، والبطش؛ كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «**ليس الشّديد بالصُّرَعة، وإنّما الشّديد: الذي يَمْلِك نفسه عند الغَضَب**».

وهو حقيقة الشجاعة، وهي مَلَكَة يَقْتَدر بها العبدُ على قَهْر خَصْمه.

والعَدْلُ: يحمله على اعتدال أخلاقه، وتوسطه فيها بين طرفي الإفراط والتفريط، فيحمله على خلق الجود والسخاء الذي هو توسط بين الذل والقحة.

وعلى خلق الشجاعة، الذي هو توسُّط بين الجبن والتهور وعلى خلق الحلم، الذي هو توسط بين الغضب والمهانة وسقوط النّفس. ومنشأ جميع الأخلاق الفاضلة من هذه الأربعة.

ومنشأ جميع الأخلاق السّافلة وبناؤها على أربعة أركان: الجهل، والظُّلْم، والشّهوة، والغضب» ا.هـ [1].

خامسًا: أقسَامُ حُسْنِ الْخُلُق:

قال الإمام ابن القيِّم - رحمه الله تعالى - :

«قال أحدُهم: حُسْنُ الْخُلُق قسمان:

أحدهما: مع الله ﷻ: وهو أن تعلم أن كلّ ما يكون منك يُوجب عُذْرًا، وأن كلّ ما يأتي من الله ﷻ يوجب شُكْرًا، فلا تزالُ شاكرًا له مُعْتذرًا إليه سائرًا إليه بين مطالعة مِنّته وشهودِ عَيْب نَفْسِك وأعمالك.

والثاني: حُسْنُ الْخُلُق مع الناس: وجِمَاعُهُ أمران:

بذلُ المعروف قولاً وفعلاً، وكفُّ الأذى قولاً وفعلاً.

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/٣٠٨، ٣٠٩).

وهذا إنما يقوم على أركان خمسة:

العلم، والجود، والصّبر، وطيب العود، وصّحة الإسلام.

أمّا العِلْمُ: فلأنّه يَعْرِف معالي الأخلاق وسَفَاسِفَها فيمكنه أن يَتَّصِفَ بهذا ويتحَلَّى به، ويترك هذا وَيَتَخلَّى عَنْه.

وأمّا الجودُ: فَسَماحَة نَفْسه وَبَذْلها وانْقيادُها لذلك، إذا أرادَه منها.

وأمّا الصَّبْرُ: فلأنه إن لم يَصْبِرْ على احْتِمال ذلك والقيام بأعبائه لم يتهيَّأ له.

وأمّا طِيبُ العُودِ: فأن يكون اللهُ - تعالى - خَلَقه على طبيعة مُنْقادة سَهْلةِ الانقياد، سريعةِ الاسْتجابة لِداعي الخيرات.

وأمّا صِحّةُ الإسْلام: فهي جِماعُ ذلك، والْمُصَحِّحُ لكلّ خُلُق حَسَن، فإنه بحسب قوّة إيمانه وتصديقه بالجزاء، وحسن مَوْعُود الله وثوابه، يَسْهُلُ عليه تَحمُّلُ ذلك، وَيَلذُّ له الاتِّصَافُ به.

والله الموفِّق والْمُعين» ا.هـ[١].

سادسًا: علاماتُ حُسْنِ الخُلُق:

قال الإمامُ الغزاليُّ - رحمه الله تعالى - :

«جمع بعضُهم علامات حُسن الخُلق؛ فقال:

هو أن يكون: كثيرَ الحياء، قليلَ الأذى، كثيرَ الصَّلاح، صدوقَ اللِّسان، قليلَ الكلام، كثيرَ العمل، قليلَ الزَّلل، قليلَ الفُضُول، بَرًّا، وَصُولاً، وَقُورًا، صَبورًا، شَكورًا، رَضيًّا، حَكيمًا، رَفيقًا، عَفيفًا، شفيقًا، لا لعَّانًا، ولا سَبَّابًا، ولا نَمَّامًا، ولا مُغْتَابًا، ولا عَجُولاً، ولا حَقُودًا، ولا بَخيلاً، ولا حَسودًا، بَشَّاشًا، هَشَّاشًا، يُحبُّ في الله، وَيُبْغِض في الله، وَيَرْضَى في الله، وَيَغْضَب في الله، فهذا هو حُسْنُ الْخُلُقِ» ا.هـ[٢].

---

(١) «تهذيب السّنن لابن القيم، شرح سنن أبي داود» (١٣/١٣٠).

(٢) «الإحياء» (٣/٧٥).

سابعًا: أسبابُ تَغيُّر حُسْن الْخُلُق:

قال الإمامُ الماورديُّ - رحمه الله تعالى -:

«ربُّما تغيرّ حُسْنُ الْخُلُق والوَطَاءُ، إلى الشَّراسة والبَذَاءِ لأسْبابَ عَارِضَة، وأمورٍ طارئة، تَجْعَلُ اللِّينَ خُشُونة، والْوَطَاءَ غِلظة، والطَّلاقَة عُبوسًا.

فمن أسباب ذلك:

الْولاَية: التي تُحدث في الأخلاق تَغَيُّرًا، وعلى الخُلَطاء تَنكُّرًا، إمّا من لُؤْم طَبْعَ، وإمّا من ضِيق صَدْر.

ومنها: **العزلُ**[1]: فقد يسوء به الخُلُق، ويضيق به الصّدر، إمّا لشدّة أَسَفٍ، أو لِقلّة صَبْر.

ومنها: **الغِنَى**: فقد تتغيَّرُ به أَخْلاَقُ اللَّئيم بَطَرًا، وتسوءُ طَرَائقه أَشَرًا.

قال بعض الشّعراء:

فإن تكن الدّنيا أنالَتْك ثَرْوةً   فأصْبَحْتَ ذا يُسْرٍ وقد كنت ذا عُسْر
لقد كَشَفَ الإثْرَاءُ مِنك خَلائِقًا   من اللُّؤم كانت تحت ثوبٍ مِنَ الْفَقْر

ومنها: **الفقر**: فقد يَتغَيَّرُ به الخُلُق إمّا أَنَفةً مِنْ ذُلّ الاسْتِكَانةِ أو أَسَفًا على فائتِ الغنى.

ومنها: **الهمومُ**: التي تُذْهل اللُّبّ، وَتَشْغَلُ الْقَلْب، فلا تَتَّبِعُ الاحْتِمال ولا تَقْوَى على صَبْر. وقد قيل: الْهَمُّ كالسُّمِّ.

ومنها: **الأمراض**: التي يتغيّرُ بها الطّبعُ ما يَتغيّر بها الجسمُ، فلا تَبْقى الأخلاقُ على اعتدالٍ، ولا يُقْدَر معها على احْتِمال.

ومنها: **عُلُوُّ السِّنّ وحدوث الهَرَم**: لتأثيره في آلة الْجَسَد كذلك يكون تأثيره في أَخْلاق النّفس، فكما يَضْعُفُ الْجَسَدُ عن احتمالِ ما كان يُطيقه من أثقالٍ فكذلك

---

(١) أي: عن الولاية.

تَعْجَزُ النَّفْسُ عن أثقال ما كانت تَصْبِرُ عليه من مخالفةِ الوِفاق، ومَضِيق الْمَشَاق. وكذلك ما ضَاهَاهُ.

فهذه سبعة أسباب أحدثَتْ سوء خُلُقٍ كان عامًّا.

وها هنا سَبَبٌ خاصٌّ يُحدث سوءَ خُلُق خاص وهو البغضُ الذي تَنْفرُ منه النّفسُ فَتُحْدث نفورًا على الْمُبْغض، فيؤولُ إلى سُوءِ خُلُق يَخُصُّه دون غَيْره. فإذا كان سوءُ الْخُلُقِ حادثًا بسببٍ كان زوالُهُ مقرونًا بزوالِ ذلك السَّبَب، ثُمَّ بالضِّدِّ»ا.هـ[1].

قلت: والعاصم من تردّي الأخلاق: اللهُ - تعالى - ثم مجاهدة النفس، واستقامة السلوك، والعقيدة الصحيحة، ورجاء ما عند الله - تعالى - من الثواب.

ثامنًا: أَمْثِلَةٌ عَطِرة من حُسْنِ خُلُق الأنبياء والصالحين:

وهذه أمثلة «عطرة» تبين بجَلاء: دماثة أخلاق الأنبياء والصُّلحاء:

أولاً: حُسْنُ خُلُق نبينا ﷺ:

زَكّى اللهُ - تعالى - خلق النبي ﷺ فقال:

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤].

وفي «الصحيحين»: أن هشام بن حكيم سأل عائشة - رضي الله عنها - عن خُلُق رسول الله ﷺ فقالت:

«كان خُلُقُه القرآن».

وجمع الله - تعالى - له مكارم الأخلاق في قوله تعالى:

﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

قال جعفر بن محمد: «أمر اللهُ نبيه ﷺ بمكارم الأخلاق، وليس في القرآن آيةٌ أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية».

---

(١) «أدب الدنيا والدين» (٢٩٩- ٣٠٢) باختصار شديد.

وبين النبي ﷺ الغاية التي من أجلها بُعث، فقال:

« **إنما بُعثتُ لأتمِّم صَالِحَ الأخْلاق** » [١].

والأمثلة الدّالة على حُسن خلقه - صلوات ربي وسلامه عليه - أكثر من أن تحصى، وإليك بعضها:

- عن الأسود بن يزيد، قال:

سألتُ عائشة: ما كان النبي ﷺ يصنع في أهله؟

قالت: « كان في مِهْنَةِ [٢] أَهْلِه، فإذا حضرتِ الصّلاةُ قام إلى الصّلاة » [٣].

- وعن أبي هريرة ﷺ قال:

« ما عاب رسولُ الله ﷺ طعامًا قَطُّ، إن اشتهاه أَكَله، وإلاّ تَرَكَه » [٤].

- وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت:

« ما ضَرَبَ رسولُ الله ﷺ شيئًا قطُّ بيده ولا امرأَةً ولا خَادمًا إلاّ أن يُجَاهد في سبيل الله، وما نيل منه شيءٌ قَطُّ فَيَنْتَقِمَ من صَاحِبه إلاّ أن يُنْتَهكَ شيءٌ مِنْ مَحَارِمِ الله فينتقِمَ لِلّه » ﷻ [٥].

ثانيا: حُسْنُ خُلُق إبراهيم ﵇:

تَجلّى حُسْنُ خُلُقه ﵇ حين قال لأبيه:

﴿ سَلَـٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ﴾ [مريم: ٤٧].

---

(١) **صحيح**: رواه أحمد (٢/٣٨١)، وغيره، وصحّحه ابن عبد البرّ والألباني.

(٢) **المهنة**: الصّنعة، والمراد شغل أهله وحوائجهم.

(٣) رواه البخاري (٦٠٣٩).

(٤) رواه البخاري (٣٥٦٣)، ومسلم (٢٠٦٤).

(٥) رواه مسلم (٢٣٢٨).

ومن تتبع الحوار الذي دار بينه وبين أبيه من بدايته إلى نهايته يرى حسن الخلق في أسمى صوره.

ثالثًا: حُسْنُ خُلُق يوسف عليه السلام:

وتجلّى حُسنُ خُلُقه عليه السلام حين عفا عن إخوته بعد إساءتهم إليه، قائلاً:

﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [يوسف: ٩٢].

فأين الصّفح بين الإخوة اليوم؟!

إننا نسمع عن إخوة «أشقّاء» يظل بهم الخصام إلى الممات!!

فأين العفو؟

أين: ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ﴾ ؟

ألا يعرف هؤلاء أن قاطع الرحم ملعون؟

رابعًا: حُسن خُلُق «عبد الرحمن بن عون» - رحمه الله - :

وهذا موقف «رابع» رائع، يتجلّى فيه حُسْن الْخُلُق في أَحْلى مَعَانيه.

عن بكّار بن محمد السيريني، قال:

وكان - فيما حدثنا بعضُ أصحابنا - لابن عون ناقة يغزو عليها ويحجّ، فكان بها مُعجبًا، قال:

فأمر غلامًا له يستقى عليها، فجاء بها وقد ضربها على وجهها، فسالت عَيْنُها على خدِّها، فقلنا:

إن كان من ابن عون شيءٌ فاليوم[1]. قال:

فلم يلبث أن نزل فلمّا نظر إلى النّاقة، قال:

---

(١) أي: هذا يوم اختبار حُسن خُلُقه.

« سبحان الله! أفلا غير الوجه، بارك الله فيك، اخرج عني، اشهدوا أنه حرّ!! » [١].

فكن - أخا الإسلام - على طريقة هؤلاء، واعلم: أن من تَشَبَّه بقومٍ فهو منهم.

« اللّهم آتِ نفوسَنا تقواها، وزكِّها أنْتَ خَيْر من زكّاها، أنت وَليُّها وَمْولاها ».



(١) « سير أعلام النبلاء » (٦/٣٧١).

٢- الإخلاص

الإخلاص: مِسْكٌ مَصون في مسك القَلب، ينبّه، ريحُه على حَامله.

والإخلاص: روحُ الأعمال، إذا لم تُخْلص فلا تُتْعب نَفْسك، فالعمل مَرْدود.

قال ابْنُ عطاء الله السّكندري - رحمه الله - :

«الأعمالُ صُوَرٌ قائِمةٌ، وأَرْوَاحُها وُجُودُ سِرِّ الإخْلاَصِ فيها»[١].

أخي:

ليس كُلّ ثَوْب يَعْلق به الطِّيب، رُبَّ قائم حَظّه السَّهر، كم مِنْ مُرائي يَتْعَبُ في تهجّده فتنفض ريحُ الرِّياء أَوْراق تَعبّده فَتَبْقى أغصانُ العمل كالسُّلى[٢] وليس للشَّوْك نَسيم، ﴿ فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ [محمد: ٢٣]. إذا بهرج المنافقُ على عَمل المخلص فماجت أراييجُ النّفاق فَتَجَافَتْه القلوبُ بجيفته، فذهب عَمَلُه جُفاء.

واعجبًا! مِنْ أَهْل الرِّياء، على من يبهرجوه، ﴿ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ [القصص: ٦٩].

غلب على المخلصين الخشوع، فجاء المرائي يبهرج فقيل: «مَهْلاً فالنَّاقد بَصِير».

لمّا أخذ دود القز ينسج جاءت العنكبوت تتشبه، فنادى على لسان الحال الفارق:

إذا اشْتبكَتْ دُموعٌ في خُدودِ ... تَبين مَنْ بَكى مِمَّن تَباكى[٣]

---

(١) «الحكم العطائية» (٨).

(٢) السُّلى: شجرٌ له شَوْك.

(٣) تباكى: تَصنّع البكاء. وانظر: «اللطائف في الوعظ» لابن الجوزي (٥٤).

أخي الكريم:

ولمكانة الإخلاص وأهمّيته، فالحديث عنه يدور حول خمسة أمور:

الأوّل: تعريف الإخلاص.

والثاني: حقيقته.

والثالث: حُكم العمل المشوب، واستحقاق الثواب به.

والرابع: ثمراته.

والخامس: صور ومواقف من حياة أهل الإخلاص.

والله أسأل التوفيق لطاعته.

أوّلاً: تعريف الإخلاص:

الإخلاص «لُغَةً»: مَصْدَرُ أَخْلَصَ يُخْلِصُ وهو مأخوذٌ من مادّة (خ ل ص) التي تدلّ على تنقية الشّيء وتهذيبه[1].

والخالص كالصّافي إلاّ أنّ الخالص ما زال عنه شَوْبُه بعد أن كان فيه، والصّافي قد يُقَال لِمَا لا شَوْبَ فيه، ويقال: خَلَّصْتُه فَخَلَص.

وفي «الشّرع»: تَعدَّدتْ أقوالُ أَهْلِ الْعِلْم فيه:

- فمنهم من قال: هو إفراد الله بالقصد في الطاعة.
- ومنهم من قال: هو تصفية الفعل عن ملاحظة المخلوقين وإعجاب الفاعل بنفسه.
- وقال أبو عثمان: «الإخلاص: نِسْيانُ رُؤْية الخَلْق بدوام النَّظَر إلى الْحَقِّ».
- وقيل: هو اسْتِوَاءُ أَعْمَال الْعَبْدِ في الظّاهِر والباطن.
- وقيل: هو ألاّ تطلب على عملك شاهدًا غير الله تعالى.

---

(١) «المفردات» للرّاغب (١٥٤).

وباختصار: فإن تصفية العمل من كُلّ شائبة هو الإخلاص لله تعالى.

ثانيًا: حقيقته:

وحقيقة الإخلاص: التَّبَرِّي عن كُلّ ما دُون الله تعالى، أمّا الإخْلاصُ في الدِّين، فيقول فيه الرَّاغبُ:

إخلاص المسلمين أنّهم قد تبرّءوا ممّا يدعي اليهود من التشبيه، والنصارى من التثليث، قال تعالى:

﴿ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [الأعراف: ٢٩].

وقال ﷻ: ﴿ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ ﴾ [النساء: ١٤٦].

وأجمعوا على أنّ الإخلاص في الطاعة: تَرْكُ الرِّياء.

وقال الفضيلُ بن عياض - رحمه الله -:

«تركُ العمل لأجْل الناس رياءٌ، والعملُ لأجْلِهم شِرْكٌ، والإخلاص: الْخَلاَصُ مِنْ هَذَيْن» وفي رواية:

«والإخلاص: أن يُعافيَك اللهُ منهما» [(١)].

وقال الإمام ابْنُ القَيِّم - رحمه الله -:

«لا يجتمع الإخلاص في القلب ومحبّة المدح والثناء والطمع فيما عند الناس إلاّ كما يجتمع الماء والنار والضّبّ والحوت. فإذا حدّثتك نفسُك بطلب الإخلاص فأَقْبِل على الطّمع أوّلاً فاذْبَحْه بسكين اليأس، وأَقْبل على المدح والثناء فازهَد فيهما زهد عشّاق الدنيا في الآخرة، فإذا استقام لك ذبح الطمع والزّهد في الثناء والمدح سهل عليك الإخلاص.

فإن قلت: وما الذي يسهّل عليّ ذَبْح الطّمع والزّهد في الثناء والْمَدْح؟ قلتُ: أمّا ذَبْح الطّمع: فيسهّله عليك عِلْمُك يقينًا أنه ليس من شيء يطمع فيه إلاّ وبيد الله وحده خزائنه لا يملكها غيره، ولا يؤتى العبد منها شيئًا سواه.

---

(١) «مدارج السالكين» (٣/٩٥).

وأمّا الزّهد في الثّناء والْمَدْح: فيسهّله عليك علْمُك أنه ليس أحد ينفع مَدْحه، ويزين ويضرّ ذَمّه ويشين إلاّ الله وحده، كما قال ذلك الأعرابي للنبي ﷺ:

إنّ مَدْحي زين، وذَمِّي شين.

فقال ﷺ: «**ذَلك اللهُ عز وجل**»[1].

فازهد في مدح من لا يزينك مدحه وفي ذمّ من لا يشينك ذمّه، وارغب في مدح من كلّ الزّين في مدحه وكلّ الشين في ذمّه، ولن يقدر على ذلك إلاّ بالصَّبر واليقين، فمتى فقدتَ الصَّبر واليقين كُنتَ كمن أرَاد السّفر في البحر في غير مَرْكب. قال تعالى:

﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ [الروم: ٦٠].

وقال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤]» ا.هـ[2].

ثالثًا: حكم العمل المشوب واستحقاق الثواب به:

قال الإمامُ ابن قدامة - رحمه الله -:

« أمّا العمل الذي لا يريد به إلاّ الرّياء، فهو على صَاحبه لا لَهُ[3]، وهو سبب للعقاب، كما أن العمل الخالص لوجه الله تعالى سبب للثواب. ولا إشكال في هذين القسمين، وإنما النظر في العمل المشوب الممتزج بالرياء وحظوظ النفس. وقد اختلف الناس في ذلك، هل يقتضي ثوابًا أو عقابًا، أو لا يقتضي شيئًا أصلاً؟ وليس تخلو الأخبار عن تعارض ذلك. والذي يتضح لنا فيه، والعلم عند الله تعالى: أن ننظر إلى قَدْر قوّة البواعث، فإن كان الباعث الدّيني مساويًا للباعث النفساني تقاوما وتَسَاقطًا، وصار العمل لا له ولا عليه، وإن كان باعث الرّياء أقوى، ضرّ وأوجب العقاب، ولكن عقابه دون من تجرَّد للرّياء.

---

(١) صحيح: أخرجه ابن مردويه عن ابن مسعود ﷺ وصحّحه صاحب «المقبول من أسباب النزول».

(٢) «الفوائد» (١٣٣، ١٣٤).

(٣) قال ﷺ: «قال اللهُ ﷻ: أنا أغنى الشُّركَاءِ عن الشِّرْك، فَمَنْ عَمِل لِي عَمَلاً أَشْرَكَ فيه غيري فأنا مِنْه بَريءٌ وهو للّذِي أشْرَكَ» رواه مسلم (٢٩٨٥).

وإن كان الباعث الدِّيني أقوى من الآخر، فله ثواب بقَدْر ما فَضل من قوّته، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا ﴾ [النساء: ٤٠].

ويشهد لما ذكرنا إجماع الأمّة على أن من خرج حاجًّا ومعه تجارة، صحّ حجّه وأثيب عليه، وقد امتزج به حظٌّ من حظوظ النفس، إلاّ أنه متى كان الحجّ هو المحرّك الأصلي، لم ينفك السّفر عن ثواب، وكذلك الغازي إذا قصد الغزو والغنيمة ويكون قصد الغنيمة على سبيل التّبع، حصل له الثواب، ولكنه لا يساوي ثواب من لا يلتفت إلى الغنيمة أصلاً، والله تعالى أعلم» ا.هـ[١].

رابعًا، ثمرات الإخلاص

للإخلاص ثَمَرات يَجْتَنيها المخلصُ في الدنيا والآخرة:

أمّا ثمرات الإخلاص في الدنيا:

فمنها : النّصر على الأعداء:

قال رسولُ الله ﷺ: «**إنّما يَنْصُر اللهُ هذه الأمة بضعيفها، بدعوتهم، وصَلاَتِهم، وإخلاصِهم**»[٢].

وعلى أرض الواقع كان للإخلاص دوره في إذلال الشّرك وأهله.

■ **قال الأصمعي** - رحمه الله - :

« لمّا صافَّ «قُتيبة بن مسلم» - رحمه الله - للتُّرْك، وهَاله أمْرُهم، سأل عن «محمد ابن واسع»[٣]، فقيل له:

هو ذاك في الميمنة جامح على قَوْسه، يُبَصْبِصُ بأصبعه[٤] نحوَ السَّماء.

(١) «مختصر منهاج القاصدين» (٤٥١).
(٢) **صحيح**: رواه النسائي، وغيره، وانظر: «صحيح الترغيب» (١/٥).
(٣) من خيار التابعين.
(٤) يشير بها إلى السماء.

قال: «تلك الأصبعُ أحبُّ إليَّ من مائة ألف سَيف شهيرٍ وشاب طَرير!!»[١].

- وروى صاحبُ كتاب «أقباس روحانية»[٢] أن «مَسْلَمة بن عبد الملك» - أحد قادة الفتح الإسلامي - كان في يوم من أيام جهاده قد حاصر حصنًا من حصون الروم، فندب الناس إلى «نقب» منه، فما دخله أحدٌ!!

وجاء رجلٌ من عُرض الجيش فدخله ففتحه اللهُ على المسلمين.

ونادى مسلمة: أين صاحب النّقب؟

فما جاءه أحد.

فنادى، إني أَمَرْتُ الآذن بإدخاله سَاعَةَ يأتي، فعزمْت عليه إلاّ جاء، وجاء رجلٌ فقال للآذن: استأذن لي على الأمير!

فقال له: أنت صاحب النَّقب؟

قال الرجل: أنا أخبركم عنه.

وأتى الآذنُ مَسْلمة، فأخبره عن الرّجل، فَأَذِن له ، فقال:

إن صاحب النّقب يأخذ عليكم ثلاثًا:

ألا تُسَوِّدوا اسمه في صحيفة إلى الخليفة.

ولا تأمروا له بشيء[٣].

ولا تسألوه مِمَّن هو؟

قال: مَسْلَمة: فذاك له.

قال الرجل: أنا هو!!

فكان مسلمة لا يُصَلّي بعدها صلاة إلاّ قال:

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٦/١٢١).

(٢) للواء الركن/ محمود شيت خطاب.

(٣) يعني: من الغنائم.

« اللّهم اجْعَلْني مع صَاحِب النّقب ».

ومنها قبول العمل:

فعن أبي أمامة ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ: « **إن الله ﷻ لا يَقْبَلُ من الْعَمَلِ إلاّ ما كان له خَالِصًا، وابْتغى به وَجْهُهُ** »(١).

ومنها: مَحَبَّة الناس:

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴾ [مريم: ٩٦].

قال الإمامُ ابن كثير - رحمه الله - في تفسيره لهذه الآية:

« يخبر تعالى أنه يغرس لعباده المؤمنين الذين يعملون الصالحات، وهي الأعمال التي تُرضي الله ﷻ لمتابعتها الشريعة المحمدية، يغرس لهم في قلوب عباده الصالحين محبّة ومودّة، وهذا أمر لابدّ منه ولا محيد عنه، وقد وردت بذلك الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ من غير وجه ، منها:

عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال:

« **إنّ الله إذا أَحَبّ عَبْدًا دعا جبريلَ، فقال: يا جبريلُ، إني أُحب فُلانًا فأحبه، قال: فيحبّه جبريلُ، قال: ثم ينادي في أهل السماء: إنّ الله يُحب فُلانًا فأحبوه، قال: فَيُحبّه أَهْلُ السّماء، ثم يوضع له القبول في الأرض، وإنّ الله إذا أَبْغَض عَبْدًا دعا جبريل، فقال: يا جبريلُ إني أُبْغض فلانًا فأبغضه، قال: فيبغضه جبريلُ، ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يبغض فلانًا فأبغضوه، قال: فيبغضه أهلُ السَّماء، ثم يوضع له البغضاء في الأرض** »(٢).

وقال عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴾

---

(١) صحيح: رواه النسائي (٦/٢٥)، وجوّد ابْنُ حَجَر إسناده، وصحّحه الألباني.

(٢) رواه أحمد والبخاري ومسلم.

قال: حبًّا؛ وقال مجاهد عنه: ﴿ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وُدًّا ﴾ قال: محبّة في الناس في الدنيا.

وقال قتادة: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وُدًّا ﴾ أي: والله في قلوب أهل الإيمان؛ وذكر لنا: أن «هرم بن حيان»[1] كان يقول:

«ما أقبل عبدٌ بقلبه إلى الله إلاّ أَقْبَلَ اللهُ بقلوب المؤمنين إليه حتى يَرْزُقَه مَودَّتَهم وَرَحْمَتَهم».

وروى ابْنُ أبي حاتم عن الحسن البصري - رحمه الله - قال:

«قال رجل: والله لأعبدنّ الله عبادة أُذْكَر بها، فكان لا يُرى في حين صلاة إلاّ قائمًا يُصلّي، وكان أوّل داخل إلى المسجد وآخر خارج، فكان لا يُعَظَّم، فمكث بذلك سبعة أشهر، وكان لا يَمُرّ على قوم إلاّ قالوا: انظروا إلى هذا المرائي، فأقبل على نفسه فقال: لا أراني أُذْكر إلاّ بِشَرٍّ، لأجعلن عملي كلّه لله ﷻ، فلم يزد على أن قَلَب نيتّه، ولم يزد على العمل الذي كان يعمله، فكان يمرّ بعدُ بالقوم فيقولون: رحم اللهُ فلانًا الآن، وتلا الحسن: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وُدًّا ﴾»ا.هـ[2].

وهذا الحبّ الناشئ عن الإخلاص، من أهم وسائل الداعية إلى الله تعالى، فبه تتحرّك قلوب المدعوين نحو ربهم وإسلامهم.

روى ضَمْرة، عن إبراهيم بن أبي عبلة، قال:

كُنّا نجلس إلى «عطاء الخراساني»، فكان يدعو بعد الصُّبح بِدعَوات، فَغَابَ، فتكلّم رجلٌ من المؤذّنين، فأنكر «رجاءُ بن حَيْوة»[3] صَوْتَه فقال؛ مَنْ هذا؟

قال: أنا يا أبا المِقْدام.

---

(١) من التابعين.

(٢) «تفسير ابن كثير» (٣/٢٢٥) باختصار.

(٣) الإمام، العالم، القدوة، الوزير العادل، كان أحد المقرّبين من عمر بن عبد العزيز.

قال: اسْكُتْ فإنّا نَكْره أن نَسْمَع الخَيْرَ إلاَّ مِنْ أَهْله! [١].

ومنها: نيل الثّواب - أحيانًا - بغير عَمَل !:

فعن أنس ﷺ قال:

رجعنا من غزوة «تبوك» مع النبي ﷺ فقال:

«**إنّ أَقْوَامًا خَلْفنا بالمدينة ما سَلكنا شِعْبًا ولا واديًا إلاّ وهُم معنا، حَبَسَهم العُذْرُ**» [٢].

يقصد ﷺ الذين قال الله تعالى فيهم:

﴿ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴾ [التوبة: ٩٢].

وقال ﷺ: «**لقد تركتُم بالمدينة أقوامًا ما سِرتُم مَسيرًا، ولا أنفقتم من نفقة، ولا قطعتم من وادٍ، إلاّ وهم معكم**».

قالوا: يا رسول الله، وكيف يكون معنا وهم بالمدينة؟

قال: «**حَبَسهم الْمَرَضُ**» [٣].

ما استطاعوا الخروج معه للجهاد بسبب مرضهم، وعلم اللهُ صِدْق نياهم في إرادة الغزو والجهاد، فأعطاهم ثواب المجاهدين!.

وقال ﷺ: «**مَنْ سَألَ الله الشهادة بِصِدقٍ بَلَّغه اللهُ منازلَ الشّهداء، ولو مات على فِراشه**» [٤].

فانظر - أخي الكريم - كيف يبلغ الإخلاص بصاحبه، أجر عظيم بدون عمل!!.

وعن أبي الدرداء ﷺ قال:

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٥٦٠/٤).

(٢) رواه البخاري.

(٣) رواه مسلم.

(٤) رواه مسلم.

قالَ رسولُ الله ﷺ:

«**مَنْ أتى فِراشه وهو يَنْوي أن يقوم يُصَلِّي من اللَّيل؛ فَغَلَبَتْهُ عَيْنُهُ حَتَّى أصبح، كُتِبَ له ما نَوى، وكان نَوْمُهُ صَدَقَةً عليه مِنْ رَبّه**» [1].

وهكذا في كل الأعمال الصالحة.

ولله دَرُّ القائل:

يا راحلين إلى البيت العَتيق لقد ... سِرْتُم جُسومًا وسِرْنا نحن أَرْوَاحًا

إنا أَقَمْنَا على عُذْرٍ وعن قَدَرٍ ... وَمَنْ أقام على عُذْرٍ فقد رَاح!

ومنها تفريج الكربَات:

وهذا ظاهر في قصّة الثلاثة أصحاب الغار، حين آوَوْا إليه، فانْحَدرت عليهم صَخْرَةٌ فَسدَّت فَمَ الغار، فلجأ كُلّ واحد منهم إلى الله تعالى يتوسّل إليه بأحد أعماله الصالحة، فكانت النتيجة: أن إخلاصهم - كان سببًا - في تحريك الصّخرة ورفعها عن فم الغار، فخرجوا منه يمشون!.

والقصّة بتمامها ذكرناها في صفة «التوسّل» فانظرها هناك.

أخي المسلم:

وتحصيل الإخلاص يكون بعدّة أمور:

الأول: الحياء من الله تعالى، وتعظيم نظره إليك.

والثاني: اليأس من المخلوقين، وإسقاط نظرهم إليك.

والثالث: الخوف من عدم قبول العمل.

والرابع: مراقبة الله تعالى في الخلوة والجلوة.

---

١) **حسن**: رواه النسائي، وغيره، وانظر: «صحيح الجامع» (٥٩٤١).

والخامس: الخوف من الفضيحة يوم القيامة.

والسادس: الاستعاذة بالله من الرِّياء: ومن الأدعية الثابتة في هذا الشأن:

«**اللّهمّ إنا نعوذ بك من أن نُشْرِك بكَ شيئًا نعلمه، ونستْغفِرُك لِمَا لا نَعْلمه**» [1].

والسابع: كراهية الرّياء وأهله: قال بشْر بن الحارث - رحمه الله - :

«ما اتَّقَى الله مَنْ أَحبّ الشُّهرة» [2].

والثامن: مجاهدة النفس في مواراة العمل الصّالح قدر الإمكان.

عن الخُريبي - رحمه الله - قال:

«كانوا - يعني السّلف - يستحبون أن يكون لِلّرجل خَبيئةٌ من عمل صالح لا تعلم به زوجتهُ ولا غيرُها!» [3].

والتاسع: مصاحبة المخلصين، والتشبّه بأخلاقهم.

والعاشر: مطالعة سِيَر الأنبياء والصحابة والأولياء.

هذه بعضُ الأمور الْمُعينة على إخلاص العمل لله، فاحرص عليها وتمسّك بها.

أمّا ثمرات الإخلاص في الآخرة:

فكثيرة ، منها:

نعيم القبر، والأمن يوم الحشر، وتيسير الحساب، والاستظلال في ظلّ الله، وورود الحوض، وتثبيت القدم على الصّراط، ودخول الجنة، ورؤية الرحمن.

فما أجملها من ثمرات.

---

(١) صحيح: رواه أحمد، وانظر: «صحيح الترغيب» (٣٣).

(٢) «السّير» (٧٤٦/١٠).

(٣) «السير» (٣٤٩/٩).

خامسًا: صور ومواقف من حياة أهل الإخلاص:

وأختم حديثي إليك - أخي الكريم - بنقل مواقف مضيئة من حياة المخلصين، عسى أن تعينك على مقاومة نفسك، وتزكيتها، وتخليص نيتك مِمّا يُعكّر صفوها.

الموقف الأوّل:

خرج عُمر بن الخطاب ﷺ يومًا في سواد الليل وحيدًا، ودخل بيتًا، ثم دخل بيتًا آخر، ورآه طلحةُ بن عبيد الله - ولم يشعر عمر برؤيته - فظن «طلحة» أن في الأمر شيئًا، وأوجس في نفسه، لماذا دخل عمر هذا البيت؟ ولماذا وحده؟ ولماذا في الليل؟ ولماذا لا يريد أن يراه أحدٌ؟ ولمّا كان الصّباح ذهب طلحةُ، فدخل ذلك البيت، فلم يجد إلاّ عَجُوزًا، عَمْياء، مُقْعَدة!! فسألها:

ما بال هذا الرّجل يأتيك؟ - وكانت لا تعرف أن الرجل الذي يأتيها هو عمر - فقالت: إنّه يتعاهدني مُنْذ كذا وكذا بما يُصْلحني، ويخرج الأذى عن بيتي، «أي: يكنس بيتها، ويقوم بحالها، ويرعاها» ﷺ[1].

الموقف الثاني:

قالت امرأةُ «حَسّانْ بن سِنان»: كان - أي: حسّان - يجيء فيدخل معي في فراشي ثم يخادعني كما تخادع المرأةُ صبيها، فإذا عَلِم أني نِمْتُ، سَلّ نفسه فخرج، ثم يقوم فيصلّي! قالت:

فقلتُ له: يا أبا عبد الله، كم تُعَذّب نَفْسك، ارْفُق بنفسك، فقال:

«اسْكُتي، وَيْحَك، فيُوشك أن أَرْقُد رَقْدَة لا أقوم مِنْهَا زمانًا»[2].

---

(١) «حياة الصحابة» للكاندهلوي (٢/٨٥).

(٢) «صفة الصفوة» (٣/٢٢٨).

الموقف الثالث:

روى الأعمش عن منذر الثوريّ، أن «الربيع بن خثيم» [1] - رحمه الله - أخذ يطعم مصابًا [2] خبيصًا[3] ، فقيل له:

ما يُدْريه ما أكَل!! فقال:

«لكنّ الله يَدْرِي» [4].

وكان - رحمه الله - يَدخل عليه الداخل وفي حِجْره الْمَصْحف فيُغَطِّيه!![5].

قلت: أين اليوم مِثْله، إن منّا مَنْ يَودّ لو نَقَلَتْ وسائلُ الإعلام المرئيّة والمسموعة والمكتوبة صلواته، وزكواته، وأعماله الصّالحة حتى يعلم العَالَم بها، ثم هو بعد ذلك يظن أنه من العابدين المخلصين!!.

بل ومنّا من يمتدّ رياؤه بَعْدَ مَوْته !!

قال بِشْرُ بن الحارث - رحمه الله - :

«قد يكون الرجلُ مُرَائيًا بعد مَوْته، يُحبُّ أن يَكْثُر الْخَلْقُ في جَنَازَته!» [6].

لقد تميّز أهلُ الرِّياء عن غيرهم حتى في المقابر!!

ولله دَرُّ القائل:

أَرَى أَهْلَ القُصور إذا أُميتُوا ... بَنَوْا فَوْقَ المقابر بالصُّخور

أَبَوْا إلاّ مُبَاهَاةً وفَخْرًا ... على الفقراءِ حَتّى في القُبور!!

فعليك - أخي الكريم - بالإخلاص، وكن من أهله، فالله - تعالى - يغار على أهله.

---

(١) من التابعين، ومن أقواله: «كُلُّ ما لا يُرادُ به وَجْهُ الله يَضْمَحِلُّ».

(٢) وفي رواية: مجنونًا.

(٣) الْخَبِيص: الحَلْواء المخبوصة من التّمْر والسّمْن. «المعجم الوجيز» (١٨٤).

(٤) «سير أعلام النبلاء» (٤/٢٥٩).

(٥) «نفس المرجع» (٤/٢٦٠).

(٦) «نفس المرجع» (١٠/٤٧٣).

عن الأعمش، قال:

خرج مَلِكٌ إلى مُتَنزهٍ له، فَمطرت السَّماءُ، فَرَفع رَأْسَه، فقال: لئن لم تكفَّ لأُوذِيَنَّك[١].

قال: فأمْسك المطر! فقيل له:

أيَّ شيء أردت أن تَصْنع؟

قال: أن لا أدع مَنْ يُوحِّدُه إلاّ قَتَلْتُهُ. فعلمتُ أنّ الله يَحْفَظ عَبْدَه المؤمن[٢].

وهو: وصية الصّالحين حتى آخر نفس:

قال بعضُ أصحاب أبي حامد الغزالي - رحمه الله - له عند موته:

أوْصني؟

فقال: «عليك بالإخلاص»، فلم يزلْ يكرِّرها حتى مات[٣].

فَجَرِّد نيتك - أخي الكريم - وعملك من شوائب الرّياء والشِّرك، واطلب من ربِّك الإعانة، وفّقني اللهُ تعالى وإيّاك.



(١) الخطاب لله - تعالى - وإيذاء الله - تعالى - يكون بمعصيته، وفي الحديث القدسي «الصحيح»: «**يؤذيني ابنُ آدم، يَسُبّ الدَّهرَ وأنا الدّهر ..**»

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٢٣١/٦).

(٣) «المنتظم» لابن الجوزي (١٢٧/١٧).

٣- الاسْتِقَامَة

اعلم - يا أخي - أنَّ الاستقامة روح تحيا به الأحوال، وزكاة تربو عليها الأعمال، فلا زكاء للعمل، ولا صحّة للحال بدونها.

وصاحب الاستقامة هو الشّجاع البطل، الفائز في الدّارين:

قال السَّرِّي السَّقَطي - رحمه الله تعالى - :

« خَمْسٌ من كُنَّ فيه فهو شجاعٌ بَطَل:

استقامة على أَمْر الله ليس فيها رَوَغان.

واجتهاد ليس معه سَهْو.

وتيقظ ليس معه غَفْلة.

ومراقبة الله في السِّرّ والْجَهْر ليس معه رِياء.

ومراقبة الْمَوْت بالتّأَهُّب » (١)

ولأهمية « الاستقامة » فالحديث عنها يدور حول **أربعة أمور**:

الأول: معنى الاستقامة.

والثاني: الحثّ عليها من الكتاب والسنة.

والثالث: الطريق إليها.

والرابع: مواقف من حياة أهل الاستقامة.

واللهُ الموفق، لا إله غيره، ولا ربّ سواه.

---

(١) « الحلية » (١٠/١١٧).

أولاً: تعريف الاستقامة:

الاستقامة «لغة» مَصْدَرُ اسْتَقَام على وَزْن اسْتَفْعَل، وهو مأخوذٌ من مَادَّة (قَ وَ مَ) التي تدلّ على معنيين:

أحدُهما: جماعةٌ من الناس.

والآخر: انتصابٌ أو عَزْمٌ، وإلى هذا المعنى تَرْجعُ الاسْتقامة في معنى: الاعتدال، يُقال: قامَ الشّيءُ واسْتَقَامَ: اْعتَدَل واسْتَوى. يُقَال: اسْتَقَام له الأمْرُ: أي: اْعتَدَلَ[1].

و«**اصطلاحًا**» : قال الحافظ **ابْنُ رَجب** - رحمه الله - :

«الاستقامة: هي سلوك الصّراط المستقيم، وهو الدِّين القويم من غير تَعْويج عنه يَمْنَةً ولا يَسْرَةً، ويشمل ذلك: فِعْلَ الطّاعات كلّها الظاهرةِ والباطنة، وتركَ الْمَنْهِيَّات كُلّها كذلك» ا.هـ[2].

وسيأتي بعد قليل - إن شاء الله تعالى - المزيد من أقوال العلماء في تعريفها.

ثانيًا: الحث على الاستقامة من الكتاب والسّنة:

اعلم: أن الآيات والأحاديث الحاضّة على «الاستقامة» كثيرة:

فمن الآيات:

(١) قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝٣٠ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ۝٣١ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٠- ٣٢].

أورد الماورديُّ - رحمه الله - خمسة أوجه في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ﴾:

---

(١) «نضرة النعيم» (٢/٣٠٣).

(٢) «جامع العلوم والحكم» (١٩٣).

أحدُها: ثم استقاموا على أنّ الله ربَّهم وَحْده، وهو قولُ أبي بكر ﷺ ومجاهد.

الثاني: استقاموا على طاعته وأداء فرائضه، قاله ابْنُ عباس والحسن وقتادة.

الثالث: على إخلاص الدين والعمل إلى الموت، قاله أبو العالية والسُّدِّي.

الرابع: ثم استقاموا في أفعالهم كما استقاموا في أقوالهم.

الخامس: ثم استقاموا سرًّا كما استقاموا جهرًا.

قال: «ويحتمل **سادسًا**: أن الاستقامة أن يجمع بين فعل الطاعات واجتناب المعاصي؛ لأن التكليف يشتمل على أمر بطاعةٍ يبعث على الرّغبة، ونهي عن معصية يدعو إلى الرّهبة» ا.هـ[(١)].

(٢) وقال تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [هود: ١١٢].

قال الإمام القرطبي - رحمه الله - في تفسيره لهذه الآية:

«قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ ولغيره. وقيل: له والمراد أُمتَّه. وقيل: «استقم» اطلب الإقامة على الدّين من الله واسأله ذلك. فتكون السّين سين سؤال، كما تقول: أستغفر الله، أطلب الغُفران منه.

والاستقامة: الاستمرار في جهة واحدة مِنْ غَير أَخْذٍ في جهة اليمين والشمال؛ فاستقم على امتثال أمر الله. ﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ أي: استقم أنت وهم؛ يريد أصحابه الذين تابوا من الشّرك، وَمَنْ بَعْده مِمّن اتَّبعَه من أُمَّته.

قال ابْنُ عباس: «ما نزل على رسول الله ﷺ آية هي أشدّ ولا أشقّ من هذه الآية عليه، ولذلك قال لأصحابه حين قالوا له: لقد أَسْرَع إليك الشَّيْب! قال:

«**شيّبتني هودٌ وأخَواها**» [(٢)].

---

(١) «النكت والعيون»: تفسير الماوردي (١٧٩/٥ ، ١٨٠).

(٢) **صحيح**: رواه الترمذي (٣٢٩٧)، وأخواتها: الواقعة والمرسلات وعَمّ يَتَساءلون، وإذا الشمس كورت.

﴿وَلَا تَطْغَوْاْ﴾ نهيٌ عن الطغيان، والطغيان: مجاوزة الحدّ. وقيل: أي: لا تتجبّروا على أحد» ا.هـ[١].

(٣) وقال تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ۝ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ .....﴾ [الجن: ١٦، ١٧].

قال الإمام القرطبي - رحمه الله - في تفسيره لهذه الآية:

«قيل: المراد الْخَلْقُ كلُّهم ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ﴾ أي: طريقة الحقّ والإيمان والهدى وكانوا مؤمنين مطيعين. ﴿لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ أي: كثيرًا. ﴿لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ أي: لنختبرهم كيف شكرهم فيه على تلك النعم» ا.هـ[٢].

ومن الأحاديث:

(١) عن ثوبان ﷺ قال:

قال رسول الله ﷺ:

«**استَقيموا ولن تُحصُوا، واعْلَموا أنّ خَيْرَ أَعْمَالِكم الصَّلاةُ، ولا يحافظُ على الْوضوءِ إلاّ مُؤْمِنٌ**»[٣].

(٢) وعن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما - قال:

إن معاذ بن جبلٍ أراد سفرًا فقال: يا رسول الله، أوصني؟

قال: «**اعْبُدِ الله لا تُشْرِكْ به شيئًا**».

قال: يا رسول الله، زدني.

قال: «**إذا أسأتَ فَأَحْسِنْ**».

قال: يا رسول الله، زد.

---

(١) «تفسير القرطبي» (٩/٩٤) باختصار.

(٢) «تفسير القرطبي» (١٩/١٧).

(٣) **صحيح**: رواه ابن ماجة (٢٧٧)، وغيره، وانظر: «صحيح الجامع» (٩٥٢).

قال: «**اسْتَقِمْ وَلْتُحْسِنْ خُلُقَك**»[(١)].

(٣) وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال:

خَطّ لنا رسولُ الله ﷺ خطًا ثم قال:

«**هذا سَبيلُ الله**».

ثم خطّ خطوطًا عن يَمِينه وَعَنْ شِماله، ثم قال:

«**هذه سُبُلٌ** «**مُتَفَرِّقة**» **على كُلِّ سَبيلٍ منها شيطانٌ يَدْعو إليه**» ثم قرأ:

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

واللفظ الآخر: «**هذه سبيلُ الله مُسْتقيمًا**»[(٢)]

(٤) وعن سفيان بن عبد الله الثقفي رضي الله عنه قال:

قلتُ: يا رسول الله: قل لي في الإسْلاَمِ قَوْلاً لا أسألُ عَنْه أَحَدًا بَعْدَك.

قال: «**قل آمنت بالله ثم استقم**»[(٣)].

ثالثًا: الطريق إلى الاستقامة:

اعلم: أن الاستقامة – كما تقدّم – طريق النجاة. قال الإمام ابْنُ القيم – رحمه الله – :

«من هدى في هذه الدار إلى صراط الله المستقيم الذي أرسل به رسله وأنزل به كتبه، هدى هناك إلى الصّراط المستقيم الموصّل إلى جنته دار ثوابه، وعلى قدر ثبوت قدم العبد على هذا الصّراط الذي نصبه الله لعباده في هذه الدار، يكون ثبوت قدمه على الصّراط المنصوب على متن جهنم، وعلى قدر سيره على هذا الصراط يكون سيره على ذاك الصراط، ولينظر العبدُ الشُّبهات والشّهوات التي تعوقه عن سَيْره على هذا الصّراط

---

(١) صحيح: رواه الحاكم (٤/٢٤٤)، وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي، وانظر: «الصحيحة» (١٢٢٨).

(٢) صحيح: رواه أحمد (٤١٤٢)، وغيره، وقال الشيخ/ أحمد شاكر: إسناده صحيح.

(٣) رواه مسلم (٣٨).

مستقيم؛ فإنها الكلاليبُ التي بِجَنَبَتِي ذاكَ الصِّراط تَخْطَفُه وتَعُوقه عن المرور عليه فإن كَثُرَتْ هنا، وَقَوِيَتْ فكَذلك هي هناك ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت: ٤٦] ا.هـ[١].

والطريق إليها: بإصلاح القلب، **قال الحافظ ابن رجب** - رحمه الله - :

« أصل الاستقامة: استقامة القلب على التوحيد، وقد فسّر أبو بكر ﷺ الاستقامة في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ ﴾ : بأنهم لم يلتفتوا إلى غيره، فمتى استقام القلبُ على معرفة الله، وعلى خشيته وإجلاله ومهابته ومحبّته وإرادته ورجائه ودعائه والتوكّل عليه والإعراض عمّا سواه، استقامت الجوارح كلّها على طاعته، فإن القلب هو ملك الأعضاء، وهي جنوده، فإذا استقام الملك استقامت جنوده ورعاياه.

وأعظم ما يُراعى استقامتُهُ بعد القلب من الجوارح: اللّسان، فإنه تُرْجمان[٢] القلبِ والْمُعَبِّر عَنْه » ا.هـ[٣]

وعن أبي سعيد الْخُدْريّ ﷺ قال:

« إذا أصبح ابْنُ آدم فإن أعْضَاءَهُ تُكَفِّر[٤] اللِّسانَ تقول: اتَّق الله فِينا فإنّك إن اسْتَقَمْتَ اسْتَقَمْنا وإن اعْوَجَجْتَ اْعَوَجَجْنا » [٥]

وقال الإمام ابْنُ القَيِّم - رحمه الله - :

« قاعدة في ذكْرِ طريقٍ قريبٍ يُوَصِّل إلى الاستقامة في الأحوال والأقوال والأعمال، وهي شيئان:

أحَدُهما: حِراسة الخواطر وَحِفْظها، والْحَذَر مِنْ إهْمَالها والاسْتِرْسَال معها:

فإن أصل الفساد كلّه من قبلها يجيء، لأنها هي بذر الشيطان، والنفس في أرض

---

(١) « التفسير القيم » لابن القيم (١٠٩) بتصرّف.

(٢) تُرْجمان: - بفتح التاء وضمّها- وهو المعبّر عن لسان بلسان آخر.

(٣) « جامع العلوم والحكم » (١٩٣، ١٩٤) بتصرّف يسير.

(٤) تكفّر: تذل له، وتخضع لأمره.

(٥) حسن: رواه الترمذي، وغيره.

القلب، فإذا تمكّن بذرها تعاهدها الشيطان بسقيه مرّة بعد أُخرى حتى تصير إرادات، ثم يسقيها حتى تكون عزائم، ثم لا يزال بها حتى تثمر الأعمال ولا ريب أن دفع الخواطر أيسر من دفع **الإرادات والعزائم،** فيجد العبدُ نفسه عاجزًا أو كالعاجز عن دفعها بعد أن صارت إرادة **جازمة، وهو المفرّط** إذا لم يدفعها وهي خاطر ضعيف، كمن تهاون بشرارة من نار وقعت **في حطب يابس، فلمّا** تمكّنت منه عجز عن إطفائها، فإن قلتَ: **فما الطريق إلى حفظ الخواطر؟**

قلت: أسباب عدّة:

أحدها: العلم الجازم **باطلاع الرّب تعالى** ونظره إلى قلبك وعلمه بتفصيل خواطرك.

الثاني: حياؤك منه.

الثالث: إجلالك له أن يرى مثل تلك الخواطر في بيته الذي خلقه لمعرفته ومَحبّته.

الرابع: خوفك منه أن تسقط من عينه بتلك الخواطر.

الخامس: إيثارك له أن تساكن قلبك غير محبته.

السادس: خشيتك أن تَزْدَادَ تِلْك الخواطر، فتأكل ما في القلب من الإيمان ومحبّة الله فتذهب به جملة **وأنت لا تشعر.**

السابع: أن تعلم أن **تلك الخواطر** بمنزلة الْحَبّ الذي يُلْقى للطائر لِيُصاد به، فاعلم أن كلّ خاطر منها فهو حبّة **في فخّ** منصوب لصيدك وأنت لا تشعر.

الثامن: أن تعلم أن **تلك الخواطر** الرّديئة لا تجتمع هي وخواطر الإيمان ودواعي المحبّة والإنابة أصلاً، بل هي ضدها من كلّ وجه، وما اجتمعا في قلب إلاّ وغلب أحدُهما صاحبه وأخرجه واسْتَوْطن مكانه.

التاسع: أن يعلم أن تلك الخواطر بحر من بحور الخيال لا ساحل له، فإذا دخل القلب في غمراته غرق فيه وتاه في ظلماته فيطلب الخلاص منه فلا يجد إليه سبيلاً، فقلب تملكه الخواطر بعيد من الفلاح، مُعذّب مشغول بما لا يفيد.

العاشر: أن تلك الخواطر هي وادي الْحَمْقى وأماني الجاهلين، فلا تُثْمر لصاحبها إلاّ النّدامة والخزي، وإذا غلبت على القلب أورثته الوساوس، وأفسدت عليه رعيّته وألقته في الأسر الطويل، كما أن هذا معلوم في الخواطر النفسانية، فهكذا الخواطر الإيمانية الرَّحْمَانية هي أصل الخير كلّه، فإن أرض القلب إذا بُذر فيها خواطر الإيمان والخشية والمحبّة والإنابة والتَّصْديق بالوعد ورجاء الثواب، وسُقيت مرّة بعد مرّة، وتعاهدها صاحبُها بحفظها ومراعاتها والقيام عليها، أثمرت له كلّ فعل جميل، وملأت قَلْبَه من الخيرات، واستعملت جوارحه في الطاعات، واستقرّ بها الْمَلِك في سُلْطانه، واستقامت له رعيّته.

الشيء الثاني: صدق التأهُّب للقاء الله: فإنه من أنفع ما للعبد وأبلغه في حصول استقامته، فإن من استعدّ للقاء الله، انقطع قلبه عن الدنيا وما فيها ومطالبها، وخَمَدَتْ من نَفْسه نيرانُ الشّهوات وَأَخْبَتَ قَلْبُه[1] إلى ربّه - تعالى - وعكفت[2] همّته على الله وعلى مَحَبَّته وإيثار مرضاته، واستحدثت همّة أخرى وعلومًا أُخر وَوُلِد ولادة أخرى تكون نسبة قلبه فيها إلى الدار الآخرة كنسبة جسمه إلى هذه الدار بعد أن كان في بطن أُمّه، فيولد قلبهُ ولادة حقيقية كما ولد جسْمُه حقيقة، وكما كان في بطن أمه حجابًا لجسمه عن هذه الدار، فهكذا نفسه وهواه حجاب لقلبه عن الدّار الآخرة، فخروج قلبه عن نفسه بارزًا إلى الدّار الآخرة كخروج جسمه عنَ بطن أُمّه بارزًا إلى هذه الدّار.

والمقصود: أن صِدْق التأهّب للقاء الله هو مفتاح جميع الأعمال الصّالحة والأحوال الإيمانية ومقامات السّالكين إلى الله ومنازل السّائرين إليه، من اليقظة والتوبة والإنابة والمحبّة والرّجاء والخشية والتفويض والتسليم وسائر أعمال القلوب والجوارح، فَمِفْتَاح ذلك كلّه: صِدْق التأهب والاستعداد للقاء الله، والمفتاح بيد الفتاح العليم لا إله غيره، ولا ربّ سواه» ا.هـ[3].

---

(١) **أخبت قلبه**: خشع وتواضع. قال تعالى - في وصف المؤمنين - : ﴿ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾.

(٢) **عكف على الشيء**: أقبل عليه ولزمه.

(٣) «طريق الهجرتين» (١٨٨- ١٩٠) باختصار.

أخي:

هذا هو الطريق الموصّل إلى الاستقامة، فالْزَمْه، ولا تَحِدْ عنه، واستعن بالله ولا تعجز.

رابعًا: مواقف مِنْ حَيَاةِ أَهْلِ الاستقامة:

لمّا علم الصّالحون فَضْلَ الاستقامة، وعرفوا الطريق الموصّل إليها، نهضوا إليه، واستقاموا عليه.

ودَوَّن التاريخُ لنا من أعمالِهم وأحوالِهم وأقوالِهم ومجاهداتِهم لأنفسهم شيئًا عَجَبًا:

اقرأ:

- عن خارجة بن مصعب، قال:

«صحبتُ «عَبْدَ الله بن عَوْن» أربعًا وعشرين سَنَة، فما أعلم أن الملائكة كَتَبتْ عليه خطيئة!!» [1].

- وقال بندار: «اختلفتُ إلى «يَحْيى بن سعيد» أكثر مِنْ عِشْرين سَنَة، ما أَظُنّه عصى الله قطّ، لم يكن في الدُّنيا في شيء» [2].

- وها هو الإمام ابن دقيق العيد – رحمه الله – يقول عن نفسه:

«ما تكلّمتُ كلمةً، ولا فعلتُ فِعلاً، إلاّ وأعددتُ له جوابًا بين يدي الله ﷻ» [3].

إلى هذه الدّرجة كانت استقامتهم؟! نعم:

إنها العقيدة الصحيحة، والإيمان الحيّ، والضمير الصّاحي، والقلب اليقظ.

وإذا كانت النفوس كِبارًا تعبت في مُرَادِها الأجسام

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٣٦٦/٦).

(٢) «نفس المرجع» (١٧٨/٩).

(٣) «طبقات الشافعية» (٢١٢/٩).

أخي:

الاستقامة درجة بها كمال الأمور وتمامها، وبوجودها حصول الخيرات ونظامها، ومن لم يكن مستقيمًا في حالته: ضاع سَعْيُه، وخاب جهدُه. قال تعالى:

﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا ﴾ [النحل: ٩٢].

«اللّهم اجْعَلْنا مِنَ الذين أَشَارَتْ إليهم أَعْلاَمُ الهداية، وَوَضَحَتْ لهم طريقُ النَّجاة، وسَلكَوا سَبيلَ الإخْلاَصِ والْيَقين» آمين.



٤- مَحَبَّةُ اللهِ تعالى

قال فَرْقَدُ السَّبْخيُّ - رحمه اللهُ تعالى-: «قرأتُ في بَعْض الكُتُب: المحبّ لله - ﷻ - أمير مُؤَمّر على الأُمراء، زُمْرته أوّل الزُّمَر يوم القيامة، وَمَجْلسه أقْرب المجالس فيما هناك، والمحبّة فيما هناك، والمحبة مُنتهى القُرْبَة والاجتهاد، ولن يَسْأَمَ المحبّون من طول اجْتِهَادِهم لِلّه ﷻ، يُحبّونه، ويحبون ذِكْرَه، ويُحَبِّبونه إلى خَلْقه، يمشون بين خَلْقه بالنَّصَائح، ويخافون عليهم من أعمالهم يَوْمَ تَبْدو الفضائح، أولئك أولياء الله وأحباؤه وَصَفْوته، أولئك الذين لا رَاحة لهم دون لِقائه»[1].

أخي الكريم:

بهذه الكلمات «المباركات» نبدأ حديثنا عن هذا الموضوع «المهمّ» ألا وهو: «**مَحبَّة الله تعالى**».

فما معنى المَحبَّة؟

وما منزلتها؟ وما أنواعها؟

وما هي علاماتُ محبّة الله؟

وما هي الأسباب الجالبة لهذه المحبّة؟

هذا ما سوف نتناولهُ بالتوضيح فيما يلي، وعلى الله قصد السبيل.

أوّلاً: تعريفُ الْمَحَبَّة:

المحبّة «**لُغَةً**»: هي الاسم من الْحُبّ وكلاهما مأخوذٌ من مادة (ح ب ب) التي تدلّ على اللّزوم والثّبات. ولهذه المادّة معنيان أصليّان هما:

---

(١) «جامع العلوم والحكم» (٩٠).

الأول: الحبّة من الشيء ذي الحبّ. والثاني: القصر[١].

وقال الراغب: «المحبّة: إرادةُ ما تراه أو تظنّه خيرًا. ومحبّة الله تعالى للعبد: إنعامه عليه. ومحبّة العبد له: طلب الزّلفى إليه».

و «**اصطلاحًا**» : **قال الرّاغبُ:** «المحبّةُ ميل النّفْس إلى ما تراه، وتظنّه خيرًا، وذلك ضربان:

أحدهما: طبيعيٌّ: وذلك يكون في الإنسان والحيوان، وقد يكون في الجَمَادات[٢].

والآخر: اختياريٌّ: ويختصّ به الإنسان» ا.هـ[٣].

وقال الكفويُّ: «المحبّةُ إفراط الرِّضا، وهو قسمان:

قسمٌ يكون لِكلّ مكلَّف، وهو ما لابدّ منه في الإيمان، وحقيقته قبولُ ما يَردُ من قِبَل الله من غير اْعتِراضٍ على حُكْمِه وتَقْديره.

وقسمٌ لا يكون إلا لأرباب المقامات، وحقيقته ابتهاج القلب وسروره بالْمَقْضِيّ، والرّضا فوق التوكّل لأنه المحبّةُ في الجملة»[٤]

ثانيًا: منزلةُ المحبَّة:

قال الإمام ابْنُ القيّم - رحمه الله تعالى - :

«المحبة: هي المنزلة التي فيها تنافَسَ المتنافسون، وإليها شَخَصَ العاملون، وإلى عَلَمِها شَمَّر السابقون، وعليها تفانى المحبون، وبِرَوْح نَسِيمِها تروّح العابدون؛ فهي قوت القلوب وغذاء الأرواح وقرّة العيون.

وهي الحياة التي من حُرمها فهو من جُمْلة الأموات، والنّور الذي من فَقَده فهو في

---

(١) انظر معاني المادة وأمثلتها في «مقاييس اللّغة» لابن فارس (٢/٢٦).

(٢) وفي الحديث: «أُحُد جَبَل يُحبّنا ونُحبّه».

(٣) «الذريعة إلى مكارم الشريعة» (٣٦٣).

(٤) «الكليات» (٤٧٨).

بحَار الظُّلمات، والشّفاء الذي من عُدمه حَلّت بقلبه جميعُ الأسْقام، واللّذة التي من لم يَظْفَرْ بها فَعَيْشُه كُلّه هموم وآلام. وهي روح الإيمان والأعمال، والمقامات والأحوال، التي متى خَلَتْ منها فهي كالجسد الذي لا روح فيه.

تحمل أثقال السّائرين إلى بلاد لم يكونوا إلاّ بشق الأنفس بَالغيها، وتَوصّلهم إلى منازل لم يكونوا بدونها أبدًا واصِلِيها، وَتُبَوِّئهم من مقاعد الصِّدْق مقامات لم يكونوا لولاها داخليها.

وهي مطايا القوم التي مَسْراهم على ظهورها دائمًا إلى الحبيب، وطريقهم الأقْوم الذي يبلّغهم إلى منازلهم الأُولى مِنْ قَرِيب.

تالله لقد ذهب أهلُها بشرف الدنيا والآخرة؛ إذْ لَهم من معيّة محبوبهم أوفر نصيب.

وقد قضى اللهُ، يوم قَدَّر مقاديرَ الخلائق بمشيئته وحكمته البالغة؛ أن الْمَرْءَ مع من أحبّ، فيالها من نعمة على المحبين سابغة !!.

تالله لقد سبق القوم السّعاة، وهم على ظهور الفُرش نائمون، وقد تقدّموا الرّكْب بمراحل، وهم في سيرهم واقفون.

مَــنْ لِــي بِمِــثْلِ سَــيْرِك المدلّــلِ تَمْشِــي رُوَيْــدًا وَتَجِــيءُ في الأَوّل

أجابوا منادى الشّوق إذ نادى بهم: «حيّ على الفلاح». وبذَلوا نفوسهم في طلب الوصول إلى محبوبهم، وكان بذلهم بالرِّضا والسَّماح، وواصلوا إليه المسير بالإدْلاج والغُدوّ والرّواح.

تالله لقد حمدوا عند الوصول سُراهم، وشكروا مَوْلاهم على ما أعطاهم.

وإنّما يَحْمدُ القومُ السُّرَى عند الصَّباح.

أوّل نقدة من أثمان المحبّة بذلُ الرّوح، فَمَا للْمُفْلس الجَبَان الْبَخيل وسوْمَها؟!

بِــدَمِ الْمُحِــبِّ يُــبَاعُ وَصْــلُهُمُ فَمَــنِ الّــذي يَبْــتَاعُ بالــثّمَن

تالله ما هزلت فيستامها المفلسون، ولا كسدت فيبيعها بالنسيئَة المعسرون.

لقد أُقيمت للعرض في سوق من يزيد فلم يرض لها بثمن دون بذل النفوس، فتأخّر البطّالون وقام المحبّون ينظرون أيّهم يصلح أن يكون ثمنًا؟

فدارت السلعة بينهم ووقعت في يد: ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [المائدة: ٥٤]. لمّا كثر المدّعون للمحبة طولبوا بإقامة بينة على صحّة الدعوى، فلو يُعطى الناس بدعواهم؛ لادّعى الخَليُّ حُرْقَةَ الشَّجِيِّ[1].

فتنوّع المدّعون في الشهود، فقيل: لا تقبل هذه الدعوى إلاّ ببينة: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١].

فتأخّر الخلق كلّهم، وثبت أتباعُ الحبيب في أفعاله وأقواله وأخلاقه، فَطُولبوا بعدالة البينة بتزكية ﴿ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ﴾ [المائدة: ٥٤]. فتأخّر أكثرُ المحدّين، وقام المجاهدون، فقيل لهم: إن نفوس المحبين وأموالهم ليست لهم، فهلمّوا إلى بيعة ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾ [التوبة: ١١١].

فلمّا عرفوا عظمة المشترى وفضل الثمن، وجلالة من جرى على يديه عقد التبايع، عرفوا قدْر السّلعة وأن لها شأنًا، فرأوا من أعظم الغبْن أن يبيعوها لغيره بثمن بخس، فعقدوا معه بيعة الرّضوان بالتراضي من غير ثبوت خيار، وقالوا:

«والله لا نقيلك ولا نستقيلك».

فلمّا تمّ العقدُ وسلّموا المبيع، قيل لهم: مُذْ صارت نفوسكم وأموالكم لنا؛ رددناها عليكم أوْفَر ما كانت ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٩، ١٧٠].

وإذا غُرست شجرةُ المحبّة في القلب، وَسُقِيَتْ بماء الإخلاص ومتابعة الحبيب؛ أثْمرت

(١) الخَليُّ: الذي لا زوجة له. والشَّجِيّ: الحزين.

أنواعَ الثّمار، وآتت أُكُلَها كلّ حين بإذن ربِّها، أصْلُها ثابت في قرار القلْب، وفرْعُها مُتّصِلٌ بسدرة المُنْتهى.

لا يزال سعيُ المحبِّ صاعدًا إلى حَبيبه لا يحجُبُه دونه شيء ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾ [فاطر: ١٠] » ا.هـ[١].

ثالثًا: أنواع المحبّة « بحسب المحبوبين »:

للْمَحبَّة بحَسب من نُحبّهم أنواع ثلاثة:

الأول: محبّة الله تعالى:

وهي أن تَهَبَ كُلَّكَ لمَن أحببتَ، فلا يَبْقى لك منْك شيء. والمراد: أن تَهَب إرادَتكَ وَعَزْمَك وأفعالَك وَنَفْسَك وَمالَك وَوَقْتَك لمن تُحبّه، وتجعَلَها حَبْسًا في مَرْضَاته وَمَحَابِّه، فلا تَأْخُذْ لنَفْسك منها إلا ما أَعْطَاك، فتأخُذَه منْه لَه[٢].

قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

وهذه المحبّة: فرض عين، لأن العبودية معقودة بها.

قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٢٤].

قال الإمامُ ابن القيم – رحمه الله – :

« وَمَعْقدُ نسْبَة العبودية للّه تعالى هو المحبّة. فالعبودية مَعْقودةٌ بها، بحيث متى انْحلّت المحبّة انْحلّت العبودية ». والله أعلم » ا.هـ.

---

(١) « مدارج السالكين » (٣/ ٦ – ٩).

(٢) « تهذيب مدارج السالكين » (٥١٢).

النوع الثاني: مَحَبَّةُ النَّبي ﷺ :

وهي – أيضًا – فرض عين . وسيأتي الحديث عنها لاحقًا إن شاء الله تعالى.

النوع الثالث: محبّة المؤمنين.

وهي – أيضًا – فرض عين، لا يستكمل العبدُ إيمانه إلاّ بها، وسيأتي الحديث عنها قريبًا إن شاء الله تعالى.

رابعًا: علامات محبّة الله تعالى:

للمحبّ لله تعالى دلائل وعلامات يُعرف بها، يَصْعُب حَصْرُها، ويطول استقصاؤها، منها:

(١) قوله تعالى – في وصف المحبين – : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٍ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة: ٥٤].

(٢) وقال تعالى: ﴿ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [آل عمران: ٣١].

فوصف الله – تعالى – المحبين له بخمسة أوصاف:

أحدها: الذّلّة على المؤمنين، ولين الجانب، وخفض الجناح. فالمحبُّ يذلُّ لِمَحْبوبه، ومَحْبوب مَحْبوبه.

الثاني: العزّة على الكافرين، والشّدّة والغلظة عليهم.

سُئل الْمُرْتَعِش: بِمَ تُنالُ المحبّة؟

قال: بموالاة أولياء الله، ومُعَاداة أَعْدائه.

الثالث: الجهاد في سبيل الله ومجاهدة أعدائه باليد واللّسان؛ وذلك من تمام معاداة أعداء الله الذي تستلزمه المحبّة. ودعاء الخلق إليه وردّهم إليه.

الرابع: لا يخافون في الله لومة لائم؛ والمراد: أنهم يَجْتَهدون فيما يَرْضَى به اللهُ من الأعمال، ولا يُبالون بِلَوْم من لامَهَم في شيء منه، إذا كان فيه رضا رَبِّهم.

الخامس: متابعة الرسول ﷺ واتباعه في أمره ونهيه، وليس الشأن أن تُحبَّ إنما الشأن أن تُحَبَّ، ولن يُحبَّك اللهُ حتى تَتَّبِعَ رَسُولَه ﷺ.

(٣) **وقال الجنيد** - رحمه الله - :

يقال: علامة المحبّ على صدق المحبة ستُّ خِصال:

أحدها: دوام الذِّكر بقلبه بالسّرور بمولاه.

والثانية: إيثار مَحَبّة سَيّده على مَحَبّة نفسه.

والثالثة: الأنس به والاستثقال لِكُلّ قَاطِعٍ يَقْطَعه عنه، أو شاغل يشغله عنه.

والرابعة: الشوق إلى لقائه والنّظَر إلى وجهه.

والخامسة: الرّضا عنه في كلّ شدّة وضرّ ينزل به.

والسادسة: اتباع رسوله ﷺ.

(٤) **وقال أبو تُراب النّخْشَبي** - رحمه الله - :

لا تُخْدَعَنّ فَلِلْحبيب دَلائِلُ ... وَلَدَيْه من تُحَفِ الحبيب وَسَائِلُ
منْهَا تَنَعُّمُهُ بمُرِّ بَلائِه ... وَسُروره في كُلّ ما هو فَاعِلُ
فالمنع منه عَطِيّةٌ مقبولةٌ ... والفَقْرُ إكْرَامٌ وبِرٌّ عاجِلُ
ومِنْ الدَّلائل أنْ تَرَى مِنْ عزمِهِ ... طَوْعَ الحبيب وإن أَلَحَّ العاذِلُ
ومِن الدّلائل أن يُرَى مُتَبسِّمًا ... والقلبُ فيه مِنَ الحَبيبِ بَلابِلُ
ومِنَ الدَّلائل أن يُرَى مُتَفهِّمًا ... لكلام مَنْ يَحْظى لَدَيْه السّائِلُ
وَمِنَ الدّلائل أن يُرَى متقشِّفًا ... مُتَحفِّظًا من كلّ ما هو قَائِلُ

(٥) وقال يَحْيى بن مُعاذ الرّازي - رحمه الله - :

وَمِنَ الدّلائل أن تَراهُ مُشَمِّرًا ... في خِرْقَتَيْن على شُطوط السّاحل

وَمِـنَ الدّلائـل حُـزْنُهُ وَنَحِيـبُه جَـوْفَ الظّـلام فَمَـا لهُ مِـنَ عَـاذِل
ومـن الدّلائـل أن تَـراه مُسَـافِرًا نحـو الجهـاد وَكُـلّ فِعْـلٍ فَاضِـلَ
ومـن الدّلائـل زهـدُه فـيما يَـرَى مـنْ دَار ذُلّ والنَّعـيم الـزَّائلَ
ومـن الدّلائـل أن تـراه باكـيًا أن قـد رآه عـلى قـبيح فعـائل
ومـن الدّلائـل أن تـراه مُسَـلِّمًا كُـلَّ الأمـور إلى المليـك العـادلِ
ومـن الدّلائـل أنْ تَـرَاه رَاضِـيًا بمَلِـيكِه في كـلّ حُكْـمٍ نـازِلِ
وَمِـنَ الدَّلائـل ضَـحكُهُ بين الـوَرى والقلـبُ مَحْـزُونٌ كَقَلْـبِ الـثَّاكِلِ

● **مجاهدةُ المحبين:**

قال المغيرة بن حبيب: «كنتُ أَسْمعُ مُجَاهَدة المحبين وَمُنَاجَاة العارفين، وكنتُ أشتهي أن أطلع على شيء من ذلك فقصدت مالك بن دينار فرمقته على غفلة وراقبته من حيث لا يعلم ليالي عدّة فكان يتوضأ بعد العشاء الآخرة ثم يقوم إلى الصلاة فتارة يقضي ليله في تكرار آية أو آيتين، وتارة يدرج القرآن درجًا فإذا سجد وَحَانَ انْصرافه من صلاته قبض على لحيته، وخنقته العبرة، وجعل يقول بحنين الثّكلى وأنين الْوَلْهَى:

«يا إلهي، ويا مالك رقّي، ويا صاحب نَجْواي، ويا سامع شكواي، سَبَقْتَ بالقول تفضّلاً وامتنانًا، فقلت: ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ [المائدة: ٥٤] والمحبّ لا يُعَذِّب حبيبه، فحرّم شيبة «مالك» على النّار.

إلهي، قد عَلِمتَ ساكن الجنّة من ساكنِ النّار، فأيّ الرَّجُلَيْن «مالك»، وأيّ الدّارين دار «مالك».

ثم يناجي كذلك إلى أن يطلع الفَجْر فيصلّي الصّبح بوضوء العَتمة رحمه الله تعالى»[1].

---

(١) «بحر الدموع» لابن الجوزي (٨٥).

خامسًا: الأسبابُ الْجَالِبة لِمَحَبّة اللهِ والموجبة لها:

وهي عشرة:

أحدها: قراءة القرآن بالتدبّر، والتفهّم لمعانيه وما أُريد به.

عن ابن مسعود ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ : « **مَنْ سَرّه أن يُحبّ الله ورسوله، فَلْيَقْرأ في الْمُصْحَف** » (١).

الثاني: التقرب إلى الله – تعالى – بالنوافل بعد الفرائض.

فعن أبي هريرة ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ :

« **إنّ الله تعالى قال: مَنْ عَادَى لي وليًّا فقد آذنتُه بالحرب، وما تقرّب إليّ عبدي بشيء أحَبَّ إليّ مِمّا افْتَرضْتُه عليه، ولا يزال عَبْدي يتقرّب إليَّ بالنّوافل حتى أُحبَّه، فإذا أحببتُه كُنْتُ سَمْعَه الذي يَسْمَعُ به، وبَصَره الذي يُبْصرُ به، وَيَده التي يَبْطِش بها، وَرِجْله التي يَمْشِي بها، ولئن سألني لأُعْطِيَنَّه، ولئن اسْتَعاذَني لأُعِيذَنَّه** » (٢).

الثالث: دوام ذكره على كلّ حال: باللّسان والقلب، والعمل والحال. فنصِيبُهُ من المحَبَّة على قَدْر نَصيبه من هذا الذّكْر.

قال ذو النّون المصري – رحمه الله – : « مَنْ شَغَل قَلْبَه ولسانَه بالذّكر؛ قذف اللهُ في قَلْبه نُورَ الاشْتِياق إليه ».

الرابع: إيثارُ مَحَابِّه على مَحَابِّك عند غلبات الهَوَى.

قال بعضُ العارفين: « احذروه فإنّه غيور لا يحب أن يرى في قلب عبده غيره ».

وفي هذا المعنى يقول بعضهم:

---

(١) حسن: رواه البيهقي، وغيره، وانظر: « صحيح الجامع » (٦١٦٥).

(٢) رواه البخاري (٦٥٠٢).

لَيْسَ للنّاس مَوْضع في فؤادي زادَ فيه هَواك حتى مَلاَه[١]

الخامس: مطالعة القلب لأسمائه وصفاته، ومشاهدها ومعرفتها، وتقلّبه في رياض هذه المعرفة ومباديها، فمن عرف الله بأسمائه وصفاته وأفعاله: أحبّه لا محالة.

عن عائشة - رضي الله عنها - : أن رسول الله ﷺ بعث رجلاً على سرّية، فكان يَقْرأ لأصحابه في صلاته فيختم بـ ﴿**قل هو الله أحد**﴾ ، فلمّا رجعوا ذكروا ذلك لرسول الله ﷺ ، فقال:

«**سلوه: لأيّ شيءٍ يَصْنع ذلك؟**».

فسألوه فقال:

لأنها صفة الرحمن؛ فأنا أحبُّ أن أقرأ بها. فقال رسولُ الله ﷺ :

«**أَخْبِرُوه أنّ الله يُحبُّه**» [٢].

السادس: مشاهدةُ برِّه وإحْسَانه وآلائه، ونعمه الظّاهرةِ والباطنة. فإنها داعيةٌ إلى محبته.

قال بعضُ السّلف: «جُبِلَتِ الْقُلوب على حُبِّ مَنْ أَحْسَن إليها».

السّابع: وهو من أعجبها: انكسار القلب بين يدي الله تعالى، وليس في التعبير عن هذا المعنى غير الأسماء والعبارات.

قال محمد بن فهد المديني: كان عُتبة الغلام يُصلّي هذا الليل الطويل، فإذا فرغ رَفَع رأسَه فقال:

«سيّدي، إن تُعذّبْني فإني أُحبُّك، وإن تَعْفُ عَني فإني أُحبّك».

والحديث عن أحوالهم في هذا المقام يطول، وسيأتي شيءٌ منه بعد قليل.

الثامن: الخلوة به وقت النزول الإلهي [٣]، لمناجاته، وتلاوة كلامه، والوقوف بالقلب

(١) «جامع العلوم والحكم» (٤١١).

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) وقت النزول الإلهي: في ثلث الليل الأخير. كما صحّ في الحديث.

والتأدّب بأدب العبودية بين يديه. ثم ختم ذلك بالاستغفار والتوبة.

قال تعالى - في وصفهم - : ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٧، ١٨].

قال العلاّمة السَّعْديّ - رحمه الله تعالى - :

«مَدُّوا صلاتَهم إلى السَّحَر، ثم جلسوا في خاتمة قيامهم باللّيل يستغفرون الله تعالى، استغفار الْمُذْنب لِذَنْبه!» اهـ[١].

التاسع: مجالسة المحبين الصّادقين، والْتقاط أَطْيب ثَمَرات كلامهم كما تُنْتَقَى أَطَايبُ الثّمر.

ولا تتكلّم إلاّ إذا ترجَّحت مَصلَحةُ الكلام، وعلمتَ أن فيه مَزيدًا لحالك، وَمَنْفَعَة لغيرك.

العاشر: مُباعدة كلّ سبب يحول بين القلب وبين الله ﷻ.

قال بعض السّلف: «كُلّ نِعمةٍ لا تُقَرِّبك مِنْ رَبِّك فهي بليَّة».

أخي:

هذه هي الأسباب الجالبة لمحبة اللهِ تعالى والموجبة لها، فَعَضّ عليها بالنّواجذ، لأنها طريق نجاتك من خزي الدنيا وعذاب الآخرة.

أخي:

وقبل أن أختم حديثي إليك، تعال نعيش لحظات مع أحوال وأقوال المحبين، لنرى كيف قَرَّت أَعْيُنهم بحبيبهم، وكيف سَكَنت نُفُوسهم إليه:

- كان ابن عمر - رضي الله عنهما - يدعو على الصّفا والمروة وفي مناسكه:

«اللّهم اجْعَلني مِمّن يُحبُّك، ويحبُّ ملائكتَك، ويحبُّ رُسَلك، ويحبُّ عبادك الصّالحين.

---

(١) «تفسير السّعدي» (٨٠٩).

اللّهم حَبِّبني إليك وإلى ملائكتِك، وإلى رُسلِك، وإلى عبادِك الصّالحين».

□ وكان «**الشّبلي**» - رحمه الله تعالى - ينوح يومًا ويقول:

«مَكَر بكَ في إِحْسانه فَتناسَيْتَ، وأمْهَلك في غَيِّك فَتمادَيْتَ، وأسْقَطك من عَيْنه فما دَرَيْت ولا بَالَيْت. لَيْتَ شِعْري ما اسْمي عندك غدًا يا عَلاّم الغيوب؟ وما أنت صانعٌ في ذنوبي يا غَفّار الذّنوب؟ وَبِمَ تَختِم عَمَلي يا مُقَلِّب القلوب؟» [1].

□ وكان «**ضَيْغَم**» يقول وهو ساجد: «إلهي، كيف عَزَفَتْ قُلوبُ الخَليقة عَنْك؟!»، وربما أصابه الفتور، فإذا وجد ذلك اغتسل، ثم دخل بيتًا فأَغلق بابه، وقال:

«إلهي، إليك جئتُ»، فيعود إلى ما كان من الركوع والسجود!.

وقالت له أُمّه ذات يوم: ضَيْغم.

قال: لبيك أُمّاه.

قالت: كيف فرحُك بالقدوم على الله؟

فصاح صيحة لم يسمعوه صاح مثلها قطُّ، وسقط مغشيًا عليه، فجلست أُمّهُ تبكي عند رأسه وتقول:

بأبي أنت!! ما نستطيع أن نذكر بين يديك شيئًا من أَمْرِ ربِّك؟![2].

□ وَقَدِمَتْ «شعوانةُ» العابدة وزوجُها مَكّة، فجعلا يطوفان ويُصلّيان، فإذا كَلاً وأعييا، جلس وجلست خلفه، فيقول في جلوسه:

«أنا العَطْشَانُ مِنْ حُبِّك ولا أُرْوَى».

□ وانظر إلى هذا السَّيِّد الْمُحِبّ «**يحيى بن معاذ الرازي**»؛ كيف يستمطر الدّمع حين يقول:

«اللّهمّ لا تَجْعَلْنا مِمّن يدعو إلَيْك بالأبدان، وَيَهْرب منك بالقلوب، يا أكرم الأشياء

---

(١) «صفة الصفوة» (٢/٢٩٦).

(٢) «نفس المرجع» (٣/٣٦٠).

علينا، لا تجعْلنا أَهْوَن الأشياء عَلَيْك».

وحين يقول:

«عَفْوه يَسْتَغْرق الذّنوب فكيف رضوانه؟! وَرِضْوانه يستغرقُ الآمال فكيف حُبُّه؟! وَحُبّه يُدْهش العقول فكيف وُدُّه؟! وَوُدُّه يُنْسي ما دونه فكيف لُطْفه؟!».

وحين يقول:

«حين خاطروا بالنّفوس اقْتَربوا، وهذا طعم الْخَبر فكيف طَعْمُ النَّظر؟! ..».

- وقال الحافظ **ابن رجب** - رحمه الله :

« كان «سمنون» شديد المحبّة. ويقال: إنه تكلّم يومًا في المحبّة فاصطفقت[1] قناديل المسجد حتى تكسّرت، وأنه تكلّم يومًا فيها فجاء طائر يضرب بمنقاره الأرض حتى مات!!»[2].

- وقال الحسن - رحمه الله - :

«لو يعلم العابدون أنهم لا يَرَوْن رَبَّهم يَوْمَ القيامة، لَمَاتوا. وفي رواية: لذابت أَنْفُسُهم».

فيا أيها المحبُّ لله:

كُنْ على طريق القوم، واسْلُك سَبيلهم، فقد كانوا، كما قال يَحْيى بْنُ مُعَاذ:

قومٌ على فُرُش من الذّكر، في مجلس من الشّوق، وبساتين من المناجاة، بين رياض الأطراب، وقصور الهيبة، وَفِناء مجلس الأُنس، معانقي عرائس الحِكمة بصدور الأفهام، مناعي زفرات الْوَجْد وجوه الآخرة بفنون الأفراح، تعاطوا بينهم كأسَ حُبِّه، سقاهم فيها، وَغَوَتْهم على شُرْبها فرقان الشّجى، تَجْري في الأكباد تُديم عليهم ذكْر الحبيب، ويبلبلهم معها هَيمان الوجود:

(١) **اصطفقت**: اضطربت.

(٢) «استنشاق نسيم الأنس» (١٣٤، ١٣٥).

طــرب الحــبّ عــلى الحــبِّ مَــعَ الحُــبِّ يــدومْ
عَجَــبًا لمــن رَأَيْـنَاهُ عــلى الحــبِّ يَلُــومْ
حــول حُــبِّ الله مــا عشــتُ مــع الشّــوق أحُــومْ
وبــه أَقْعُــدُ مــا عشــتُ حــياتِي وأقــومْ

وقال أيضًا:

نَفْسُ الْمُحِبِّ إلى الحَبيب تَطَلَّعُ وفــؤادُه مِــنْ حُــبِّه يَــتَقَطَّعُ
عَــزَّ الحــبيبُ إذا خَــلاَ في لَــيْله بحَــبيبه يشــكو إلــيه وَيضْــرَعُ
ويقــومُ في المحــرابِ يشــكوَ بــثَّهُ[1] والقلــبُ مــنه إلى المحــبّة يــنزعُ

واعلم - أخي الكريم - أن الله - تعالى - إذا أحبّ عبدًا وَفّقَهُ لعمل الصالحات:

فعن عمرو الخُزاعي ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«إذا أحبَ اللهُ عَبْدًا عَسَّلَهُ»[2].

فقيل: وما عَسَّلَه؟

قال: «يُوَفِّقُ لَهُ عَمَلاً صَالِحًا بين يَدَيْ أَجَلِه، حَتّى يَرْضَى عَنْهُ جِيرانُهُ».

أو قال: «مَنْ حَوْلَهُ»[3].

وأحبّته الملائكة، ووضع له القبول في الأرض:

عن أبي هريرة ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«إنّ الله إذا أَحَبّ عَبْدًا دعا جبريلَ، فقال: يا جبريلُ، إني أُحبُّ فُلانًا فَأحِبَّه، قال:

---

(١) البثّ: الحزن.
(٢) عَسَّلَهُ: الْعَسْلُ: طيبُ الثّناء، مأخوذ من العَسَل.
(٣) صحيح: أخرجه أحمد (٤/ ٢٠٠)، والحاكم (١/ ٣٤٠)، وصحّحه، ووافقه الذّهبي.

فَيُحبُّه جبريلُ، قال: ثم ينادي في أهل السّماء: إنّ الله يُحبُّ فُلانًا فأحِبّوه، قال: فَيُحبّه أَهْلُ السّماء، ثُمّ يُوضَعُ له القبولُ في الأرض.

وإنّ الله إذا أَبْغَض عَبْدًا دعا جبريل، فقال: يا جبريلُ إني أُبْغِض فلانًا فَأَبغِضْهُ، قال: فَيُبْغِضُه جبريلُ، ثم ينادي في أهْلِ السّماء: إن الله يُبْغِضُ فُلانًا فَأَبْغِضُوه، قال: فَيُبْغِضُونه، ثم تُوضَعُ له الْبَغْضَاءُ في الأرض»[1].

«اللّهُمّ إنا نسألُك حُبَّك، وَحُبّ من أَحَبّك، وَحُبَّ كُلّ عَمَلٍ يُقَرّبنا من حُبِّك» آمين.



(١) رواه البخاري (٧٤٨٥)، ومسلم (٢٦٣٧)، واللفظ له.

٥- مَحَبَّةُ النبيِّ ﷺ

قالت أُمُّ المؤمنينَ عائِشة - رضي الله عنها - «مَا أحَبَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ إلاَّ ذَا تُقى»[1].

بهذه الكلمة «الفَاصِلة» نبدأ حَدِيثَنا عن «مَحَبّة النَّبي ﷺ» والذي يدور حول:

الأول: منزلة محبّته ﷺ.

والثاني: علاماتها.

والثالث: أنواعها.

والرابع: ثمراتها.

ونسأل الله - تعالى - التوفيق لما يُحبّ ويرضى.

أولاً: مَنزِلَةُ مَحَبّة النّبي ﷺ:

اعلم - أخي الكريم - أن محبة النبي ﷺ واجبة.

قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٢٤].

قال الإمام القرطبي - رحمه الله -:

«وفي الآية دليل على وجوب حُبِّ الله ورسوله ﷺ ولا خلاف في ذلك، وأن ذلك

---

[1] قال الهيثميّ في «المجمع» (١٠/٧٤): رواه أبو يعلى، وإسناده حسن.

مُقدَّم على كلّ مَحْبوب » ا.هـ[١].

وهي دليل على الإيمان الصّادق:

قال ﷺ : « **لا يؤمن أحدُكم حتى أكونَ أحَبَّ إليه من مَاله وَوَلَده والنّاس أجْمَعين** »[٢].

وليس هذا الحب مجرّد عاطفة جوفاء، وإنما هو حبٌّ حقيقيٌّ نابع من القلب ومن العقل معًا ودليل صدق تلك المحبّة هو اتباع المصطفى ﷺ في كلّ ما أمر به، أو نهى عنه، فالمحبُّ مطيعٌ دائمًا لمن يحبّه، ولذلك قيل:

لـو كـان حُـبُّكَ صَـادِقًا لأطَعْـتَهُ ... إنَّ الْمُحَـبَّ لِمَـنْ يُحِـبُّ مُطِـيعُ

ثانيا: عَلَامَاتُ مَحَبَّةِ النّبي ﷺ :

اعلم - أيها الكريم - أن لمحبّة النبي ﷺ علامات تَفْصل بين الدّعْوى والحقيقة، من هذه العلامات:

العلامة الأولى: تمني رُؤيته:

عن أبي هريرة ﷺ : أن رسولَ الله ﷺ قال:

« **مِنْ أَشَدّ أمَّتِي لِي حُبًّا، ناسٌ يكونون بَعْدِي، يَوَدُّ أحَدُهم لو رآني، بأَهْلِهِ وَمَالِهِ** »[٣].

فتمنّى رؤيته ﷺ دليل على صدق محبّته، لذا حرص عليها الصّالحون، وتمنّاها المخلصون. وهذه بعضُ أحوالهم:

أ - عن عائشة - رضي الله عنها - قالت:

جاء رجلٌ إلى النبي ﷺ فقال:

(١) « تفسير القرطبي » (٩٥/٨).

(٢) رواه البخاريّ.

(٣) رواه مسلم (٢٨٣٢).

« يا رسول الله، إنّك لأحبّ إليّ من نفسي، وإنّك لأحبّ إليّ من ولدي، وإني لأكون في البيت فأذكُرك فما أصبر حتى آتي فأنظُر إليك، وإذا ذكرتُ موْتي ومَوْتك عرفتُ أنّك إذا دخلتَ الجنّة رُفِعْتَ مع النّبيين، وإني إذا دخلتُ الجنّة خَشيتُ أن لا أراك ».

فلم يردّ عليه النبي ﷺ حتى نزل جبريل عليه السلام بهذه الآية:

﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ [النساء: ٦٩]. [١].

ب – وقال بكّار بن محمد – رحمه الله – :

« كان ابْنُ عَوْن[٢] طَيِّب الرِّيح، لَيِّنَ الكسوة، وكان يتمنَّى أن يرى النبي ﷺ في النوم. فلم يَرَه إلاّ قبل مَوْته بيسير، فَسُرَّ بذلك سرورًا شديدًا. وقال: فَنزل من درجته إلى المسجد، فَسَقَط فأُصيبتْ رِجْلُه، فلم يزلْ يُعالجها حتى مات رحمه الله » [٣].

العلامة الثانية: تمني رؤية شيء من آثاره:

- قال أحدُ أصحاب « عُبيدة السَّلْماني » [٤] لعبيدة:

إن عندنا من شَعْر رَسُول الله ﷺ شيئًا من قِبَلِ أَنَسِ بْنِ مالك، فقال:

« لأن يكون عندي منه شعرةٌ أحبُّ إليّ من كُلّ صفراء[٥] وبيضاء[٦] على ظهر الأرض! ».

قال الإمام الذهبي – رحمه الله – مُعَلِّقًا :

« هذا القولُ من عبيدة هو معيارُ كمال الحبّ، وهو أن يُؤْثِرَ شعرةً نَبَوِيَّةً على كُلّ

---

١) رواه الطبراني، وأبو نعيم، والضّياء المقدسي في « صفة الجنة »، وقال: لا أرى بإسناده بأسًا.

٢) هو: عبد الله بن عون، عالم البصرة، من تابعي التابعين، تُوفّي سنة ١٥١ هـ.

٣) « سير أعلام النبلاء » (٦/٣٦٨).

٤) تابعيّ جليل.

٥) المراد بالصّفراء – هنا – : الذّهب.

٦) المراد بالبيضاء – هنا – : الفضة.

ذَهَبٍ وَفِضّةٍ بأيدي النّاس. ومثل هذا يقوله هذا الإمامُ بعد النبي ﷺ بخمسين سَنَة، فما الذي نقوله نحن في وقتنا لو وَجَدْنا بَعْضَ شَعْرَة بإسناد ثابت، أو شِسْعَ نَعْلٍ كان له، أو قُلامَةَ ظُفْرٍ، أو شَقَفَةً من إناء شَرِبَ فيه. فَلَو بَذَلَ الغَني معظم أَمْوَاله في تَحْصيل شيءٍ من ذلك عنده، أكنْتَ تَعُدُّه مُبَذِّرًا أو سَفيهًا؟ كَلاّ. فَابْذُل مَالَك في زَوْرَة مَسْجده الذي بَنَى فيه بِيَده، والسَّلام عليه عند حُجْرَته في بلده، والْتَذَّ بالنَّظَرِ إلى «أُحُده» وَأحبَّه، فقد كان نَبيك يُحبّه، وَتَملأْ بالحُلُول في رَوْضَتِه وَمَقْعده، فَلن تكون مُؤْمنًا حتى يكونَ هذا السَّيِّدُ أَحَبَّ إلَيْكَ من نَفْسك وَوَلَدك وأموالك والنّاس كُلِّهم.

وَقَبِّل حَجَرًا مُكَرّمًا نزل من الجنّة[1]، وَضَعْ فَمَكَ لاثمًا مكانًا قَبَّلَهُ سَيّدُ الْبَشَر بيقين. فَهَنَّاكَ اللهُ بما أَعْطاك، فَمَا فَوق ذَلَك مَفْخَر.

ولو ظَفَرنا بالمِحْجَنِ الذي أشار به الرسولُ ﷺ إلى الحَجَر ثم قبّل مِحْجَنه، لَحُقَّ لنا أن نزدَحِم على ذلك المِحْجَن بالتَّقبيلِ والتَّبْجيلِ.

ونحن نَدْري بالضّرورة أن تقبيل الحَجَر أرْفَعُ وأفْضَلُ مِنْ تَقْبيل مِحْجَنه ونعله.

وقد كان «**ثابت البُناني**»[2] إذا رأى أَنَسَ بْنَ مَالكٍ أَخَذَ يَده فَقبَّلها، ويقول:

يَدٌ مَسَّتْ يَدَ رَسُولِ الله ﷺ! ، فنقول نحن إذْ فاتنا ذلك:

حَجَرٌ مُعَظّمٌ بمنزلة يَمين الله في الأرض مَسَّته شَفَتا نَبينا ﷺ لاثمًا له. فإذا فَاتَك الحَجُّ وتلقَّيْتَ الْوَفْدَ فالْتَزِم الحاجّ وَقَبِّلْ فَمَه، وَقُلْ:

فَمٌ مَسَّ بالتقبيل حَجَرًا قَبَّلَهُ خَليلي ﷺ» ا.هـ[3].

العلامة الثالثة: بَذْلُ النَّفْس والنّفيس دُونَه ﷺ:

والمواقف الدّالة على ذلك أكثر من أن تحصى؛ ومن هذه المواقف:

---

(١) قال ﷺ: «نزلَ الحَجَرُ الأَسْوَدُ من الجَنَّة، وهو أشدّ بياضًا من اللَّبَن فَسَوَّدَتْهُ خَطَايا بني آدم!» صحيح: رواه الترمذي، وانظر: «صحيح الجامع» (٦٧٥٦).

(٢) من التابعين، كان أنس ﷺ يقول: «ثابت دُوَيْبَة أُحِبُّها».

(٣) «سير أعلام النبلاء» (٤/٤٢، ٤٣).

(١) موقفُ طَلْحة بن عُبيد ﷺ يوم أُحُد:

عن جابر، قال:

لمّا كان يوم «أُحُد» وولّى الناسُ، كان رسولُ الله ﷺ في ناحية في اثني عشر رجلاً من الأنصار وفيهم «طلحة بن عبيد الله»، فأدركهم المشركون. فالتفت رسولُ الله ﷺ، وقال:

«**مَنْ لِلْقَوْمِ؟**».

فقال طلحةُ: أنا.

قال رسول الله ﷺ «**كما أَنْتَ**».

فقال رجلٌ من الأنصار: أنا يا رسول الله.

فقال: «**أنتَ**».

فقاتل حتى قُتل. ثم التفت فإذا المشركون فقال:

«**مَنْ للقوم؟**».

فقال طلحة: أنا.

قال: «**كما أنت**».

فقال رجلٌ من الأنصار: أنا.

فقال: «**أَنْتَ**».

فقاتل حتى قُتل. ثم التفت فإذا المشركون فقال:

«**مَنْ للقوم؟**».

فقال طلحة: أنا.

قال: «**كما أنت**».

فقال رجل من الأنصار: أنا.

فقال: «أنت».

فقاتل حتى قتل.

ثم لم يزل يقول ذلك، ويخرج لهم رجلٌ من الأنصار، فيقاتل قتال من قبله حتى يُقتل، حتى بقي رسولُ الله ﷺ وطلحة بن عبيد الله رضي الله عنه فقال رسول الله ﷺ:

«مَنْ للقوم؟».

فقال طلحةُ: أنا.

فقاتل طلحةُ قتال الأحد عشر حتى ضربت يده فقطعت أصابعه، فقال:

«حسّ».

فقال رسول الله ﷺ: «**لو قلت: بسم الله لرفعتك الملائكةُ، والناسُ ينظرون**».

ثم ردّ الله المشركين[1].

(٢) موقفُ زياد بن السَّكن: «يَموتُ وَخَدُّه على قَدَم النّبي ﷺ»:

لمّا فرّ أكثرُ الْمُسْلمين في «أُحُد» وَهَجَم المشركون على رسولِ الله ﷺ، قال:

«**مَنْ رَجُل يَشْتَري لنا نَفْسَه؟**».

فقام زيادُ بن السّكن رضي الله عنه في نَفرٍ خَمْسَة من الأَنْصَار، فقاتلوا دون رسول الله ﷺ رجلاً ثم رجلاً، يقتلون دونه حتى كان آخرهم «زياد»، فقاتل حتى أثبتته الجراحة، ثم فاءت فئة من المسلمين، فأجهضوهم عنه، فقال رسولُ الله ﷺ:

«**أدْنوه مني**».

فأدنوه منه فوسَّدَه قَدَمه.

فماتَ وَخَدّه على قَدَم رسول الله ﷺ![2].

قلت: مَوْتة شريفة وَرَبّ الكعبة. فهنيئًا لك يا زياد، وكيف ننال هذا الشّرف اليوم!!.

---

(١) رواه النسائي، وحَسّنَه الألباني، وقال الذّهبي في «السِّير» (٢٧/١): رواته ثقات.

(٢) «السيرة النبوية» لابن هشام (٢٩/٣).

العلامةُ الرَّابعة: السَّمْعُ له والطّاعة:

قال الإمام ابن القيم - رحمه الله - :

«واتباع الرسول ﷺ وطاعتُهُ هُما الدليلُ على محبّة الله تعالى، يقول أبو سليمان الداراني: لمّا ادّعت القلوب محبّة الله، أنزل الله لها محنة (أي اختبارًا) هي قوله تعالى:

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١]. فقوله: ﴿ يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ إشارة إلى دليل المحبَّة وثمرتِها، فدليلُها: اتِّباعُ الرّسول ﷺ، وثمرتُها: محبّةُ حاصلةً ومَحبتّه لكم مُنْتَفِية» ا.هـ[١].

وعلى ما تقدم: فمن ادّعى محبّةَ رسولِ الله ﷺ وأبى طاعته، وخالف سُنّته، فهو كاذب في دعواه.

العلامة الخامسة: الدّفاع عَنْ سُنَّته:

وخصوصًا في هذا العصر «زمن الغربة» الذي قال عنه الإمام/ **سهل بن عبد الله التستريّ** - رحمه الله تعالى - :

«عليكم بالاقتداء بالأَثَر والسُّنة، فإني أخاف أنّه سيأتي عن قليل زمانٌ إذا ذَكر إنسانٌ النبي ﷺ والاقتداء به في جميع أحواله، ذَمُّوه، ونفروا عنه، وتبرّؤوا منه، وأذلّوه، وأهَانوه!!» [٢].

هذا، وأهل الحديث - في هذا العصر - هم فرسان الحلبة، فهم أقدر الناس على كشف شبهات المضلّين، ورَدّ سهام الملحدين.

قال الخطيبُ البغدادي - رحمه الله تعالى - : في «شرف أصحاب الحديث» (٨، ٩)

«قد جعلهم الله - يعني أصحاب الحديث - أركان الشريعة، وهدم بهم كُلّ بدعة شنيعة، فهم أُمَناء الله من خليقته، والواسطة بين النبي ﷺ وأُمّته، والمجتهدون في

---

(١) «مدارج السالكين» (٣/٢٢)..

(٢) «تفسير القرطبي» (٤/١٢٧).

حفظ ملَّته، أنوارهم زاهرة، وفضائلهم سائرة، وآياتهم باهرة، ومذاهبهم ظاهرة، وحججهم قاهرة، فإن الكتاب عدتهم، والسُّنَّة حجّتهم، لا يعرجون على الأهواء، ولا يلتفتون إلى الآراء» ا.هـ.

العلامة السادسة: الاجتهاد في نَشْر سُنَّته، وإظهار طريقته:

وقد ورد في الحث على ذلك أحاديث، منها:

عن ابن مسعود ﷺ قال:

سمعتُ رسول الله ﷺ يقول:

«نَضَّرَ اللهُ[1] امْرَأً سَمِع مِنّا شيئًا فَبَلَّغَهُ كَما سَمِعَه فَرُبَّ مُبَلِّغ أَوْعى مِنْ سَامِع» [2].

ثالثًا: أنواع مَحَبَّة النّبي ﷺ:

اعلم: أن الناس انقسموا في حبّه ﷺ وطاعته إلى ثلاثة أقسام:

الأوّل: صِنْفٌ جَفَى عن حُبِّه وأعْرض عنه، وعاداه:

وهؤلاء قوم: أطفأ الله بصائرهم، وأعمى أبصارهم، فقد جعلوه ﷺ حامل الشّر في العالم، والمسؤول عن التخلّف في المعمورة - عليهم لعنة الله - ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ [الكهف: ٥].

أحدهم: كتب يصف النبي ﷺ بأنه رجل رجعي، بدوي، متخلّف، أساء إلى العرب!!

ونردّ عليه: أَرَسُولنا رَجْعيٌّ وَمُتَخلّف؟! إذن، مَنِ الذي أخرج الناسَ من الظلمات إلى النور؟

مَنِ الذي قَوَّم الأفكار؟

ومَنِ الذي حَوَّل العربَ من رُعَاةٍ للغنم إلى قادة للأُمَم؟!.

---

(١) نَضّر: معناه الدعاء له بالنّضارة، أي: جَمَّله اللهُ وزَيَّنه.

(٢) **صحيح**: رواه الترمذي، وانظر: «صحيح الترغيب» (٨٤).

أتطلبون من المختار مُعْجزة يكفيه شَعْبٌ من الأَمْوات أَحْيَاه

والثاني: يقول: إن الأئمة أرفع قَدْرًا، وأكثر تأثيرًا في العالم من الأنبياء والرّسل!!.

ونردّ عليه: من يقصد بالأئمة؟ أئمة الشعوذة، والرشوة، والتبعية، وأكل أموال الناس بالباطل؟! أهؤلاء أرفع شأنًا من الأنبياء والرسل؟!!

﴿ سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴾ [النور: ١٦].

إنّها الخيانة المطلقة؛ لأنّ غَضَب الله إذا حَلّ بِعَبْدٍ أَنْسَاه إرادته وشعوره.

والثالث: رجلٌ «عابدٌ لشهوته» و «مغرم بالنّساء» جنّد قلمه ولسانه في محاربة الله ورسوله، والدعوة إلى الإباحية والفجور.

لمّا هُزم أَحَدُ «الطُغاة» أمام أعداء الإسلام، كتب إليه يقول:

ملأنا لك الأَقْداح يا مَن بِحُبّه سكرنا كما الصّوفي بالله يسكر

فهذا الصِّنف من البشر، عادى محمّدًا ﷺ ، واستهزأ بشريعته.

القسم الثاني: صنف غَلاَ في حُبّ النّبي ﷺ :

ورفعوه إلى مقام الألوهية!! وهم غلاة التصوّف، الذين انحرفوا عن المنهج، وأفرطوا في حُبّه ﷺ .

وقد حذّر النبي ﷺ من هذا الإفراط فقال:

«لا تطروني كما أطرت النّصارى عيسى ابن مريم، إنّما أنا عَبْد الله ورسوله فقولوا: عَبْد الله ورسوله» (١).

وقال ﷺ - وهو في سَكَرات الْمَوتِ: **«اللّهم لا تَجْعَلْ قَبْري وَثَنًا يُعبد»** (٢).

ومن أمثلة المغالاة في حُبّ النبي ﷺ :

---

(١) رواه البخاري (٣١٨٩).

(٢) **صحيح**: رواه مالك في «الموطأ» (٣٦٧).

- قول «البرعي» - الصّوفي - حين أتى إلى قبر النبي ﷺ :

يـا رسـول الله يـا مَـنْ ذِكْـره في نهـار الحشـر رَمْـزًا ومقامًـا
فأقِلْـني مِـنْ عَـثْرتي يـا سـيّدي ومـن اكتسـاب الذّنـب خمسين عامًا

سبحان الله! من الذي يقيل العثرة إلاّ الله؟ ومن الذي يغفر الذنب سواه؟

- وقول البوصيري في «بُرْدَته»:

وكـيف تدعـو إلى الدُّنيا ضَرُورَةُ مَنْ لَـوْلاَه لَـمْ تَخْـرُجِ الـدُّنيا من الْعَدَمِ!

فهذا من الإطراء المذموم، والغلوّ المرفوض.

ويقول:

يـا سـيّد الخَلْق مالي مَنْ أَلُوذ به سواك عـند حـدوث الحـادث العمـم
إن لم تكـن في قـيامي آخـذًا بيدي فَضْـلاً وإلاّ فَقُـلْ يـا زَلّـة القَـدَم

جلّ الله وتعالى، عمّا يقولون علوًّا عظيمًا.

القسم الثالث: صِنْف اعتدلوا في حُبِّهم للنّبي ﷺ :

وهم: أهلُ السُّنّة والجماعة، حيث قالوا في شأن حبيبهم:

هو عبد الله ورسوله، بلّغ عن ربّه، ولا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا - كما نصّ القرآن - .

أحبوه؛ لأن حبّه ﷺ : كحلٌ للعينين، وبلسم للأرواح، وتشريف للآذان، وتنوير للقلوب والمجالس.

فحبّه ﷺ والاقتداء به، والسّير على منهجه، هو: الطريق الصحيح للوصول إلى الله تعالى[1].

نسأل الله - تعالى - أن يوفّقنا لاتّباعه:

---

(١) «رحمة للعالمين» للدكتور/ عائض القرني (١٣٦ - ١٤١) بتصرف، وإضافة.

رابعًا: ثمرات مَحَبّة النبي ﷺ:

(١) نيلُ مَحَبّة الله تعالى ومغفرته:

قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

وقد تقدّم معنا: أن المحبّة اتباع، وإلاّ فهي دعوى بلا دليل ولا بينة.

(٢) السُّكْنى مع رَسُولِ الله ﷺ في الجنة:

فعن أنس ﷺ قال:

جاء رجلٌ إلى رسول الله ﷺ فقال:

يا رسول الله، متى الساعة؟

قال: «**وما أعددتَ لَهَا؟**».

قال: حُبّ الله ورسوله.

قال: «**فإنّك مع من أحببتَ**».

قال أنس: فما فرحنا بعد الإسلام فرحًا أشدّ من قول النبي ﷺ:

قال: «**فإنّك مع من أحببتَ**».

قال أنس: فأنا أُحبّ الله ورسوله وأبا بكر وعمر، فأرجو أن أكون معهم، وإن لم أعمل بأعمالهم[١].

والمراد بقوله ﷺ: «**فإنّك مع من أحببتَ**». أي: في الجنة[٢].

فأيّ شرف بعد هذا؟

(٣) نيل حلاوة الإيمان:

فعن أنس ﷺ عن النبي ﷺ قال:

---

(١) رواه البخاري (٦١٦٧)، ومسلم (٢٦٣٩) واللفظ له.

(٢) «عمدة القارئ» (٢٢/ ١٩٧).

« ثلاثٌ مَنْ كُنّ فيه: وَجَدَ حَلاوةَ الإيمان: من كان اللهُ ورسولُهُ أَحبَّ إليه ممّا سواهما، ومن أَحَبّ عَبْدًا لا يُحبّه إلاّ للّه، ومنَ يْكَرهُ أن يعودَ في الكُفْر بعد إذ أنْقَذَه اللهُ كما يكْرَهُ أن يُلْقى في النّار »[1].

قال الإمام النووي - رحمه الله - :

« ومعنى حلاوة الإيمان: اسْتِلْذَاذ الطّاعات، وتحمّل المشاق في الدِّين، وإيثار ذلك على أعراض الدنيا » ا.هـ[2].

(٤) نيلُ الهداية:

قال تعالى: ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ ﴾ [النور: ٥٤].

(٥) الفوز العظيم:

قال تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ [النور: ٥٢].

أخي الكريم:

هذه بعض ثمرات محبّة النبي ﷺ فاحرص على تحصيلها، واجتهد في متابعته، والسَّيْر على هَدْيه.

في صورته.

وسيرته.

وسريرته.

فإنّ المحبّ لمن يحبّ مُطيع.

وفّقني اللهُ - تعالى - وإيّاك .

۞۞۞۞۞

---

(١) رواه البخاري (٢١) واللفظ له، ومسلم (٤٣).

(٢) « صحيح مسلم بشرح النووي » (١٣/٢).

٦- مَحَبَّةُ أَهْلِ البيت

اعلم: أن محبّة «أهل البيت» فريضة، واحترامهم ديانة، والدفاع عنهم من أجلّ القُربات، ومتابعتهم – في هَدْيهم – من أَعْظَم الطاعات

ويكفي تزكيةُ الله تعالى لهم بقوله جلّ وعلا:

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٣٣].

قال الإمام الفخر – رحمه الله – في تفسيره لهذه الآية:

قوله تعالى: ﴿ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ ﴾ أي: يزيل عنكم الذنوب: ﴿ وَيُطَهِّرَكُمْ ﴾ أي: يلبسكم خلع الكرامة » ا.هـ[1]

فمن هم أهل البيت؟

وما فضلهم؟

وما هي حقوقهم الواجبة علينا؟

هذا ما سوف نتناوله بالشرح على السطور التالية.

وعلى الله قصد السبيل.

أولاً: من هم أهل البيت؟

اختُلف في «آل النبي ﷺ » على أربعة أقوال:

الأول: هم الذين حُرِّمت عليهم الصَّدقة: وفيهم ثلاثة أقوال للعلماء:

أحدها: أنهم بنو هاشم، وبنو عبد المطلب. وهذا مذهب الشافعي، وأحمد في رواية عنه.

---

(١) «مفاتيح الغيب»(٢٤/٥٩٣).

والثاني: أنهم بنو هاشم خاصة. وهذا مذهب أبي حنيفة، والرواية عن أحمد، واختيار ابن القاسم صاحب مالك.

والثالث: أنهم بنو هاشم، ومن فوقهم إلى غالب، فيدخل فيهم: بنو المطلب، وبنو أميّة، وبنو نوفل، ومن فوقهم إلى بني غالب .. وهو اختيار أشهب من أصحاب مالك.

وهذا القول في «الآل» - أعني أنهم الذين تحرم عليهم الصّدقة - هو منصوص الشافعيّ وأحمد والأكثرين، وهو اختيار جمهور أصحاب أحمد والشافعي.

واحتج هذا الفريق بأحاديث، منها:

ما رواه البخاري في «صحيحه» عن أبي هريرة ﷺ، قال:

«كان رسولُ الله ﷺ يُؤْتى بالنخل عند صِرَامه فَيَجيءُ هذا بِتَمْره، وهذا بِتَمْره، حتى يصيرَ عنده كَومٌ من تَمْر، فجعل الحسنُ والحسين يلعبان بذلك التّمر، فأخذ أحدُهما تَمْرة فجعلها في فيه، فنظر إليه رسولُ الله ﷺ فأخْرجها من فيه، فقال:

«**أعَلِمْتَ أن آل محمد لا يأكلون الصّدقة**».

ورواه مسلم وقال:

«**إنا لا تَحلّ لنا الصَّدَقة**» (١).

والقول الثاني: أن آل النّبي ﷺ هُمْ ذُرّيته وأزواجه خَاصّة:

حكاه ابن عبد البرّ في «التمهيد».

واحتج أصحاب هذا القول بأحاديث، منها:

- عن عائشة - رضي الله عنها - قالت:

«ما شبع آلُ مُحمّد ﷺ من خُبز ومأْدُوم ثلاثة أيّام حتى لَحِقَ بالله ﷻ» (٢).

قالوا: ومعلوم أن العباس وأولاده وبني المطّلب لم يدخلوا في لفظ عائشة ولا مرادها.

---

(١) رواه البخاري (٣/٣٥٤)، ومسلم (٢٤٣٤ ، ٢٤٣٥).

(٢) رواه البخاري (٩/٥٥٢)، ومسلم (٧٣٠٣)، وغيرهما.

- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

قال رسول الله ﷺ :

«**اللّهم اجعل رِزْقَ آلِ مُحمّدٍ قُوتًا**»[(١)].

ومعلوم أن هذه الدعوة المستجابة لم تنل كُلّ بني هاشم ولا بني المطّلب، لأنه كان فيهم الأغنياء، وأصحاب الجدة وإلى الآن، وأمّا أزواجه وذرّيته ﷺ فكان رزقهم قوتًا، وما كان يحصل لأزواجه بعدُ من الأموال كن يتصدّقن به ويجعلن رزقهنّ قوتًا.

والقول الثالث: أن آله ﷺ أتباعه إلى يوم القيامة: حكاه ابن عبد البرّ عن بعض أهل العلم.

وأقدم من رُوى عنه هذا القول «جابر بن عبد الله» ذكره البيهقيّ عنه، ورواه عن «سفيان الثوريّ» وغيره، واختاره بعض أصحاب الشافعيّ، ورجّحه النووي في «شرح مسلم».

واحتج أصحاب هذا القول بأن «واثِلة بن الأَسْقع» رضي الله عنه روى: أن النبي ﷺ دَعَا حَسَنًا وحُسَيْنًا، فأجلس كُلّ واحد منهما على فَخِذه، وأدْنى فاطمةً - رضي الله عنها - من حِجْره وَزَوْجها، ثم لَفَّ عليهم ثَوْبه، ثم قال:

«**اللّهمّ هؤلاء أَهْلي**».

قال واثلة: فقلتُ: يا رسول الله، وأنا من أهلك؟

فقال: «**وأنْتَ مِنْ أَهْلِي**»[(٢)].

قالوا: ومعلوم أن «واثلة بن الأسقع» من بني ليث بن بكر بن عبد مناة، وإنما هو من أتباع النبي ﷺ.

والقول الرابع: أن آله ﷺ هم الأتقياء من أُمّته: حكاه الرّاغب وجماعة.

ودليل هذا الفريق:

---

(١) رواه البخاري (١١/٢٨١)، ومسلم (٢٣٨٩)، وغيرهما.

(٢) صحيح: رواه البيهقي في «السنن الكبرى» (٢/١٥٢)، وصحّحه الشيخ/ محمد بيومى.

- عن أنس ﷺ قال:

سُئل رسولُ الله ﷺ: مَنْ آل مُحَمّد؟

فقال: «**كُلُّ تَقيٍّ**»، وتلا النبي ﷺ:

﴿ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٤] (١).

- واحتجوا - أيضًا - بأن الله - تعالى - قال لنوح عليه السلام عن ابنه:

﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ ﴾ [هود: ٤٦]. فأخرجه بشركه أن يكون من أهله فعلم أن آل الرسول ﷺ هم أ تباعه.

وأجاب عنه الشافعيُّ - رحمه الله - بجواب جيّد، وهو أن المراد: ليس من أهلك الذين أمرناك بحَملهم ووعدناك نجاتهم.

والصّحيحُ: هو القول الأوّل ويليه القول الثاني. أما الثالث والرابع فضعيفان، لأن النبي ﷺ قد رَفَعَ الشُّبهة بقوله:

«**إن الصّدقة لا تَحِلّ لآل مُحَمّد**».

وقوله: «**اللهم اجعل رزق آل محمد قوتًا**».

وهذا لا يجوز أن يراد به عموم الأمّة قطعًا.

فأوّل ما حمل عليه «الآل» في الصّلاة الآل المذكورون في سائر ألفاظه، ولا يجوز العدول عن ذلك، وأمّا تنصيصه على الأزواج والذّرية فلا يدل على اختصاص «الآل» بهم، بل هو حجّة على عدم الاختصاص بهم، لما روى أبو داود من حديث نُعيم بن مجمر عن أبي هريرة ﷺ في الصّلاة عن النبي ﷺ:

«**اللّهم صَلِّ على مُحَمّد النّبي وأزواجه أُمّهات المؤمنين وذرّيته وأَهْلِ بيته كما صلَّيْتَ على إبراهيم**» (٢).

---

(١) ضعيف: رواه الطبراني في «الصغير» (١/١٥)، وفيه نوح بن أبي مريم وهو ضعيف.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

فجمع بين الأزواج والذّرية والأهل، وإنما نصّ بتعينهم ليبين أهم حقيقون بالدخول في الآل، وأهم ليسوا بخارجين منه، بل هم أحق من دخل فيه، وهذا كنظائره من عطف الخاص على العام، وعكسه تنبيهًا على شرفه وتخصيصه له بالذّكر من بين النوع لأنه من أحق أفراد النوع بالدخول فيه. ا.هـ (١).

وقال الإمام الفخر - رحمه الله - :

« واختلفت الأقوال في أهل البيت، والأولى أن يقال: هم أولاده، وأزواجه، والحسن والحسين منهم، وعليّ منهم لأنه كان من أهل بيته بسبب معاشرته ببنت النبي ﷺ وملازمته للنبي ﷺ » ا.هـ (٢).

ثانيا: فَضْلُ أَهْلِ البيت:

ورد في فضل أهل البيت، وبيان قدرهم أحاديث « صحيحة » ، منها:

(١) عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - قال:

رأيتُ رسولَ الله ﷺ في حَجّته يَوْمَ عَرَفة وهو على ناقته القصواء يخطب فسمعتهُ يقول:

« **يا أيّها الناس، إني تركتُ فيكم مَنْ مَا إن تَمَسّكْتُم به لن تَضِلُّوا: كتاب الله وعِتْرتِي أَهْل بيتي** » (٣).

(٢) وعن زيد بن أرقم ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ : « **إني تاركٌ فيكم ما إن تَمسّكْتُم به لن تَضِلُّوا بَعْدي، أحدُهما أعظمُ من الآخر، كتابَ اللّهِ حَبْلٌ ممدودٌ من السماءِ إلى الأرض وعِتْرَتِي أهْلُ بيتي، ولن يَتَفرّقا حتى يَرِدَا عَليَّ الْحَوْض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما** » (٤).

---

(١) هذا ملخّص كلام الإمام ابن القيم ، نقلناه بتصرف من « جلاء الأفهام » .

(٢) « مفاتيح الغيب » (٢٤/٥٩٣).

(٣) صحيح: « صحيح سنن الترمذي » (٢٩٧٨).

(٤) صحيح: « صحيح سنن الترمذي » (٢٩٨٠).

ثالثًا: حقوقهم الواجبة علينا:

من حقوق أهل البيت علينا:

(١) توقيرهم وإجْلال مكانتهم:

تقدّم - معنا - أن احترام أهل البيت ديانة، وَحُبّهم قُربة، والدفاع عنهم، والذَّوْد عن حُرُمَاهم من أجلّ الثواب.

وإذا كان النبي ﷺ قد قال:

«**مَنْ رَدّ عن عِرض أخيه؛ كان له حِجَابًا من النار**»[١].

وعن معاذ بن أنس الجهني؛ قال:

قال رسولُ الله ﷺ :

«**مَنْ حَمَى مُؤمنًا من مُنافق** - أراه قال -: **بَعثَ اللهُ مَلَكًا يَحْمي لَحْمَه يَوْمَ القيامة مِن نار جَهَنّم، ومن رَمَى مُسْلِمًا بشيء يريد شَيْنه به**[٢]؛ **حَبَسَه اللهُ على جسْرِ جَهنّم حتى يَخْرجَ مِمّا قال**»[٣].

فما بالنا بِمَنْ جَرَّد قَلَمه، وأَوْقَف نَفْسَه دفاعًا عن حُرمات أهل بيت النبي ﷺ ؟!!.

إن إجلال مقام أهل البيت يعدّ إجلالاً لمقام النبوة الكريم:

- قال ابن إسحاق: حدّثني مساور السّعديّ، قال:

رأيتُ أبا هريرة قائمًا على مسجد رسول الله ﷺ يوم مات الحسن، يبكي، وينادي بأعلى صوته:

«يا أيّها الناس! مات اليومَ حِبُّ رسولِ الله ﷺ ، فابكوا»[٤].

---

(١) رواه الخرائطي، وابن عساكر، وإسناده لا بأس به في الشواهد والمتابعات. انظر: «غاية المرام» (٤٣١).

(٢) شينه: عيبه.

(٣) صحيح: «صحيح سنن أبي داود» (٤٠٨٦).

(٤) «سير أعلام النبلاء» (٣/٢٧٧).

- وقال الإمام الذهبي - رحمه الله في ترجمة «زين العابدين: عليّ بن الحسين بن عليّ»:

«قيل: كان عليّ بن الحسين إذا سار في المدينة على بغلته، لم يقل لأحد: الطَّريق... ويقول: هو مشتركٌ ليس لي أن أُنحِّي عنه أحدًا.

وكان له جلالةٌ عجيبة، وحُقّ له والله ذلك، فقد كان أهلاً للإمامة العُظمى لِشَرفه وَسُؤْدده وعِلْمه وتألُّهِهِ وكمالِ عَقْله.

حَجّ «هشامُ بْنُ عبد الملكَ» قُبيلَ ولايته الخلافة، في نَفْس العام الذي حَجَّ فيه «زَيْنُ العابدين»، فكان «هشام» إذا أراد اسْتلام الحَجَر، زُوحِمَ عليه، وإذا دَنَا «زينُ العابدين» من الحَجَر تَفرَّقوا عنه إجلالاً له! فَوَجَم لها هشام، وقال:

مَنْ هذا؟ فما أعرفه؟ فأنشأ الفرزدقُ يقول:

هذا الذي تَعْرِفُ الْبَطْحَاءُ وَطْأَتَهُ ... والبيتُ يَعْرِفُهُ والحِلُّ والْحَرَمُ

هذا ابْنُ خَيْرِ عِبَادِ اللهِ كُلِّهِمِ ... هذا التَّقِيُّ النَّقِيُّ الطَّاهِرُ الْعَلَمُ

إذا رأته قريشٌ قال قائلُها ... إلى المكارمِ هذا يَنْتهي الكَرَمُ

يكادُ يُمْسِكُه عِرْفَانُ رَاحَتِهِ ... رُكْنَ الْحَطيم إذَا مَا جَاءَ يَسْتَلِمُ

يُغْضِي حَيَاءً وَيُغْضَى مِنْ مَهَابته ... فما يُكَلَّمُ إلاّ حِين يَبْتَسِمُ

هذا ابْنُ فاطِمَةَ إن كُنْتَ جَاهِلَهُ ... بجَدِّهِ أنْبياءُ اللهِ قَدْ خُتِمُوا

وهي قصيدةٌ طويلة، قال:

فَأَمَر هشامٌ بِحَبْسِ الفرزدق، فَحُبِسَ «بِعُسْفَان»، وَبَعث إليه «زَيْنُ العابدين» باثنى عَشَر ألف درهم، وقال:

اْعذُرْ أبا فراس.

فَرَدَّها، وقال:

ما قلتُ ذلك إلاّ غَضَبًا لِلّهِ ولرسولِهِ.

فردَّها إليه وقال:

بِحَقِّي عليك لما قَبِلْتَها، فقد عَلِمَ اللهُ نيتك، ورأى مَكَانك: فَقَبلها[١].

من هذين الموقفين، يتبين لنا بجلاء **مكانة «أهل البيت»** عند السّلف الصّالح رضي الله عنهم.

(٢) متابعتهم:

فمتابعة أهل البيت في هَدْيهم، دَلِيلٌ على مَحَبّة التابع لهم.

وقد انقسم المسلمون تجاه حُبّ «أَهْل الْبيت» إلى فَرِيقَيْن:

الأوَّل: غُلاَة: كالشّيعة، وَجُهَّال الصّوفية:

وهؤلاء، ارتكبوا باسم حبّ «أهل البيت»، من الشركيات والبدع، ما يهتزّ لِقُبْحِهِ الْعَرش!!.

أمّا الشّيعة: فالحديث عن خرافاتهم، وبدعهم يصعب استقصاؤه، ويكفي أن نشير – هنا – إلى طرف منه:

قال الكُليني: في كتابه «الأصول من الكافي» وهو كتاب معتمد عندهم:

- «إن الأئمة – عليهم السّلام – عندهم جميع الكتب التي نزلت من عند الله ﷻ وأنهم يعرفونها على اختلاف ألسنتها!! » (٢٧٧/١).
- «إن الأئمة – عليهم السّلام – يعلمون متى يموتون، وأنهم لا يموتون إلاّ باختيار منهم!!» [٢] (٢٥٨/١).

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٣٩٨/٤، ٣٩٩).

(٢) وهذا كَذِبٌ له قرون، فقد اختصّ اللهُ – تعالى – لنفسه بعلم انتهاء الآجال، إضافة لما جرى على أرض الواقع، فقد ثبت أن كثيرًا من هؤلاء الأئمة من قتل دون علمه!.

- «إن الأئمة - عليهم السّلام - يعلمون عِلْم ما كان وما يكون، وأنه لا يَخْفى عليهم شيء!!» (١/٢٦٠).

﴿ سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴾ .

هذا غيض من فيض، وقطرة من بحر خزعبلاتهم، وأضاليلهم، وترهاتهم. فهل هذا يُعَدّ حُبًّا لأهل البيت؟!.

لا - والله - بَل كراهية لأهل البيت، ولكن لا يشعرون.

فليتُ شِعْري، أين ذهبتْ عقولُهم؟!.

أمّا جُهّال الصُّوفية: فقد صدرت منهم عبارات، وشوهدت منهم أحوال، تضرب اعتقادهم في مقتل:

فمن أقوالهم:

أ - **القول «بوحدة الوجود»:** - ومعناها: أن الموجودات كلّها ليست سوى الله ذاته!! - تعالى الله عمّا يقولون علوًّا كبيرًا.

وأوّل من أنشأ هذه النظرية: «**ابن عربي**»، الذي حَكَم بإيمان فرعون!! والذي قال في «فتوحاته المكيّة»:

الــرّبُّ حَــقٌّ، والعــبدُ حَــقّ ... يــا لَيْــت شِــعْري مَــنْ الْمكلّــف
إن قلــتَ عَــبْدٌ، فــذاك رَبٌّ ... أو قلــتَ رَبٌّ أني يُكَلَّــف!

وهو بهذا يهدم الشرائع السماوية، ويمحو التكاليف، ويدخل الكفار والفجّار الجنة، لأنهم في زعمه جزء من الله!!.

ومع هذا الكفر البين، يُسمّيه مُرِيدُوه: «الشيخَ الأكبر، والكِبريت الأحمر!».

ب - الغلوّ في النبي ﷺ:

فها هو «البوصيري» يقول في «بُرْدَة مَدِيحه»:

وكـيف تدعـو إلى الدّنيا ضرورةُ مَنْ لَـوْلاَه لم تَخْـرُجِ الـدُّنيا مِـنَ الْعَـدَمِ

فهذا غلوّ مذموم، يقدح في عين التوحيد.

وفي مقام آخر يقول:

فـإن مـن جُـودِك الـدّنيا وضَـرَّتَهَا وَمِـنْ عُلومِـك عِلْـمُ اللَّـوْح والْقَلَمِ!

فهل هذا المدح يرضي رسول الله ﷺ ؟!.

اللّهم لا.

جـ- الابتداع في الذّكر:

كقول بعضهم: «هو. هو. هو .....».

وكقول بعضهم في أوراده:

«اللهم آمنّا من كلّ خوف وَهَمّ وَغمٍّ وكَرْب كَدكَدٍ كَرْدَدٍ كَرْدَدٍ كَرْدَهٍ كَرْدَهٍ دَهٍ دَهٍ دَهٍ اللهُ ربُّ العزّة كتب اسْمَهُ على كلّ شيء أعزّه !!!»[١].

ما هذا أيّها الناس: ﴿ءَاْعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ [فصلت: ٤٤].

«اتّبعوا ولا تبتدعوا فقد كُفيتمُ».

أمّا عن أحوالهم:

فحدّث ولا حرج.

- تَمسّح بالأضرحة.
- استغاثة بغير الله.
- طواف - سبعة أشواط - حول القبور !!.
- طلب المدد من غير الله تعالى.

---

(١) «مجموعة أوراد الطريقة البرهانية الدسوقية الشاذلية» (١٩).

- الاختلاط بالنساء، والخلوة بهنّ في الموالد.
- شرب الحشيش، «عيني عينك» في الخيام، باسم «حُب الأولياء».
- تقبيل أعتاب الأضرحة، والتمسّح بها، والانكسار عندها، ونداءها، لنيل الشّفاء، وتفريج الكُرَب!.

أيها الناس:

﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ [فاطر: ١٤].

الفريق الثاني: معتدلون:

وهم أهل السُّنة والجماعة - الذين هداهم اللهُ - تعالى - لما اختُلف فيه من الحقّ بإذنه - :

وهؤلاء: وسطٌ بين الغُلاة والجفاة، فهم يُحبّون أهل البيت، ويتولّونهم، ويهتدون بهديهم، ويعرفون لهم فَضْلَهم وَحقّهم، لكن دُون مغالاة.

وهذا شأنهم في كل أحوالهم، فلّله دَرُّهم.

(٣) الدفاع عنهم، والذّود عن معتقداتهم وأعراضهم:

وقد تقدّم - قريبًا - شيء من ذلك.

ويكفي - في نهاية حديثي - أن أشير إلى موقف واحد:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال:

لما أتي «عُبيد الله بن زياد» برأس الحسين رضي الله عنه جعل - أي زياد - يَنْكُت بالقضيب ثناياه - أي : ثنايا الْحُسَين - !! ويقول:

«لقد كان - أحسبه قال - : جميلاً !!».

فقلت: والله لأسوأنّك، إني رأيتُ رسول الله ﷺ يلثم حيث يقع قضيبك.

قال: فانقبض[١].

أخي:

هذه بعضُ حقوق «أهل البيت» علينا، نسأل الله - تعالى - أن يرزقنا حُبّهم، وأن يجعلنا من أتباعهم.

۞۞۞۞۞

---

(١) قال الهيثمي في «المجمع» (١٥١٥٠): رواه البزار والطبراني بأسانيد، ورجاله وثقوا.

٧ - مَحَبَّةُ المؤمنين

قال بعضُ السَّلَف: «لو قمتُ مقام هذه السّارية[١]، وصمتُ وصلَّيتُ حتى صِرْتُ كالسَّهْم[٢]، ما نَفَعني ذلك شيئًا حتى أُحبَّ أَهْل طاعَةِ الله، وأكْرَه أَهْل مَعْصِيته!».

بهذا القول - الذي تَرْتَجِفُ مِنْه الأَفْئدَة، وَتَقْشَعِرّ منه الأبدان، نبدأ الحديث عن خُلُق «مُهم» ألا وهو:

«**مَحَبَّةُ المؤمنين**».

فما حُكمها؟

وما فَضْلها؟

وما هي الأسباب المقوّية لها؟

وما لوازمها؟

هذا ما سوف نَتَناوله بالتّفْصِيل بعد قليل. واللهُ الْهَادِي إلى سواء السبيل.

أولاً: حكمُ مَحبّة المؤمنين:

اعلم: أن مَحَبّة المؤمنين وَاجِبة، يدّل على ذلك عِدّةُ أَحَاديث، منها:

(١) عن أبي هريرة ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ: «**لا تَدْخُلون الجنّة حَتّى تُؤْمنوا، ولا تُؤْمنوا حتى تحابوا، أَوَلا أدُلكم على شيءٍ إذا فعلتموه تحابَبْتُم؟ أَفْشُوا السَّلام بينكم**»[٣].

---

(١) لعمود في المسجد.

(٢) يعني: من الضَّعْف.

(٣) رواه مسلم (٥٤).

قال الإمام النووي - رحمه الله - في شرحه لهذا الحديث:

« أمّا معنى الحديث: فقوله: « **ولا تؤمنوا حتى تحابوا** » معناه: لا يَكْمل إيمانكم ولا يَصْلح حالكم في الإيمان إلاّ بالتّحاب.

وأمّا قوله ﷺ: « **لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا** » فهو على ظاهره وإطلاقه فلا يدخل إلاّ من مات مؤمنًا وإن لم يكن كامل الإيمان، فهذا هو الظاهر من الحديث.

وقال الشيخ/ أبو عمر - رحمه الله - : معنى الحديث: لا يكمل إيمانكم إلاّ بالتَّحاب، ولا تدخلون الجنة عند دخول أهلها إذا لم تكونوا كذلك. وهذا الذي قاله محتمل. والله أعلم » ا.هـ[1].

وعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال:

« **لا يؤمن أحدُكم حتى يُحبّ لأخيه ما يُحِبّ لنفسه** »[2].

قال الإمامُ النووي - رحمه الله - في شرحه لهذا الحديث:

« قال العلماء - رحمهم الله - : معناه: لا يؤمن الإيمان التّام، وإلاّ فَأَصْل الإيمان يَحْصُل لمن لم يكن بهذه الصّفة. والمراد: يحبّ لأخيه من الطاعات والأشياء المباحات » ا.هـ[3].

والأحاديث في هذا المعنى كثيرة، وسيأتي المزيد منها بعد قليل.

ثانيا: فَضْلُ مَحَبّة المؤمنين:

لمحبة أهل الإيمان فضائل كثيرة:

- **منها: اسْتِكْمَال الإيمان:**

فعن أبي أُمامة رضي الله عنه أنّ رسولَ الله ﷺ قال:

---

(١) « صحيح مسلم بشرح النووي » (٢٢٨/١) باختصار.

(٢) رواه البخاري (١٣) واللّفظ له، ومسلم (٤٥).

(٣) « صحيح مسلم بشرح النووي » (٢١٣/١).

«مَنْ أَحبَّ لِلّه، وأبْغَضَ لِلّه، وأعْطَى لِلّه، وَمَنع لِلّه، فقد استكملَ الإيمان» [(١)].

- **ومنها: أنّها مِنْ أَفْضَل الأعمال:**

فعن أبي ذرّ ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ :

«**أَفْضَلُ الأَعْمال: الحبُّ في الله، والْبُغْضُ في الله**» [(٢)].

قال العلامة/ أبو الطيّب محمد شمس الحق العظيم آبادي - رحمه الله - في شرحه لهذا الحديث:

«قوله ﷺ : «**أفضل الأعمال: الحب في الله**» أي: لأجله لا لغرض آخر كَمَيْل وإحسان. ومن لاَزَمَ الحبَّ في الله: حبّ أولياءه وأصفياءه، ومن شرط محبّتهم: اقتفاء آثارهم وطاعتهم. «**والبغض في الله**»: أي: لأمر يسوغ له البغض كالفسقة والظّلمة وأرباب المعاصي.

قال ابن رسلان - رحمه الله - في «شرح السُّنن»: فيه دليل على أنه يجب أن يكون للرجل أعداء يبغضهم في الله كما يكون له أصدقاء يحبّهم في الله، بيانه أنك إذا أحببت إنسانًا لأنّه مطيع لله ومحبوب عند الله، فإن عصاه فلابد أن تبغضه لأنّه عاص لله وممقوت عند الله، فمن أحبّ لسبب فبالضّرورة يبغض لضدّه، وهذان وصفان متلازمان لا ينفصل أحدهما عن الآخر وهو مطرد في الحبّ والبغض في العادات» ا.هـ[(٣)].

- **ومنها: نيلُ مَحَبَّة الله تعالى:**

فعن عبادة بن الصامت، قال:

سمعتُ رسول الله ﷺ يأثر عن ربه - تبارك وتعالى - ويقول:

---

(١) صحيح: رواه أبو داود (٤٦٨١)، وغيره، وانظر «الصحيحة» (٣٨٠).

(٢) ضعيف: رواه أبو داود (٤٥٨٦)، وانظر: «ضعيف الجامع» (٩٩٦).

(٣) «عون المعبود» (١٢/٢٢٨).

«حَقَّتْ مَحَبَّتي للْمُتَحابين فِيَّ، وحقّت محبّتي للمتواصلين فِيَّ، وحقّت محبّتي للمتزاورين فيَّ، وحقّت محبّتي للْمُتَباذلين فِيَّ»(١)

- ومنها نيلُ شَرف مُجَالَسة الرّحمن:

فعن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«إنّ للّه جُلَساءَ يَوْمَ القيامة عن يمين الْعَرش، وَكِلْتَا يَدَي الله يمينٌ، على منابر مِنْ نور، وُجُوهُهُم مِن نّور، لَيْسُوا بأنبياءَ، ولا شُهداءَ، ولا صِدِّيقين»

قيل: يا رسول الله، من هم؟

قال: «هم المتحابّون بِجَلالِ الله تبارك وتعالى» (٢)

- ومنها: نيلُ الولاية:

فعن أبي مالك الأشعريّ ﷺ عن رسول الله ﷺ قال:

«يا أَيُّها النّاسُ اسْمَعُوا واعْقلُوا، واعْلَمُوا أنّ للّه ﷻ عِبادًا لَيْسُوا بأنبياء، ولا شُهدَاء، يَغْبِطُهُم النَّبيون والشّهداءُ عَلى مَنَازلهم وَقُرْبِهم من الله».

فَجَثا رجلٌ من الأعراب من قاصية النّاس، وَأَلْوى بيده إلى النَّبي ﷺ فقال:

يا رسولَ الله، ناسٌ من النّاس لَيْسُوا بأنبياءَ ولا شهداءَ يَغْبطُم الأنبياءُ والشهداءُ على مَجَالسهم، وَقُرْبِهم منَ الله، انْعَتْهم لَنَا، جَلِّهم لنا - يعني: صِف شَكْلَهم لنا - ؟ فَسُرَّ وَجْهُ النّبي ﷺ بسؤالِ الأعرابي، فقال رسولُ الله ﷺ:

«هُم نَاسٌ منْ أَفْناء النّاس، وَنَوازع القبائل لم تَصِلْ بينهم أَرْحَامٌ مُتَقَاربة، تحابُّوا في الله وَتَصَافَوْا يَضَع اللهُ لهم يومَ القيامة مَنَابر من نور فيجلسون عليها، فَيَجْعَلُ وُجوهَهم نورًا، وثيابَهم نُورًا، يَفْزَعُ الناسُ يَوْمَ القيامة ولا يفزعون، وَهُم أولياءُ الله لا خوفٌ

---

(١) صحيح: رواه أحمد، وصحّحه المنذريّ في «الترغيب» برقم (٤٣٠٠).

(٢) قال المنذريّ في «الترغيب» (٤٣٠٢): رواه أحمد بإسناد لا بأس به.

عليهم، ولا هم يَحْزنون »[١].

- **ومنها: نيل شرف الاستظلال في ظلّ الله تعالى:**

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

قال رسولُ الله ﷺ :

« إنّ الله يقول يَوْمَ القيامة: أين المتحابّون بِجَلاَلي؟ اليوم أُظِلُّهم في ظلّي يَوْمَ لا ظِلّ إلاّ ظِلّي »[٢].

- **ومنها: الفوز بالجنّة:**

فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: جاء رجلٌ إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسولَ الله، كيف ترى في رجلٍ أَحَبَّ قَوْمًا و لم يَلْحَقْ بِهِم؟

فقال رسولُ الله ﷺ :

« المرءُ مَعَ مَنْ أَحَبّ »[٣].

أخي المسلم:

هذه بعضُ فضائل مَحبّة أَهْل الإيمان، وإنّما بلغت المحبةُ بالمحبين هذه المنزلة، لأن المحبوب في الأصل هو الله - تبارك وتعالى - .

قال الإمام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - :

« إذا أحببتَ الشّخص لِلّه، كان اللهُ هو المحبوب لذاته، فكلّما تصوّرْته في قَلْبك، تَصَوَّرتَ مَحْبوب الحَقّ فأَحْبَبْتَهُ، فازْدَادَ بِذَلك حُبُّك لِلّه » ا.هـــ.

---

(١) قال المنذريُّ في « الترغيب » (٤٣٠٨): رواه أحمد وأبو يعلى بإسناد حسن.

(٢) رواه مسلم (١٢٣/١٦).

(٣) صحيح : أخرجه أبو داود (٢٧/٥)، وصحّحه الألباني.

ثالثاً: الأسباب المقوِّية لِلْمَحبَّة بين المؤمنين:

هناك عدّة أسباب تؤدّي إلى تقوية أواصر المحبّة بين المؤمنين، وتجعلهم كما أراد الله: « **كالبنيان المرصوص** »، و « **كالجسد الواحد** »، من هذه الأسباب:

(١) إعْلامُ مَنْ تحُبّ بحُبِّك له:

قال ﷺ : « **إذا أحَبّ أحدُكم أخَاه في الله فَلْيُعْلِمْه، فإنه أَبْقى في الأُلْفَة، وأثبت في المودّة** » [١].

قال العلاّمة المناوي – رحمه الله – في شرحه لهذا الحديث:

« قوله ﷺ : « **فَلْيُعْلِمْه** » أي: بأن يقول له: إني أحبُّك في الله لا لغيره، فإنه أبقى للألفة وأثبت للمودّة، وبه يتزايد الحبّ ويتضاعف وتجتمع الكلمة وينتظم الشمل بين المسلمين، وتزول المفاسد والضّغائن وهذا من محاسن الشريعة؛ وجاء في حديث أن المقول له يقول له: « **أحبّك الذي أَحْبَبْتني مِنْ أَجْله** » ا.هـ [٢].

(٢) إتْحافه بِبعض الهَدَايا بين الحين والحين:

ولا يخفى ما تحدثه الهدية من وقع – طيّب – في النفوس، قال بعضُ السَّلَف:

« جبُلت القلوب على حُبّ مَنْ أَحْسَن إليها ».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

قالَ رسولُ الله ﷺ :

« **تَهادَوْا تحابُّوا** » [٣].

---

(١) **حسن**: رواه ابن أبي الدنيا في « كتاب الإخوان » عن مجاهد مرسلاً، وانظر « صحيح الجامع » (٢٨٠).

(٢) « فيض القدير » (١/٣١٩).

(٣) **حسن**: رواه أبو يعلى، وانظر: « صحيح الجامع » (٣٠٠٤).

(٣) مناداته بأحبّ أسمائه إليه:

ولا يخفى ما في ذلك من إدخال السّرور على نفسه، ممّا يؤدّي إلى توطيد أواصر المحبة، وتعميق المودّة.

(٤) إفشاء السّلام:

وقد تقدّم الحديث الوارد في فضل ذلك تقريبًا.

(٥) معاهدته بالزّيارة بين الحين والحين:

فإن وقع الزيارة في النفوس عظيم، خصوصًا عندما تكون «لله» لا لشيء آخر.

عن أبي هريرة ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ

«زُرْ غِبًّا تَزْدَدْ حُبًّا» [١]

قال العلامة المناوي - رحمه الله - في شرح هذا الحديث:

«أي: زر أخاك وقتًا بعد وقت ولا تلازم زيارته كلّ يوم تَزْدَد عنده حُبًّا وبقدر الملازمة تهون عليه، وانتصب غبًّا على الظّرف، وَحُبًّا على التمييز. قال بعضهم:

فالإكثار من الزّيارة مُملّ، والإقلال منها مُخلّ، ونظم البعض هذا المعنى فقال:

عليك بإغباب الزِّيارة إنّها ... إذا كَثُرتْ كانت إلى الهَجْر مَسْلَكا

فإني رأيتُ الغَيْثَ يسأمُ دائمًا ... وَيُسْأَلُ بالأيدي إذا كان مُمْسكا

وهذا الحديث قد عدَّه العسكري من الأمثال» ا.هـ[٢]

(٦) القَصْدُ في الْحُبّ:

فعن أبي هريرة ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ

---

(١) حسن رواه البزار، وغيره، وحسّنه السيوطي والألباني، وانظر: «صحيح الجامع» (٣٥٦٢).

(٢) «فيض القدير» (٤/٨٢) باختصار يسير.

«أَحْبِبْ حَبِيبك هَوْنًا ما، عَسَى أن يكون بَغِيضك يَوْمًا ما، وَأَبْغِضْ بغيضك هَوْنًا ما، عَسَى أن يكون حَبِيبك يَوْمًا ما» [1].

قال الإمام ابن العربي: «معناه: أن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن، فقد يعود الحبيبُ بغيضًا وعكسه، فإذا أَمْكَنْتَه من نفسك حال الحبّ ثم عاد بغيضًا كان لِمَعَالِم مضارّك أَجْدَر لما اطّلع منك حَال الحُبّ بما أَفْضَيْتَ له من الأسرار» ا.هـ.

وقال الحسنُ الْبَصْري - رحمه الله - :

«أحبّوا هونًا وأبغضوا هونًا، فقد أفرط قوم في حُب قوم فهلكوا، وأفرط قوم في بغض قوم فهلكوا».

هذه بعض الأسباب المقوية للمحبّة بين المؤمنين، فما أحوجنا إليها لِرَأْبِ الصَّدع، وَلِرَصّ الصّف الإسلامي، خصوصًا في هذا الزمان، الذي اجتمعت علينا فيه قوى الكفر والطغيان.

رابعًا: لوازم المحبّة في الله تعالى:

من لوازم الحب في الله تعالى:

(١) التّصيحة: مع مراعاة الآداب الشرعية فيها: كالرّفق، واللّين، والتواضع، والحكمة، وأن لا تكون على الملأ.

(٢) أن تحب له ما تحبّ لنفسك: وقد تقدم الحديث الدّال على ذلك قريبًا.

(٣) وصله بالزّيارة.

(٤) المسارعة في قضاء حاجته.

(٥) الذّبّ عن عِرْضه.

(٦) حفظُ سِرّه.

---

(١) **صحيح**: رواه الترمذي، والبيهقي، وانظر: «صحيح الجامع» (١٧٨).

(٧) إعانته على الخير.

(٨) كَبْح جماحه عن الشّر.

(٩) الدّعاء له بظاهر الغيب.

(١٠) إرشاده إذا اختل.

(١١) مفارقته إذا ضَلّ.

« اللّهم إنا نسألك حُبَّك، وَحُبّ من أَحَبّك، وَحُبّ كُلّ عَمَلٍ يُقَرِّبنا مِنْ حُبِّك » .



٨ الصَّلاةُ على النّبي ﷺ

من دلائل مَحَبَّة النّبي ﷺ : كَثْرة الصّلاة عليه؛ لأن من أحَبّ شيئًا أكثر من ذِكْره.

و لم لا نكثر من الصّلاة عليه، وهو الذي:

بَلَغَ الْعُلاَ بكَمَالِه كَشَفَ الدُّجَى بجَمالِه
عَظُمَتْ جَمِيعُ خِصَالِه صَلُّوا عليه وآلِه

لم لا نكثر من الصّلاة عليه، وهو الذي:

جاءت لِدَعْوَتِه الأشجارُ سَاجِدَةً تَمْشي إلَيه على سَاقٍ بلا قَدَم
كأنّما سَطَّرتْ سَطْرًا لمّا كَتَبتْ فروعُها مِنْ بَدِيعِ الخَطِّ باللَّقَمِ[1]

و لم لا نكثر من الصّلاة عليه، و :

هو الحبيبُ الّذي تُرْجَى شَفَاعتُهُ لكلِّ هَوْلٍ مِن الأَهْوالِ مُقْتَحِمِ
دعا إلى الله فالْمُسْتَمْسِكون بِه مُسْتَمْسِكون بِحَبْلٍ غيرِ مُنْفَصِمِ

أخي:

ولمكانة «الصّلاة على النبي ﷺ» ، فالحديث على السطور التالية يدور حول أربعة أمور:

الأول: معنى الصّلاة عليه.

والثاني: صِيَغ الصلاة عليه.

والثالث: مواطن الصّلاة عليه.

والرابع: ثمرات الصلاة عليه.

والله ولي التوفيق.

---

(١) اللّقم : وسط الطريق.

أوّلاً: معنى الصَّلاة على النَّبي ﷺ:

الصّلاة في الأصل معناها: الدّعاء، وهذا بالنسبة للعبد. قال تعالى:

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ ﴾ [التوبة: ١٠٣].

قال الحافظ ابن كثير – رحمه الله – :

« قوله: ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ ﴾ أي: ادع لهم واستغفر لهم » ا.هـ[١].

وصلاةُ العَبْد على النبي ﷺ معناها: الثناء على الرّسول ﷺ وسؤال الله تعالى أن يُعْلي ذِكْرَه وأن يزيده تَعْظيمًا وتشريفًا.

وأمّا صلاة الله – سبحانه – فنوعان :

عامّة ، وخاصّة.

أمّا العامّة: فهي صلاته على عباده المؤمنين. قال تعالى:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ ﴾ [الأحزاب: ٤٣].

وأمّا الخاصّة: فهي صلاته على أنبيائه ورسله خصوصًا على خاتمهم محمّد ﷺ

ومعنى الصلاة من الله – تعالى – : أنها الثناء منه على من يُصلّي عليه.

قال أبو العالية: « صلاة الله على رسوله: ثناؤه عليه عند الملائكة ».

وقال في قوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَـٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ ﴾ [الأحزاب: ٥٦]. قال:

« صلاة الله ﷻ: ثناؤه عليه، وصلاة الملائكة عليه: الدّعاء » [٢].

وأمّا ما اشتُهر عند بعض الناس من أن صلاة الله على من يصلّي عليه بمعنى: « الرحمة ».

---

(١) « تفسير ابن كثير » (٢/٣٨٦).

(٢) حسن: رواه إسماعيل بن إسحاق في « فضل الصلاة على النبي ﷺ » (ص٨٠).

فهذا القول غير صحيح، وذلك لأن الله - سبحانه - فرّق بين صلاته على عباده ورحمته. فقال:

﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٥- ١٥٧].

فعطف الرحمة على الصلاة، فاقتضى ذلك تغايرهما[١].

ثانيا: صِيَغُ الصّلاةِ على النّبي ﷺ:

للصّلاة على النّبي ﷺ عِدّة صِيَغ، منها:

(١) عن أبي مسعودٍ عقبة بن عمرو الأنصاري رضي الله عنه قال:

أتانا رسولُ الله ﷺ ونحن في مَجْلسِ سَعْدِ بن عُبادة رضي الله عنه فقال له بشيرُ بن سعد: قد أَمَرنا اللهُ أن نُصَلّي عليك، فكيف نُصلّي عليك؟

قال: « **قولوا: اللّهُمّ صَلِّ على مُحمّد، وعلى آل مُحمّد، كما صلّيْتَ على آل إبراهيم، وباركْ على مُحَمّد، وعلى آل مُحَمّد، كما باركتَ على آلِ إبْرَاهيم، والسّلامِ كما قَدْ عَلِمْتُم** »[٢].

(٢) وعن أبي حُمَيْد السَّاعِديّ رضي الله عنه أنهم قالوا:

يا رسولَ الله! كيف نُصلّي عليك؟

فقال رسولُ الله ﷺ :

« **قولوا: اللّهُمّ صَلِّ على مُحمّد وأزوجِهِ وَذُرِّيّته، كما صَلَّيْتَ على آل إبراهيم، وبارك على محمد وأزواجه وذرّيته، كما باركتَ على آلِ إبراهيم إنّك حَميدٌ مجيد** »[٣].

---

(١) انظر: « دلائل الخيرات في الصلاة والسلام على خير البريّات » للشيخ/ محمد بيومي (١٣، ١٤) باختصار.

(٢) رواه أحمد (٥/٢٧٤)، ومسلم (٤٠٥)، والنسائي (٣/٤٥)، وغيرهم.

(٣) رواه البخاري (٦٣٦٠)، ومسلم (٤٠٧)، وغيرهما.

(٣) وعن أبي سعيد ﷺ قال:

قلنا يا رسول الله، هذا السّلام عليك قد عرفناه، فكيف الصّلاة عليك؟

قال: «**قولوا: اللّهُمّ صَلِّ على مُحَمّد عَبْدك وَرَسُولك، كما صَلَّيْتَ على إبراهيم، وَبَارِكَ على مُحَمّد وعلى آل مُحَمّد، كما باركتَ على آلِ إبْرَاهيم**» [١].

(٤) وعن طلحة بْنِ عُبيد الله ﷺ قال:

قلتُ: يا رسول الله، كيف الصّلاة عليك؟

قال: «**قل: اللّهُمّ صَلِّ على مُحمّد وعلى آل محمد، كما صَلَّيتَ على إبراهيم إنّك حَمِيدٌ مَجِيد، وبارك على مُحَمّد، وعلى آل محمد، كما باركتَ على إبراهيم، إنك حَمِيدٌ مَجِيد**» [٢].

ثالثاً: مَوَاطِنُ الصّلاة على النّبي ﷺ:

للصّلاة على النبي ﷺ مواضع:

أوّلها: - وهو أهمها وآكدها - في آخر التَّشَهُّد:

والصّلاة عليه ﷺ في آخر التشهد: واجبة، لقوله ﷺ:

«**إذا صَلَّى أحدُكم فَلْيَبْدأ بتحميد رَبِّه والثّناء عليه، ثم يُصَلِّي على النّبي ﷺ ثم يَدْعو بِمَا شَاء**» [٣].

الموضع الثاني: في التشهد الأوّل:

قال الشيخ/ محمد بيومي - حفظه الله -:

«الصّلاة على النّبي ﷺ في التشهّد الأوّل واجبة كالصلاة عليه في التشهد الأخير،

---

(١) رواه البخاري (٦٣٥٨)، وغيره.

(٢) حسن: رواه أحمد في «المسند» (١/١٢٦).

(٣) صحيح: روه أحمد (٦/١٨)، والترمذي (٣٤٧٧)، وغيرهما.

إذ لا فرق بين التشهّدين، لأن الراجح أن المصلّي يأتي بالتشهّد الأوّل كاملاً، وذلك لعموم قول النبي ﷺ لأصحابه لمّا قالوا له:

يا رسول الله، قد علمنا كيف نسلّم عليك، فكيف نصلّي عليك؟

فقال لهم: « **قولوا: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد** ... » إلخ الحديث.

ففي هذا الحديث لم يفرّق النبي ﷺ بين التشهد الأوّل والتشهد الثاني، وهذا ما نصّ عليه الإمام الشافعي في « الأمّ » (١٠٢/١) » ا.هـ[١].

قلت: وممّن قال بوجوبها - أيضًا - : الشيخ الألباني - رحمه الله - في « صفة الصّلاة » حيث قال:

« وكان ﷺ يُصلّي على نفسه في التشهّد الأوّل وغيره[٢] » ا.هـ[٣].

الموضع الثالث: في صلاة الجنازة بعد التكبيرة الثانية:

فعن سعيد بن المسيّب - رحمه الله - قال:

« إن السُّنّة في صلاة الجنازة: أن يَقْرأ بفاتحة الكتاب، وَيُصَلّي على النبي ﷺ ، ثمُ يُخْلص الدّعاءَ للمّيت حتى يَفْرُغ، ولا يقرأ إلاّ مرَّة واحدة، ثم يُسَلّم في نَفْسه » [٤].

الموضع الرابع: في الخُطَب: كخُطَبةِ الجُمُعة، والعِيدَيْن، وغيرهما:

فعن عون بن أبي جُحيفة قال:

كان أبي من شُرَطِ [٥] عليّ، وكان تحت المنبر، فحدّثني أنه صَعَد المنبر - يعني عليًّا رضي الله عنه - فَحَمِد الله، وأثنى عليه، وصَلّى على النبي ﷺ ، وقال:

---

(١) « دلائل الخيرات » (٤٣).

(٢) أبو عوانة في « صحيحه » (٣٢٤/٢) والنسائي.

(٣) « صفة الصلاة » (١٦٤).

(٤) صحيح: رواه إسماعيل بن إسحاق، والحاكم (٣٦٠/١)، وصحّحه، ووافقه الذّهبي، والألباني.

(٥) الشَرَط: جمع شرطة،، وهو الجندي الذي يقوم بالحراسة.

«خَيْرَ هذه الأُمّة بعد نَبيها: أبو بكر، والثاني: عُمر، قال: يجعلُ اللهُ الخَيْرَ حَيْثُ شَاء»[(١)].

الموضع الخامس: بعد الأذان:

فعن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - أنه سمع رسول الله ﷺ يقول:

«إذا سَمِعْتُم المؤذّن فقولوا مِثْلَ ما يقول، ثم صَلُّوا عليَّ فإنّه من صَلَّى عليَّ صلاةً، صَلّى اللهُ عليه بها عَشْرًا، ثم سَلُوا الله لي الوسيلةَ فإنّها منزلةٌ في الجنّة لا تَنْبَغي إلاّ لَعْبدٍ مِنْ عِباد الله وأرجو أن أكونَ أنا هو، فَمَنْ سأل لي الوسيلةَ حَلّتْ له الشّفاعة»[(٢)].

الموضع السادس: عند الدُّعَاء:

وله ثلاث مراتب:

إحداها: أن يُصَلِّي عليه قَبْل الدُّعَاء وَبَعْدَ حَمْدِ الله تعالى.

المرتبة الثانية: أن يُصَلِّي عليه في أوَّل الدّعاء وَأوسَطِه وآخرِه.

والثالثة: أن يُصَلِّي عليه في أوَّله وآخره، ويَجعَل حَاجَتَه متوسطةً بينهما.

- قال ﷺ : «**إذا صَلَّى أحدُكم فَلْيَبْدأ بتحميد الله والثناء عليه، ثم لِيُصَلِّ على النّبي ﷺ ثم لِيَدعُ بَعْدُ بما شاء**»[(٣)].

- وقال عليّ ﷺ:

«ما مِنْ دُعَاءٍ إلاّ بينه وَبين الله حجَابٌ حتى يُصَلِّي على مُحَمّد ﷺ ، فإذا صلّى على النبي ﷺ ، انْخَرق الحِجَابُ، واسْتُجيبَ الدُّعاء، وإذا لم يُصَلِّ على النّبي ﷺ ، لم يُسْتَجب الدُّعَاء».

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد في «المسند» (١٠٦/١)، وقال الشيخ/ أحمد شاكر: إسناده صحيح.

(٢) أخرجه مسلم (٣٨٤).

(٣) تقدّم قريبًا.

الموضع السابع: عند دخولِ المَسْجِد والخروج منه:

فعن فاطمة بنت الحسين عن جدّها فاطمة الكبرى، قالت:

كان رسولُ الله ﷺ إذا دخل المسجد قال:

« **اللّهم صَلِّ على مُحمّد وَسَلِّم، اللّهم اغْفِرْ لي ذُنوبي، وافْتَحْ لي أبوَابَ رَحْمَتِك، وإذا خَرجَ قال مِثْلَ ذلك، إلاّ أنه يقول: أَبْوَابَ فَضْلِك** » [١].

الموضع الثامن: على الصَّفَا والمَرْوَة:

فعن ابن عمر، أن النبي ﷺ كان يكبِّر على « الصّفا » ثلاثًا يقول:

« **لا إله إلاّ الله وَحْده لا شريك له، له المُلْكُ، وله الحمدُ وهو على كلّ شيء قدير** »، ثم يُصَلِّي على النبي ﷺ ، ثم يدعو، ويُطيل القيام والدّعاء، ثم يفعل على المروة مثل ذلك وهذا من توابع الدّعاء أيضًا[٢].

الموضع التاسع: عند اجتماع القوم، وَقَبْلَ تَفرُّقِهم:

فعن جابر ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ :

« **ما اجتمع قومٌ ثم تَفرّقوا عَنْ غَيْرِ ذِكْرِ الله وَصَلاةٍ على النَّبي ﷺ ، إلاّ قاموا عَنْ أَنْتَنَ مِنْ جِيفة** » [٣].

وهناك أحاديث أخرى.

الموضع العاشر: عند وُرُود ذِكْره ﷺ :

فعن الحسين بن عليّ - رضي الله عنهما - عن النبي ﷺ قال:

---

(١) **صحيح بشواهده**: رواه أبو داود (٤٦٥)، وغيره، وقال الأرناؤوطيان: صحيح بشواهده.

(٢) **صحيح**: رواه إسماعيل بن إسحاق في « فضل الصّلاة على النبي » (٨٧)، وصحّحه الألباني.

(٣) **صحيح**: رواه أبو داود الطيالسي (١٧٥٦)، وانظر: « صحيح الجامع » (٥٣٨٢).

«بَخِيلٌ مَنْ ذُكِرتُ عِنْده فَلَمْ يُصَلِّ عَليَّ» (١).

الموضع الحادي عشر: عند طَرَفَي النَّهار:

فعن أبي الدرداء ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«مَنْ صَلَّى عَلَيَّ حِين يُصْبح وَحِينَ يُمْسِي عَشْرًا، أدركته شَفَاعتي يَوْمَ القيامة» (٢).

الموضع الثاني عشر: عند الوقوف على قَبْرِه ﷺ:

فعن عبد الله بن دينار، قال:

«رأيتُ عبد الله بن عمر يقف على قبر النبي ﷺ، فيصلّي على النبي ﷺ، ويدعو لأبي بكر وعمر – رضي الله عنهما – » (٣).

الموضع الثالث عشر: في صلاة العيد:

فعن علقمة: أن ابن مسعود وأبا موسى وحذيفة: خرج عليهم «الوليد بن عقبة» قبل العيد يومًا فقال لهم:

«إن هذا العيد قد دنا فكيف التكبير فيه؟».

قال عبد الله – يعني: ابن مسعود: «تبدأ فتكبِّر تكبيرةً تَفْتَتح بها الصّلاة وتحمد ربَّك، وتُصَلِّي على النّبي ﷺ، ثم تَدْعو وتكبّر وتفعل مثل ذلك، ثم تكبّر وتفعلُ مثل ذلك، ثم تقرأ، ثم تكبّر وتركع، ثم تقوم وتقرأ وتحمد ربّك وتُصَلِّي على النّبي ﷺ، ثم تدعو وتُكبّر، وتفعلُ مِثْلَ ذلك، ثم تكبّر وتَفْعَلُ مِثْل ذلك، ثم تكبرّ وتفعل مثل ذلك، ثم تركع». فقال حذيفةُ وأبو موسى:

---

(١) رواه الترمذي (٣٥٤٦)، وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) **حسن**: رواه الطبراني، وحسّنه الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٦٢٣٣).

(٣) **صحيح موقوف**: رواه مالك في «الموطأ» (١/١٦٦)، وقال محققا «جلاء الأفهام» (٢٢٨): إسناده صحيح موقوف.

« صَدَق أبو عبد الرحمن » [١].

الموضع الرابع عشر: يوم الجُمُعة وَلَيْلَتها:

فعن أنس رضي الله عنه قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

« أَكْثِروا الصَّلاةَ عليَّ يَوْمَ الْجُمُعة وليلةَ الْجُمعة، فَمَن صَلّى عَليَّ صَلاةً، صَلّى اللهُ عليه بها عَشْرًا » [٢].

الموضع الخامس عشر: عند الْهَمّ وَطَلَب المغفرة:

فعن أُبي بن كَعْب رضي الله عنه قال:

كان رسولُ الله ﷺ ، إذا ذَهَب ثُلُثَا اللّيل قام فقال:

« يا أَيُّها النّاسُ، اذكروا الله، جاءت الرّاجِفَةُ تَتْبَعُها الرّادِفَةُ، جَاءَ الموتُ بِمَا فيه ».

قال أُبي: قلتُ: يا رسول الله إني أُكْثِرُ الصّلاة عليك، فَكَمْ أَجْعَلُ لَكَ في صَلاتي؟

فقال: **« ما شِئْتَ »**.

قال: قلتُ: الرُّبعَ؟

قال: **« ما شئتَ، فإن زِدْتَ فهو خَيْرٌ لَكَ »**.

قلتُ: النصف؟

قال: **« ما شئتَ، فإن زدتَ فهو خَيْرٌ لك »**.

قال: قلتُ: فالثلثين؟

قال: **« ما شئتَ، فإنْ زدتَ فهو خَيْرٌ لك »**.

قلتُ: أجعلُ لَكَ صَلاَتي كُلَّها؟

---

(١) **صحيح**: رواه إسماعيل القاضي، وصحّحه ابن كثير.

(٢) **حسن**: رواه الحاكم (٢/٤٢١)، وانظر: « الصحيحة » (١٥٢٧).

قال: «**إذًا تُكْفَى هَمَّك، وَيُغْفر لَكَ ذَنْبُك**» [1].

والمعنى: أن من يجعل دعاءه صلاة على النبي ﷺ يكفيه الله ما أهَمَّهُ مِنْ أَمْر دِينِهِ وَدُنياهُ.

أخي المسلم:

هذه مواطن الصّلاة على رسول الله ﷺ فلا يخطئك موطن، ففي الصّلاة ثواب عظيم، وفضل كبير كما سيأتي.

رابعًا: ثمراتُ الصّلاة على النّبي ﷺ:

الأولى: امتثال أمر الله سبحانه وتعالى.

الثانية: موافقته – سبحانه – في الصلاة عليه ﷺ وإن اختلفت الصلاتان.

الثالثة: موافقة ملائكته فيها.

الرابعة: حصول عشر صلوات من الله على المصلّي مرة.

الخامسة: أنه يُرفع له عشر درجات.

السادسة: أنه يُكْتب له عشر حسنات.

السابعة: أنه يُمْحى عنه عشر سيئات[2].

الثامنة: أنه يرجى إجابة دعائه إذا قدّمها أمامه – كما تقدّم في الحديث – .

التاسعة: أنها سبب لشفاعته ﷺ إذا قرنها بسؤال الوسيلة له.

العاشرة: أنها سبب لغفران الذنوب – كما تقدّم – .

---

(١) حسن: رواه أحمد في «المسند» (١٣٦/٥)، والترمذي (٢٤٥٧)، والحاكم في «المستدرك» (٤٢١/٢)، وصحّحه ووافقه الذهبي، وقال الهثمي: إسناده جيد.

(٢) قال ﷺ: «أتاني آتٍ مِنْ رَبي ﷻ، فقال: مَنْ صَلّى عليك مِنْ أُمّتك صلاةً كَتبَ اللهُ له بها عَشْر حَسَنات، ومَحَا عنه عَشْر سيئات، وَرَفع له عَشْر درجات، ورَدّ عليه مثلها» رواه أحمد (٢٩/٤)، وغيره، وإسناده صحيح.

الحادية عشرة: أنها سبب لكفاية الله العبد ما أهمّه.

الثانية عشرة: أنها سبب لقضاء الحوائج.

الثالثة عشرة: أنها سبب لصلاة الله على المصلّي وصلاة ملائكته عليه.

الرابعة عشرة: أنها سبب لِردّ النّبي ﷺ الصّلاة والسّلام على الْمُصَلّي والْمُسَلّم عليه[(١)].

الخامسة عشرة: أنها سبب لطيب المجلس، وأن لا يعود حسرة على أهله يوم القيامة.

السادسة عشرة: أنها تنفي عن العبد اسم البخل إذا صَلّى عليه عند ذِكْرِه ﷺ.

السابعة عشرة: أنها تنجي من نتن المجلس الذي لا يذكر فيه الله ورسوله ويُحمد ويُثنى عليه فيه، ويصلّي على رسوله ﷺ.

الثامنة عشرة: نجاته من الدعاء عليه برغم الأنف إذا تركها عند ذِكْرِه ﷺ[(٢)].

التاسعة عشرة: أنها سببٌ لِنيل رحمة الله له، لأن الرحمة إمّا بمعنى الصلاة كما قاله طائفة، وإمّا من لوازمها وموجباتها، على القول الصّحيح، فلابد للمصلّي عليه من رحمة تناله.

العشرون: أنها سببٌ للبركة في ذات المصلّي وعمله وعمره، وأسباب مصالحه، لأن المصلّي داع ربَّه أن يبارك عليه وعلى آله، وهذا الدعاء مستجاب، والجزء من جنسه.

الحادية والعشرون: أنها سببٌ لدوام محبّته للرسول ﷺ وزيادتها وتضاعفها، وذلك عقدٌ من عقود الإيمان الذي لا يتم إلاّ به، لأن العبد كلّما أكثر من ذكر المحبوب، واستحضاره في قلبه، واستحضار محاسنه ومعانيه الجالبة لحبّه، تضاعف حُبُّه له وتزايد شوقه إليه واستولى على جميع قلبه.

الثانية والعشرون: أن الصّلاة عليه ﷺ سببٌ لمحبّته لِلْعَبْد، فإنها إذا كانت سببًا لزيادة محبة المصلّي عليه له، كذلك هي سبب لمحبّته هو للمصلّي عليه.

---

(١) قال ﷺ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُسَلِّم عليَّ إلا رَدّ الله إليّ روحي حتى أرُدّ عليه السلام» رواه أحمد وإسناده حسن.

(٢) عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «رَغِم أنفُ رَجُلٍ ذُكِرتُ عنده فلم يُصَلِّ عليَّ، ورغم أنفُ رَجُلٍ دخل عليه رمضان ثم انسلخ قَبلَ أن يُغفَر له، ورَغِم أنفُ رَجُلٍ أدرَكَ عنده أبواه الكِبَرَ فلم يدخلاه الجنة» رواه أحمد (٢/٢٥٤)، والترمذي (٣٥٤٥)، وغيرهما، وإسناده صحيح.

الثالثة والعشرون: أنها متضمّنة لذكر الله وشكره، ومعرفة إنعامه على عبيده بإرساله.

الرابعة والعشرون: أن الصّلاة عليه ﷺ من العبد هي دعاء. ودعاء العبد وسؤاله من رَبِّه نوعان:

أحدهما: سؤاله حوائجه ومهمّاته، وما ينوبه في الليل والنهار. فهذا دعاء وسؤال وإيثار لمحبوب العبد ومطلوبه.

الثاني: سؤاله أن يثني على خليله وحبيبه، ويزيد في تشريفه وتكريمه وإيثار ذكره، ورفعه، ولا ريب أن الله - تعالى - يحب ذلك، ورسوله يحبّه.

الخامسة والعشرون: أنها سببٌ لهداية العبد وحياة قلبه.

أخي المسلم:

هذه بعض ثمرات وفوائد الصّلاة والسلام على رسول الله ﷺ فاحرص على نيلها، واجتهد في تحصيلها.

وفّقني اللهُ تعالى وإيّاك لما يُحبّ ويرضى.



٩- الأدب

اعلم - رَحِمَكَ اللهُ - أنَّ الأدبَ إن تطمَّعت[١] به نَجَع، وإن تَعَطَّرتَ به سَطَع، وإن تَرَدَّيْتَ به نَفَع.

وأن من اكتسب أدبًا اكتسب نَسَبًا، وأن الأدب سَبَب لِمُلْك الأدب، ولقطات الأدب قرضات الذّهب، وأن حُلِيّ الرِّجال ما يُحْسِنونه، وَحُلِيّ النّساء ما يَلْبسونه.

فَـيَا لائمـي دَعْـنِي أُغَـالِي بِقِيمَـتِي فقـيمةُ كُـلِّ الـنّاسِ مـا يُحْسِـنونَهُ

فَذَكِّ عَقْلَك بالأدب، كما تُذكِّي النّارَ بالحَطب.

واعلم أن الأدبَ أقرب الطّرق إلى الله، فلله طرائق بِعَدَدِ الأنْفاس[٢].

ولأهمية هذا الْخُلُق، فالحديث - هنا - يدور حول أمرين:

الأول: تعريف الأدب.

والثاني: أنواع الأدب.

والله الموفق، لا إليه غَيْرُهُ، ولا رَبَّ سواه.

أوّلاً: تعريف الأدب:

الأدب «لُغةً» اسْمٌ مأْخُوذٌ من مادَّةِ «أَدَبَ» التي تَدُلُّ على مَعْنَى تَجْميع النَّاس إلى الطعام، والآدِبُ هو الدّاعي لذلك، ومن هذا القياس أيضًا الأَدَبُ لأنه مُجْمَعٌ على استحسانه.

وقال ابْنُ مَنْظور: سُمِّي أدبًا لأنه يأدب الناس إلى المحامد وينهاهم عن المقابح.

---

(١) تطمّعت: رغبت في الشيء شهوة له.

(٢) «صلاح الأمة» (٥/٦٢١).

وقال أيضًا: وأَصَلُ الأَدَب الدُّعاءُ، ومنه قيل للصَّنِيع يُدْعَى إليه الناس: مَدْعَاةٌ ومَأْدُبَةٌ.

واصطلاحًا: قال المناويُّ: الأدب رياضةُ النُّفُوس وَمَحَاسِنُ الأخلاق ويَقَعُ على كُلِّ رِياضة محمودة يَتَخَرَّجُ بها الإنسانُ في فَضِيلةٍ من الفضائل.

وقيل: هو عبارة عن مَعرفة ما يُحْتَرزُ به عن جميع أَنْواعِ الخَطَأ.

وقال الإمام ابن القيم – رحمه الله – :

«وحقيقة الأدب: استعمالُ الْخُلُق الجميل. ولهذا كان الأدب اسْتخراجًا لما في الطبيعة من الكمال من القول إلى الفعل» [1].

والأَدَبُ أَدَبَان: أَدَبُ شريعة، وأَدَبُ سياسة. فأَدَبُ الشّرِيعة: مَا أَدَّى الفَرضْ، وأَدَبُ السِّياسة: ما عَمَّر الأرض.

وكلاهما يرجع إلى العدل الذي به سلامةُ السُّلْطَان وَعَمارةُ الْبُلْدان[2].

قال الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ ﴾ [التحريم: ٦].

قال ابْنُ عباس وغيرُهُ: أدِّبوهم وعلِّموهم.

وهذه اللّفظة مؤذنة بالاجتماع.

فالأدب: اجتماعُ خصال الخير في العبد، ومنه المأدبةُ، وهي الطعام الذي يجتمع عليه الناس.

وقال الإمام ابن القيم – رحمه الله – :

«علم الأدب: هو علم إصلاح اللّسان والخطاب وإصابة مواقعه، وتحسين ألفاظه عن الخطأ والخلل وهو شعبةٌ من الأدب العام» ا.هـ.

وعلى هذا: فالأدب: استعمال ما يُحْمَدُ قَوْلاً وَفِعْلاً، وبتعبير آخر:

---

(١) «تهذيب مدارج السالكين» (٤٤٨).

(٢) «فضل الله الصّمد» (١/١٧٧، ١٧٨).

الآخذ بمكارم الأخلاق، أو الوقوف مع المستحسنات.

فإذا تعلّق الأمْر باللّغة، وكان الأدب معناه مَعْرِفةُ ما يُحْتَرزُ به من جميع أنواع الخطأ كما قال الْجُرْجَانِيُّ[1].

وبالجملة: فالأدب هو الدين كلّه.

فالْزَم - أخا الإسلام - الأدب ظاهرًا وباطنًا، فما أساء أَحَدٌ الأدَبَ ظاهرًا إلاّ عُوقِب ظاهرًا، وما أساء أَحدٌ الأدَبَ باطِنًا إلاّ عُوقِب باطنًا.

واعلم أن أَدَب الجوارح لا يتم إلاّ بعد مَعْرِفة القلب لِلرَّب.

- **قال خَيْرُ النّسَّاج** - رحمه الله - :

«متى أساءت الجوارحُ الأدب، فهو من غَفْلة الْقَلْب، وَظُلْمَة السِّر».

وقال: «الخوف: سَوْط اللهِ، يُقَوِّم به أَنْفَسًا قد تَعوَّدت سُوءَ الأَدَب»[2].

- وقيل: لمّا ورد أبو حفص العراق جاء إليه الإمامُ الجنيد، فرأى أصحاب أبي حفص وقوفًا على رأسه يأتمرون لأمْره، لا يُخْطِئ أحد منهم، فقال:

يا أبا حفص، أَدّبْتَ أصحَابَك أَدَبَ الملوك. فقال:

لا يا أبا القاسم، ولكن حُسن الأدب في الظّاهر عنوانُ الأدب في الباطن.

ثانيًا: أنواع الأدب:

اعلم - أخي الكريم - أن الأدب ثلاثة أنواع:

الأوّل: الأدب مع الله تعالى:

قال الإمام ابن القيم - رحمه اللّهُ تعالى - :

«الأدب مع المولى - تبارك وتعالى - ثلاثة أنواع:

---

(١) «التعريفات» (١٤)، وانظر «نضرة النعيم» (١٤٢/٢).

(٢) «الرسالة القشيرية» (٢٧).

أحدها: صيانةُ معاملته أن يشوبها بنقيصة.

الثاني: صيانة قلبه أن يَلْتفتَ إلى غيره.

الثالث: صيانة إرادته أن تتعلّق بما يَمْقُتُك عليه.

فالأدب مع الله حُسْنُ الصُّحْبَة مَعَه، بإيقاع الحركاتِ الظَّاهِرة والْبَاطِنَةِ على مُقْتَضَى التَّعْظِيم، والإجلالِ والحياءِ» ا.هـ.

وقال: «وتأمَّل أحوال الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - مع الله وخطابهم وسؤالهم كيف تجدها كلّها مشحونة بالأدب قائمة به».

▫ أدبُ آدم عليه السلام:

قال آدم: ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٣].

ولم يقل: رَبِّ قَدرتَ عَليَّ، وقَضَيْتَ عَليَّ.

▫ أدبُ الخليل عليه السلام:

قال إبراهيم: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ۝ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ۝ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ [الشعراء: ٧٨- ٨٠].

ولم يقل: «وإذا أمرضني»؛ حفظًا للأدب مع الله.

▫ أدبُ أيوب عليه السلام:

قال أيوب: ﴿ مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٣].

ولم يقل: «فعافني واشفني»[١].

---

(١) وفي سورة «ص»: ﴿ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾ [ص: ٤١]. قال العَلامة الشنقيطي في «أضواء البيان»: «وقد راعى الأدب في ذلك حيث لم ينسبه إلى الله في دعائه، مع أنه فاعله ولا يقدر عليه إلاّ هو» ا.هـ.

□ أدبُ يوسف عليه السلام:

قال يوسف عليه السلام لأبيه وإخوته: ﴿ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ ﴾ [يوسف: ١٠٠].

و لم يقل: «أخرجني من الجُبِّ» حِفظًا للأدب مع إخوته، وتَفتِّيًا عليهم ألا يُخْجلهم بِمَا جَرَى في الْجُبِّ.

□ أَدَبُ الخَضِر عليه السلام:

قال الخضر – عليه السلام – في السفينة: ﴿ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ [الكهف: ٧٩].

و لم يقلك «فأراد ربُّك أن يعيبها».

□ أدَبُ موسى عليه السلام:

قال موسى عليه السلام: ﴿ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾[القصص: ٢٤].

و لم يقلك «أطعمني».

□ أدَبُ عيسى عليه السلام:

قال عيسى عليه السلام: ﴿ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ﴾ [المائدة: ١١٦].

و لم يقل: « لم أَقُلْه»؛ وَفَرْقٌ بين الجوابين في حَقِيقة الأَدَب.

□ أدَبُ خاتم الأنبياء ﷺ :

قال الإمام ابن القيِّم – رحمه الله – :

«وَجَرَت عَادَةُ الْقَوْم: أن يذكروا في هذا المقام قوله تعالى عن نَبيِّه ﷺ، حين أراه ما أراه:

﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾ [النجم: ١٧].

وَصَدَّر بَابَ الأَدَب بهذه الآية.

وكأنّهم نظروا إلى قول مَنْ قال من أهْل التّفْسير: إن هذا وَصْفٌ لأَدَبه ﷺ في ذلك المقام، إذ لم يَلْتَفِتْ جَانبًا، ولاَ تَجاوَزَ مَا رآه، وهذا كمال الأَدَب، والإخلالُ به: أن يَلْتَفتَ الناظرُ عن يمينه وعن شماله، أَوْ يَتطلّع أَمَام المنظور.

فالالتفات زَيْغٌ، والتّطَلّع إلى ما أمام المنظور: طغيانٌ ومجاوَزةٌ. فَكَمالُ إقبالِ النّاظِر على المنظور: أن لا يَصْرِفَ بَصَرَه عَنْ يُمْنَةٍ ولا يَسْرَةٍ. ولا يتجاوَزَه.

هذا معنى ما حصلته عن شيخ الإسلام ابن تيمية قَدَّس اللهُ رَوَحه» ا.هـ.

والمقصود: أن الأدب مع الله تعالى: هو القيام بدينه، والتأدّب بآدابه، ظاهرًا وباطنًا.

ولا يستقيمُ لأحدٍ قَطُّ الأَدَبُ مع اللهِ تعالى إلاّ بثلاثة أشياء:

- معرفته بأسْمائه وصفاته.
- معرفته بدينه وَشَرْعه وما يُحبُّ وَما يكْرَه.
- ونفْسٌ مُسْتعدَّة قَابِلَةٌ لَيِّنةٌ مُتَهيِّئةٌ لقبول الْحَقِّ علْمًا وَعَملاً وَحَالاً.

ومن الأدب مع الله تعالى - أيضًا - :

■ **التأدُّب مع القرآن:**

في تلاوته، وتدبّره، لأن في ذلك العلم والمعرفة بما أَمَر به اللهُ ﷻ ونهى عنه، وتعظيم شعائره، وعدم انتهاك محارمه.

كذلك فإنه أفضل السُّبل وأقربها إلى الثّراء الرّوحي. قال تعالى:

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال: ٢].

■ **التأدُّب في الدّعاء:**

وذلك بالتوجّه إليه وَحْده دون غيره.

■ التأدُّب في الصّلاة:

قال الإمام ابن تيمية – رحمه الله – :

«من كمال أَدَب الصّلاة أن يقف العبدُ بَيْن يدي ربِّه مُطْرِقًا خافضًا طَرْفَه إلى الأرض، ولا يرفع بَصَرَه إلى فَوْق» ا.هـــ.

الثاني: الأَدَبُ مع النَّبيِّ ﷺ:

والأدب مع النبيِّ ﷺ يعني كمال التسليم له، والانقياد لأمْرِه، وَتَلقِّي خَبَرَه بالقَبُول والتّصْدِيق، وهذا رأسُ الأدب معه.

ومن مظاهر الأدب معه ﷺ:

(١) أن لا يَتَقدَّم المسلمُ بَيْن يَدَيْه بأمْرٍ ولا نَهْيٍ ولا إذْنٍ ولا تَصَرُّف حتى يأْمُرَ هوَ، ويْنهَى، وَيأْذَن:

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ [الحجرات: ١].

وهذا باق إلى يوم القيامة و لم يُنْسخ، فالتّقدّم بَيْن يَدَي سُنَّته بعد وفاته كالتّقدّم بَيْن يَدَيْه في حياته، ولا فَرْق بينهما عند ذي عقل سليم.

قال مجاهد: – رحمه الله تعالى – في تفسيره لهذه الآية:

«لا تَفْتاتوا[١] على الله ورسوله حتى يَقْضي اللهُ على لسانِ رَسولِهِ» [٢].

(٢) أن لا تُرْفعَ الأصواتُ فوق صَوْته:

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَـٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ [الحجرات: ٢].

---

(١) إفتات الكلام: ابتدعه. وافتات عليه في الأمر: حَكَم عَلَيه. وافتات برأيه: استَبدّ به.

(٢) رواه البخاري في «تفسير سورة الحجرات» باب (٤٩) تعليقًا.

قال الإمام القرطبيّ – رحمه الله تعالى :

« معنى الآية: الأمر بتعظيم رسول الله ﷺ وتوقيره، وخفض الصّوت بِحَضْرته وعند مخاطبته؛ أي إذا نَطَق ونطقتم فعليكم ألا تبلغوا بأصواتكم وراء الحدّ الذي يبلغه بصوته، وأن تَغُضّوا منها بحيث يكون كلامُه غالبًا لكلامكم، وَجَهْره باهرًا لجهركم؛ حتى تكون مزِيّته عليكم لائحة، وسابقته واضحة .. وقد كره بعضُ العلماء رفع الصّوت عند قبره ﷺ. وكره بعضُ العلماء رفع الصّوت في مجالس العلماء تشريفًا لهم، إذ هم وَرَثَة الأنبياء» ا.هـ[1].

- **قصّة:**

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال:

لمّا نزلَتْ هذه الآية:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ ﴾ (الآية) .. جلس ثابتُ بْنُ قيس في بيته، وقال:

« أنا من أهل النار » .

واحتبس عن النبيّ ﷺ فسأل النبيُّ ﷺ سَعد بْنَ معاذ، فقال:

« **يا أبا عمرو، مَا شَأْنُ ثَابت؟ اشْتَكَى[2]؟** » .

قال سعد: إنه لجاري وما علمتُ له بشكوى. قال: فأتاه سعد فَذَكَرَ له قَوْلَ رَسُول الله ﷺ فقال ثابت:

أُنزلت هذه الآية، ولقد علمتم أَنّي من أَرْفَعِكم صَوْتًا على رسولِ الله ﷺ [3] فأنا مِنْ أَهْل النّار.

فذكر ذلك سعد للنبيّ ﷺ فقال رسولُ الله ﷺ :

---

(١) « تفسير القرطبي » (٢٧٨/١٦).

(٢) **اشتكي**: مرض.

(٣) كان رضي الله عنه جهير الصَّوْت.

«بَلْ هو من أَهْل الجنّة» [١].

(٣) أن لا يجعل المسلمُ دُعاءَه كَدُعَاءِ غيره:

قال تعالى: ﴿ لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗاۚ ﴾ [النور: ٦٣].

قال العلاّمة الشنقيطي – رحمه الله تعالى – :

«المعنى: لا تجعلوا دعاءَكم الرّسول إذا دعوتموه كدعاء بعضكم بعضًا، فلا تقولوا له: يا محمّد مُصَرّحين باسْمه، ولا ترفعوا أصواتكم عنده كما يفعل بعضكم مع بعض، بل قولوا له: يا نبيَّ الله، يا رسولَ الله، مع خَفْضِ الصَّوْت احترامًا له ﷺ » ا.هـ[٢].

(٤) أنهم إذا كانوا معه على أمر جامع – من خُطْبةٍ، أو جهادٍ، أو رِبَاطٍ – لم يذهب أحدٌ منهم مَذْهَبًا في حَاجَته حتى يستأذنه:

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ جَامِعٖ لَّمۡ يَذۡهَبُواْ حَتَّىٰ يَسۡتَـٔۡذِنُوهُۚ ﴾ [النور: ٦٢].

(٥) أن لا يَسْتَشْكلَ قَوْلَهُ:

بل تُسْتَشْكَلُ الآراءُ لِقَوْله، ولا يُعَارَضُ نَصُّهُ بقياسٍ، بَلْ تُهْدَرُ الأَقْيِسَةُ وَتُلْقَى لِنُصُوصِه. ولا يُحرَّفُ كَلَامُهُ عن حقيقته لخَيال يُسَميِّه أصْحَابُهُ مَعْقُولاً، نعم هو مَجْهُولٌ، وعن الصَّوَاب مَعْزولٌ ولا يُوقَفُ قَبُولُ ما جَاءَ به ﷺ على موافقة أَحَدٍ. فَكُلُّ هذا مِنْ قِلَّة الأدَب معه ﷺ وهو عَيْنُ الْجُرْأة[٣].

الثالث: الأدبُ مَع الْخَلْق:

والأدب مع الخَلْق: معاملتهم على اختلاف مَرَاتبهم بما يَليق بهم، فَلِكُلِّ مَرْتبة أَدَبٌ.

---

(١) رواه مسلم وأحمد.

(٢) «أضواء البيان» (١٢٨/٤).

(٣) «مدارج السالكين» (٤٠٦/٢).

والمراتب فيها أَدَبٌ خاص.

فمع الوالدين: أدبٌ خاصٌّ للأب منها أدَبٌ هو أَخَصُّ به.

ومع العالِم: أدب آخر.

ومع السُّلْطان: أدبٌ يليق به.

ومع الأقران: أدب يليق بهم.

ومع الأجانب: أَدَبٌ غَيْرُ أَدَبه مع أَصْحابِه وَذَوِي أُنْسِه.

ومع الضّيف: أَدَبٌ غَيْرُ أَدَبه مع أهل بيته.

ولكلِّ حَالٍ أَدَبٌ: فللأكل آدابٌ. وللشّراب آدَابٌ. وللرّكُوبِ والدّخُولِ والخروجِ والسَّفرِ والإقامةِ والنّوم آدابٌ. وللّتبوُّل آدابٌ. وللكلام آدابٌ وللسّكونِ والاستماع آدابٌ[1].

وأَدَبُ الْمَرَءِ: عُنوان سَعَادته وفلاحه. وَقلّةُ أَدَبه: عنوان شَقَاوَته وَبَواره. فما استُجْلِبَ خَيْرُ الدّنيا والآخرة بمثلِ الأدب، ولا استُجْلب حِرْمَانَهما بمثل قِلّةِ الأدبِ.

فيا أخا الإسلام:

أَدِّب نَفْسَك بأدب الإسْلام، فإن مالت إلى الشهوات فألجمها بلجام التقوى، وإن أعْرَضَتْ عن الطاعات فَسُقْهَا بِسَوْط المجاهدة.

واستعن بالله عليها.

إذا لم يكن عَونٌ مِن الله للفتى ... فأكثرُ ما يَجْنى عليه اجْتِهَادُهُ

« اللّهمّ دُلّنا على قَهْر نفوسِنا التي هي أَقْرب أعدائنا إلينا، وأكثرهم نِكاية فينا » .

« يا دليلَ الحَيَارى، دُلّنا على طريق الصّادقين، واجعلنا من عبادِك الصّالحين» آمين.

❁❁❁❁❁

---

(١) ذكرنا هذه الآداب بالتفصيل في غير هذا الموضع. فراجعها.

١٠- الأدَبُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ

اعلم - أخي المسلم - أن الأدب «التامّ» مع النَّبيّ ﷺ دليلٌ على حُسْنِ إسلام المسلم.

قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥].

قال العلاّمةُ / **عبدُ الرّحمن بن ناصر السَّعديّ** - رحمه الله تعالى - في تفسيره لهذه الآية:

«أقسم تعالى بنفسه الكريمة أنهم لا يؤمنون حتى يُحَكِّموا رسولَه فيما شَجَر بينهم، أي: في كُلِّ شيء يحصل فيه اختلاف، بخلاف مسائل الإجماع، فإنها لا تكون إلاّ مستندة للكتاب والسنة، ثم لا يكفي هذا التحكيم حتى ينتفي الْحَرَجُ من قلوبهم والضّيق، وكونهم يحكّمونه على وجه الإغماض، ثم لا يكفي ذلك حتى يُسَلِّموا لِحُكْمِه تَسْليمًا بانشراح صَدْر، وطمأنينة نَفْس، وانقياد بالظّاهر والباطن.

فالتحكيم في مقام الإسلام، وانتفاء الْحَرَج في مقام الإيمان، والتَسْليم في مقام الإحسان. فَمَن استَكْمَل هذه المراتب وكملها، فقد استكمل مَراتب الدِّين كُلِّها. فَمَن ترك هذا التحكيم المذكور غير ملتزم له فهو كافر، وَمَنْ تركه، مع التزامه فَلَهُ حُكْم أمثاله من العاصين» ا.هـ[1].

ولأهمية هذا الموضوع، فالحديث على السّطور التالية، يدور حول ثلاثة أمور:

الأول: الدَّليلُ على وُجوبِ الأَدَبِ مع النَّبي ﷺ .

والثاني: التحذير من الإساءةِ إليه.

(١) «تفسير السّعدي» (١٨٥).

والثالث: توقيرُ الصّحابة والصَّالحين للنبيِّ ﷺ حَيًّا ومَيّتًا.

ونسأل الله - تعالى - أن يجعلنا من أَتْباعه، وأن يُوفِّقنا لاتّباعه.

أولاً: وجوبُ الأدَبِ مع النبيّ ﷺ:

اعلم - وَفّقني اللهُ تعالى وإيّاك لطاعتهِ - أن الأدلة على وجوب الأدب مع النبيّ ﷺ من القرآن الكريم، كثيرة:

منها:

(١) قوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ﴾ [النور: ٦٣].

قال الحافظ ابن كثير - رحمه الله تعالى - في تفسيره لهذه الآية:

«قال ابن عباس: كانوا يقولون: يا محمّد، يا أبا القاسم، فنهاهم اللهُ ﷻ عن ذلك إعظامًا لنبيّه ﷺ، قال: فقولوا: يا نبيّ الله، يا رسول الله.

وقال قتادة: أَمَر اللهُ - تعالى - أن يُهاب نَبيّه ﷺ، وأن يُبَجَّل، وأن يُعَظَّم، وأن يُسَوَّد.

وقال مقاتل: يقول: لا تُسَمُّوه إذا دَعَوْتموه يا محمّد، ولا تقولوا: يا ابن عبد الله، ولكن شَرِّفُوه فقولوا: يا نبيّ الله، يا رسول الله.

هذا قول، وهو الظّاهر من السّياق.

والقول الثاني: أن المعنى في: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ﴾ أي: لا تعتقدوا أن دعاءه على غيره كدعاء غيره، وإن دعاءه مستجاب، فاحذروا أن يدعو عليكم فتهلكوا، حكاه ابنُ أبي حاتم عن ابن عباس والحسن البصري وعطية العوفي، والله أعلم» ا.هـ[١].

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٣/٤٩٠، ٤٩١) باختصار.

(٢) وقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَـٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ [الحجرات: ٢].

- أخرج البخاري والإمام أحمد عن ابن أبي مُلَيكة ﷺ قال:

كَادَ الخَيِّران أن يَهْلِكا أبو بكر وَعُمَرُ. لمّا قَدمَ عَلى النبيِّ ﷺ وَفْدُ بني تميم. أشار أحَدُهما بالأَقرع بن حابس الحَنظلي أخي بني مُجَاشِع، وأشار الآخر بغيره[1]. قال أبو بكر لعمر: إنّما أَرَدْتَ خلافي. فقال عُمر: ما أردتُ خلافَك. فارتفعتْ أصواتُهما عند النّبي ﷺ فنزلَتْ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ ﴾ إلى قوله: ﴿ عَظِيمٌ ﴾.

قال ابْنُ الزّبير: فما كان عُمَرُ يُسْمِعُ رسولَ الله ﷺ بعد هذه الآية حتى يَسْتَفْهِمَه![2].

«فهكذا ارتعشت قلوبُهم وارْتجفت تحت وَقْع ذلك النّداء الحبيب، وذلك التحذير الرَّعيب؛ وهكذا تأدّبوا في حَضْرة رَسُول الله ﷺ خَشْيَة أن تحبط أعمالهم وهم لا يشعرون. ولو كانوا يشعرون لتداركوا أمرهم! ولكن هذا المنزلق الخافي عليهم كان أخوف عليهم، فخافوه واتّقوه!» [3].

هذا، وكما يُكْره رَفْعُ الصَّوْت بِحَضْرةِ النبيّ ﷺ في حال حياته، يُكْره رفْعُه عِنْده بَعْد مَمَاته.

قال الحافظ ابن كثير - رحمه الله - :

«وقد رَوَيْنا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ أنّه سَمِع صَوْتَ رَجُلَيْن في مسجد النبيّ ﷺ قد ارْتَفَعْت أَصْواتُهما، فجاء فقال: أتَدريان أين أنتما؟ ثم قال: مِنْ أين

---

(١) يعني: في استعماله على قومه.

(٢) رواه البخاري (٤٨٤٥)، وأحمد (٦/٢) واللفظ له، وغيرهما.

(٣) «الظلال» (٣٣٣٩/٦).

أنْتُما؟ قالا: من أهل الطائف، فقال: لو كُنتُما من أهل المدينة لأوجعتُكما ضَرْبًا»[(١)].

وقال العلماء: يُكره رفع الصَّوْت عند قبره ﷺ كما كان يُكْره في حياته عليه الصّلاة والسّلام، لأنه مُحْتَرم حيًّا وفي قَبْره ﷺ دائمًا» ا.هـ[(٢)].

ثانيًا: التحذير من الإساءة إليه:

اعلم أن الإساءة إلى النبيِّ ﷺ من أعظم الذّنوب، وهذه هي الأدلّة:

(١) قال تعالى: ﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ٦١].

قال الإمام الفخر الرّازي - رحمه الله تعالى - في تفسيره لهذه الآية:

«اعلم أنه تعالى حَكَى أن من المنافقين من يُؤذي النبيَّ ﷺ ثم فسَّرَ ذلك الإيذاء بأنهم يقولون للنبيِّ ﷺ إنه أُذُن، وغرضهم منه: أنه ليس له ذكاء ولا بُعْد غَوْر، بل هو سليم القلب، سريع الاغترار بكل ما سمع، فلهذا السبب سمّوه بأنه أُذنُ، كما أن الجاسوس يسمَّى بالعَيْن يقال: جعل فلانٌ علينا عَيْنًا، أي: جاسوسًا متفحّصًا عن الأمور، فكذا هَهُنا.

ثم إنه تعالى أجاب عنه بقوله تعالى: ﴿ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ ﴾ والتَّقْدير: هَب أنّه أُذُن، لكنه خير لكم.

وقوله تعالى: ﴿ أُذُنُ خَيْرٍ ﴾ مثل ما يقال: فلانٌ رَجُلُ صِدْقٍ وشاهدُ عَدْلٍ.

ثم بَيَّن كونه ﴿ أُذُنُ خَيْرٍ ﴾ بقوله تعالى: ﴿ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ ﴾ جعل تعالى هذه الثلاثة كالموجبة لكونه عليه الصّلاة والسّلام ﴿ أُذُنُ خَيْرٍ ﴾. فلنبيّن كيفية اقتضاء هذه المعاني لتلك الخيرية:

---

(١) رواه البخاري (فتح: ١/٤٤٤).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٤/٣١٨).

أمّا الأول: فهو قوله تعالى: ﴿ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ﴾ فلأن كل من آمن بالله كان خائفًا من الله، والخائف من الله لا يقدم على الإيذاء بالباطل.

وأمّا الثاني: وهو قوله تعالى: ﴿ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ فالمعنى: أنه يسلم للمؤمنين قولهم، والمعنى أنهم إذا توافقوا على قول واحد، سلم لهم ذلك القول، وهذا ينافي كونه سليم القلب سريع الاغترار.

وإن قيل: لم عدّى الإيمان إلى الله وإلى المؤمنين باللاّم؟

قلنا: لأن الإيمان المعدى إلى الله المراد منه التصديق الذي هو نقيض الكفر، فَعُدِّي بالباء.

والإيمان المعدي إلى المؤمنين معناه الاستماع منهم، والتسليم لقولهم فيتعدّى باللاّم، كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا ﴾ [يوسف: ٧١]. ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ ﴾ [يونس: ٨٣]. وقوله تعالى: ﴿ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴾ [الشعراء: ١١١]. وقوله تعالى: ﴿ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ﴾ [طه: ٧١].

وأمّا الثالث: وهو قوله تعالى: ﴿ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ﴾ فهذا أيضًا يوجب الخيرية لأنه يجْري أَمْرَكم على الظّاهر، ولا يبالغ في التفتيش عن بواطنكم، ولا يسعى في هتك أستاركم، فثبت أن كلّ واحد من هذه الأوصاف الثلاثة يوجب كونه ﴿ أُذُنُ خَيْرٍ ﴾.

ولّما بيّن كونه سببًا للخير والرحمة بيّن أن كلّ من آذاه اسْتَوْجَب العذابَ الأليم، لأنه إذا كان يسعى في إيصال الخير والرحمة عليهم من كونهم في غاية الخُبث والخزْي، ثمّ إنهم بعد ذلك يقابلون إحسانه بالإساءة وخيراته بالشّرور، فلا شكّ أنهم يستحقّون العذابَ الشّديد من الله تعالى »ا.هـ[١].

وأخرج ابن إسحاق وابن المنذر وابنُ أبي حاتم بسند صحيح عن ابن عباس، قال:

« كان نَبْتَل بْن الحارث يأتي رسولَ الله ﷺ فيجلس إليه فَيَسْمَع منه، ثم ينقل حديثه

(١) « مفاتيح الغيب » (٨/٧٥، ٧٦).

إلى المنافقين، وهو الذي قال لهم: إنّما محمّد أُذُن، من حَدَّثه بشيء صَدَّقه!!، فأنزل اللهُ فيه:

﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ﴾ [التوبة: ٦١].

(٢) وقال الله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝ لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ﴾[التوبة: ٦٥، ٦٦].

- أخرج الطبريُّ، وابن أبي حاتم، من طريق هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن ابن عمر، قال: قال رجلٌ في غزوة تبوك في مجلس: ما رأيتُ مثل قُرَّائنا هؤلاء[1]، أرْغَبُ بطونًا[2]، ولا أكذب ألْسُنا، ولا أجْبن عند اللّقاء. فقال رجلٌ في المسجد:

كَذَبْتَ، ولكنّك منافق، لأخبرنّ رسولَ الله ﷺ.

فبلغ ذلك رسولَ الله ﷺ، ونزل القرآنُ[3]. قال عبدُ الله بْنُ عمر:

وأنا رأيتهُ متعلقًا بحقَب[4] ناقة رَسُولِ الله ﷺ تَنكبه[5] الحجارة وهو يقول:

يا رسولَ الله، إنما كُنّا نخوضُ ونلعب!!، ورسولُ الله ﷺ يقول:

﴿ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝ لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ﴾[6].

- وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس، قال:

«نزلت هذه الآية في رَهْطٍ من المنافقين من بني عمرو بن عوف، فيهم «وديعة بن

---

(١) يقصد الخبيثُ أصْحَابَ النبيّ ﷺ.

(٢) أي: يأكلون كثيرًا.

(٣) يعني: بقوله تعالى: ﴿ ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب. قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزءون - لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم ﴾ [التوبة: ٦٥، ٦٦].

(٤) الحَقَب - بفتح الحاء والقاف -: حَبْلٌ يشدّ به الرّحلُ في بَطْن البعير.

(٥) تنكبه الحجارة: لثمته، نالته وآذته.

(٦) صحيح: انظر: «المقبول من أسباب النزول» د. أبو عمر نادي الأزهري (٣٧٤).

ثابت» (١) ورجلٌ من أشجع حَليف لهم يقال له «مَخْشي بن حمير» كانوا يسيرون مع رسول الله ﷺ وهو منطلق إلى تبوك، فقال بعضهم لبعض:

أتحسبوا قتال بني الأصفر(٢) كقتال غيرهم؟ والله لكأنّا بكم غدًا تُقادون في الحبَال!. قال مَخْشي بن حمير:

لوددت أني أقاضي على أن يضرب كُلّ رَجُلٍ منكم مائة، على أن يَنْجو من أن ينزل فينا قُرْآنا. فقال رسولُ الله ﷺ لعمار بْنِ ياسر:

«اذْركِ القَوْمَ فإنّهم قد احْتَرَقوا فَسَلْهُم عَمَّا قالوا، فإن هم أنْكَروا وَكَتَموا، فَقُلْ: بَلَى، قد قُلْتُم كَذَا وكَذَا» فأدْرَكَهم، فقال لهم: فجاءوا يعتذرون.

فأنزل الله:

﴿ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ ﴾ [التوبة: ٦٦].

فكان الذي عفا الله عنه «مخشي بن حمير»، فتسمّى «عبد الرحمن»، وسأل الله أن يُقْتل شهيدًا لا يُعْلم بِمَقْتَله، فَقُتِل باليمامة لا يَعْلم مقتله، ولا مَنْ قَتَله، وَلاَ يُرىَ له أثَرٌ وَلا عَيْنٌ»(٣).

قال القاضي أبو بَكر بن العربيّ - رحمه الله - :

«لا يخلو أن يكون ما قالوه من ذلك جدًّا أو هَزْلاً، وهو كَيْفَما كان كُفْرٌ؛ فإن الهزل بالكفر كفر لا خلاف فيه بين الأمة. فإن التحقيق أخو العلم والحق، والهزل أخو الباطل والجهل. قال علماؤنا: انظروا إلى قوله: ﴿ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴾ [البقرة: ٦٧] » ا.هـ(٤).

(٣) قال الله تعالى: ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ

---

(١) في رواية: أنه هو القائل.

(٢) بنو الأصفر: الرّوم.

(٣) صحيح: أورده السيوطي في «الدّر» (٣/٤٥٦)، وغيره، وانظر: «المقبول» (٣٧٦).

(٤) «أحكام القرآن» (٢/٥٤٣).

إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ ﴾ [التوبة: ٧٤].. (الآية).

وقد ورد في سبب نزول هذه الآية روايات، منها:

■ عن أنس بن مالك ﷺ قال:

سمع «زيدُ بن أرقم» رجلاً من المنافقين يقول - والنبيُّ - ﷺ يخطب:

لئن كان هذا صادقًا لنحن شرٌّ من الحَمِير!! فقال زيد:

قد والله صدق، ولأنت شر من الحمار. ورفع ذلك إلى النبيّ ﷺ فجحده القائل[1]، فأنزل الله على رسوله:

﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ ﴾ (الآية). فكان مِمّا أنزل اللهُ في هذه الآية تَصْديقًا لِزَيْد[2].

■ وعن كعب بن مالك، قال:

لمّا نزل القرآن فيه ذكر المنافقين قال الجلاسُ[3]: والله، لئن كان هذا الرجل صادقًا لنحن شرّ من الحمير! ، فسمعه عميرُ بْنُ سعد، فقال:

والله يا جلاس، إنّك لأحبّ النّاس إليّ، وأحسنهم عندي أثرًا، وأعزّهم على أن يدخل عليه شيءٌ يكْرهه، ولقد قُلْتَ مَقَالةً لئن ذكرتُها لتفضحنَّك، ولئن سَكتُ عنها لتهلكني، ولأحدهما أشدّ عليّ من الأُخرى، فمشى إلى رسول الله ﷺ فذَكَر له ما قال، فأتى الجّلاسُ فجعل يَحْلِف بالله ما قال، ولقد كَذَب عليَّ عُمَير!! فأنزل الله:

﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ ﴾[4].

---

(١) أي: أنكر ما قاله.

(٢) أخرجه البيهقي في «الدلائل» (٥٧/٤)، وغيره، وقال صاحب «المقبول»: رجاله رجال الصحيح مع ما فيه من احتمال الإرسال (٣٧٨).

(٣) هو: «الجلاس بن سويد بن الصّامت».

(٤) **صحيح**: رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٨٤٣/٦)، وغيره: وانظر: «المقبول» (٣٧٩).

■ وعن ابن عباس، قال:

كان «الجلاس بن سُوَيد بن الصَّامت» مِمّن تَخَلَّف عن رسولِ الله ﷺ في غزوة تبوك، وقال:

لئن كان هذا الرجل صادقًا لنَحْنُ شرٌّ من الحَمير!! فرفع «عمير بن سعد» مقالته إلى رسول الله ﷺ فحلف الجلاسُ بالله، لقد كَذَب عليَّ وما قلتُ!!، فأنزل اللهُ:

﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ ﴾.

فَزَعَموا أنّه تَابَ، وَحَسُنَتْ تَوْبَتُهُ [١].

(٤) وقال الإمامُ **إسْحَاقُ بْنُ رَاهَوْيه** - أحد الأئمة الأعلام - :

«أجمع المسلمون على أنّ مَنْ سَبَّ الله، أو سَبّ رَسُولَه ﷺ أَوْ دَفَع شيئًا مِمّا أنزل اللهُ ﷻ، أو قَتَل نَبيًّا من أنبياء الله ﷻ: أنه كافر بذلك وإن كان مقرًّا بكل ما أنزل الله» ا.هـ[٢].

(٥) **وقال الخطابي**: «لا أعلمُ أحدًا من المسلمين اخْتَلَفَ في وُجُوب قَتْله» ا.هـ[٣].

(٦) **وقال الإمام محمد بن سحنون**: «أجمع العلماءُ على أن شَاتِمَ النبيّ ﷺ والْمُتَنَقِّص له كافر» ا.هـ[٤].

(٧) **وقال الإمام ابن تيمية** - رحمه الله تعالى - :

«أن سَبَّ رسولِ الله ﷺ - مع كَوْنه من جنس الكُفر والحراب - أعظمُ من مُجَرّد الرِّدة عن الإسلام، فإنّه من المسلم رِدّه وزيادة، فإذا كان كفر المرتدّ قد تغلّظ لكونه قد خرج عن الدين بعد أن دخل فيه فأوجب القتلَ عينًا فكفر الساب الذي آذى الله ورسوله وجميع المؤمنين من عباده أولى أن يتغلظ فيوجب القتل عينًا؛ لأن مفسدة السّب في أنواع

---

(١) حسن: رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠٤٠٢)، وغيره، وانظر: «المقبول» (٣٨٠).

(٢) «الصّارم المسلول على شاتم الرسول» للإمام ابن تيمية (٣، ٤).

(٣) «نفس المرجع» (٤).

(٤) «نفس المرجع»: (٤).

الكفر أعظم من مفسدة مجرد الردة.

هذا، وتطهير الأرض من إظهار سبّ رسول الله ﷺ واجب بحسب الإمكان؛ لأنه من تمام ظهور دين الله وَعُلوّ كلمة الله، وكون الدِّين كُلّه لله، فحيث ما ظهر سَبُّه ولم ينتقم مِمّن فعل ذلك لم يكن الدّين ظاهرًا، ولا كلمة الله عالية، وهذا كما يجب تطهيرها من الزُّناة والسُّرّاق، وقطّاع الطريق بحسب الإمكان» ا.هـ[1].

ثالثًا: توقير الصّحابة والصالحين للنبيّ ﷺ حيًا وميّتًا:

عَرِفَ الصّحابةُ وَمَنْ جاءَ بَعْدهم قَدْر النّبيّ ﷺ فَعزّروه، وَوَقّرُوه، واحترموه، وضربوا في ذلك أروع الأمثال، دَلّتْ على ذلك أقوالُهم، وأحوالُهم، ومواقِفُهم، وهذه بعضها:

الموقف الأول: أبو أيّوب الأنصاريّ: «والأَدَبُ التّام مع النَّبيّ ﷺ»:

لمّا هاجر النبيُّ ﷺ من مكّة إلى المدينة، نزل ضَيْفًا على أبي أيّوب الأنصاري في بيته.

ونترك المجالَ لأبي أيّوب يُكْمِل لنا ما حَدَث أثناء هذه الزيارة المباركة.

قال أبو أيّوب ﷺ:

لمّا نزل عليّ رسولُ الله ﷺ في بيتي نزل في السُّفل، وأنا وأمّ أيوب في العلوّ، فقلتُ له:

يا نبيّ الله، بأبي أنت وأمّي، إني لأكره وأُعظم أن أكون فوقك وتكون تحتي، فاظهر أنت فكن في العلوّ، وننزل نحن فنكون في السُّفل، فقال:

«**يا أبا أيوب: إنَّ أَرْفَقَ بنا وَبِمَن يَغْشانا أن نكون في سُفل البيت**»[2].

وفي رواية:

أنّ رسولَ الله ﷺ لمّا نزل المدينة نزل على أبي أيّوب فَنزل النبيُّ ﷺ أسفل،

(١) «نفس المرجع» (٢٩٨، ٢٩٩).

(٢) رواه مسلم.

وأبو أيّوب في العلوّ، فانْتبه أبو أيّوب ذات ليلة فقال:

نمشي فوق رأس رسول الله ﷺ!

فتحوّل فباتوا في جانب. فلمّا أصبح ذكر ذلك للنبيّ ﷺ فقال النبيُّ ﷺ:

«**أسفل أرْفَق بي**».

فقال أبو أيّوب: لا أَعْلُو سقيفة أنْتَ تَحْتَها. فَتَحوّل أبو أيوب في السُّفل، والنّبيُّ ﷺ في العلوّ[1].

ويروى أبو رُهم: أن أبا أيوب ﷺ حدّثه:

أن رسول الله ﷺ نزل في بيتنا الأسفل، وكنتُ في الغُرفة، فأُهريق ماءٌ في الغُرفة، فقمتُ أنا وأمُّ أيّوب بِقَطيفة لنا نَتَتبَّع الماءَ، وَنزلْتُ فقلتُ:

يا رسول الله، لا ينبغي أن نكون فوقك، انتقل إلى الغُرْفة، فأمر بمتاعه فَنُقِلَ - ومتاعه قليل - وقلتُ:

يا رسول الله، كُنْتَ تُرْسِل بالطَّعام، فَأَنْظر، فإذا رأيتُ أَثَر أَصَابِعَك، وضعتُ فيه يدي[2] يلتمسُ بركةَ النبيّ ﷺ!.

الموقف الثاني: الإمام أحمد بن حنبل:

«يوُصِي بِدَفْن بَعْض شَعرات النبيّ ﷺ في عَيْنه!!»: وهذا موقف آخر يخبرنا عن مكانة النبيّ ﷺ في قلوب أتباعه:

قال **الخَلاّلُ**: أخبرني عصمةُ بن عصام، حدّثنا حنبل، قال:

أَعْطى ولدُ الفَضْل بن الرّبيع أبا عبد الله - أحمد بن حنبل -، وهو في الْحَبْسِ[3]

---

(١) رواه مسلم.

(٢) صحيح: أخرجه أحمد في «المسند» (٥/٤٢٠). وقال الشيخ/ شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح.

(٣) في محنة القول بخلق القرآن. راجع أحداثها في كتابنا: «نبوءات الرسول ﷺ بفتن آخر الزمان» ط. المكتبة التوفيقية.

ثلاث شعرات، فقال:

هذه من شعر النبيّ ﷺ، فَأَوْصَى أبو عبد الله عِنْد مَوته أن يُجعَل على كلّ عَيْنٍ شَعْرة، وَشَعْرةَ على لِسَانه. فَفُعِل ذلك به عِنْدَ مَوْته![1].

الموقف الثالث: سَهْلُ بْنُ عَبْد الله التُّسْتَرِيَ:

«آية في حُبّ النبيّ ﷺ:

قال القاضي الخليل بن أحمد السِّجْزيّ: سمعتُ أحمد بن محمّد بن اللَّيْث قاضي بلدنا يقول:

جاءَ سهلُ بن عبد الله التُّسْتَرِيّ[2] إلى أبي داود السِّجسْتاني[3]، فَقِيل: يا أبا داود: هذا سَهْل بن عبد الله جاءك زائرًا. فَرَحَّب به، وَأَجْلَسه، فقالَ سهل:

يا أبا داود! لي إليك حاجةٌ. قال:

وما هي؟

قال: حتى تقول: قد قَضَيْتُها مع الإمكان.

قال: نعم.

قال: أخْرِجْ إليّ لِسَانَك الّذي تُحدِّث به أَحَادِيث رَسُولِ الله ﷺ حتى أُقَبِّلَهُ !

فَأَخْرَج إليه لِسَانَه فَقَبَّله!.

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (١١/٣٣٧).

(٢) شيخ العارفين، الصّوفي الزّاهد، صَحِبَ خَالَه مُحمّد بن سَوَّار، وَلَقَى في الحَجِّ ذَا النون المصري وصحبه. قال عنه الذّهبيُّ: «له كلمات نافعة، ومواعظ حَسَنَة؛ وَقَدمٌ راسخة في الطريق». تُوفّي سنة (٢٨٣هـ) «السير» (١٣/٣٣٣).

(٣) الإمام الحافظ، شيخ السُّنّة، صاحب «السُّنَن» قال الصَّاغَاني: «لُيِّن لأبي داود السجستاني الحديث، كما لُيِّن لداود الحديد!!» تُوفّي سنة (٢٧٥هـ) . «السِّير» (١٣/٢٢١).

الموقف الرابع: الخليفةُ المهدي:

« يشتري نَعْلَ النَّبيّ ﷺ بألْفي دينار »:

كان الصّحابي الجليل « شَدّاد بن أَوْس » من فُضَلاء الصّحابة، وعلمائِهم، وكان ذا عبادة واجتهاد.

لازم النبيَّ ﷺ طَوَال حياته، يجلس إليه، ويجاهد بين يديه، ولمّا تُوفّي النّبيُّ ﷺ رَحَل شَدّادُ إلى فلسطين، وَنزلَ بِبَيْتَ المقدس، وَأَخَذ مَعَهُ إلى هناك نَعْلَيْ رَسُولِ الله ﷺ وكان قد احتفظ بهما عنده!!، وظلّ مقيمًا هناك، يتعبّد، ويجاهِد، ويعلم الناس أمر دينهم.

ولّما حان أَجَلُهُ، ضربَ زِلْزالٌ أرْضَ فلسطين، فهدم بيته، فوقع السّقف عليه فاستُشهد تحته.

قال الإمام الذهبيُّ – رحمه الله تعالى – :

« وكانت النعل[1] زَوْجًا، خلّفها شدّاد عند ولده، فصارت إلى محمد بن شداد[2]؛ فلمّا أن رأت أخته « خزرج » ما نزل به وبأهله، جاءت، فَأَخَذَتْ فَرْدَ النَّعلين، وقالت:

يا أخي، ليس لك نسْلٌ، وقد رُزِقتُ وَلَدًا، وهذه مكْرمة رسول الله ﷺ أُحبُّ أن تُشرك فيها وَلَديَ، فَأَخَذَتْها منه!!.

وكان ذلك في أوّل أَوَان الرَّجْفَة « الزّلْزَال »، فمكث النّعْلُ عندها حتى أَدْرَك أولادها[3].

فلمّا جاء المهدي – الخليفة – إلى بيت المقدس، أَتَوْه بها، وعرّفوه نَسَبَها من شدّاد، فعرف ذلك، وَقَبلَه، وأَجَاز كلَّ واحد منهما بألف دينار، وأَمَر لكلّ واحد منهما بِضَيعة، وبعث إلى محمّد بن شداد، فأُتي به يُحْمَلُ لِزمَانَته[4]، فسأله عن خَبَر النعلِ، فصدَّق مَقَالة

---

(١) أي: نعل النبيّ ﷺ .

(٢) ولده، وكان – رحمه الله – قد قُطعت رِجْلُه تَحْتَ الرَّدْم.

(٣) أدركوا: بلغوا.

(٤) الزّمانة: العاهة.

الرَّجُلَيْن، فقال له المهدي:

ائتني بالأخرى. فبكى، وناشده الله، فَرَقَّ له، وَخَلاها عِنْده!»! [1].

فبأي قَلَمٍ نَصِف هذا الحبّ أيّها الناس؟!

المهدي - أمير المؤمنين - يشتري فَرْدَ نَعْلَي النبيّ ﷺ بألفي دينار، ومحمد بن شداد لا يفرّط في الثانية، بل ويبكي تمسّكًا بها!!.

هذا هو غاية الحبّ وربّ الكعبة.

أخي المسلم:

هذه لقطات من حياة الصَّحابة والصّالحين - وهي غَيْضٌ مِنْ فَيْض - تبيّن بوضوح مدى احترامهم لنبيِّهم، وإجلالهم لمقامه.

فكن - أخا الإسلام - على طريقهم، وَاعْلم أن الْمَرْءَ يُحْشَر مَعَ مَنْ أَحَبّ، وَفَّقني الله تعالى وإيّاك.



(١) «سير أعلام النبلاء» (٢/٤٦٣).

١١- توقير السنّة

اعلم - أخي المسلم - أن احترام «السنّة» احترام لصاحبهاﷺ وفي هذا العصر، شَنّ بعضُ المنتسبين إلى الإسلام حربًا لا هوادة فيها على «السُّنّة المطهرة» ، وصوّبوا تجاهها سهام النّقد، وَجَيَّشوا لها حملات التشكيك.

ومن العجيب المريب: أنهم تَسَرْبلوا بسربال الدِّين، ورفعوا شعار الغيرة عليه، وادّعَوْا محاولة إنقاذه من الدّخيل عليه!!.

وبدأوا حملتهم النّكراء، بأمور، منها:

- الطعن في أبي هريرةﷺ «ذاكرة عصر الوحي» !.
- لَمْز ابن عباس -رضي الله عنهما- من طَرْفٍ خَفِيّ، بِحُجَّة أنه كان يسمع لكعب الأحبار!.
- غَمْز عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - بسبب الزّاملتين!.
- نقد أحاديث البخاري ومسلم !.
- التَّهْوين مِنْ شأن أحاديث الآحاد، والادعاء بأنّها لا يُحْتَجُّ بها في مجال الاعتقاد!.
- ادعاء مخالفة السُّنّة للقرآن!.
- ادعاء مخالفة السُّنّة للعقل!.

وكان من حصاد هذه الحملة:

- إنكار أحاديث الشفاعة!.
- إنكار أحاديث عذاب القبر ونعيمه!.
- إنكار حَدّ الرَّجْم!.

- إنكار حديث الذّبابة!.
- إنكار حديث فقوء موسى عليه السلام لعين مَلَك الموت عليه السلام!.

وغير ذلك من الأحاديث المتفق على صحتها، والمجمع على حُجّيتها!.

وفي محاولة لصد هذه الهجمة الشرسة، فالحديث - هنا - يدور حول **خمسة أمور**:

الأول: تعريف السّنة.

والثاني: وجوب توقيرها.

والثالث: الحواجز التي هيأها اللهُ - تعالى - لحماية السُّنّة والدفاع عنها.

والرابع: توقيرُ الصّالحين لِلسُّنَّة.

والخامس: ثمرات اتباع السنة.

وأسأل الله تعالى أن يوفقنا للعمل بكتابه وسنة رسوله.

أوّلاً، تعريف السُّنة،

السُّنّة: هي الطريقة المتواترة للعمل بالحديث، بل بالقرآن أيضًا. مثلاً: ورد في القرآن الأمر بإقامة الصّلاة وبيّن فيها بعض تفاصيلها أيضًا. فالرسول ﷺ بموجب ذلك قال لنا: «**صَلّوا كما رأيتُموني أُصَلّي**» [1].

واستمرّ على تلك الكيفية، وكذلك الصّحابة فالتابعون وسائر المسلمين، وهكذا الأمر في الصّيام، والزكاة، والحج، وسائر الأوامر القرآنية.

فالصورة العملية التي رسمها الرسول ﷺ لألفاظ القرآن هي السُّنّة، وهي في الحقيقة تفسير عملي للقرآن، وهي من هذه الحيثية أعلى من الروايات اللّفظية بمراتب كثيرة.

وقد وردت في القرآن وكلام الرسول وأقوال الصّحابة كلمات أخرى مؤدّية لمفهوم السُّنّة مثل: السَّبيل، والصّراط المستقيم، والأسوة الحسنة، وكلّها تفيد معنى الطريقة

(١) رواه البخاري.

المسلوكة ومعنى الاتباع.

يعني أن الطريق الذي سلكه النبيُّ ﷺ وأصحابه والمؤمنون هو السُّنة، وهو السبيل، وهو الصّراط المستقيم[١].

ثانيًا: وجوب توقيرها:

جاء الأمرُ في القرآن والسُّنَّة - ومن خلال أحوال وأقوال السّلف - بوجوب احترام السُّنّة، وإجلال مقامها:

فمن القرآن:

(١) قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴾ [محمد: ٣٣].

(٢) وقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الحجرات: ١].

(٣) وقال تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَـٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَـٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ﴾ [الحشر: ٧].

والآيات في هذا المقام كثيرة.

ومن السّنة:

(١) عن المقدام بن مَعْدِيكَرب ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«أَلاَ هَل عَسَى رَجُلٌ يَبْلُغُه الحديثُ عَنّي، وهو مُتَكِئٌ على أرِيكَته؛ فيقول: بَيْننا وبينكم كتابُ الله، فما وَجَدْنا فيه حَلاَلاً استَحْلَلْناه؛ وما وجدنا فيه حَرامًا حَرَّمناه، وإن ما حَرّم رسولُ الله كما حَرَّم اللهُ» [٢].

---

(١) «تحقيق معنى السّنة» للسّيد سليمان النّدوى (٢٢، ٢٣).

(٢) **صحيح**: رواه الترمذي، والدّارمي، وانظر: «صحيح الجامع» (٢٦٥٧).

(٢) وعن ابن عباس – أن النبيّ ﷺ – خطب في حجّة الوداع، فقال:

«إنّ الشَّيْطان قَدْ يَئِسَ أن يُعْبَدَ بأَرضكم ولكن رَضِي أن يُطَاع فيما سوى ذلك مما تَحَاقَرُون من أعمالكم فاحْذَروا، إنّي تَرَكْتُ فيكم ما إن اعْتَصَمْتُم به فَلَنْ تَضِلُّوا أبدًا: كتابَ الله، وَسُنَّةَ نَبِيِّه» الحديث [١].

والأحاديث في هذا المعنى – أيضًا – كثيرة.

ومن أقول السَّلَف:

- **قال قتادة بن دعامة** – رحمه الله – :

«لقد كان يُستحبّ أن لا تُقرأ الأحاديث التي عن رسول الله ﷺ إلاّ على طهارة» [٢].

- **وقال أبو قلابة** – رحمه الله – :

«إذا حدَّثْتَ الرَّجُلَ بالسُّنَّة، فقال: دَعْنا من هذا، وهات كتابَ الله، فاعلم أنّه ضَالٌّ!» [٣]

- **وقال الإمام مالك** – رحمه الله – :

«سَنَّ رسولُ الله ﷺ، وَوُلاة الأمْر بَعْده سُنَنًا، الأَخْذُ بها اتِّباعٌ لكتاب الله، واستكمالٌ بطاعة الله، وقوّةٌ على دين الله، ليس لأحد تغييرها، ولا تَبْديلها، ولا النّظرُ في شيء خَالَفها، من اهْتدى بها، فهو مُهْتد، ومن اسْتَنْصَرَ بها، فهو مَنْصور، وَمَنْ تركها، اتّبع غَيْرَ سَبِيل المؤمنين، وَوَلاّه اللهُ مَا تولّى، وأَصْلاَه جَهَنّم وسَاءَتْ مَصيرًا» [٤].

- **وقال الرَّبيع**: سمعتُ الشافعيَّ يقول:

«إذا وجدتُم في كتابي خلافَ سُنّة رسول الله ﷺ فقولوا بها، ودعُوا ما قُلْتُهُ»، وسمعتُه يقول – وقد قال له رجلٌ: تأخُذُ بهذا الحديث يا أبا عبد الله؟ فقال:

---

(١) حسن: رواه الحاكم، وقال: «صحيح الإسناد»، وله أصل في «الصّحيح».

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٢٧٤/٥).

(٣) «نفس المرجع» (٤٧٢/٤).

(٤) «نفس المرجع» (٩٨/٨).

«متى رَوَيتُ عن رسولِ الله ﷺ حَدِيثًا صحيحًا ولم آخُذْ بِهِ، فأُشْهِدُكم أن عَقْلِي قَدْ ذَهَبَ»[١].

- **وقال الإمامُ أبو عبيد** - رحمه الله - :

«الْمُتَّبِعُ السُّنّة كالقابضِ على الْجَمْر، هو اليومَ عندي أَفْضَلُ من ضَرْب السَّيف في سبيل الله»[٢].

- **وقال ابْنُ مَخلد:**

«كان الرَّمَاديُّ[٣] إذا مَرِض يَسْتَشْفِي بأن يُسمعوا عليه الحديثَ!»[٤].

فأيُّ حُبٍّ يفوق هذا الحُبّ أيُّها النّاس؟!

- **وقال الإمام أبو عثمان الحِيري** - رحمه الله - :

«مَنْ أَمَّر السُّنَّة على نَفْسه قولاً وفعلاً، نَطَقَ بالحِكْمة، وَمَنْ أَمَّر الهوى على نفسه، نَطَق بالْبِدْعة، قال تعالى:

﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ﴾ [النور: ٥٤]»[٥].

ثالثًا: الحواجز التي هَيّأها اللهُ - تعالى - لِحِمَايةِ السُّنَّة والدِّفاع عنها:

اعلم أن الله - تبارك وتعالى - تكفّل بحفظ السُّنة كما تكفّل بحفظ القرآن، وهذا الأمر يغيب عن كثير من الناس.

والدليل على ذلك:

---

(١) «نفس المرجع» (١٠/٣٤).

(٢) «نفس المرجع» (١٠/٤٩٩).

(٣) هو: الإمام الحافظ الضابط، أبو بكر، أحمد بن منصور بن سيَّار بن معارك، الرَّمادي البغدادي، تُوفيِّ سنة ٢٦٥هـ.

(٤) «نفس المرجع» (١٢/٣٩٠).

(٥) «نفس المرجع» (١٤/٦٣).

(١) أن الله – تعالى – أخبر بأن السنة مبيّنة للقرآن في قوله تعالى:

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل: ٤٤].

وقد تكفّل بحفظ القرآن في قوله:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩].

فيلزم من هذا أن يكون قد تكفّل أيضًا بحفظ السُّنة لأن حفظ المبين يستلزم حفظ البيان إذ لا معنى للمبين بدون بيان.

(٢) قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝ فَإِذَا قَرَأْنَـٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾ [القيامة: ١٧- ١٩].

فإنه نصّ صريح يدلّ على أن الله تكفّل بحفظ السّنة على وجه الأصالة والاستقلال لا على طريق اللّزوم والتّبع: لأنه تكفّل فيه ببيان القرآن في قوله تعالى:

﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾ أي: بيان القرآن، والبيان كما يكون للنبيّ ﷺ يكون لأمته من بعده، وهو يكون للنبيّ ﷺ بالإيحاء به إليه ليبلّغه للناس، ويكون للأُمّة بحفظ السُّنة التي بلغهم إيّاها لأنها هي البيان بالنسبة إليهم كما سبق توضيحه.

فهذان دليلان على أن الله – تعالى – تكفّل بحفظ السُّنّة كما تكفّل بحفظ القرآن.

هذا، وقد هيّأ اللهُ – تبارك وتعالى – حَوَاجِز لِحماية السُّنّة والدفاع عنها، منها:

(١) **تغليظ الكذب على رسول الله ﷺ :**

فعن أبي هريرة ﷺ قال:

قال رسول الله ﷺ :

«مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فليتبوّأ مَقْعدهُ من النّار» [(١)].

قال الإمام النووي – رحمه الله تعالى – :

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

«هذا الحديث: يشتمل على فوائد وَجُمَل من القواعد منها: تعظيم تحريم الكذب عليه ﷺ وأنه فاحشة عظيمة، وموبقة كبيرة، ولكن لا يكفر بهذا الكذب إلاّ أن يَسْتَحِلّه، وهذا هو المشهور في ذلك من مذاهب العلماء» ا.هـ.

(٢) رَدُّ رواية الفاسق، والتحذير مِنْ قبول روايته:

- قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴾ [الحجرات: ٦].
- وقال ﷺ: «**مَنْ حَدَّثَ عَنِّي بحديثٍ يرى أنه كَذِب فهو أَحَدُ الكاذِبَيْن**»[١].

(٣) اشتراط العدالة في الرّواية:

قال تعالى: ﴿ وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾ [الطلاق: ٢].

وهذا وإن كان واردًا في الشهادة، فإنه يشمل الرواية من باب أولى، لأنّها تَتَضَمَّن شيئين:

الأول: الشهادة بأن النبيّ ﷺ قال كذا، أو فعل كذا.

والثاني: إخبار الناس بذلك ونشره فيما بينهم.

هذا إلى جانب ما للخبر عنه ﷺ من الأهمية.

(٤) النهي عن التحديث بكل ما سمع الإنسان:

فإنه يسمع في العادة الصّدق والكذب. فإذا حدّث بكل ما سمع فقد وقع في الكذب لإخباره بما لم يكن.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«**كَفَى بالمرءِ كَذِبًا أن يُحَدِّث بكلِّ ما سَمِع**»[١].

---

(١) رواه مسلم.

(٥) التَّحْذير من قبول رواية الضُّعفاء، وأهل البدع، والأهواء، وَرَدّ رواية المجهول، والمستور الحال:

- قال ﷺ: «**يكون في آخر الزمان دَجَّالون كَذَّابون يأتونكم من الأحاديث بما لم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم، فإيّاكم وإيّاهم لا يُضلّونكم**»(٢).

- **وقال محمد بن سيرين** - رحمه الله -:

«إنّ هذا العِلم دينٌ، فانظروا عَمَّن تأخذون دينكم».

(٦) رَدّ ما يُتردّد فيه، وما يقع فيه تنازع لعدم تصديق العقل أو النقل له إلى كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ الثابتة:

قال تعالى: ﴿ فَإِن تَنَـٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ [النساء: ٥٩].

هذه هي الحواجز التي وضعها الإسلام لحماية السُّنة مما ليس منها حتى لا يزاد فيها شيء(٣).

هذا، واعلم أن بداية تدوين السّنة كان في حياة النبيّ ﷺ، يدل على ذلك:

أ - عن أبي هريرة ﷺ قال:

«ما من أصحاب النبيّ ﷺ أحدٌ أكثر حديثًا عنه مني، إلاّ ما كان من عبد الله بن عمرو، فإنه كان يكتب ولا أكتب»(٤).

ب- وعن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - أنه قال:

كنتُ أكتب كلّ شيء أسمعه من رسول الله ﷺ أُريد حفظه فنهتني قريشٌ، وقالوا: تكتب كلّ شيء سمعتَه من رسول الله ﷺ، ورسولُ الله ﷺ بَشَرٌ يتكلّم في

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه مسلم.

(٣) «تيسير علوم الحديث» للدكتور/ محمد السيد ندا، رئيس قسم الحديث بكلية أصول الدين. (١٧ - ٢٠) باختصار.

(٤) **صحيح**: أخرجه البخاري (١١٣)، والترمذي (٢٦٦٨)، وغيرهما.

الغَضَب والرّضا؟

فأمسكتُ عن الكتاب، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فَأَوْمَأ بأصبعه إلى فيه، وقال: «اكْتُبْ، فو الذي نفسي بِيَده ما خَرَج منه إلا حَقٌّ» (١).

والأدلة في هذا الإذن كثيرة، خلافًا لمن زعم إطلاق النّهي عن كتابتها.

قال الشافعيُّ - رحمه الله تعالى - ما خلاصته:

إن عمل السُّنّة على ثلاثة أنواع:

الأوّل: إلحاق أمرٍ لم ينص عليه في القرآن بأمر نصّ عليه فيه لاشتراكهما في علّة الحكم، وهذا ما يعرف عند الفقهاء باسم «القياس»، وذلك مثل قول الرسول ﷺ:

«**كُلّ مُسْكرٍ خَمْر، وَكُلّ مُسْكر حَرَام**» (٢).

حيث ألحق جميع المسكرات كالنبيذ ونحوه بالخمر في التحريم لاشتراكه معها في علة التحريم وهي الإسكار.

الثاني: تفصيل ما أجمل في القرآن وبيان أحكامه وما يتعلّق به: كالصّلاة - مثلاً - فقد جاء الأمر بها في القرآن مجملاً في مثل قوله تعالى:

﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [المزمل: ٢٠].

حيث لم يبيّن كيفيتها وأحكامها، والسُّنة هي التي قامت بتفصيل هذا المجمل وبيان أحكامه.

وهكذا الصّيام والزكاة والحج ونحو ذلك ممّا أجمل في القرآن، وقامت السُّنة بتفصيله.

الثالث: الاستقلال ببعض الأحكام والإتيان بأمور زائدة، على ما في القرآن لا سيّما في مجال الأخلاق وأبواب الحلال والحرام كتحريم الحُمُرِ الأهلية، وتحريم الجمع بين المرأة وعمّتها في الزّواج، وتحريم الجلوس في الطرقات، وغير ذلك.

---

(١) صحيح: أخرجه الحاكم (١/١٠٤، ١٠٥)، وأبو داود (١٠/٧٩)، وغيرهما.

(٢) صحيح: رواه أحمد، ومسلم، وغيرهما.

والخلاصة: أن القرآن والسُّنَّة صنوان أو توأمان، وعليهما تتوقف حياة الإسلام.

رابعًا: توقير الصالحين للسُّنَّة:

وقد تقدّمت - قريبًا - نماذج تدلّ على هذا التوقير والتقدير، فراجعها.

خامسًا: ثمراتُ اتّباع السُّنَّة:

لا نستطيعُ حَصْر بركات وثمرات اتّباع السُّنة على هذه السطور، ويكفي أن نشير إلى بعض هذه البركات والثمرات:

(١) نَيْل مَحبّة الله تعالى، ومغفرة الذنوب:

قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٣١].

(٢) الفوز بالهداية:

قال تعالى: ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ ﴾ [النور: ٥٤].

(٣) نَيْل الرّحمة:

قال تعالى: ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [النور: ٥٦].

(٤) الفوز بالجنة:

قال تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ [النور: ٥٢].

والآيات في هذا المقام كثيرة.

(٥) النجاة من الفتن:

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحديد: ٢٨].

(٦) نَيْل مَحبّة النبيّ ﷺ :

ونذكر هنا قِصَّتين ذكرهما الإمام الذّهبيّ - رحمه الله - في « السّير »:

القِصّة الأولى:

عن محمد بن يزيد الفَسَوي العطّار، قال:

سمعتُ « يعقوب بن سفيان »[1] يقول:

« كنتُ في رحلتي في طلب الحديث، فدخلتُ إلى بعض المدن، فصادفتُ بها شيخًا، احتجتُ إلى الإقامة عليه للاستكثار عنه، وَقَلَّتْ نَفَقَتِي، وَبَعُدْتُ عَنْ بَلَدي، فكنتُ أُدْمِن الكتابة ليلاً، وأقرأ عليه نهارًا، فلمّا كان ذات ليلة، كنتُ جالسًا أنسخُ، وقد تَصرَّم اللّيلُ، فنزل الماءُ في عينيَّ، فلم أبصر السراج ولا البيت، فبكيتُ على انقطاعي، وعلى ما يفوتُني من العلم، فاشتدّ بكائي حتى اتكأتُ على جَنْبي، فنمتُ، فرأيتُ النبيَّ ﷺ في النوم، فناداني:

« **يا يعقوب بن سُفيان! لِمَ أَنْتَ بَكَيْتَ؟** ».

قلتُ: يا رسول الله ! ذهب بَصَري، فتحسَّرتُ على ما فاتني من كَتْبِ سُنَّتِك، وعلى الانقطاع عن بلدي. فقال:

« **اُدْنُ مِنّي** ».

فدنوتُ منه، فَأَمَرَّ يَدَه على عينيَّ، كأنّه يقرأُ عليهما. قال: ثم استيقظتُ فَأَبْصَرْتُ، وأخذتُ نُسَخي وقعدتُ في السِّراج أَكْتُب! »[2].

القِصّة الثانية:

قال عبد الواحد بن آدم الطواويسي:

« رأيتُ النبيَّ ﷺ في النوم، ومعه جماعةٌ من أصحابه، وهو واقف في موضع،

(١) الإمام، الحافظ، الحُجَّة، الرَّحّال، مُحَدِّث إقليم فارس، تُوفِّي سنة (٢٧٧هـ).

(٢) « سير أعلام النبلاء » (١٣/١٨١، ١٨٢).

فسلّمتُ عليه، فَرَدّ عليَّ السّلام، فقلتُ:

ما وُقوفُك يا رسولَ الله؟

قال: أنتظر محمد بن إسماعيل البخاري[1]!.

فلمّا كان بعد أيام، بلغني موته، فنظرتُ فإذا قد مات في السّاعة التي رأيتُ النبيَّ ﷺ فيه!!»[2].

قلت: هذا هو الشّرف وربِّ الكعبة.

فيا أخا الإسلام:

تَمَسَّكْ بحبْلِ اللهِ واتَّبعِ الهُدَى ... ولاتَكُ بِدْعِيًّا لَعَلَّكَ تُفْلِحُ

وَدِنْ بِكِتَابِ اللهِ والسُّنَنِ الّتي ... أَتَتْ عَنْ رَسُوْلِ اللهِ تَنْجُو وَتَرْبَحُ

وَقُلْ: غَيْرُ مَخْلُوقٍ كَلاَمُ مَلِيكِنَا، ... بِذَلِكَ دَانَ الأَتْقِيَاءُ وَأَفْصَحُوا

وَلاَتَكُ في القُرْآنِ بالوَقْفِ قَائلاً ... كَمَا قَالَ أَتْبَاعٌ لِجَهْمٍ وَأَسْجَحُوا

وَلاَ تَقُلِ: الْقُرْآنُ خَلْقٌ قَرَأْتُهُ ... فَإِنَّ كَلاَمَ اللهِ بِاللَّفْظِ يُوْضَحُ

وَقُلْ: يَتَجَلَّى اللهُ لِلْخَلْقِ جَهْرَةً ... كَمَا البَدْرُ لا يَخْفَى وربُّك أَوْضَحُ

وَلَيْسَ بِمَوْلُودٍ ولَيس بِوَالِدٍ ... وَلَيسَ لَهُ شِبْهٌ، تَعَالى المُسَبَّحُ

وَقَدْ يُنْكِرُ الجَهْمِي هذا وعِنْدَنا ... بِمِصْدَاقِ ما قُلْنَا حَدِيْثٌ مُصَرِّحُ

رَوَاهُ جَرِيرٌ، عَن مَقَالِ مُحمَّدٍ ... فَقُلْ مِثْلَ مَا قَدْ قَالَ في ذَاكَ تَنْجَحُ

وَقَدْ يُنْكِرُ الجَهْمِي أَيْضًا يَمِيْنَه ... وكِلْتَا يَدَيْهِ بالفَوَاضِلِ تَنْفَحُ

وَقُلْ: يَنزِلُ الجَبَّارُ في كُلِّ لَيْلَةٍ ... بِلا كَيْفَ، جَلَّ الوَاحِدُ المُتَمَدِّحُ

---

(١) صاحب «صحيح البخاري».

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٤٦٨/١٢).

إلى طَبَقِ الدُّنْيَا يمُنُّ بِفَضْلِه فَتُفرَجُ أَبْوابُ السَّماءِ وَتُفْتَحُ
يَقُول: أَلاَ مُسْتَغْفِرٌ يَلْقَ غَافِرًا وَمُسْتَمْنِحٌ خَيْرًا وَرِزْقًا فَيُمْنَحُ
رَوَى ذاكَ قَومٌ لا يُرَدُّ حَدِيثُهم أَلاَ خَابَ قَوْمٌ كَذَّبُوهُم وَقُبِّحُوا
وَقُلْ: إنَّ خَيرَ النَّاسِ بَعْدَ مُحَمَّدٍ وَزِيْرَاهُ قِدْمًا، ثُمَّ عُثْمانُ الأرْجَحُ
وَرَابِعُهُم خَيْرُ البَرِيَّةِ بَعْدَهُم عَلِيٌّ حَلِيفُ الخَيْرِ بالخَيْرِ مُنْجَح
وإنَّهُمُ لَلرَّهْط لاَ رَيْبَ فِيهِم عَلى نُجُب الفِرْدَوْس بالنُّورِ تسْرَحُ
سَعِيدٌ وَسَعْدٌ وابنُ عَوْفٍ وطَلْحةٌ وعامِرُ فِهْرٍ والزُّبَيْرُ المُمَدَّحُ
وَقُلْ خَيْرَ قَوْلٍ فِي الصَّحابَةِ كُلِّهِم وَلا تَكُ طَعَّانًا تَعِيبُ وتَجْرَحُ
فَقَد نَطَقَ الوَحْيُ المُبِينُ بِفَضْلِهم وَفِي الفَتْحِ آيٌ للصَّحَابَةِ تَمْدَحُ
وبِالقَدَرِ المقْدُور أَيْقِنْ، فَإنَّه دِعَامَةُ عقْدِ الدِّينِ والدِّيْنُ أَفْيَحُ
ولا تُنْكِرَنْ - جَهْلاً - نَكِيرًا ومُنْكَرًا ولا الحَوْضَ والمِيْزانَ، إنَّكَ تُنْصَحُ
وَقُلْ: يُخرِجُ اللهُ العَظِيمُ بفَضْلِه مِنَ النَّارِ أَجْسَادًا مِنَ الفَحْمِ تُطْرَحُ
عَلى النَّهْرِ فِي الفِرْدوسِ تَحيا بِمَائِه كَحِبِّ حَمِيْل السَّيْل إذْ جَاءَ يَطْفَحُ
وإنَّ رسولَ اللهِ لِلخَلْقِ شَافِعٌ وقُلْ فِي عَذابِ القَبْرِ: حَقٌّ موضَّحُ
وَلاَ تُكْفِرَنْ أَهْلَ الصَّلاَةِ وَإنْ عَصَوْا فَكُلُّهُم يَعْصِي، وذو العَرْشِ يَصْفَحُ
ولا تَعْتَقِدْ رأيَ الخَوارِجِ إنَّهُ مَقَالٌ لِمَنْ يَهْواهُ يُرْدِي ويَفْضَحُ
ولا تَكُ مُرْجِيًّا لَعُوبًا بِدِيْنِه ألاَ إنَّمَا المُرْجِيُّ بِالدِّينِ يَمْزَحُ
وقُلْ: إنَّما الإيمَان قَولٌ ونِيَّةٌ وفِعْلٌ عَلى قَوْلِ النَّبِيِّ مُصَرَّحُ
ويَنْقُصُ طَوْرًا بالمَعَاصِي وَتَارَةً بِطاعَتِه يَنْمى وَفِي الوزْنِ يَرْجَحُ
ودَعْ عَنْكَ آراءَ الرِّجَال وقَولَهم فَقَولُ رسُولِ اللهِ أَوْلَى وأَشْرَحُ

ولا تَــكُ مِــن قَــوْمٍ تَلَهَّــوْا بِدِيْــنِهم فَــتَطْعَنَ في أهْــلِ الحَديــثِ وتَقْــدَحُ

إذا مــا اعتقَدْتَ الدَّهْرَ، يا صَاحِ، هَذِه فَأَنْــتَ عَــلى خَــيْرٍ تَبِيْــتُ وتُصْــبحُ

فَتَمَسَّك - أخي الكريم - بِهَدْي نَبيِّك، عسى أن تكون من المفلحين.

«اللّهم أَحْيِنا على سُنّته، وَتَوفّنا على ملّته، وَأَوْرِدْنا حَوْضه، واسْقِنَا بِيَده الشَّريفة شَرْبةً هَنِيئة لا نَظْمأُ بَعْدَها أبدًا».



١٢- التَّوْبَة

اعلم - أيُّها الإنسان - أن الله - تعالى - أَهْبَط إبليس مِنْ مَنزل العزِّ بَتْرك سَجْدة واحدة أُمرَ بها!

وأَخْرج آدم عليه السلام من الجنّة بِلُقْمَةٍ تَنَاولها!

يا ناظرًا يَرنُو بعَيْني راقد ... ومشاهد الأيام غير مشاهد
مَنَّتْك نَفْسُك وَصْلَة فَأَبَحْتَها ... سُبل الرّجاء وهنّ غير قواصد
تَصِل الذّنوب إلى الذّنوب وَتَرْتجي ... دَرَج الجنان بها وفوز العابد
ونسيتَ أن الله أَخْرج آدَما ... منها إلى الدّنيا بذنبٍ واحد!

وَحَجَب القاتل عن الجنّة بعد أن رآها عيانًا بملء كف من دم!

وَأَمَر بقتل الزّاني أشنع القتلات بإيلاج قَدْر أُنْملة فيما لا يحل[1] !

وأَمَر بإيساع الظّهر سياطًا- أي بالجلْد - بكلمةِ قَذْفٍ أو قطرةٍ من مُسْكر!

وَأَبَان عُضوًا من أعضائك بثلاثة دَرَاهم[2]!

فلا تأمنه أن يَحْبسَك في النّار بمعصيةٍ واحدة من معاصيه ﴿ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴾ [الشمس: ١٥].

يَا مَنْ عَصَا الله في الشّباب وَقَدْ ... أَدْركَه الشَّيْبُ راقِب الله
صُحفك بالسّيئات قد مُلِئَتْ ... بأي وَجْه تُراكَ تقرأها
اعْددْ جَوابًا إذا سُئِلْتَ غَدًا ... وَقَرِّب النّار منك مَوْلاَها
يا معشرَ المسلمين كمْ رَجُلٍ ... تلومه النَّارُ حين يَصْلاها

---

(١) يعني: الزّنى.

(٢) أي أن الله — تعالى — قد أمر بقطع يد السارق بثلاثة دراهم يسرقها.

كان «الشِّبْلي» - رحمه الله تعالى - ينوح يومًا ويقول:

«مَكَربكَ في إحْسَانه فَتَنَاسَيْتَ، وأَمْهَلك في غَيِّك فَتَمادَيْتَ، وأسقطك مِنْ عَيْنه فما دَرَيْتَ ولا بَالَيْتَ»، وقال:

«ليت شِعري ما أسْمى عِندك غَدًا يا عَلاَّم الغيوب؟ وما أنت صانعٌ في ذنوبي يا غفّار الذّنوب؟ وبم تَخْتِم عَمَلي يا مُقَلِّب القلوب؟» [١].

يـا مَـنْ خَـلا بمعاصِي الله في الظُّلَمِ ... في اللَّـوْح يُكْتَـبُ فِعْـل السَّوْء بالقَلَمِ

بهـا خَلَـوْتَ وَعَـيْن الله ناظِـرةٌ ... وأنـت بـالإثْم مـنه غـير مُكْتَـتمِ

فَهَـلْ أَمِنْـتَ مِـنَ المـولى عُقوبَـتَهُ ... يـا مَـنْ عَصَـى الله بعد الشَّيْبِ والهَرمِ

أخي المسلم:

إن للمعاصي من الآثار القبيحة المذمومة، المضرّة بالقلب والبدن في الدنيا والآخرة ما لا يعلمه إلاّ الله.

فمنها: حرمان العلم؛ فإن العلم نور يقذفه الله في القلب، والمعصية تطفئ ذلك النور.

ومنها: حِرْمَان الرِّزْق؛ فكما أن تقوى الله مجلبة للرّزق، فترك التقوى مجلبة للفقر، فما استجلب رزق بمثل ترك المعاصي.

ومنها: وَحْشة يجدها العاصي في قلبه بينه وبين الله تعالى؛ وهذا أَمْر لا يحسّ به إلاّ مَنْ في قَلْبه حَيَاة، وما لجرح بميت إيلام.

ومنها: الوحشة التي تَحْصُل بينه وبين الناس، ولا سِيّما أَهْل الخير منهم؛ قال بعضُ السّلف: «إني لأعْصي الله فأرى ذلك في خُلُق دابَّتي وَزَوْجَتي!».

ومنها: تعسير أموره عليه؛ فلا يتوجّه لأمر إلاّ يجده مُغلقًا دونه أو متعسّرًا عليه،

---

(١) «صفة الصفوة» (٢/٢٩٦).

وهذا كما أن من اتقى الله جعل له من أمره يسرًا، فمن عطّل التقوى جعل له من أمره عُسْرًا.

ومنها: **ظُلْمة يَجدها في قلبه حقيقة يَحسّ بها كما يحسّ بِظُلْمة اللّيل البهيم إذا ادْلَهَمَّ**؛ فإن الطاعة نور، والمعصية ظلمة.

ومنها: **أن المعاصي تُوهِن القلب**[1] **والبدن**؛ أمّا وهنها للقلب فأمْرٌ ظاهر، وأمّا وهنها للبدن فإن المؤمن قوّته في قلبه، كلّما قوي قلْبُه قوي بدنُه. وتأمّل قوّة أبدان فارس والروم[2] كيف خانتهم أحوج ما كانوا إليها.

ومنها: **حِرْمان الطاعة.**

ومنها: **أن المعاصي تقصّر الْعُمر وتَمْحَق بركته ولابُدّ**؛ فإن البرّ كما يزيد في العمر، فالفجور يقصّر العمر. والعبد إذا أعرض عن الله واشتغل بالمعاصي ضاعت عليه أيّام حياته الحقيقية التي يجد غِبَّ إضاعتها يوم يقول:

﴿ يَـٰلَيۡتَنِى قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِى ﴾ [الفجر: ٢٤].

ومنها: **أن المعاصي تزرع أمثالها، ويولد بعضها بعضًا، حتى يعزّ على العبد مفارقتها والخروج منها**؛ ولا يزال العبد يألف المعاصي ويحبّها ويؤثرها حتى يرسل الله عليه الشياطين فتؤزّه إليها أزًّا.

ومنها: **أنها تضعف القلب عن إرادته**؛ فتضعف إرادة التوبة شيئًا فشيئًا، إلى أن تنسلخ من قلبه إرادة التوبة بالكليّة فلو مات نِصْفُه لما تاب إلى الله ! وهذا من أعظم الأمراض وأقربها إلى الهلاك.

ومنها: **أنه ينسلخ من القلب استقباحها، فتصير له عادة**؛ فلا يستقبح من نفسه رؤية النفس لها، وهذا عند أرباب الفسوق هو غاية التّهتّك وتمام اللّذّة، حتى يفتخر أحدهم بالمعصية، وَيُحدّث بها من لم يعلم أنه عملها، فيقول: يا فلان عملت كذا وكذا،

---

(١) **الوهن**: الضّعف.

(٢) واليهود.

وهذا الضرب من الناس لا يعافون، ويسدّ عليهم طريق التوبة، وتغلق أبوابها عنهم في الغالب. كما قال النبيُّ ﷺ :

« **كُلُّ أُمَّتي مُعَافى إلاّ المجاهرين، وإن من الإجْهَار: أن يَسْتَر اللهُ الْعَبْدَ ثم يُصْبح يَفْضَح نَفْسَه ويقول: يا فلان عَمِلتُ كذا وكذا وكذا، فهتك نَفْسَه، وَقَدْ بَاتَ يَستره رَبُّهُ** » [(١)].

ومنها: **أن كل معصية من المعاصي فهي ميراث عن أُمَّة مِنَ الأُمَم التي أهلكها اللهُ** ﷻ؛ فاللوطية: ميراث عن قوم لوط. وأخذ الحق بالزائد ودفعه بالناقص: ميراث عن قوم شعيب. والعلوّ في الأرض بالفساد: ميراث عن قوم فرعون. والتكبّر والتجبّر: ميراث عن قوم هود. فالعاصي لابس ثياب بعض هذه الأمم، وهم أعداء الله.

ومنها: **أن المعصية سبب لهوان العبد على رَبِّه وسقوطه من عَيْنه**؛ قال الحسن البصري: هانوا عليه فعصوه، ولو عَزّوا عليه لَعصَمَهم. وإذا هان العبد على الله لم يكرمه أحد، كما قال الله تعالى:

﴿ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ﴾ [الحج: ١٨].

ومنها: **أن المعصية تورث الذُّل**؛ قال الحسنُ البصري: « إنهم وإن طقطقت بهم البغال، وَهَمْلَجَتْ بهم البَرَاذِينُ[(٢)] إن ذُلّ المعصية لا يُفارق قلوبَهم، أَبَى اللهُ إلاّ أن يذلّ من عصاه ».

ومنها: **أن الذنوب إذا تكاثرت طُبع على قَلْب صَاحِبها، فكان من الغافلين**؛ قال بعضُ السَّلف في قوله تعالى:

﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين: ١٤] قال: هو الذّنب على الذّنب، حتى يعمى القلب.

ومنها: **أن الذّنوب تُدْخل العبد تحت لعنة رسول الله ﷺ** ؛ فإنه لَعَن على معاصي والتي غيرها أكبر منها فهي أولى بدخول فاعلها تحت اللّعنة، فَلَعن: الواشمة والمستوشمة،

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) البراذين: الخيل التركية، وهي من أجود أنواع الخيل.

والواصلة والمستوصلة، والنامصة والمتنمّصة، ولَعَنَ: آكلَ الرِّبا ومؤكله، وكاتبه، وشاهده، ولَعَنَ: المحلِّل والمحلَّل له .. ولَعَنَ على أشياء أُخَر غير هذه.

ومنها: **أنها تحدث في الأرض أنواعًا من الفساد**؛ في المياه، والهواء، والزروع، والثمار، والمساكن. قال تعالى:

﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم: ٤١].

ومنها: **أنها تطفئ من القلب نار الغَيْرة[1] التي هي لحياته وصلاحه كالحرارة الغريزية لحياة جميع البدن**؛ فالغَيْرة حرارته وناره التي تُخرج ما فيه من الخبث والصّفات المذمومة، كما يخرج الكيرُ خَبَثَ الذّهبِ والفضّة والحديد.

والمقصود: أنه كلّما اشتدت ملابسة العبد للذّنوب، أخرجت من قلبه الغيرة على نفسه وأهله وعموم الناس، وقد تضعف في القلب جدًّا حتى لا يستقبح بعد ذلك القبيح لا من نفسه ولا من غيره، وإذا وصل إلى هذا الحدّ فقد دخل في باب الهلاك.

ومنها: **أنها تذهب الحياء الذي هو مادة حياة القلب**؛ وهو أصل كلّ خير، وذهابه ذهاب الخير أجمعه.

ومنها: **أنها تَضْعف في القلب تعظيم الرّب جَلّ جَلاَله.**

ومنها: **أنّها تَسْتَدعي نسيان الله لعبده وتركه، وَتَخْلِيته بينه وبين نفسه وشيطانه، وهناك الهلاك الذي لا يُرْجَى مَعَه نجاة**؛ قال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [الحشر: ١٨، ١٩].

---

(١) **الغَيْرة – بالفتح –** : هي أن يغار المرء على دينه وعِرْضِه. وبالكَسْر: كلام الناس بعضهم في بعض، الأولى: محمودة، والثانية: مذمومة.

ومنها: أنها تضعف سير القلب إلى الله والدار الآخرة؛ أو تُعوِّقه أو توقفه وتقطعه عن السَّير، فلا تدعه يَخْطو إلى الله خُطوة، هذا إن لم تَردّه عن وُجْهَتِه إلى ورائه.

ومنها: أنها تُزيل النِّعم وتحلّ النّقم؛ فما زالت عن العبد نعمة إلاّ بذنب، ولا حلّت به نقمة إلاّ بذنب[1].

هذه بعض أضرار الذنوب والمعاصي.

فإن لم تُرْدِعْكَ هذه العقوبات، ولم تجد لها تأثيرًا في قلبك فأحضره العقوبات الشرعية التي شرعها اللهُ ورسولهُ عن الجرائم، كقطع اليد، والجلد، والرجم، والقتل .. وغير ذلك.

فإن لم تجد لها تأثيرًا، فأحضره العقوبات التي أعدها الله - تعالى - للمذنبين في الآخرة.

فإن الخوف سوطُ الله يقوّم به أَنْفُسًا قد تَعوَّدت سوءَ الأدب.

أخي الكريم:

من أجل هذه الأضرار وغيرها، فحديثي إليك - على السّطور التالية - يدور حول عشرة أمور:

الأول: تعريف التوبة.

والثاني: أنواعها.

والثالث: شروطها.

والرابع: حكمة الله تعالى في تمكين العبد من الذّنب، وإقداره عليه، وتهيئة أسبابه له.

والخامس: فضل التوبة.

والسادس: وجوب التوبة على الفور.

---

(١) «الداء والدواء» للإمام ابن القيم باختصار شديد.

والسابع: أقسام الذنوب.

والثامن: علامات قبول التوبة.

والتاسع: ثمرة التوبة.

والعاشر: فتاوى مهمّة للتائبين.

والله الموفّق لما يُحبّ ويرضى.

أوّلاً: تعريف التوبة:

التوبة: «**لغة**»: مَصْدرُ قَوْلك: تابَ يَتوبُ، وهو مأخوذٌ من مادّة (ت و ب) التي تدلّ على الرّجوع، يُقال: تاب من ذَنْبه، أي: رَجَعَ عنه توبةً وَمَتابًا، والوصف منه: تائب، والتَّوْب: تركُ الذَّنْبِ على أَجْمَلِ الوجوه وهو أَبْلَغُ وجوه الاْعتذار.

و «**اصطلاحًا**» قال الرّاغب: التَّوْبَة في الشّرع: تَرْكُ الذَّنْب لِقُبحْه والنّدم على ما فَرَّطَ منه، والعزيمةُ على تَرْك المعاودة، وتدارُكُ ما أَمْكَنه أن يَتَدارَكَ مِنَ الأَعْمَال بالإعادة.

والتوبة النَّصُوح: هي كما قال الجرجاني: توثيق العزم على ألاّ يعود بمثله. وقيل: هي ألاّ يُبْقى «التائبُ» على عمله أثرًا من المعصية سِرًّا وجهرًا، وهذه التوبة هي التي تورث صاحبها الفلاح عاجلاً وآجلاً.

قال ميمونُ بْنُ مِهْران - رحمه الله - :

«مَنْ أسَاءَ سِرًّا، فَلْيَتُبْ سِرًّا، ومن أسَاء عَلاَنِيةً، فَلْيَتُبْ عَلاَنِيَةً، فإنّ النّاسَ يُعيِّرون ولا يَغْفِرُون، والله يَغفِرُ ولا يُعيِّر» [1].

ثانيًا: أنواعها:

قيل: هي نوعان:

توبة الإنابة، وتوبة الاستجابة.

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٥/٧٥).

فتوبة الإنابة: أن تخاف من الله مِنْ أَجْلِ قُدْرَته عليك.

وتوبة الاستجابة: أن تَسْتَحيي مِنَ الله لِقُرْبه منك.

وقيل: بل هي ثلاثة أنواع:

التوبة الصَّحيحة: وهي أنه إذا اقترف العبدُ ذنبًا تاب عنه بصدق في الحال.

والتوبة الأصح: وهي التوبة النّصوح «سبق تعريفها».

والتوبة الفاسدة: هي التوبة باللّسان مع بقاء لذّة المعصية في الخاطر[1].

وهذه توبة تحتاج إلى توبة.

ثالثًا: شروطها:

ذكر العلماء شروطًا للتوبة مأخوذة من الآيات والأحاديث .. وهذا ذكر بعضها:

الأوّل: الإقلاع عن الذنب فورًا.

الثاني: النّدم على ما فات.

الثالث: العزم على عدم العودة.

الرابع: إرجاع حقوق من ظلمهم، أو طلبُ البراءة منهم[2].

وذكر بعضُ أهل العلم تفصيلات أُخرى لشروط التوبة النّصوح، منها:

الأوّل: أن يكون تَرْكُ الذَّنْب للّهِ تعالى لا لشيء آخر، كعدم القدرة عليه أو على معاودته، أو خوف كلام الناس مثلاً.

فلا يُسمّى تائبًا: من ترك الذّنوب لأنها تؤثّر على جاهه وسمعته بين الناس، أو ربّما طُرد من وظيفته.

ولا يُسمّى تائبًا: من ترك الذّنوب لحفظ صحّته وقوّته، أو خشية الإصابة بمرض فتّاك.

---

(١) «التعريفات» (٧٤).

(٢) لأن حقوق العباد لا تسقط بالتّقادُم.

ولا يُسمّى تائبًا: من ترك السّرقة لأنه لم يجد منفذًا للبيت، أو خشى الحارس، مثلاً.

ولا يُسمّى تائبًا: من ترك شرب الخمر، ونحوها لإفلاسه.

ولا يُسمّى تائبًا: من عجز عن فعل معصية لأمر خارج عن إرادته.

والله تعالى نزل العاجز الْمُتَمَنِّي بالقَوْل منزلة الفاعل، ألا تراه ﷺ قال:

«إنّما الدُّنيا لأربعة نَفَر: عَبْدٌ رَزَقَه اللهُ مَالاً وَعِلْمًا فهو يَتَّقِي فيه رَبَّه، وَيَصِلُ فيه رَحِمَهُ، وَيَعْلَمُ لِلُه فيه حَقًّا، فهذا بِأَفْضَل الْمَنَازِل.

وَعَبْدٌ رَزَقَه اللّهُ عِلْمًا، ولم يرزقْه مَالاً، فهو صَادِقُ النِّيَّة، يقولُ: لو أن لي مالاً لعملتُ بَعَمَل فُلاَنٍ، فهو بنيَّتِه، فَأَجْرُهُما سَواءٌ.

وعَبْدٌ رَزَقَهُ اللّهُ مالاً ولم يَرزُقْه علمًا، يَخْبِطُ في ماله بِغَيْرِ علمٍ، ولا يَتَّقِي فيه ربَّهُ، ولا يَصِلُ فيه رَحِمَهُ، ولا يَعْلَمُ للّهِ فيه حقًّا، فَهَذَا بأخْبَثِ المنازِلِ.

وعبدٌ لم يَرْزَقهُ اللّهُ مالاً ولا عِلْمًا، فهو يقول: لو أن لِي مالاً لعملتُ فِيهِ بِعَمل فُلانٍ، فهو بنيّته، فَوِزْرُهُما سَواءٌ» [١].

الثاني: أن يَسْتَشْعِر قُبْح الذَّنْب وَضَرره:

وهذا يعني أن التوبة الصحيحة لا يمكن معها الشعور باللّذة والسرور حين يتذكّر الذنوب الماضية، أو أن يتمنّى العودة لذلك في المستقبل.

الثالث: أن يُبادر العبدُ إلى التوبة: لأن تأخير التوبة ذنب يحتاج إلى توبة.

الرابع: أن يخشى على توبته من النقص؛ ولا يجزم بأنّها قُبلت، فيركن إلى نفسه، ويأمن مكر الله.

الخامس: استدراك ما فات من حَقّ الله، إن كان ممكنًا، كإخراج الزّكاة التي منعها في الماضي.

السادس: أن يفارق موضع المعصية: إذا كان وجوده فيه قد يوقعه في المعصية مرّة أخرى.

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (٢٣٣٢)، وصحَّحه ووافقه الألباني.

السابع: أن يفارق من أعانه على المعصية: وهذا والذي قبله من فوائد حديث قاتل المائة.

الثامن: إتلاف المحرّمات الموجودة عنده: مثل المسكرات، وآلات اللّهو، كالعود ونحوه، أو الصّور المحرّمة، والأفلام الماجنة.

التاسع: اختيار الرُّفْقة الصّالحة: التي تُعينه على الطّاعة، وتَكْبَح جِمَاحه عن المعصية.

قال ابْنُ عطاء الله - رحمه الله - :

«لا تَصْحَب مَنْ لا يُنْهِضُك حَالُهُ، ولا يَدُلُّكَ على اللّهِ مَقَالُهُ»[١].

العاشر: أن يَعْمد إلى البدن الذي رَبَّاه بالسُّحْت فيصرف طاقته في طاعة الله؛ ويتحرّى الحلال حتى ينبت له لحم طيّب.

الحادي عشر: أن تكون التَّوْبةُ قبل الغَرْغَرَة، وقبل طلوع الشّمْس من مغربها:

قال ﷺ: «**مَنْ تابَ إلى الله قبل أن يُغرغِر قَبِلَ اللّهُ منه**»[٢].

وقال ﷺ: «**مَنْ تابَ قَبْل أن تَطْلعُ الشمسُ مِنْ مَغْرِبها تاب اللّهُ عليه**»[٣].

هذا، واعلم أن التوبة من ترك المأمور أَوْلى من التوبة من فعل المحظور، هذا معنى كلام شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - .

رابعًا: حِكْمةُ اللّهِ -تعالى - في تمكين العبدِ من الذنب، وإقْداره عليه، وتهيئة أَسْبَابه له:

اعلم - أخي المسلم - أن الله - تعالى - خلّى بين العبد وبين الذّنْب - ولو شاء عصمه - لِحِكَمٍ عظيمة لا يعلم مَجْموعها إلاّ الله:

أَحَدها: أنه يحبّ التّوابين ويفرح بتوبتهم، فَلِمَحبَّته للتوبة وفرحه بها قضى على عبده

---

(١) «الحكم العطائية» (١٤).

(٢) صحيح: رواه أحمد والترمذي، وانظر: «صحيح الجامع» (٦/٣٢).

(٣) رواه مسلم، وانظر: «أريد أن أتوب .. ولكن» للشيخ/ محمد بن صالح المنجد (١٠ - ١٥) مع حذف وإضافة.

بالذّنب، ثم إذا كان ممّن سبقت له العنايَة قضى له بالتوبة.

الثاني: تعريف العبد عزّة الله – سبحانه – في قضائه ونفوذ مشيئته وجريان حكمه.

الثالث: تعريفه حاجته إلى حفظه وصيانته، وأنه إن لم يحفظه ويصنه فهو هالك ولابدّ، والشياطين قد مدّت أيديها إليه تمزّقه كُلّ مُمزّق.

الرابع: استجلابه من العبد استعانته به واستعاذته به من عدوّه، وشرّ نفسه، ودعائه، والتضرّع إليه، والابتهال بين يديه.

الخامس: إرادته من عبده تكميل مقام الذّل والانكسار، فإنه متى شهد صلاحه واستقامته شمخ بأنفه وظنّ أنّه وأنّه .. فإذا ابتلاه بالذّنب تصاغرت عنده نفسه، وذلّ، وتيقّن، وتمنّى أنّه وأنّه ..

السادس: تعريفه بحقيقة نَفْسه وأنها الخطّاءَة الجاهلة، وأن كلّ ما فيها من علم أو عمل أو خير فمن الله مَنَّ به عليه لا مِنْ نفسه.

السابع: تعريفه عبده سعة حِلْمه وكَرَمِه في ستره عليه، فإنّه لو شاء لعاجله على الذّنب ولهتكه بين عباده فلم يَصْفُ له معهم عَيْشٌ.

الثامن: تعريفه أنه لا طريق إلى النجاة إلاّ بعفوه ومغفرته.

التاسع: تعريفه كرمه في قبول توبته ومغفرته له على ظلمه وإساءته.

العاشر: إقامة الحجّة على عبده، فإن له عليه الحجّة البالغة، فإن عذّبه فبعدله، وببعض حقّه عليه بل اليسير منه.

الحادي عشر: أن يعامل عباده في إساءتهم إليه وزلاّتهم معه بما يحبّ أن يعامله الله به، فإن الجزاء من جنس العمل، فيعمل في ذنوب الخلق معه ما يحبّ أن يصنعه الله بذنوبه.

الثاني عشر: أن يخلع صَوْلة الطاعة والإحسان من قَلْبه، فتتبدّل بِرِقّةٍ ورأفة ورحمة.

الثالث عشر: أن يُعرّيه من رداء العُجْب بعمله.

الرابع عشر: أن يُعرّيه من لباس الإدْلال[1] الذي يصلح للملوك، ويلبسه لباس الذّلّ الذي لا يليق بالعبد سواه.

الخامس عشر: أن يستخرج من قلبه عبوديته بالخوف والخشية وتوابعهما من البكاء، والإشفاق والنَّدم.

السادس عشر: أن يعرف مقداره مع معافاته وفضله في توفيقه وعصمته، فإن مَنْ تَرَبَّى في العافية لا يَعْرف ما يُقاسيه الْمُبْتَلى ولا يَعْرف مِقْدار العافية.

السابع عشر: أن يستخرج منه محبته وشكره لربّه إذا تاب إليه ورجع إليه، فإن الله يُحبّه ويوجب له بهذه التوبة مزيد محبّة وشكر ورضا لا يحصل بدون التوبة، وإن كان يحصل بغيرها من الطاعات أثر آخر، لكن هذا الأثر الخاص لا يحصل إلاّ بالتوبة.

الثامن عشر: أنه إذا شهد إساءته وظُلْمه، واستكثر القليل من نعمة الله لعلمه بأن الواصل إليه منها كثير على مسيء مثله، فاستقلّ الكثير من عمله لعلمه بأن الذي يصلح له أن يغسل به نجاسته وذنوبه أضعاف ما يفعله، فهو دائمًا مستقل لعمله كائنًا ما كان، ولو لم يكن في فوائد الذّنب وحكمه إلاّ هذا وحده لكان كافيًا.

التاسع عشر: أنه يوجب له التيقّظ والحذر من مصايد العدوّ ومكايده، ويعرّفه من أين يدخل عليه، وبماذا يحذر منه، كالطبيب الذي ذاق المرض والدّواء.

العشرون: أن مثل هذا ينتفع به المرضى لمعرفته بأمراضهم وأدوائها.

الحادي والعشرون: أنه يرفع عنه حجاب الدّعوى، ويفتح له طريق الفاقة فإنه لا حجاب أغلظ من الدّعوى، ولا طريق أقرب من العبودية، فإن دوام الفقر إلى الله مع التخليط خير من الصّفاء مع العُجْب[2].

الثاني والعشرون: أن يذيقه ألم الحِجَاب والبعد بارتكاب الذّنْب ليكمل له نعمته وفرحه

---

(١) **الإدلال**: يقال تدللت المرأة على زوجها: أظهرت الجرأة عليه في تكَسُّر وملاحة كأنّها تخالفه وما بها من خلاف. وهو من الانبساط الزّائد ومظنّة الحظوة في المكانة.

(٢) قال بعض السّلف: «أنين المذنبين أحبّ إلى الله تعالى من زجل الْمُسَبّحين!».

وسروره إذا أقبل بقلبه إليه وجمعه عليه وأقامه في طاعته.

الثالث والعشرون: امتحان العبد واختباره هل يصلح لعبوديته وولايته أم لا، فإنه إذا وقع الذّنب، سُلبَ حلاوة الطّاعة، والقُرْب، ووقع في الوحشة. فإن كان ممّن يصلح اشتاقت نَفْسُهُ إلى لذّة تلك المعاملة فَحَنَّت وأَنَّتْ وتضرّعت واستعانت بربِّها ليردها إلى ما عَوّدها من برِّه وَلُطْفه، وإن ركنت عنها واستمرّ إعراضها و لم تحن إلى تعهّدها الأوّل ومألفها و لم تحس بضرورتها وفاقتها الشديدة إلى مراجعة قُرْبها من رَبِّها علم أنها لا تَصْلح لله.

الرابع والعشرون: أن الحكمة الإلهية اقتضت تَركيب الشهوة والغضب في الإنسان أو بعضها، ولو لم يخلق فيه هذه الدّواعي لم يكن إنسانًا بل مَلَكًا، فالذَّنْب من موجبات البشرية، كما أن النّسيان من موجباتها، كما قال النبيُّ ﷺ:

«**كُلُّ بني آدم خَطَّاءٌ، وخَيْرُ الخَطَّائين التَّوّابُون**» [1]، ولا يتم الابتلاءُ والاختبار إلاّ بذلك. والله أعلم.

الخامس والعشرون: أن ينسيه رؤية طاعته، ويشغله برؤية ذَنْبه فلا يزال نُصْب عَيْنَيْه حتى يدخل الجنة!

قال بعضُ السَّلف: «إن العبد ليعمل الخطيئة فيدخل بها الجنة، ويعمل الحسنة فيدخل بها النار!».

قالوا: كيف؟

قال: «يعمل الخطيئة فلا تزال نُصْب عينيه، إذا ذكرها نَدم واستقال وتضرّع إلى الله وبادر إلى مَحْوها وانكسر وذلّ لِرَبّه وزال عنه عُجْبه وكِبْرُهُ، ويعمل الحسنةَ فلا تزال نُصْب عَيْنَيْه يراها وَيَمُنّ بها [2] ويعتد بها ويتكبّر بها حتى يدخل النار».

السادس والعشرون: أن شهود ذنبه وخطيئته يوجب له أن لا يرى له على أحدٍ فضلاً

(١) حسن: رواه أحمد في «المسند»، والترمذي، وغيرهما، وانظر: «صحيح الجامع» (٤٥١٥).

(٢) المنان: الفخور بعطيته وبعمله على من أعطى حتى يفسد عطاءه.

ولا له على أحد حقًا. فإنه إذا شهد عيب نفسه بفاحشة وخطأها وذنوبها لا يظنّ أنه خير من مسلم يؤمن بالله واليوم الآخر، وإذا شهد ذلك من نفسه لم ير لها على الناس حقوقًا من الإكرام يتقاضاهم إيّاها ويذمّهم على ترك القيام بها، فإنها عنده أخسّ قَدْرًا وأقلّ قيمة من أن يكون لها على عباد الله حقوق يجب مراعاتها، أولها عليهم فضل يستحق أن يلزموه لأجله.

السابع والعشرون: أنه يوجب له الإمساك عن عيوب الناس والفكر فيها، فإنه في شغل بعيبه ونفسه، وطوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس، وويل لمن نسى عيبه وتفرّغ لعيوب الناس، فالأوّل علامة السعادة، والثاني علامة الشقاوة.

الثامن والعشرون: أنه يوجب له الإحسان إلى الناس والاستغفار لإخوانه الخاطئين من المؤمنين فيصير هجّيراه[1]: رَبِّ اْغفرْ لي ولوالديّ وللمسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات، فإنه يشهد أن إخوانه الخاطئين يصابون بمثل ما أُصيب به، ويحتاجون إلى مثل ما هو محتاج إليه، فكما يحب أن يستغفر له أخوه المسلم يحبّ أن يستغفر هو لأخيه المسلم.

التاسع والعشرون: أنه يوجب له سعة إبطائه وحِلْمه ومغفرته لمن أساء إليه، فإنه إذا شهد نفسه مع ربِّه - سبحانه - مسيئًا خاطئًا مذنبًا - مع فرط إحسانه إليه وبرّه وشدّة حاجته إلى ربّه وعدم استغنائه عنه طرفة عين وهذا حاله مع ربّه - فكيف يطمع أن يستقيم له الخَلْق ويعاملوه بمحض الإحسان وهو لم يعامل ربّه بتلك المعاملة؟ وكيف يطمع أن يطيعه مملوكه وولده وزوجته في كل ما يريد وهو مع ربِّه ليس كذلك، وهذا يوجب أن يغفر لهم ويسامحهم ويعفو عنهم ويغضي عن الاستقصاء في طلب حقه قِبَلهم[2].

---

(١) **الهجيري**: الدأب والعادة. يقال: ما زال هذا هجيراه.

(٢) «طريق الهجرتين وباب السعادتين» (١٨٠ - ١٨٥) باختصار.

خامسًا: فضل التوبة:

التوبة: مبدأ طريق السالكين، ورأس مال الفائزين، وأوّل إقدام المريدين، ومفتاح استقامة المائلين، ومطلع الاصطفاء والاجتباء للمقرّبين.

ورد في فضلها كثير من الآيات، والأحاديث، والآثار:

فمن الآيات:

(١) قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٤].

(٢) وقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

(٣) وقال تعالى: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢].

ومن الأحاديث:

(١) عن عقبة بن عامر ﷺ قال:

إن رجلاً جاء إلى النبيّ ﷺ فقال: يا رسول الله، أَحَدُنا يُذْنب.

قال: «**يُكْتَبُ عليه**».

قال: ثم يستغفر منه ويتوب.

قال: «**يُغْفَرْ له ويُتَابُ عَلَيه**».

قال: فَيَعُودُ فَيُذْنب.

قال: «**فَيُكْتبُ عليه**».

قال: ثم يستغفرُ منه ويتوب.

قال: «**يُغْفَرُ له ويُتابُ عليه، ولا يَمَلُّ اللّهُ حَتَى تَمَلُّوا**»[1].

---

(١) **حسن**: قال الهيثمي في «المجمع» (١٠/٢٠٠): رواه الطبراني في «الكبير» و «الأوسط» وإسناده حسن.

(٢) وعن ابن مسعود ﷺ عن النبيّ ﷺ قال:

« **التائبُ مِنَ الذَّنْب كمن لا ذَنْب له** »[١].

(٣) وعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال:

« **والذي نفسي بيده لو لم تُذْنِبوا لذهب الله بكم، ولجاء بِقَوْمٍ يُذْنِبون، فيستغفرون الله، فَيَغْفِرُ لهم** »[٢].

والأحاديث في هذا المقام كثيرة جدًّا، وقد تقدّم بعضها، وسيأتي بعضُها، بعد قليل.

ومن الآثار:

(١) عن الأسود وعَلْقمة عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال:

إني لأعلم آيتين في كتاب الله لا يقرأهما عَبْدٌ عند ذنبٍ يُصِيبه، ثم يستغفر الله إلاّ غفر له.

قلنا: أيّ آيتين في كتاب الله؟

فلم يُخْبِرْنا ففتحنا المصحف، فقرأنا « سورة البقرة » فلم نُصِبْ شيئًا، ثم قرأنا « سورة النّساء » وهي في تأليف عبد الله على إثرها فانتهينا إلى هذه الآية:

﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء: ١١٠].

قلتُ: أَمْسِكْ هذه ، ثم انتهينا في « سورة آل عمران » إلى هذه التي يذكر فيها:

﴿ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٣٥] إلى آخرها، ثم أطبقنا المصحف، وأخبرنا بهما عبد الله، فقال: هما هاتان[٣].

---

(١) حسن: رواه ابن ماجة، وانظر: « صحيح الجامع » (٣٠٠٨).

(٢) رواه مسلم.

(٣) صحيح: أخرجه الطبراني في « الكبير » (٩٠٣٥)، وابن أبي الدنيا في « التوبة » (٢٠).

(٢) وعن عثمان بن زائدة، قال:

قال لقمان لابنه:

«**يا بُني، لا تُؤخّر التوبة، فإن الموتَ قد يأتي بَغْتَة**»[١].

(٣) وعن الحجّاج بن أبي زنيب، قال:

سمعتُ أبا عثمان النّهدي يقول:

ما في القرآن آية أَرْجى عندي من هذه الآية من قوله:

﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٠٢].

(٤) وعن طَلْق بن حبيب[٢]، قال:

«إنّ حَقّ الله أثقل من أن يقوم به العباد، وإن نِعَم الله أكثر من أن يُحْصيها العباد، ولكن أصْبحوا تائبين، وأمْسوا تائبين».

(٥) وعن بكر بن عبد الله المزني، قال:

«إنكم تكثرون من الذّنوب، فاستكثروا من الاستغفار، فإن العبد إذا وَجَد يوم القيامة بين كُلّ سَطْرين من كتابه استغفارًا سَرَّهُ مكان ذلك»[٣].

سادسًا: وجوب التَّوْبة على الفَوْر

اعلم أن وجوب التوبة ظاهر بالآيات والأحاديث والآثار:

فمن الآيات:

قال تعالى: ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [النور: ٣١].

---

(١) **إسناده صحيح**: أخرجه ابن أبي الدنيا في «التوبة» (٢٩).

(٢) من التابعين، انظر ترجمته في كتابنا: «صور ومواقف من حياة التابعين» ط. المكتبة التوفيقية.

(٣) **حسن**: أخرجه أحمد في «الزهد» (٣٨١)، وابن أبي الدنيا في «التوبة» (١٧٩).

ومن الأحاديث:

عن الأغرّ المزني ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ :

«يا أيّها الناسُ توبوا إلى ربِّكم. فوالله إني لأتوب إلى الله ﷻ في اليومِ مائة مرةٍ» [(١)].

ومن الآثار:

قال لقمان لابنه:

«يا بُنيّ لا تؤخرّ التوبة فإن الموت يأتي بغتة».

قال الإمامُ الغزاليّ – رحمه الله – :

«وَمَنْ تَرَكَ المبادرة إلى التَّوبة بالتَّسْويف كان بَيْن خَطَرَيْن عَظِيمَيْن:

أحدهما: أن تتراكم الظُّلمة على قلبه من المعاصي حتى يصير رينًا وطبْعا فلا يقبل المحو[(٢)].

الثاني: أن يعاجله المرض أو الموت فلا يجد مهلة للاشتغال بالمحو» ا.هـ[(٣)].

سابعًا: أقسامُ الذُّنوب:

قال الإمام الغزاليّ – رحمه الله تعالى – ما مختصره:

«اعلم أن الذنوب تنقسم إلى: **صغائر وكبائر**، وقد كثر اختلاف الناس فيها، فقال قائلون: لا صغيرة ولا كبيرة، بل كلّ مخالفة لله فهي كبيرة، وهذا ضعيف، إذ قال الله تعالى:

---

(١) رواه أحمد ومسلم.

(٢) قال ﷺ : **«إن العَبد إذا أَذْنَب ذَنْبًا كانت نُكْتَة سَوْداء في قَلْبه، فإن تاب صَقُل قَلْبُهُ، وإن زَادَ زادت حتى يَسْوَدَّ قَلْبُهُ»** قال: **«فذلك قول الله تعالى: ﴿كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾** [المطففين: ١٤]. والحديث أخرجه أحمد، والترمذي، وغيرهما، وإسناده حسن. وقال مجاهد: «الرّان أَيْسَر من الطّبع، والطَّبْع أيْسَر من الأَقْفال، والأقفال أشدّ مِنْ ذلك» **أثر صحيح**: رواه ابن أبي الدنيا في «التوبة» (٢٤)..

(٣) «الإحياء» (١٢/٤).

﴿ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴾ [النساء: ٣١].

وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ﴾ [النجم: ٣٢].

وقال ﷺ: «**الصّلوتُ الخمس، والجمعةُ إلى الجمعة يكفرن ما بَيْنَهنّ إن اجْتُنِبتْ الكبائر**»[١].

واختلف الصحابة والتابعون في عدد الكبائر من أربع إلى سبع إلى تسع إلى إحدى عشرة فما فَوْق ذلك.. وقال ابن عباس: كل ما نهى الله عنه فهو كبيرة. وقال غيره: كُلّ ما أوعد الله عليه بالنار فهو من الكبائر.

وقال بعض السّلف: كل ما أوجب عليه الحدّ في الدّنيا فهو كبيرة، وقيل: إنها مبهمة لا يعرف عددها قليلة القدر، وساعة يوم الجمعة[٢].

وقال أبو طالب المكّي: الكبائر سبع عشرة: جمعتُها من جملة الأخبار، وجملة ما اجتمع من قول ابن عباس وابن مسعود وابن عمر وغيرهم:

أربعة في القلب: وهي: الشّرك بالله، والإصرار على معصيته، والقنوط من رحمته، والأَمْنُ مِنْ مَكْره.

وأربع في اللسان: وهي: شهادة الزّور، وقذف المحصن، واليمين الغموس، والسِّحر.

وثلاث في البطن: وهي: شرب الخمر، والسُّكر من كل شراب، وأكل مال اليتيم ظلمًا، وأكل الرّبا وهو يعلم.

واثنتان في الفرج: وهما: الزّنا واللّواط.

واثنتان في اليدين: وهما: القتل والسرقة.

---

(١) رواه مسلم.

(٢) الثابت أنها آخر ساعة بعد العصر. قال ﷺ: «**يوم الجمعة اثنتا عشرة ساعة، لا يُوجد فيها عَبْدٌ مُسْلم يسأل الله ﷻ شيئًا إلاّ آتاه وإيّاه؛ فالتمسوها آخر ساعة بعد العَدْو**» صحيح. انظر: «صحيح سنن النسائي» (١٣٨٨)، و «صحيح سنن أبي داود» (٩٦٣).

وواحدة في الرِّجلين: وهي: الفرار من الزّحف.

وواحدة في جميع الجسد: وهي: عقوق الوالدين.

هذا ما قاله وهو قريب، ولكن ليس يحصل به تمام الشفاء، فالطمع في معرفة حدٍّ حاصر أو عددٍ جامع مانع طلب لِمَا لَمْ يمكن، فإن ذلك لا يمكن إلاّ بالسماع من رسول الله ﷺ - بأن يقول: إني أردتُ بالكبائر عشرًا أو خمسًا ويفصّلها فإن لم يرد هذا - بل ورد في بعض الألفاظ: «**ثلاث من الكبائر**» وفي بعضها: «**سبع من الكبائر**»: علم أنه لم يقصد به العدد بما يحصر، فكيف يطمع في عدد ما لم يعدّه الشّرع؟» ا.هـ[1].

ثامنًا: علامات قبول التوبة:

قال الإمام ابن القيم - رحمه الله - في «مدارج السالكين»:

«للتوبة المقبولة علامات، منها:

(١) أن يكون بعد التوبة خيرًا مما قبلها.

(٢) ومنها: أنه لا يزال الخوف مصاحبًا له لا يأمن مكر الله طرفة عين.

(٣) ومنها: انخلاع القلب نَدَمًا وخوفًا.

(٤) ومن موجبات التوبة الصّحيحة أيضًا: كسرة خاصّة تحصل للقلب لا يشبهها شيء تكسر القلب بين يدي الرَّب كسرة تامّة قد أحاطت به من جميع جهاته وألقته بين يدي ربِّه طريحًا ذليلاً خاشعًا» ا.هـ.

تاسعًا: ثمرة التوبة:

للتوبة ثمرتان:

إحداهما: تكفير السَّيئات حتى يصير كمن لا ذنب له.

والثانية: نيل الدرجات حتى يصير حبيبًا.

---

(١) «الإحياء» (٤/١٧- ١٩) باختصار.

وللتكفير أيضًا درجات: فبعضه محو لأصل الذّنب بالكلية، وبعضه تخفيف له، ويتفاوت ذلك بتفاوت درجات التوبة.

قال الإمام ابن القيم - رحمه الله - :

«لأهل الذنوب ثلاثة أنهار عظام يتطهّرون بها في الدنيا. فإن لم تَفِ بِطُهْرهم طُهِّروا في نهر الجحيم يوم القيامة:

١- نهر التوبة النصوح.

٢- ونهر الحسنات المستغرقة للأوزار المحيطة بها.

٣- ونهر المصائب العظيمة الْمُكَفِّرة. فإذا أراد الله بعبده خيرًا أدخله أحد هذه الأنهار الثلاثة. فورد يوم القيامة طَيِّبًا طاهرًا، فلم يَحْتَجْ إلى التطهير الرّابع» ا.هـ.

قلت: لم يذكر الإمام ابن القيم - رحمه الله تعالى - نَهْرَيْن مُهِمَّيْن:

الأول: نهر الشهادة في سبيل الله؛ فالسّيف مَحَّاء للخطَايا.

والثاني: نهر إقامة الحد؛ فالحدّ مَحّاء للذّنْب، فالحدود: زواجر، وجوابر، وقد وردت أحاديث كثيرة تدلّ على ذلك كما في قصّتي: ماعز والغامدية.

عاشرًا، فتاوى مهمّة للتائبين:

- تارك الصّلاة: لا يلزمه - على الرّاجح - القضاء، ولكن يلزمه التوبة النّصوح، ثم يكثر من النوافل.

وقضاء الصلوات لا يكون إلاّ في حالتين:

الأولى: نسيان الصّلاة حتى يخرج وقتها.

والثانيه النوم عنها.

قال ﷺ: «**إنّه ليس في النَّوم تَفْرِيطٌ**[١]**، إنّما التفريط في الْيَقَظة، فإذا نَسِي أحدُكم صَلاةً أو نام عنها فَلْيُصَلّها إذا ذَكَرَها**»[٢].

- **تارك الصِّيام**: يلزمه قضاء الأيام التي أفطرها إن كانت معلومة وإلاّ صام حتى يغلب على ظنه أنه قضاها.

أما إذا كان إفطاره بسبب جماع؛ فعليه قضاء وكفّارة.

- **تارك الزكاة**: يجب عليه إخراجها، وهي حقٌّ لله من جهة، وحقٌّ للفقير من جهة أخرى، ولا تسقط بالتقادم.

- **التوبة من الغيبة**: تكون بطلب المسامحة مِمّن ذُكِرَ بِسُوءٍ، فإن كان اعترافه سيؤدّي إلى ضرر أشدّ فعليه:

أوّلاً: التوبة النصوح.

ثانيًا: الدّعاء لأخيه والثناء عليه.

ثالثًا: الإكثار من عمل الصّالحات.

- **التوبة من المظالم**: بردّها إلى أصحابها، أو طلب المسامحة منهم.

- **القاتل المتعمّد**: عليه ثلاثة حقوق:

حقّ لله، وحق للقتيل، وحق للورثة.

فحقُّ الله لا يُقضى إلاّ بالتوبة.

وَحَقّ الورثة أن يُسلّم نفسه إليهم ليأخذوا حقهم، إمّا بالقصاص، أو الدّية، أو العفو.

وَحَقّ القتيل الذي لا يمكن الوفاء به في الدنيا. قال أهلُ العلم: إذا حَسُنَتْ توبة القاتل، فإن الله يرفع عنه حقّ القتيل، ويعوّض القتيل يوم القيامة خيرًا من عنده ﷻ، وهذا

---

(١) شريطة أن يأخذ المسلمُ بالأسباب التي توقظه لأوقات الصّلاة.

(٢) **صحيح**: «صحيح سنن الترمذي» (١٤٩).

أحسن الأقوال[١].

- المال المسروق: يُعاد لأصحابه، بأي وسيلة ممكنة، ولو بالتحايل، فإن تعذّر الوصول لصاحبه - بعد البحث الجاد - فعلى السارق «التائب» : التصدّق به عنهم، راجيًا من الله تعالى: أن يعفو عنه، وأن يصل ثوابه إليهم.

- إذا غصب مال أيتام وتاجر فيه وربح منه: فللعلماء في هذه المسألة أقوال، أوسطها وأعدلها: أنه يردّ رأس المال الأصلي للأيتام، زائدًا نصف الربح. وهذه رواية عن الإمام أحمد، وهو رأي الشيخين: ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم.

- التائب من الزِّنا: الأفضل له أن يستتر بستر الله تعالى عليه، ويتوب إلى الله توبة نصوحًا، فإن كان زناه اغتصابًا، يدفع للمرأة مَهْرَ مِثْلها، عِوَضًا عَمّا ألحق بها من الضّرر.

وإن كان زناه برضاها، لا يجب عليه شيء، ولا يلحق به الولد مطلقًا، بل يُنسب لأمّه، لقوله ﷺ في الحديث الصّحيح:

«الولد للفراش، وللعاهر الحَجَر».

ولا يجوز للتائب الزواج منها لستر القضية، كما لا يجوز العقد عليها وفي بطنها جنين من زنا، ولو كان منه.

لكن لو تابت المرأة، وتاب هو، وتبيّن براءة رحمها، جاز له الزّواج منها[٢].

أخي المذنب:

أقبل على قِبْلةِ التوجّه إلى مولاك، وأعرض عن مواصلة غَيِّك وهواك، وواصل بقية

---

(١) من «مدارج السالكين».

(٢) انظر: «أريد أن أتوب.. ولكن» (٥٣).

العمر بوظائف الطاعات، واصبر على ترك عاجل الشّهوات.

مـــولاي إنّـــي عَـــبْدٌ ضـــعيف أتيـــتُك أرْغـــب فـــيما لَدَيْـــك

أتيـــتُك أشـــكو مُصَـــاب الذّنـــوب وهـــل يُشْـــتكى الضُّـــرّ إلا إلـــيك

فَمُـــنَّ بِعَفْـــوِك يـــا سَـــيِّدي فلـــيس اعْـــتمادي إلاّ عَلَـــيْك

يا رب.

۞۞۞۞۞

١٣- تَوْقِيرُ الْعُلَماء

اعلم - أخي المسلم - أن توقيرَ العلماء، واحترامهم، والذّبَّ عن أعراضهم: دِيانة، تُقرِّب المسلمَ مِنْ ربِّه، وتُدْنيه من رحمته.

أقول هذا الكلام، لأننا - في هذا العصر - ابْتُلِينا بِمَرضِ التطاول على العلماء!

وهذا - وَرَبِّي - إنْذَارُ شُؤْمٍ، وَطَالِعُ نَحْسٍ.

وانطلاقًا من قول النبيِّ ﷺ : «**مَنْ رَدّ عنْ عِرْضِ أَخِيه؛ رَدَّ اللّهُ عن وَجْهِه النّارَ يَوْمَ القيامة**» [١].

وقوله ﷺ : «**مَنْ ذَبَّ عَنْ عِرْضِ أَخِيه بالغيبة؛ كان حقًّا على اللّهِ أن يُعْتِقَه من النّار**» [٢]

وقوله ﷺ : «**مَنْ حَمَى مُؤْمِنًا من مُنَافقٍ، بَعَثَ اللّهُ مَلَكًا يَحْمِي لَحْمَهُ يَوْمَ القيامة من نّار جَهنّم، ومن رَمَى مُسْلِمًا بشيءٍ يُرِيد شَيْنه[٣] به، حَبَسهُ اللهُ على جِسْرِ جَهَنّم حتى يَخْرُجَ مِمّا قال!**» [٤].

فالحديث على السطور القادمة يدور حول خمسة أمور:

الأول: مكانة العلماء في الكتاب والسنة.

والثاني: أسباب أكل لحوم العلماء.

والثالث: عاقبة الولوغ في أعراضهم.

---

(١) **حسن**: رواه الترمذيّ وحسّنه، ووافقه الألباني في «غاية المرام» (٤٣١).

(٢) **صحيح بشواهده**: أخرجه أحمد، وغيره، وانظر: «غاية المرام» (٤٣١).

(٣) **شينه**: عيبه.

(٤) **صحيح**: انظر: «صحيح سنن أبي داود» (٤٠٨٦).

والرابع: واجب العلماء نحو أنفسهم.

والخامس: واجبنا نحوهم.

والله الموفق، لا إله غيره، ولا ربّ سواه.

أولاً: مكانة العلماء في الكتاب والسنة:

عظّم القرآنُ شأنَ العلماء في مواطن كثيرة، منها:

(١) قوله تعالى: ﴿ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ ﴾ [النساء: ٥٩].

وأولو الأمر - في الآية - : العلماءُ والأُمَراءُ[١].

قال سهلُ بْنُ عبد الله - رحمه الله - :

«لا يزال الناسُ بخير ما عَظّموا السُّلْطَانَ والعلماء؛ فإذا عَظّموا هَذَيْن أَصْلح اللهُ دنياهم وأُخراهم، وإذا استَخَفّوا بِهَذَيْن أَفْسَد دُنياهم وأُخراهم»[٢].

(٢) وقال تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [يونس: ٦٢- ٦٤].

قال الإمام الشافعيُّ - رحمه الله - :

«إن لم يكن الفقهاءُ العاملون أولياءَ الله فَمَا لِلّه وَلِيٌّ»[٣].

(٣) وقال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَۗ ﴾ [الزمر: ٩].

والآيات كما ذكرت في هذا المقام كثيرة.

---

(١) انظر: «تفسير القرطبي» (٥/٢٢٤).

(٢) «نفس المرجع» (٥/٢٢٥).

(٣) «سير أعلام النبلاء» (١٠/٥٣).

أمَا السُّنة:

فقد جاءت أحاديث كثيرة، تُنَبِّه إلى مكانة العلماء، وتشير إلى علوّ مقامهم، وتدعو إلى اتباعهم واحترامهم، ومن هذه الأحاديث:

(١) عن معاوية بن أبي سفيان - رضي الله عنهما - قال:

قال رسولُ الله ﷺ: «**مَنْ يُرِدِ اللّهُ به خَيْرًا يُفَقِّهْهُ في الدِّين**» [(١)].

قال ابن المنير - في معنى هذا الحديث - :

«أي: من لم يفقّهه اللهُ في الدِّين، فَلَمْ يُرِدْ بِهِ خَيْرًا».

(٢) وعن كثير بن قيس ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ: «**إنّ العلماءَ هُمْ وَرَثَةُ الأنبياء، إنّ الأنبياءَ لم يُوَرِّثُوا دينارًا، ولا دِرْهمًا، وإنّما وَرَّثوا العِلْمَ، فمَن أَخَذَه أَخَذَ بحَظٍّ وافر**» [(٢)].

(٣) وعن أبي الدرداء ﷺ قال:

سمعتُ رسول الله ﷺ يقول:

«**إنّه لَيَسْتغفرُ لِلْعَالِم مَنْ في السّموات وَمَنْ في الأَرْضِ، حتى الحيتانَ في الْبَحْرِ!**» [(٣)].

ثانيًا: أسباب أكل لحومِ العلماء:

(١) **الغِيرة**: بالكَسْر - وهي قرينة الحسد، والمقصود بها - هنا - : كلام العلماء بعضهم على بعض (الأقران).

قال الإمام الذهبيّ - رحمه الله - :

«كلام الأقران بعضهم على بعض يُطْوَى ولاَ يُرْوَى» ا.هـ.

---

(١) رواه البخاري ومسلم وابن ماجة.

(٢) صحيح: انظر: «صحيح سنن ابن ماجة» (١٨٣).

(٣) صحيح: انظر: «صحيح سنن ابن ماجة» (١٩٧).

قلت: نستفيد من عِلْمِهم، ولا نَتعرّض لكلامِ بَعْضِهم على بعضٍ، فَلَسْنَا مِنْ فُرْسان هذه الحَلْبَة.

(٢) الحقد الدفين:

ويتفرّع عن هذا المرض اللّعين: كبائر وعظائم، منها: الغيبة، والسّعاية، وإطلاق اللسان بالْقَدْح والذَّمّ، بل والكذب.

وهذا الحقد سببه: حُبُّ الدّنيا، والتكالب عليها؛ وَحُبّ الظهور القاصم للظهور.

(٣) اتباع الهوى:

وهذا المرض: يُضِلّ عَنْ سبيل الله - كما قال تعالى - :

﴿ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُواْ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾ [ص: ٢٦].

قال بعض السّلف: «احْذَروا مِنَ النّاس صنفين: صاحب هَوَى قد فتنه هواه، وصاحب دنيا أعْمَته دُنياه».

(٤) العصبية العمياء:

سواء كانت لمذهبٍ أو لشيخٍ أو لبلدٍ أو لقبيلة، فإنها تُعمِي وتَصِمّ، لذا حذّر منها النبيُّ ﷺ:

فعن جُبَيْر بن مُطْعم رضي الله عنه قال:

قال رسولُ الله ﷺ: «**لَيْس مِنا مَنْ دَعَا إلى عَصَبِيّة، وَلَيْس مِنّا من قَاتَل على عَصَبِيّة، وليس مِنّا مَنْ مَاتَ على عَصَبِيّة**»[1].

فأيّ عاقل يريد أن يجني هذه الثمرات؟!.

فالعدل العدل أيها الناس: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ ﴾ [المائدة: ٨].

(١) رواه أبو داود (٤٤٥٦).

(٥) التّعالُم:

وقد كثُر هذا الضَّرْبُ من الناس في هذا العصر، تَزَيًّا بزِي العلماء، وَتَسَرْبَل بسِرْبَال الأتقياء.

«يُسْتَفْتَونَ بالشَّكْل لا بالفضل، وبالمناصب لا بالأَهْلية، قد غَرَّهم عُكُوفُ من لا عِلْم عنده عليهم، ومسارعةُ أَجْهل منهم إليهم، تعجُّ منهم الحقوق إلى الله عجيجًا، وتضج منهم الأحكام إلى من أنزلها ضجيجًا»[١].

يَمُـــدُّون للإفـــتاء باعًـــا قصـــيرةً وأكـــثُرهم عـــند الفـــتاوى يُكَذْلِـــكُ

ولِلّه دَرُّ منصور الفقيه، حين قال في وصفهم:

وقـــال الطّـــانزونَ له فقـــيه فَصَـــعَّد حَاجِبَـــيْه بـــه وَتَاهـــا
وأطـــرقَ للمســـائل أيْ بـــأَنِّي ولا يَـــدري لَعَمْـــرُك مَـــا طَحَاهـــا!

فيا سعادة إبليس بتقدّمهم، ويَا وَيْل الأمة بِتَصدّرهم.

(٦) حقد أعداء الإسلام:

فمخططهم مكشوف، وتدليسهم معروف، هدفهم: عَزْل الأمة عن علمائها، حتى يتسنى لهم إضلالها. ﴿ وَدُّواْ لَوْ تَكْـفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ﴾ [النساء: ٨٩].

هذه بعض أسباب أكل لحوم العلماء، فكن منها على حذر، وإيّاك ومتابعة أهل الأهواء.

ثالثًا: عاقبة الولوغ في أعراض العلماء:

اعلم - أخي الكريم - أن استباحة أعراض العلماء شيء عظيم، وإليك هذه المحاذير:

(١) عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال:

قال رجلٌ[٢] في غزوة «تبوك» في مَجْلِس: ما رأيتُ مِثْل قُرَّائنا هؤلاء[٣]، أرْغَبُ

---

(١) «التعالم وأثره على الفكر والكتاب» للشيخ/ بكر بن عبد الله بن زيد (٣٩).

(٢) يعني: من المنافقين.

(٣) يقصد الخبيثُ أصْحَابَ النبيّ ﷺ

بطونًا[١]، ولا أكذب ألْسُنًا، ولا أجْبن عند اللّقاء. فقال رجلٌ في المسجد: كَذَبْتَ، ولكنّك منافق، لأخبرنّ رسولَ الله ﷺ.

فبلغ ذلك رسولَ الله ﷺ، ونزل القرآنُ[٢]. قال عبدُ الله بْنُ عمر: وأنا رأيتهُ متعلقًا بِحَقَب[٣] ناقة رَسُولِ الله ﷺ تَنكبه[٤] الحجارة وهو يقول: يا رسولَ الله، إنما كُنّا نخوضُ ونلعب!!، ورسولُ الله ﷺ يقول:

﴿ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝ لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ﴾[٥].

(٢) **قال الحافظ ابن عساكر** - رحمه الله تعالى - :

«اعلم يا أخي - وفّقني اللّهُ وإيّاك لمرضاته، وجعلني وإيّاك مِمّن يخشاه ويتّقيه حَقّ تُقاته -: أن لحومَ العلماء مَسْمومة، وعادة الله في هَتْك أستار مُنْتقصِهم معلومة، وأن من أطْلَق لِسَانه في العلماء بالثّلْب؛ بَلاَه اللّهُ قَبْل مَوْته بموت القلب» ا.هـ.

(٣) وقال الإمام عبد الله بن المبارك - رحمه الله تعالى - :

«من اسْتَخَفَّ بالعلماء، ذهبت آخرَتهُ، وَمَنِ اسْتَخَفَّ بالأُمَراء، ذَهَبَتْ دُنْياه، ومن اسْتَخَفّ بالإخوانِ، ذَهَبَتْ مُروءتهُ» ا.هـ[٦].

---

(١) أي: يأكلون كثيرًا.

(٢) يعني: بقوله تعالى: **﴿ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب. قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون. لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم﴾** [التوبة: ٦٥، ٦٦].

(٣) **الحَقَب** - بفتح الحاء والقاف - : حَبْلٌ يشدّ به الرّحلُ في بَطْن البعير.

(٤) نكبته الحجارة: لثمته، نالته وآذته.

(٥) **صحيح**: أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/٩، ١٨)، ورواه الطبري (١٤/٣٣٣)، وصححه الدكتور/ أبو عمر نادي بن محمود حسن الأزهري في «المقبول من أسباب النزول» (٣٧٤).

(٦) «سير أعلام النبلاء» (٨/٤٠٨).

رابعًا: واجب العلماء نحو أنفسهم:

وفي المقابل، فعلى العلماء أن يَحمُوا أنفسهم، ويَسدُّوا الذّرائع المفضية إلى أكل لحومهم، وذلك بأن يتحلّوا بالصّفات التالية:

الصفة الأولى: العمل بالعلم:

- قال تعالى: ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ٤٤].
- وعن أُسامة بن زيد – رضي الله عنهما – أنه سمع رسول الله ﷺ يقول:

«يُجَاءُ بالرَّجُلِ يَوْمَ القيامة فَيُلْقَى في النار فَتَنْدلِقُ أَقْتَابُهُ[1] فيدور بِها كما يَدُور الحِمارُ برَحَاهُ ، فَتَجْتَمِعُ أَهْلُ النّارِ عليه فيقولون:

يا فُلانُ ما شَأْنُك، أَلَسْتَ كُنْتَ تأْمُر بالمعروف وتَنْهي عَنِ المنكر؟

فيقول: كنتُ آمُرُكُم بالْمَعْرُوف ولا آتيه، وأنهاكُم عَنِ الشَّرِّ وآتيه»[2].

- وعنه ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«مَرَرتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بي بأقوامٍ تُقْرضُ شِفَاهُهُمْ بِمَقَارِيضَ مِنْ نَارٍ، قُلْتُ: مَنْ هؤلاءِ يا جبريل؟ قال:

خُطَبَاءُ أُمَّتِك الذين يقولون مالا يَفْعَلون»[3].

- وعن جُندب بن عبد الله ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«مَثَلُ الذي يُعَلِّم النّاس الخيرَ وَيَنْسَى نَفْسَه كَمَثَلِ السِّراجِ يُضِيءُ لِلنَّاس وَيَحْرِقُ نَفْسَه»[1].

---

(١) أقتابه: أمعاؤه.

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٦٧)، ومسلم (٢٩٨٩).

(٣) صحيح: رواه أحمد (٣/١٢٠)، وانظر: «صحيح الترغيب» (١٢١).

■ وكان أبو الدرداء ﷺ يقول:

«إنّما أَخْشى مِنْ رَبِّي يَوْمَ القيامة أن يَدْعوني على رؤوس الخلائق فيقول لي: يا عُوَيْمرُ، فأقول: لَبَّيك رَبِّ، فيقولُ: ماذا عَمِلْتَ فيما عَلِمْتَ؟» [٢].

الصفة الثانية: سعة العلم:

وليكن له السّلف الصالح أسوة حسنة.

وهاك بعض أخبارهم التي تنبئك عن سعة علمهم:

■ قال يونس بن عبد الأعلى:

«كان الشافعيُّ - رحمه الله - إذا أَخَذ في التَّفْسير كأنّه شَهِدَ التَّنزيل!» [٣].

■ قال الإمام الذهبيّ - رحمه الله - :

«قيل: إن شيخ الإسلام «الهَرَوي» - رحمه الله - عَقَد على تفسير قوله - تعالى -: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ ﴾ [الأنبياء:١٠١]. ثلاثمائة وستين مَجْلسًا!» ا.هـ [٤].

فأين عِلْمنا اليوم من علمهم؟!.

رحم اللّهُ ابْنَ رشد حين قال:

«كان العلم في الصُّدور، واليوم صَارَ في الثّياب!» [٥].

الصّفة الثالثة: الإخلاص:

فلا يريد بعلمه دنيا، ولا شهرة.

كان ابن عُلَيَّة - رحمه الله - مَوْصوفًا بالدِّين والورع والتَّأَلُّه، مَنْظُورًا إليه في الفضل

---

(١) صحيح: رواه الطبراني في «الكبير»، وحسنه المنذريّ، وصحّحه الألباني.

(٢) صحيح: رواه البيهقي، وانظر: «صحيح الترغيب» (١٢٥).

(٣) «مناقب» البيهقي (٢٨٤/١).

(٤) «سير أعلام النبلاء» (٥١٤/١٨).

(٥) «خلاصة الأثر» للمحبّي (٢٧٥/١).

والعلم، وبَدَتْ منه - كما يقول الذّهبيّ - هفواتٌ خفيفة، لم تغير رتبته إن شاء الله.

قلتُ: منها: ولايته الصَّدَقة.

فَبَعَث إليه «عَبْدُ الله بن المبارك» بأبيات حَسَنة يُعَنِّفُه فيها، وهي:

يا جاعلَ العِلْمِ له بَازِيًا ... يَصْطَادُ أمْوالَ الْمَسَاكِينِ

احْتَلْتَ لِلُّدنْيا ولَذَّاتها ... بحِيلة تَذْهَبُ بالدِّين

فَصِرْتَ مَجْنونًا بها بَعْدَما ... كُنْتَ دَواءً لِلْمَجانِينِ

أَيْن رواياتُكَ فِيما مَضَى ... عَن ابْنِ عَوْنٍ وابْنِ سِيرينِ

وَدَرْسُك الْعِلْمَ بآثاره ... في تَرْك أَبْوَابِ السَّلاَطِينِ

نقولُ: أُكْرِهتُ، فَمَاذا كذا ... زَلَّ حِمَارُ الْعِلْمِ في الطِّينِ

لا تَبِعِ الدِّينَ بالدُّنْيا كما ... يَفْعَلُ ضُلاَّلُ الرَّهَابِين(١)

الصِّفة الرابعة: التَّواضُع:

والتواضع: ثمرة العلم.

قال الشافعيُّ - رحمه الله - :

«ينبغي للفقيه أن يضع التّرابَ على رَأْسِه تواضعًا لِله، وشكرًا لله» (٢).

هذا، وكِبْرُ العالِم، يصرف الناس عنه، ويسلّط الألسن عليه.

الصّفة الخامسة: الخوف من الله تعالى:

فالعلم : الخشية. قال تعالى:

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟ ﴾ [فاطر: ٢٨].

وقال ابْنُ سَهْم الأنطاكي: سمعتُ ابن المبارك ينشد:

---

(١) «السير» (٩/١١٠).

(٢) «نفس المرجع» (١٠/٥٣).

وكَيْفَ قَرَّتْ لأهلِ العلم أَعْيُنُهم أو اسْتلذُّوا لَذِيذ النَّوْم أَوْ هَجَعُوا
والنّارُ ضاحيةٌ لابُدَّ مَوْرِدُها وليسَ يَدْرونَ مَنْ يَنْجو وَمَنْ يَقَعُ
وطارتِ الصُّحُفُ في الأَيْدي مُنَشَّرةً فيها السَّرائرُ والجبَّار مُطَّلِعُ
إمّا نعيمٌ وَعَيْشٌ لا انقضاءَ لَهُ أو الجحيمُ فلا تُبْقي ولا تَدَعُ
تَهْوِي بِسَاكِنِها طَوْرًا وَتَرْفَعه إذا رَجَوْا مَخْرَجًا من غَمِّها قُمِعُوا
لِيَنفع الْعِلْمُ قَبْلَ الْمَوْتِ عَالِمهُ قَدْ سأَل قَوْمٌ بِهَا الرُّجْعَي فَمَا رَجَعُوا[1]

الصفة السادسة: سلامةَ الصّدر من الأحقاد:

فالحقد مَرَضٌ دفين، يجمع الشّرور، ويدفع صاحبه لارتكاب العظائم، ومنها: الْجَوْر في الحكم على الآخرين، وإطلاق اللسان في الأعراض، وتعظيم الهفوات، وتضخيم الزلاّت، والكيل بمكيالين.

وابتلاء العلماء بهذه الصّفات خطر عظيم:

يا مَعْشَر القُرّاء يا مِلْح البلد ما يُصلح الملح إذا الملحُ فَسَد

لقد كان السّلف - رحمهم الله تعالى - من أنقى الناس صدرًا، وأحسنهم خُلُقًا.

اقرأ:

عن عبد الله بن الإمام أحمد، قال:

قلتُ لأبي: أيّ رجلٍ كان الشافعيُّ، فإني سمعتكُ تكثر من الدعاء له؟

قال: «كان كالشمس للدنيا، وكالعافية للناس»[2].

فَهَل لِهَذين مِنْ خَلَف أَوْ مِنْهما عِوَض؟

أين هذه الأخلاق بين العلماء اليوم؟

(١) «السّير» (٨/٤١٣).

(٢) «تاريخ ابن عساكر» (١٤/٤١٥/١).

الصفة السابعة: سعة الصَدْر مع المخالف:

فلا يتتَبَّعْ زلاّته، ولا يضخّم هفواته، ولا ينتظر سقطاته، ولا يُشَهِّر به.

- قال يونس الصَّدَفِيُّ: ما رأيتُ أعقل من الشافعيّ، ناظرتهُ يومًا في مسألة، ثم افترقنا، ولقيني، فأخذ بيدي، ثم قال:

يا أبا موسى، ألا يستقيم أن نكون إخوانًا وإن لم نَتَّفِقْ في مسألة؟![1].

قال الإمام الذهبيُّ - رحمه الله - :

«وما زال العلماءُ قديمًا وحديثًا يردّ بَعْضُهم على بعضٍ في البحث وفي التّواليف، وبمثلِ ذلك يَتَفقّه العالم، وَتَتَبْرهَنُ له المُشْكِلات. ولكن في زماننا قد يُعاقب الفقيهُ إذا اْعتنى بذلك لسوءِ نِيَّتِه، ولطلبه للظُّهور والتكثُّر، فيقوم عليه قضاةٌ وأضداد. نسأل الله حسن الخاتمة، وإخلاص العمل» ا.هـ[2].

الصَفة الثامنة: التمسك بالمأثور:

فَتَمَسّك العالِم بالكتاب والسُّنة - على منهاج السّلف - يقيه من الابتداع، وَيَحصّنه من اتباع الهوى.

ومن نظم ابن الْمُفَضَّل[3]:

أَيَـا نَفْـسُ بالمـأثور عـن خَيْر مُرْسَلٍ ... وأصـحابه والـتّابعين تَمَسَّـكِي

عَسَـاكِ إذا بالغْـتِ في نَشْـرِ ديـنه ... بمـا طـابَ مِـنَ نَشْـرٍ لَهُ أن تَمَسَّكِي

وَخَـافِي غَـدًا يَـوْمَ الحسـاب جَهَنَّمًا ... إذا نَفَحَـتْ نِـيَرانُها أنْ تَمَسَّـكِ

---

(١) «نفس المرجع» (١٤/٤٠٣/٢).

(٢) «السّير» (١٢/٥٠٠).

(٣) «وفيات ابن خلكان» (٣/٢٩١).

الصفة التاسعة: علو الهمة:

فارتخاء العزيمة - عند العالم - ، وشعوره بالإحباط الدائم، يُقوِّي ظَهْرَ الْمُبْ وَيُنَشِّط المجرمين، وأعداء الدِّين، ويضلل المسلمين.

وكان سَلَفُنَا الصَّالح - رحمهم اللَّهُ تعالى - لا يعرفون الكسل، ولا يتطرّق إلى أنفسهم الملل!.

قال المُظَفَّر - سبط الإمام ابن الجوزي - :

سمعتُ جَدِّي - يعني ابن الجوزي - على المِنْبر يقول:

« بأصبعيَّ هَاتَيْن كَتَبْتُ أَلْفي مُجَلَّد، وتاب على يَدَيَّ مائةُ أَلْفٍ، وَأَسْلَم على يَدَيَّ عشرون ألفًا ».

وكان يَخْتِم كُلَّ أُسْبوع! (١).

الصَّفة العاشرة: أن يكون جريئًا، قوَّالاً بالحق:

وتمتّع العالم بهذا الخُلُق، من الأسباب التي تجعل أفئدة الناس تهوى إليه، وهذا سبب مباشر في نجاح دعوته.

لكن ينبغي مراعاة الحكمة، لأنها تاج الدعوة.

وهذه نماذج لحال سلفنا الصالح في ثباتهم وشجاعتهم:

النموذج الأول: جراءة « اللَّيث بن سعد »:

قال عبد الله بن صالح: سمعتُ الليث بن سعد ، يقول: لما قدمتُ على هارون الرشيد، قال لي:

يا لَيْثُ، ما صَلاَح بَلَدكِم؟

---

(١) « مرآة الزمان » (٤٨٢/٨).

قلت: يا أمير المؤمنين، صَلاَح بَلَدِنا بإجْراء النِّيل، وإصْلاح أميرها، ومن رأس العَيْن يأتِي الكَدَر، فإذا صَفَا رأسُ العين، صَفَتِ السَّواقي، فقال:

صَدَقَت يا أبا الحارث[1].

النموذج الثاني: شجاعة «عبد الله العُمَري»:

كتب «عبد الله العمري» إلى «هارون الرشيد» مرَّة يقول له:

«الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، الذي لا يخذل من أطاعه، ولا يكرم عليه أحدٌ عصاه.

يا أمير المؤمنين، هذا داعي القرآن يُسْمِعك يقول: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة: ٦]، فلا استقامة إلا على طريق نجاة، فاحفظ وصية الله، وارْجُ ثوابه، وخَفْ عقابه، وتواضع له بِحُسن الاستماع من رَعيّتك، واعلم أنك عَبْدٌ قد بليتَ برعاية أمم لا تُحصى، قد خُفرت أَمَانَتُها، وتَفرّقت أهواؤها، واختُلف في دينها، فَأَمْرُهم مَريج، وبأسهم بينهم شديد، وَلِيتَهُم لإحْدى اثنتين:

إمَّا أدَّيتَ أمانتهم وَعَطَفْتَهم على رَبِّهم، فعَلَّم اللّهُ بك جاهلهم، وَذَكَّر بِكَ نَاسِيهم، وجدّد بك العدل، وأحيا بك الحق، فكنتَ بذلك من الصّالحين، وَنِلْتَ به من الله ﷻ ثواب القائمين بالقسط.

وإمّا خَفَرْتَ أمانةَ اللّهِ ﷻ، ونقضت عهده، وَزِدتَ المفسدين فسادًا، وظلمتَ اليتيم حَقّه، ومنعتَ المسكين نصيبه، وحكمتَ في عباد الله بغير ما أنزل الله، استكبارًا وعلوًّا على المستضعفين، والله لا يُحبّ المستكبرين.

والإمام العادل، كالوالد في بِرِّه، يَسْعى لهم صِغارًا، وَيُعلِّمهم كِبارًا، ويجمعُ لهم في حياته، وَيَدَّخِر لهم بعد مماته، ويؤثرهم على نفسه. والإمام العادل، خَليفة المرسلين، والقائم بين الله وبين عباده.

---

(١) «صلاح الأمة» (١٣٩/٣)، نقلاً عن «حلية الأولياء».

يا أمير المؤمنين، لا تكن كعبد ائتمنه سيّده ، واستحفظه ماله، فعطّل الضّيعة، وبذّر المال، وشرّد العيال، وأفقر أهله، وأهلك ماله.

ولا يغرنّك المدّاحون الزُّور، ولا تُولِّينّ قريبًا لقرابته، ولا صديقًا لصداقته، ولا تُحابِينّ في دين الله ﷻ فيحاجك الدين غدًا عند الله ﷻ، وإني لم آلك نصيحة، وعليك شفقة، فأنزل كلامي بمنزلة المداوي جُرْحَه: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢٨١] »[1].

النموذج الثالث: شجاعة الشيخ/ محمد الخِضر حُسَيْن « شيخ الأزهر »:

عندما قامت الثورة في مصر، قال محمد نجيب: سنساوي الرجل بالمرأة[2]. فاتصل به الشيخ/ الخضرُ حُسين، وقال له:

إمّا أن تتراجع عن قولك: أو لأخرجن غدًا لابسًا كفني - ومعي جميع الأزهريين - في الشوارع، فإما الحياة، وإمّا الموت!.

فجاءه محمد نجيب، وجاءته الوزارة معتذرين، فقال الشيخ:

لا تعتذروا لي، وإنما أعلنوا الاعتذار للعامة.

فأعلن محمد نجيب من الغد أن الصّحافة كَذَبْت عليه! [3].

خامسًا، واجبنا نحو العلماء،

ومن ناحية أخرى فواجبنا نحو علمائنا:

(١) احترامهم:

لما تقدّم من تكريم الإسلام لهم، فتكريمهم من تكريم الإسلام، واحترامهم من احترامه، لأنهم حملته.

(١) « صلاح الأمة » (١٤٣/٣)، نقلاً عن « حلية الأولياء ».

(٢) ساوى الإسلامُ المرأة بالرجل في أمور كثيرة، وفارقها الرجلُ في بعض الأمور لاختلاف الطبيعتين، وهذا التفضيل، يعدّ من تكريم الإسلام للمرأة — أيضًا — لو كانوا يعلمون.

(٣) « لحوم العلماء مسمومة » د. ناصر العمر (٣٨).

وقد نال العلماءُ - في العصور المتقدمة - احترامًا يفوق التّصوّر، وإليك الدليل:

- قال إبراهيم بن الأشعث: «رأيتُ سُفيانَ بْنَ عُيَيْنة يُقبِّل يَدَ الفُضَيْل مرَّتين!» [١].
- وعن أبي معاوية الضّرير - وكان من العلماء العاملين - قال:

صَبَّ على يَدَيَّ بعد الأكل شخصٌ لا أعرفه، فقال الرشيد - يعني: هارون الرشيد: تدري مَنْ يَصُبّ عليك؟

قلتُ: لا.

قال: أنا، إجْلاَلاً للعلم! [٢].

- وقال الشافعي - رحمه الله - :

«كنتُ أصفح الورقة بَيْن يَدَي مَالك صَفْحًا رَقِيقًا هَيْبة له لِئلاّ يَسْمع وَقْعَها!» [٣].

(٢) التجاوز عن زلاّتهم:

فليس من شرط العالم أن يكون معصومًا.

قال الترمذيُّ:

«لم يسلم من الخطأ والغلط كبيرُ أحدٍ من الأئمة مع حفظهم» [٤].

وقال الإمام الذهبيُّ - رحمه الله - :

«ولو أنا كلما أخطأ إمامٌ في اجتهاده في آحاد المسائل خطأ مغفورًا له، قمنا عليه، وبدّعناه، وهجرناه، لما سلم معنا لا ابن نصر، ولا ابن مندة، ولا من هو أكبر منهما، والله هو هادي الخلق إلى الحق، وهو أرحم الراحمين، فنعوذ بالله من الهوى والفظاظة» ا.هـ[٥].

---

(١) «السِّير» (٨/٤٣٨).

(٢) «تاريخ بغداد» (١٤/٨).

(٣) «فضل العلم» د. محمد سعيد رسلان (١٣٠).

(٤) «لحوم العلماء مسمومة» (٤٢).

(٥) «السِّير» (١٤/٤٠).

نعم يجب على العالِم أن يُدقِّق في فتواه، ويتحرّى الحقّ قَدْر جهده، ولا يتبع هواه، لأن زلّة العالِم زلة العالَم.

وقد قيل: زَلّة العالِم يُضرب لها الطّبل! لكن لو اجتهد فأخطأ، فهو مأجور، فلا يجوز لنا تأثيمه، وتبديعه، وتفسيقه كما نسمع في هذه الأيام. فإقالة العَثْرة من شِيَم الكِرام، واتباع الزلّة من صفات اللئام.

(٣) حسن الظن بهم:

وهذا من حق المسلم على المسلم، فما بالك بالمسلم العالم.

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ [الحجرات: ١٢].

(٤) التّثَبُّتْ من صِحّة ما يُنْسَب إليهم:

فكم من فتوى نُسِبَتْ لعالم، لم تَصْدر منه!

وقد قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ﴾ [الحجرات: ٦]

(٥) الذَّوْد عن أعراضهم، وَرَدّ الغيبة عنهم:

وقد تقدّم فضل ذلك في بداية حديثنا عن هذا الموضوع.

وعلى الله قصد السبيل.



١٤- تَعْظِيمُ شَأنِ الْفَتْوى

الإفتاء منصب عظيم وكبير، لذا فالحديث على السطور القادمة يدور حول سبعة أمور:

الأول: تعريف الفتوى.

الثاني: تعريف المفتي.

الثالث: تعريف المجتهد.

الرابع: تعظيم شأن الإفتاء.

الخامس: شروط المفتي وصفاته.

السادس: أحكام المفتين.

السابع: كيفية الفتوى وآدابها.

والله الموفق، لا إله غيره، ولا ربّ سواه.

أولاً: تعريف الفتوى:

الفتوى «**لغة**» : قال ابن منظور: «أَفْتَاه في الأَمْر: أَبَانَه له، وأَفْتَى الرّجل في المسألة واستفتيتُهُ فيها فأفتاني إفْتاء ... يقال: أفتيتُ فُلانًا رؤيا رآها: إذا عَبَّرتُها له، وأفتيتهُ في مسألة إذا أجبتهُ عنها .. يقال: أفتاه في المسألة إذا أجابه ... والفُتْيا والفُتْوى والفَتْوى: ما أَفْتَى به الفقيه» [(١)].

وقال الدكتور/ عبد الكريم زيدان:

«الاستفتاء في «اللّغة» يعني السؤال عن أمرٍ أو عن حُكْم مسألة ، وهذا السائل

---

(١) «لسان العرب» (١٥/١٤٧، ١٤٨) مادة «فتا».

يسمَّى الْمُسْتَفْتِي، والمسؤول الذي يجيب: هو المفتي، وقيامه بالجواب هو الإفتاء، وما يجيب به هو الفتوى، فالإفتاء يتضمن وجود المستفتي والمفتي والإفتاء نفسه والفتوى» [١].

والمعنى «**الاصطلاحي**» للإفتاء: هو المعنى اللّغوي لهذه الكلمة وما تتضمنّه من وجود مستفتٍ ومُفت وإفتاء وفتوى، ولكن بقيد واحد هو أن المسألة التي وقع السؤال عن حكمها تعتبر من المسائل الشرعية، وأن حكمها المراد معرفته هو حُكم شرعي[٢].

ثانيًا: تعريفُ المفتي:

عرف العلماءُ المفتي بتعاريف:

- **قال ابن الصّلاح** - رحمه الله - : «قيل في الفتوى: إنها توقيعٌ عن الله - تبارك وتعالى-» ا.هـ[٣]
- **وقال الإمام الشّاطبي** - رحمه الله - «المفتي: هو القَائِمُ في الأُمَّة مَقَامَ النَّبيِّ ﷺ» ا.هـ[٤].

وسيأتي المزيد بعد قليل إن شاء الله تعالى.

ثالثًا: تعريفُ المجتهد:

الاجتهاد «**لغةً**»:

قال في «**التّاج**»: «الجَهْدُ - بالفتح -: «الطّاقة والوسع، وَيُضَمُّ. قال ابْنُ الأثير:

«الجَهْدُ والْجُهْدُ - بالضّم - الوسع والطّاقة. وبالفتح: المشقّة. وقيل: المبالغة والغاية. وقيل: هما لغتان في الوسع والطّاقة، فأما في المشقّة والغاية فالفتح لا غير» [٥].

---

(١) «أصول الدعوة» (١٣٠).

(٢) نفس المرجع السابق.

(٣) «أدب المفتي» (٧٢).

(٤) «الموافقات» (٢٤٤/٤).

(٥) «النهاية» (٣٢٠/١).

والتَّجَاهُد: بَذْل الْوُسْع والمجهود كالاجتهاد افتعال مِنَ الْجُهد الطَّاقة » [١].

أمّا الاجتهاد في « **الاصطلاح** » فللعلماء فيه تعاريف:

قال الإمام الزَّركشي – رحمه الله – :

« الاجتهاد: بذل الوسع لنيل حكم شرعي بطريق الاستنباط » ا.هـ[٢].

وقال ابن الهمام – رحمه الله – :

« الاجتهاد: بذل الطاقة من الفقيه في تحصيل حُكْمٍ شرعي ظَنِّي » [٣].

وقال الإمام القُرافي – رحمه الله – :

« الاجتهاد: بَذْل الوسع في الأحكام الفرعية الكُلِّية مِمَّن حَصُلَتْ له شرائط الاجتهاد » ا.هـ[٤].

هذا، وقد ذهب كثيرٌ من الأصوليين إلى أنه لا فرق بين « المجتهد » و « المفتي »، وأن « الْمُجْتَهد » هو « الْمُفْتِي ».

رابعًا: تعظيمُ شَأْنِ الإفْتَاء:

الإفتاء: منصب عظيم، ومقام كبير، وهو في نفس الوقت، شرف لمن يقوم به، ومسئولية عليه أيضًا؛ ولذلك كان الله – ﷻ – يتولّى الإفتاء بنفسه في مواضع من كتابه، ومن ذلك:

قوله تعالى: ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ ﴾ [النساء: ١٧٦] فأفتى ﷻ بنفسه، ونسب الإفتاء لذاته المقدّسة الشريفة[٥].

---

(١) « تاج العروس » (٢/٣٢٩).
(٢) « البحر المحيط » (٣/٢٨١).
(٣) « التحرير » (٤/١٧٩).
(٤) « نفائس الأصول شرح المحصول » جـ٣.
(٥) « من يملك حق الاجتهاد » للشيخ/ سلمان بن فهد العودة (٨).

وقد جاءت أحاديثُ النّبيّ ﷺ وأقوالُ وأحوالُ العلماء لِتُبَيِّن لنا شَرَفَ حُرْمَة الفتوى وخطرها.

(١) عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال:

قال رسولُ الله ﷺ : «**إنَّ العلماء وَرَثَةُ الأَنْبِياء**»[١].

فأثبت للعلماء خصيصة فاقوا بها سائر الأمّة، وما هم بصدده من أمر الفتوى، يوضح تحققهم بذلك للمستوضح، ولذلك قيل في الفُتْيا: إنها توقيعٌ عن الله تبارك وتعالى.

(٢) وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ قال:

«**مَا مِنْ رَجُلٍ يَحْفَظُ عِلْمًا فَيَكْتُمهُ؛ إلاّ أُتِيَ به يَوْمَ القِيامة مُلْجَمًا بِلِجَامٍ من النَّار**»[٢].

(٣) وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال:

سمعتُ رسولَ الله ﷺ قال:

«**منْ سُئِل عَنْ عِلْمٍ فكتَمه؛ أُلْجِمَ يَوْمَ القِيامة بِلِجَامٍ من نار**»[٣].

ومن أقوال وأحوال العلماء:

(١) **قال محمد بن المُنكَدر** - رحمه الله تعالى - :

«إنّ العالِم بَيْن اللّه، وبين خَلْقه، فلينظُر كيف يَدْخُل بَيْنَهم»[٤].

(٢) **وقال عبد الرحمن بن أبي ليلى** - رحمه الله - :

«أدركتُ عشرينَ ومائة مِنَ الأنصار، مِنْ أَصْحَابِ رسولِ الله ﷺ يُسْأَلُ أحدُهم عن المسألة، فَيردُّها هَذا إلى هَذا، وهذا إلى هذا، حتى تَرْجِعَ إلى الأوَّل!».

وفي رواية:

---

(١) **صحيح** رواه أبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٣)، وابن ماجة (٢٢٣)، وصححه الألباني.

(٢) **حسن صحيح** «صحيح سنن ابن ماجة» (٢١٢). قال الخَطّابيّ: «هو في العلم الضروريّ» ا.هـ.

(٣) **صحيح** «صحيح سنن ابن ماجة» (٢١٤).

(٤) انظر: «أدب المفتي والمستفتي» للإمام ابن الصلاح (٧٤).

«ما مِنْهم من أحَد يحدِّث بحديث إلاَّ وَدَّ أَنَّ أَخاهَ كَفَاه إيَّاه، ولا يُسْتَفْتَى عَنْ شَيءٍ إلاّ وَدَّ أنّ أَخَاه كَفَاه الفُتْيَا» [١].

(٣) **وقال ابْنُ مَسْعود** ﷺ:

«مَنْ أَفْتَى النّاسَ فِي كُلِّ ما يَسْتَفْتُونَهُ فهو مَجْنون» [٢].

(٤) **وقال أبو حصين الأسديّ** - رحمه الله -:

«إنَّ أحَدَكم لَيُفْتِي في المسألة، وَلَوْ وَرَدَتْ على عُمَرَ بْنِ الخطاب ﷺ لَجَمَع لَها أَهْلَ بَدْر!» [٣].

(٥) **وقال محمد بن عَجْلان** - رحمه الله -:

«إذا أَغْفَل العَالِمُ لا أَدْرِي أُصيبَتْ مَقَاتِلُهُ».

قال الإمام ابن الصلاح: هذا إسناد جليلٌ عَزيزٌ جِدًّا لاجتماع أئمّة المذاهب الثلاثة فيه بعضهم عن بعض [٤].

(٦) وذكر الحافظ ابْنُ عبد البرّ - رحمه الله - عن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصّديق [٥] - رضي الله عنهم -: أنه جاءه رجلٌ فسأله عن شيءٍ، فقال القاسم:

«لا أُحْسِنُهُ».

فجعل الرجلُ يقول: إنّي دُفِعْتُ إليكَ لا أَعْرِفُ غَيْرك؟

فقال القاسم: «لا تَنْظُر إلى طُول لِحْيَتي، وكثرةِ مَنْ حَوْلي، والله ما أُحْسِنُهُ».

فقال شيخٌ من قريش جالسٌ إلى جَنْبه: يا بْنَ أخي الْزَمْهَا فوالله ما رأيتكُ في مَجْلسٍ أَنبَل مِنْك الْيَوم.

---

(١) «إعلام الموقعين» للإمام ابن القيم (٢١٨/٤).

(٢) «جامع بيان العلم» لابن عبد البر (١٧٧/١).

(٣) «شرح السُّنة» للبغوي (٣٠٥/١).

(٤) «أدب المفتي والمستفتي» (٧٧).

(٥) قال ابن سعد: «ثقة رفيع، عالم، فقيه، إمام، ورع، كثير الحديث، توفى سنة ١٠١هـ».

فقال القاسم: «والله لأن يُقْطَع لساني أحَبُّ إليَّ مِنْ أن أَتَكلّم بما لا عِلْم لِي بِهِ» [(١)].

(٧) وعن الهيثم بن جميل، قال:

«شهدتُ مالك بن أنس سُئل عن ثمان وأربعين مسألة فقال في اثنين وثلاثين منها: لا أدري!!» [(٢)].

(٨) وعن مالك - أيضًا - : أنه رُبَّما كان يسأل عن خمسين مسألة فلا يُجيب في واحدة منها. وكان يقول:

«من أجابَ في مسألة فَيَنْبغي مِنْ قَبْلِ أن يُجيبَ فيها أن يَعْرِضَ نَفْسَه على الجنّة أو النّار، وكيف يكون خَلاَصُه في الآخرة؟ ثم يُجيبُ فيها!» [(٣)].

(٩) وعنه: أنه سُئل عن مسألة؟ فقالَ:

«لا أدري».

فقيل له: إنها مسألة خفيفة سهلة. فغضب، وقال:

«ليس في العلم شيءٌ خَفيف، أما سمعتَ قَوْلَه جَلَّ ثناؤه: ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ [المزمل: ٥]. فالعلم كله ثقيل، وبخاصّة ما يُسْأل عنه يوم القيامة».

وكان يقول: «إذا كان أصْحَابُ رسول الله ﷺ تَصْعُبُ عليهم مسائل، ولا يجيبُ أحدٌ منهم في مسألة حتى يأخذَ رأي صاحبه. قال: مع ما رُزِقُوا من السَّدَاد، والتوفيق، مع الطّهارة، فكيف بنا الذين قد غَطَّتْ الخطايا والذّنوبُ قُلوبَنا؟!» [(٤)].

(١٠) وكان «سحنون بن سعيد» - رحمه الله - يزري على من يَعْجَل في الفتوى، ويذكرُ النَّهي عن ذلك، عن المتقدّمين من مُعَلِّميْه، وقال:

«إني لأسال عن المسألة، فأعرفها، وأعرفُ في أيّ كتاب هي: وفي أيّ ورقة، وفي أي

---

(١) «إعلام الموقعين» (٢١٩/٤).

(٢) «السِّير» (٧٧/٨).

(٣) «أدب المفتي والمستفتي» (٨٠).

(٤) نفس المرجع السابق (٨٠).

صفحة، وعلى كم هي من سطر، فما يمنعني من الجواب فيها إلاّ كراهة الجرأة بعدي على الفتوى»[١].

أخي المسلم:

إن الجرأة على الفُتيا أمر عظيم، هذا إذا كانت من عالم، فكيف إذا كانت من متعالم؟!

عن مالك، قال:

أخبرني رجلٌ أنه دخل على ربيعة بن أبي عبد الرحمن[٢]، فوجده يبكي، فقال له:

ما يبكيك؟ وارْتَاعَ لِبكائه. فقال له:

أَمُصِيبةٌ دَخَلَتْ عليك؟

فقال: لا، ولكن اسْتُفْتِي من لا عِلْم له، وظهر في الإسلام أمر عظيم»[٣].

قال ربيعة: «ولبعض من يفتي هَهُنا أَحَقّ بالسِّجْن من السُّرَّاق!!»[٤].

قال الإمام ابن الصّلاح: «رحم الله ربيعة . كيف لو أدرك زماننا؟».

قلتُ: بل كيف لو أدرك زماننا نحن؟

خامسًا: شروط المفتي وصفاته:

أمّا شروطه وصفاته فهي:

أن يكون: مُسلمًا مكلّفًا، ثقة مأمونًا، متنزهًا من أسباب الفسق، ومسقطات المروءة، لأن من لم يكن كذلك فقوله غير صالح للاعتماد، وإن كان من أهل الاجتهاد. ويكون فقيه النَّفْس، سَليم الذّهن، رَصين الفكر، صحيح التَّصرّف والاستنباط مُسْتَيْقظًا.

---

(١) نفس المرجع السابق (٨٢).

(٢) المعروف بربيعة الرأي، ثقة، فقيه، تُوفيِّ سنة ١٣٦هـ.

(٣) نفس المرجع (٨٥).

(٤) نفس المرجع [illegible].

ثم ينقسم وراء هذا إلى قسمين: مُسْتَقِلٍّ، وَغَيرُ مُسْتَقِلٍّ.

القسم الأوّل: المفتي المستقل:

وشَرْطُه: أن يكون - مع ما تقدّم - قيِّمًا بمعرفة أدلّة الأحكام الشرعية من الكتاب، والسُّنّة، والإجماع، والقياس، وما التحق بها على التفصيل، وقد فُصِّلت في كتب الفقه وغيرها. فتيسّرت والحمد لله.

عالمًا بما يُشترط في الأدلة ووجوه دلالتها، وبكيفية اقتباس الأحكام منها، وذلك يستفاد من علم أصول الفقه.

عارفًا من علم القرآن، وعلم الحديث، وعلم الناسخ والمنسوخ، وعلمي النّحو، واللّغة، واختلاف العلماء واتفاقهم بالقَدْر الذي يتمكّن به من الوفاء بشروط الأدّلة والاقتباس منها.

عالمًا بالفقه، ضابطًا لأمهات مسائله وتفاريعه المفروغ من تمهيدها.

والمجتهدُ الْمُسْتَقلّ: هو الذي يستقلُّ بإدراك الأحكام الشرعية من الأدلة الشرعية من غير تَقْليدٍ وَتَقَيُّد بمذهب أَحَدٍ.

وفصَّل الإمام الجُويني - رحمه الله - صفات المفتي، ثم قال القول الوجيز في ذلك:

«إن المفتي هو الْمُتمكّن مِنْ دَرْكِ أحكامِ الوقائع على يُسْرٍ من غير مُعاناةِ تَعَلُّم».

وهذا الذي قاله معتبرٌ في المفتي، ولا يَصْلُح حَدًّا للمفتي، والله أعلم.

القسم الثاني: المفتي الذي ليس بِمُسْتَقل:

للمفتي المنتسب أحوالٌ أَرْبَعٌ:

الأولى: أن لا يكون مُقَلِّدًا، لا في المذهب، ولا في دليله لكونه قد جمع الأوصاف والعلوم المشترطة في المستقلّ، وإنما ينتسب إليه لكونه سلك طريقه في الاجتهاد، ودعا إلى سبيله.

بالدَّليل، غير أنّه لا يتجاوزُ في أدلّته أصول إمَامه وقواعده، ومن شأنه أن يكون عالمًا بالفقه، خبيرًا بأصول الفقه، عارفًا بأدلّة الأحكام تفصيلاً، بصيرًا بمسالك الأقْيسة والمعاني، تامَّ الارْتياضِ في التَّخْريج والاستنباطِ قَيِّمًا بإلْحَاقِ ما ليس بمنصوص عليه في مذهب إمامه بأصول مذهبه وقواعده، ولا يعري عن شوبٍ من التقليد له، إخلاله ببعض العلوم والأدوات الْمُعْتَبرَة في الْمُسْتَقِلّ ، مثل أن يخل بعلم الحديث، أو بعلم اللغة العربية، وكثيرًا ما وقع الإخلال بهذين العلمين في أهل الاجتهاد المقيد. ويتخذ نصوص إمامه أُصُولاً يستنبطُ منها نحو ما يفعله المستقلّ بنصوص الشّارع، وربّما مَرَّ به الحُكْمُ وقد ذَكَرَه إمَامُهُ بدليله، فيكتفي بذلك فيه ولا يبحث هل لذلك الدليل من مُعارِض؟ ولا يَسْتَوْفِ النَّظرِ في شروطِه كما يفعله المستقلُّ، وهذه صِفَةُ أصحابِ الوجوهِ والطرّق في المذهب.

ومن كان هذا شَأنه فالعامل بِفُتْياه مُقَلّد لإمَامه. لا لَهُ، لأن مُعَوّلَهُ على صحّة إضافة ما يقولهُ إلى إمَامِه، لعدم استقلاله بتصحيح نسبتِه إلى الشَّارع، والله أعلم.

الحالة الثالثة: أن لا يبلغ رتبة أئمة المذهب أصحاب الوجوه والطّرق، غير أنه فقيه النفس[١] حافظ لمذهب إمامه، عارف بأدلته، قائم بتقريرها، وبنصرته، يُصَوِّرُ، وَيُحَرِّرُ، وَيُمَهِّدُ، وَيُقَرِّر، وَيُزَيِّفُ، وَيَرجِّحُ، لكنه قَصُرَ عن درجة أولئك، إما لكونه لم يبلغ في حفظ المذهب مبلغهم، وإمّا لكونه لم يَرْتَضْ في التخريج والاستنباط كارْتياضهم، وإمّا لكونه غير مُتَبحّر في علم أصول الفقه على أنه لا يخلو مثله في ضمْنٍ ما يحفظه من الفقه ويعرفه من أداته، على أطراف من قواعد أصول الفقه، وإمّا لكونه مُقَصِّرًا في غير ذلك من العلوم التي هي أدوات الاجتهاد الحاصل لأصحاب الوجوه والطُّرق. وهذه صفة المتأخرين إلى أواخر المائة الخامسة من الهجرة المصنّفين الذين رَتَّبوا المذهب وحرّروه وصنّفوا فيه تصانيف بها معظم اشتغال الناس اليوم.

الحالة الرابعة: أن يقوم بحفظ المذهب ونَقْله، وفَهْمه في واضحات المسائل ومُشكلاتها، غير أن عنده ضَعْفًا في تقرير أدلّته وتحرير أَقْيسته، فهذا يُعْتَمَدُ نَقْلُهُ وَفَتْوَاهُ به فيما يَحْكِيه من مَسْطُورات مَذْهَبه مِنْ مَنْصُوصات إمَامِه وتَفْرِيعات أصْحَابِه المجتهدين في

(١) فقه النّفس: هو استعداد فطري يُؤَهِّله للاجتهاد.

مَذْهَبِه وتخريجاتهم.

وأمّا ما لا يجده منقولاً في مذهبه، فإن وجد في المنقول ما هذا في معناه بحيث يُدْرِكُ من غير فضل فكرٍ وتأمل أنه لا فارق بينهما، كما في الأَمَة بالنسبة إلى العبد المنصوص عليه في إعتاق الشّريك، جاز له إلحاقه به والفتوى به.

وكذلك ما يعلم اندراجه تحت ضابطٍ منقول مُمَهّدٍ في المذهب، وما لم يكن كذلك فعليه الإمساك عن الفُتْيا فيه.

هذه أصْنَافُ الْمُفْتِين وشروطهم، نقلتُها - باختصار - من كتاب «أدب المفتي والمستفتي» للإمام ابن الصّلاح - رحمه الله - .

سادسًا: أحكامُ الْمُفْتِين:

والقول في أحكام الْمُفْتِين فيه مسائل:

الأولى: **لا يشترط في المفتي الحريّة، والذّكُورة**؛ لأن المفتي في حُكم من يُخبر عن الشرع بما لا اختصاص له بشخص.

ولا بأس بأن يكون المفتي أعمى، أو أخرس مفهوم الإشارة أو كاتبًا، والله أعلم.

الثانية: **لا يَصِحُّ فُتْيا الفاسق**، وإن كان مُجتهدًا مُستقلاً، غير أنه لو وقعت له في نفسه واقعة عمل فيها باجتهاد نفسه ولم يَسْتَفْتِ غَيْرَه.

وأمّا المستورُ الحال: وهو من كان ظاهره العدالة ولم تعرف عدالته الباطنة.

ففي وجه: لا تجوز فُتياهُ كالشهادة: **والأظهر**: أنها تجوز لأن العدالة الباطنة تَعْسُر مَعْرفتها على غير الحكّام ففي اشتراطها في المفتين حَرَجٌ على الْمُسْتَفْتِين، والله أعلم.

الثالثة: **من كان من أهل الفُتْيَا قاضيًا فهو فيها كغيره.**

الرابعة: إذا استفتي الْمُفْتِي وليس في الناحية غيره تعيّن عليه الجواب، وإن كان في الناحية غيره، جاز له أن يحيل السّائل عليه - تورّعًا - .

الخامسة: إذا أفتى بشيء ثم رجع عنه، لظهور دليل قاطع ينقض فتواه، يجب على الْمُسْتَفْتِي

عدم العمل بالفتوى المخالفة، وإن كان رجوعه اجتهادًا لم يلزم المستَفْتي ترك الفتوى المرجوع عنها.

هذا، ويلزم المفتي - وجوبًا - الإعلان عن تَغَيُّر فتواه.

قال الإمام ابن الصّلاح - رحمه الله - :

«ولقد أحسن الحسنُ بن زياد اللّؤلؤي - صاحب أبي حنيفة - فيما بَلَغنا عنه : «أنه استُفْتِيَ في مسألة فأخطأ فيها و لم يَعْرِف الذي أفتاه، فاكْتَرَى مُناديًا فنادى: إن الحسنَ بْنَ زياد استُفْتِي يوم كذا وكذا في مسألةٍ فأخطأ، فمن كان أفتاه الحسنُ بْنُ زياد بشيءٍ فليرجع إليه.

فَلبث أيّامًا لا يُفْتِي حتى وَجَد صاحب الفتوى فأعلمه: أنّه أَخْطأ، وإن الصّواب، كذا وكذا!» [1].

السادسة: إذا عمل الْمُسْتَفْتِيَ بفُتْيا المفتي في إئتلاف، ثم بَانَ خَطَؤه، وأنه خالف فيها القاطِع، فعن أبي إسحاق الإسفراييني: أنه يُضمَّن إن كان أهلاً للفتوى، ولا يُضَمَّن إن لم يكن أهلاً، لأن الْمُسْتَفْتِيَ قَصَّر، والله أعلم.

السابعة: لا يجوز للمفتي أن يتساهل في الفتوى، ومن عُرِف بذلك لم يجزْ أن يُسْتَفْتَى.

قال سليمانُ التَّيْمي - رحمه الله - : «لو أخَذْتَ بُرخْصَةِ كُلِّ عالِمٍ اجتمع فِيكَ الشَّرُّ كُلّه» [2].

وقال الأوزاعي - رحمه الله - : «مَنْ أَخَذ بِنَوادِرِ العلماء، خَرَجَ مِن الإسْلام» [3].

الثامنة: ليس له أن يفتي في كل حالة تُغَيِّر خَلقَه، وتشغل قَلْبه، وتمنعه من التثّبت والتأمل، كحالة الغضب، أو الجوع، أو العطش، أو الحزن، أو الفرح الغالب، أو النُّعاس، أو المَلاَلة، أو المَرَض، أو الحَرّ الْمُزْعِج، أو البَردِ المؤلم، أو مُدَافعة الأَخْبَثَيْن، وهو أعْلم

---

(١) «أدب المفتي والمستفتي» (١١٠).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (١٩٨/٦).

(٣) نفس المرجع (١٢٥/٧).

بنفسه، فَمَهما أحَسَّ باشتغال قَلْبه وخروجه عن حَدِّ الاعتدال أَمْسَكَ عن الفُتْيا، فإن أَفْتَى في شيءٍ من هذه الأحوال وهو يرى أن ذلك لم يَمْنَعْه من إدراك الصَّواب، صَحَّتْ فُتْياه، وإن خَاطر بها.

التاسعة: الأَوْلَى بالْمُتَصدِّي للفتوى أن يتبرّع بذلك، ويجوز له أن يرتزقَ على ذلك من بيت المال.

وذكر أبو القاسم الصَّيْمَري: أنّه لو اجتمع أَهْلُ الْبَلد على أن جعلوا له رِزْقًا من أموالهم لِيَتفرَّغ لفتاويهم جَازَ ذلك.

العاشرة: لا يجوز له أن يُفْتِيَ في أيمان، والأقارير، ونحو ذلك ممَّا يتعلق بالألفاظ، إلاّ إذا كان من أهل بَلَدِ اللاَّفظ بها، أو مُتَنزلاً منزلَتَهم في الخِبْرة بِمُراداتهم من ألفاظهم وتعارضهم فيها، لأنّهُ إذا لم يكن كذلك كَثُر خَطؤه عليهم في ذلك كما شهدت به التَّجْرُبة، والله أعلم.

الحادية عشرة: لا يجوز لمن كانت فُتياه نقلاً لمذهب إمامه إذا اعتمد في نقله على الكتب أن يعتمد إلاّ على كتاب موثوق بصحّته.

الثانية عشرة: إذا أفتىَ في حادثة ثم وقعت مرّة أخرى، فإن كان ذاكرًا لفُتياه الأُولى ومُسْتندها أفتىَ بذلك، وإن تذكّرها ولم يتذكّر مُسْتَنَدها، فالأصحّ أنه لا يُفتىَ حتى يُجَدِّد النَّظر.

الثالثة عشرة: التقيُّد بالدَّليل. قال الشافعيّ - رحمه الله - : «إذا وَجَدتُّم في كتابي خلاف سُنّة رسول الله ﷺ، فقولوا بِسُنَّة رسولِ الله ﷺ، ودعوا ما قلتهُ».

الرابعة عشرة: هل للمفتيِ الْمُنْتَسب إلى مذهب الشافعيّ مثلاً - أن يفتيَ تارة بمذهب آخر؟ فيه تفصيل: وهو أنه إذا كان ذا اجْتهاد فَأَدَّاه اجتهادُه إلى مَذْهب إمامٍ آخر، اتَّبع اجتهادَهُ، وإن كان اجتهاده مُقَيَّدًا مَشُوبًا بشيءٍ من التقليد نقل ذلك المشوبَ من التَّقْليد إلى ذلك الإمام الذي أَدَّاه اجتهاده إلى مَذْهبه، ثُمّ إذا أَفْتَى بَيَّنَ ذلكَ في فُتْياه.

وأمّا إذا لم يكن ذلك بناءً على اجتهادٍ، فإن ترك مذهبه إلى مذهبٍ هو أسهل عليه

وأوسع. فالصّحيحُ امتناعه، وإن تركه لِكَوْن الآخر أحْوط المذهبين، فالظّاهر جوازه، ثم عليه بيان ذلك في فتواه على ما تقدم، والله أعلم.

الخامسة عشرة: ليس للمنتسب إلى مذهب الشافعيّ في المسألة ذات القولين أو الوجهين أن يتخيّر، فيعمل أو يفتي بأيِّهما شاء. بل عليه في القَوْلين إن علم المتأخِّر منهما كما في الجديد مع القديم، أن يَتَّبع المتأخِّر، فإنّه ناسِخٌ للمتقدِّم.

وإن ذكرهما الشافعيُّ جميعًا ولم يتقدم أحدهما لكن رَجّح أحَدَهما كان الاعتماد على الذي رجَّحه، وإن جمع بينهما في حالة واحدة من غير ترجيح منه لأحدهما، فعليه البحث عن الأرجح الأصحّ منهما مُتعرِّفًا ذلك من أصول مذهبه غير متجاوز في الترجيح قواعد مذهبه إلى غيرها، هذا إن كان ذا اجتهاد في مذهبه أهلاً للتخريج عليه، فإن لم يكن أهلاً لذلك فلينقله عن بعض أهل التّخريج من أئمّة المذهب، وإن لم يجد شيئًا من ذلك فَلْيَتَوَقَّفْ.

السادسة عشرة: إذا اقتصر في جوابه على حكاية الخلاف بأن قال: فيها قولان أو وجهان، أو نحو ذلك من غير أن يُبيّن الأرجح، فحاصل أَمْره أنه لم يفْتِ بشيءٍ [(١)].

سابعًا، كيفية الفتوى وآدابها:

والقول في كيفية الفتوى وآدابها فيه مسائل:

الأولى: يجب على المفتي حيث يجبُ عليه الجواب أن يُبَيّنه بيانًا مُزيحًا للإشكال.

الثانية: إذا كانت المسألة فيها تفصيل لم يُطلق الجواب، فإنه خطأ.

الثالثة: إذا كان المُسْتفتي بعيد الفَهْم، فينبغي للمفتي أن يكون رَفيقًا له صبورًا عليه، حَسَن التأنّي في التّفهّم منه، والتفهم له، حَسَن الإقْبال عليه، لا سِيّما إذا كان ضعيف الحال، مُحْتَسِبًا أجْر ذلك فإنّهُ جَزِيل.

الرابعة: التأكد من السّؤال، مرّة بعد مرّة.

---

(١) «أدب المفتي والمستفتي» مع حذف وإضافة.

الخامسة: يستحب أن يقرأ السؤال على من بحضرته ممّن هو أهل لذلك، ويشاورهم في الجواب ويباحثهم فيه، وإن كانوا دونه وتلامذته، لما في ذلك من البركة والاقتداء برسول الله ﷺ وبالسَّلف الصالح - رضي الله عنهم - .

السادسة: ينبغي أن يكتب الجواب بخط واضح، فإذا كَتَبَهُ أعاد نَظَره فيه خوفًا من أن يكون قد أخَلّ بشيء منه.

السابعة: كثير من الفقهاء يبدأ فتواه بأن يقول: الجواب وبالله التوفيق. وحذف ذلك آخرون. لكن لا يدع المفتي أن يختم جوابه بأن يقول: وبالله التوفيق، أو والله الموفّق، أو والله أعلم.

وكان بعض السَّلف إذا أفتى يقول: «إن كان هذا صوابًا فمن الله ، وإن كان خطأً فمنّي» .

قال أبو القاسم الصَّيْمَري: «وليس يقبح منه أن يقول: الجواب عندنا، أو الذي عندنا، أو يقول: الذي نراه، كذا كذا، لأنه في جملة أصحابه وأرباب مقالته. والله أعلم» ا.هـ.

الثامنة: روى عن مكحول، ومالك - رحمهما الله - أنهما كانا لا يُفتيان حتى يقولا: «لا حول ولا قوّة إلاّ بالله» .

قال ابنُ الصّلاح: ونحن نستحبّ للمفتي ذلك مع غيره . فليقل إذا أراد الإفتاء: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. ﴿ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [البقرة: ٣٢].

﴿ فَفَهَّمْنَـٰهَا سُلَيْمَـٰنَ ﴾ [الأنبياء: ٧٩].

﴿ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴾ [طه: ٢٥- ٢٨].

لا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم. سبحانك اللّهم، وَحَنَانَيْكَ اللّهمّ، اللّهم لا تَنْسني ولا تُنْسِني، الحمد لله أفضل الحمد، اللّهم صلّ على محمّد وعلى آله وسائر النبيين،

والصالحين، وسلّم، اللّهم وفقني واهدني وسدِّدني، واجمع لي الصّواب والثواب، وأعذني من الخطأ والحِرمان. آمين[1].

التاسعة: على المفتي أن يختصر جوابه اختصارًا لا يخلّ بالبيان، ويبتعد عن الإطالة قدر الإمكان.

العاشرة: على المفتي أن يتحرّى الدّقة في مسائل «الميراث»، وحَسَنٌ أن يقول في قسمة المواريث: تُقسم التركة بعد إخراج ما يجب تقديمه من دَيْنٍ أو وصية إن كانا - ولا وصيّة لوارث - .

الحادية عشرة: إذا زاد الْمُفتي على جواب المذكور في السّؤال ما له به تَعلُّق ويحتاج إلى التّنْبيه عليه، فذلك حَسَن، والله أعلم.

الثانية عشرة: ينبغي أن يكون جواب المفتي - المكتوب - موصولاً، لا يَدَع فُرْجَةً بين الكلمات، والسّطور، خشية الحِيَلة والدَّسّ.

الثالثة عشرة: إذا رأى المفتي رقعة الاستفتاء قد سَبَق بالجواب فيها من لَيْس أهلاً للفتوى، فعن الإمام أبي القاسم الصَّيْمَرِيِّ: «أنه لا يفتي معه، لأنَّ فيه تقريرًا بِمُنْكر».

الرابعة عشرة: إذا ظَهَر له على الجواب أنَّ خِلاف غَرَض الْمُسْتَفتي وأنّه لا يَرْضى بِكَتْبِه وَرَقَتِه، فليتقصر على مشافهته بالجواب.

الخامسة عشرة: إذاوجد المفتي في رقعة الاستفتاء فُتيا غيره وهي خطأ قطعًا، إمّا خطأ مطلقًا لمخالفتها الدليل القاطع، وإمّا خطأ على مذهب من يُفتي ذلك الغير على مذهبه قطعًا، فلا يجوز له الامتناعُ من الإفتاء تاركًا للتنبيه على خطئها إذا لم يكفه ذلك غيره، بل عليه الضّرب عليها عند تيسره، أو الإبدال وتقطيع الرّقعة، بإذن صاحبها أو نحو ذلك.

وإذا تعذّر ذلك وما يقوم مقامه، كَتَب صواب جوابه عند ذلك الخطأ، ثم إن كان

---

(١) لم يَرِدْ في ذلك شيءٌ عن النّبيّ ﷺ، إنّما هو من باب الابتداء بالحمد والثناء.

المخطئ أهلاً للفتوى فحسن أن تُعاد إليه بإذن صاحبها.

وأمّا إذا وجد فيها فُتيا ممّن هو أهل للفتوى وهي على خلاف ما يراه هو، غير أنه لا يقطع بخطئها، فليقتصر على أن يكتب جَوَاب نَفْسه، ولا يَتَعرّض لفُتْيا غيره بتخطئةٍ ولا اعتراضٍ عليه.

السادسة عشرة: إذا لم يَفْهم الْمُفْتِي السّؤال أصْلاً ولم يحضر، صاحبُ الواقعة، فعن القاضي أبي القاسم الصَّيْمَرى: «أن له أن يكتب: يُزادُ في الشّرح لِنُجيب عنه، أو لم أفهم ما فيها فَأُجيب عنه».

السابعة عشرة: ليس بِمُنْكَرٍ أن يذكر المفتي في فتواه الحُجَّة إذا كانت نصًّا واضحًا مختصرًا، مثل أن يُسأل عن عِدّة الآية من المحيض، فَحَسَن أن يكتب في فتواه: قال الله - تعالى - :

﴿ وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ ﴾ [الطلاق:٤].

أو يُسْأل: هل يَطْهر جِلْدُ الميتة بالدِّباغ؟ فيكتب: نعم يَطْهُر، قال رسولُ الله ﷺ : «**أيُّما إهاب[١] دُبِغَ فَقَدْ طَهُر**»[٢].

الثامنة عشرة: يجب على المفتي عند اجتماع الرِّقاع «الأسئلة» بحضرته أن يُقدِّم الأسبق فالأسبق، كما يفعله القاضي عند اجتماع الخصوم، وذلك فيما يجبُ عليه فيه الإفتاء، وعند التساوي، أو الجهل بالسَّابق، يُقَدِّم بالْقُرْعة، والصَّحيحُ أنه يجوز له تقديم المرأة والمسافر الذي شدّ رَحْلَه.

التاسعة عشرة: لِيَحْذَر أن يَميل في فُتْياه مع الْمُسْتَفتي أو مع خَصْمه، ووجوه الْمَيلِ كثيرة لا تخفي، ومنها: أن يكتبَ في جوابه ما هو لَهُ، ويَسْكُتْ عَمّا هو عليه.

العشرون: ليس له إذا استُفتِيَ في شيء من المسائل الكلامية[٣] أن يُفْتِيَ بالتفصيل، بل يمنع

---

(١) الإهاب : الْجِلْد.

(٢) رواه مسلم (٣٦٦)، وغيره.

(٣) كالقول في «الاستواء» ، وغيره من آيات وأحاديث الصّفات.

مُستفتيه وسائر العامة من الخوض في ذلك أصلاً، ويأمرهم بأن يقتصروا فيها على الإيمان جملة من غير تفصيل، ويقول فيها وفيما ورد من الآيات والأخبار المتشابهة: إن الثابت فيها في نفس الأمر كل ما هو اللاّئق فيها بجلال الله وكماله وتقديسه الْمُطْلَقَيْن، وذلك هو معتقدنا فيها، وليس علينا تفصيله وتعيينه، وليس البحث عنه من شأننا، بَلْ نَكِلُ عِلم تَفْصيله إلى الله تعالى ، ونصرف عن الخوض فيه قلوبنا وألسنتنا، فهذا ونحوه عند أئمّة الفتوى هو الصّواب في ذلك، وهو سبيل سَلَفِ الأمّة[1].

أخي الكريم:

هذا هو مقام الفتوى من الدِّين، فاْحَذْر من القول على الله أو على رسوله ﷺ بغير علم: ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النحل: ١١٦، ١١٧].

نسأل الله تعَالى السّلامَة من كُلّ إِثْم، والغنيمة من كلّ بِرٍّ، والفوزَ بالجنّة، والنّجاةَ مِنَ النّار.



(١) انتهى ملخّصًا من «أدب المفتي والمستفتي» مع زيادات يسيره.

١٥- آدابُ الْمُسْتَفْتِي

اعلم – أخي المسلم – أنه لولا العلماء لصار الناسُ كالبهائم، كذا قال الحسنُ البصريّ – رحمه الله تعالى – .

فالعلماء كما قال **الإمام يَحيْى بْنُ مُعاذِ الرّازي**: أَرْحم بأمَّة مُحَمّد ﷺ من آبائهم وأمهاتهم!. قيل: وكيف ذلك؟ قال:

«لأن آباءَهم وأمهاتهم يحفظونهم من نّار الدُّنيا، وهم يحفظونهم من نّار الآخرة» [١].

لذا أَمَر الإسْلاَمُ بسؤالهم كما سيأتي:

ونظرًا لأهمية هذا الموضوع، فالحديث على السّطور التالية يدور حول **ثلاثة أمور**:

الأول: وجوب سؤال العلماء.

والثاني: صفة الْمُسْتَفْتِي.

والثالث: أحكام الْمُسْتَفْتِي وآدابه.

والله الموفّق، لا إله غيرُه، ولا رَبَّ سواه.

أولاً، وجوب سؤال العلماء:

- قال الله تعالى: ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْـلَ ٱلذِّكْـرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْـلَمُونَ ﴾ [الأنبياء: ٧].

قال العلاّمة/ عبد الرحمن بن ناصر السَّعْديّ – رحمه الله – في تفسيره لهذه الآية:

«وفي تخصيص السؤال بأهْل الذّكر والعلم، نَهْيٌ عن سؤال المعروف بالجهل وعدم العلم، وَنَهْيٌ له أن يَتصدَّى لذلك» ا.هـ[٢].

---

(١) «الإحياء» (١/١١).

(٢) تفسير السّعدي» (٥١٩).

■ وعن جابر، قال:

خَرَجْنا في سَفَرٍ، فأصاب رَجُلاً منّا حَجَرٌ فَشَجَّه في رأسه، ثم احْتَلَم، فسأل أَصْحَابه، فقال:

هَلْ تَجِدون لي رُخْصَةً في التَّيممُّ؟

فقالوا: ما نَجِدُ لَكَ رُخْصَةً وأنت تَقْدِر على الْمَاء، فاغْتَسَل فَمَاتَ.

فَلمّا قَدِمنا على النبيّ ﷺ، فأُخبر بذلك، فقال:

«قَتَلوه قَتَلهم اللّهُ، ألا سَألوا إذْ لم يَعْلَموا، إنّما شِفَاءُ العِيِّ[1]**السُّؤالُ، إنّما كان يَكْفِيه أن يَتَيَمَّم ويعصر - أو يعصب** (شكّ موسى[2])- **على جُرْحه خرقة ثم يَمْسح عليها ويغسل سَائِر جَسَده»** [3].

وفي الحديث: تحذير شديد من الإقدام على الفتوى والجرأة عليها بغير علم، فقد ترتب عليها:

إزهاق نفس!.

ثانيًا: صِفَةُ الْمُسْتَفْتي:

كُلُّ من لم يبلغ درجة المفتي فعليه أن يسأل الفقهاء في الأحكام الشرعية، وهو فيما يسأل عنه مُستَفْتٍ، وَمُقَلِّد لِمَنْ يُفْتيه.

ثالثًا: أحكام الْمُسْتَفْتي وآدابه:

في أحكام المستفتي وآدابه مسائل:

الأولى: يجب عليه البحث عن المفتي: الثّقة، العالم، الحُجّة، الْوَرِع، لقوله تعالى:

﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْـلَ ٱلذِّكْـرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْـلَمُونَ ﴾ [الأنبياء: ٧].

---

(١) العيّ هو الجهل.

(٢) أحد الرّواة.

(٣) حسن: «صحيح سنن أبي داود» (٣٢٥)، دون قوله: «إنما كان يكفيه ...».

قال ابْنُ زيد: «أراد بالذّكر: القرآن؛ أي: فاسألوا المؤمنين العالمين من أهل القرآن»[(١)].

ولا يجوز له استفتاء كُلّ من انتسب إلى العلم، وإن اشتُهر بين العامّة، لأن الشهرة بين العامة لا يوثق بها، وقد يكون أصلها التّلْبيس.

فإن وَجَد المفتيَ الثّقة، العالم، الورع، فعليه تقليده.

الثانية: في جواز تقليد المفتيَ الميّت وَجْهان: أَصَحّهما: الجواز، لأنّ المذاهب لا تموت بموت أصحابها، ولهذا يُعْتَدّ بها بَعْدَهم في الإجماع والخلاف.

الثالثة: هل يجوز للعامّي أن يَتَخَيَّر وَيُقَلِّد أيّ مَذْهَب شَاء؟

الجواب: يلزمه أن يَتَمَذْهب بمذهبٍ مُعَيّن، يأخذ بِرُخَصه وعزائمه، لأنه لو جاز له اتباع أي مذهب شاء لأفضى إلى أن يلتقط رخص المذاهب مُتَّبِعًا هواه، ومتخيّرًا بين التحريم والتجويز، وفي ذلك انحلال رِبْقة التكليف.

وقد ذكرنا - في غير هذا الموضع - أن من تتبع رُخص العلماء: اجتمع فيه الشَّرُّ كُلّه[(٢)].

الرابعة: إذا اختلف عليه فتوى مُفْتِيَيْن، فللعلماء فيه أوجه:

الأول: أنه يأخذ بأغلظها، لأنه أحوط.

والوجه الثاني: يأخذ بأخَفّهما، لقوله ﷺ:

«**وإنّي بُعِثْتُ بالحنيفيَّة السَّمْحَة**»[(٣)].

والوجه الثالث: يجتهد في الأَوْثق، فيأخذ بفتوى الأَعْلم الأَوْرَع.

والوجه الرابع: يسأل مُفتيًا آخر فيعمل بفتوى من يوافقه.

والوجه الخامس: يَتَخَيّر فيأخذُ بقَوْل أَيّهما شاء.

---

(١) «تفسير القرطبي» (١١/١٨٢).

(٢) أما إذا كان شيخهُ ممّن يتقيّد بالدَّليل، ولا يتقيّد بمذهب معين، فعليه اتباعه، إذا علم من شيخه أهليته للفتوى، وأخذه بالعزائم. والله أعلم.

(٣) رواه أحمد (٥/٢٦٦).

والمختار: أن عليه أن يجتهد ويبحث عن الأرجح فيعمل به، وعلى هذا فعليه أن يعمل بفتوى أوثقهما.

هذا معنى ما اختاره الإمامُ ابْنُ الصّلاح، وخالفه الإمامُ النووي، فقال في «المجموع» (٩٧/١):

«هذا الذي اختاره الشيخُ ليس بقويّ، بل الأظهر أَحَد الأوجه الثلاثة، وهي: الثالث، والرابع والخامس، والظّاهر: أن الخامس أظهرها، لأنه ليس من أهل الاجتهاد، وإنّما فَرْضه أن يُقَلِّد عالمًا أهْلاً لذلك، وقد فعل ذلك بأخذه بقول من يشاء منهما» ا.هـ.

الخامسة: إذا اسْتُفْتِيَ فَأفتِيَ ثم حَدَثَت له تلك الحادثةُ مرَّة أخرى، فهل يَلْزَمْه تجديدُ السّؤال؟ فيه وجهان:

أَصَحّهما: لا يلزمه، لأنّه قد عرف الحكم، والأصل استمرارُ المفتِيَ عليه.

قلتُ: اللّهم إلاّ إذا بان له بالدليل القاطع خطأ من أفتاه سابقًا.

السّادسة: له أن يَسْتَفْتِيَ بنَفْسه، وله أن يبعث ثقةً يَقْبل خَبَره لِيَسْتَفْتِيَ له، ويجوزُ له الاعتماد على خَطِّ الْمُفْتِي إذا أخبره مَنْ يَثِق بقوله: إنه خطُّه، أو كان يعرفُ خَطَّه ولم يتشكّك في كون ذلك الجواب بِخَطِّه. والله أعلم.

السابعة: ينبغي لِلْمُسْتَفتي أن يحفظ الأدب مع المفتِي وَيُبَجّله في خطابه وسؤاله، ونحو ذلك، ولا يومئ بيده في وجهه، ولا يقول له: ما تحفظ في كذا وكذا؟ وما مذهب إمامك في كذا وكذا؟

ولا يقل إذا أجابه: هكذا قلتُ أنا، أو كذا وقع لي.

ولا يقل له: أفتاني فلان، أو أفتاني غيرُك بكذا وكذا.

ولا يسأله وهو قائم، أو مستوفزٌ، أو على حالةِ ضَجَر، أو غير ذلك مِمَّا يشغل القلب.

ويبدأ بالأَسنِّ الأَعَلْمِ من الْمُفْتيين، وبالأَوْلى، فالأَوْلى.

الثامنة: أن يكون كاتب الاستفتاء مِمَّن يُحْسِن السّؤال ويضعه على الغرض، مع إبانة الخطّ واللّفظ، وصيانتهما عَمَّا يَتعرّض للتَّصْحِيف.

التاسعة: ينبغي أن تكونَ رُقْعة الاْستفتاء واسعةً ليتمكّن المفتي من استيفاء الجواب، فإنه إذا ضاق البياضُ اختصر فأضرّ ذلك بالسّائل.

العاشرة: لا ينبغي للعامِّيّ أن يطالب المفتي بالحُجَّة فيما أفْتَاهُ به، ولا يقول له: لِمَ وكيف؟ فإن أحبَّ أن تسكن نَفْسه بسماع الحُجّة في ذلك، سأل عنها في مجلس آخر أو في ذلك المجلس بعد قبول الفتوى مُجرَّدة عن الحُجَّة.

وذكر **السمعاني**: أنه لا يمنع من أن يطالب المفتي بالدّليل لأجْل احتياطه لنفسه، وأنه يَلْزِمُهُ أن يَذْكُرَ لَهُ الدَّليل إن كان مَقْطُوعًا به، ولا يلزمه ذلكَ إن لم يكن مَقْطُوعًا به لافْتِقَارِه إلى اجْتهادٍ يقصر عنه العامّيّ. واللّهُ أعْلَمُ بالصّواب[1].

«**فتوى**»:

سُئل الشيخ ابن باز - رحمه الله تعالى - : ظهر بين الشباب ظاهرة، ألا وهي أنهم يقولون: لا نتبع شيئًا من المذاهب الأربعة، بل نجتهد مثلهم، ونعمل مثلما عملوا، ولا نرجع إلى اجتهادهم، فما رأيكم في هذا، وما نصيحتك لهؤلاء؟

الجواب:

هذا الكلام قد يستنكر بالنسبة لبعض الناس، ولكن معناه في الحقيقة لِمَنْ «تَأَهّل» صحيح، فلا يجب على الناس أن يقلّدوا أحدًا، ومن قال: إنه يجب تقليد الأئمة الأربعة، فقد غلط، إذ لا يجب تقليدهم، ولكن يُستعان بكلامهم، وكلام غيرهم، من أئمّة العلم، وينظر في كتبهم - رحمهم الله - ، وما ذكروا من أدلّة، ويستفيد من ذلك طالب العلم الموفّق.

أمّا القاصر فإنه ليس أهلاً لأن يجتهد، وإنما عليه أن يسأل أهل الفقه، ويتفقّه في الدّين، ويعمل بما يرشدونه إليه، حتى يتأهّل، ويفهم الطريق التي سلكها العلماء، ويعرف الأحاديث الصحيحة والضعيفة، والوسائل لذلك في «مصطلح الحديث»، ومعرفة «أصول الفقه»، وما قرره العلماء في ذلك، حتى يستفيد من هذه الأشياء، ويستطيع الترجيح فيما

(١) «أدب المفتي والمستفتي» مع حذف وإضافة.

تنازع فيه الناس.

أمّا ما أجمع عليه العلماء فأمره ظاهر، وليس لأحد مخالفته، وإنما النّظر فيما تنازع فيه العلماء.

والواجب في ذلك ردّ مسائل النزاع إلى الله ورسوله، كما قال تعالى:

﴿ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ﴾ [النساء: ٥٩].

أمّا أن يجتهد وهو لا يستطيع ذلك، فهذا من الأغلاط الكبيرة، ولكن يسعى بالهمّة العالية، في طلب العلم، ويجتهد ويتبصّر، ويسلك مسالك أهل العلم.

فهذه هي طرق العلم في دراسة الحديث، وأصوله، والفقه وأصوله، واللّغة العربية وقواعدها، والسيرة النبوية، والتاريخ الإسلامي.

فيستعين بهذه الأمور، على ترجيح الرّاجح في مسائل الخلاف، مع الترحّم على أهل العلم، ومع السّير على منهجهم الطّيّب، والاستعانة بكلامهم وكتبهم الطيّبة، وما أوضحوه من أدلّة وبراهين، في تأييد ما ذهبوا إليه، وتزييف ما ردّوه.

وبذلك يُوفّق طالب العلم لمعرفة الحق، إذا أخلص لله، وبذل وسعه في طلب الحق، ولم يتكبرّ .. والله سبحانه وليّ التوفيق» ا.هـ[1].

وبهذه الفتوى نأتي إلى ختام حديثنا عن «آداب المستفتي» ، وعلى الله قصد السبيل.

۞۞۞۞۞

(١) «فتاوى علماء البلد الحرام» (٥١٠)، نقلاً عن «مجلة البحوث الإسلامية» (٤٧) ص ١٦٠.

١٦- طَلَبُ العِلْمْ

اعلم – أخي المسلم – أن كمال الإنسان يتمّ بنوعين:

الأول: هِمّة تُرَقِّيه.

والثاني: علم يُبَصِّرُهُ وَيَهْدِيه.

فإذا تَخَلَّف النوعان، أو إحداهما؛ انْسَلّ الإنسانُ مِنْ فَصِيلَتِهِ، وَأَسَام نَفْسَه مع الأنعام، راعيًا مع الهمل!.

قَــدْ رَشَّــحوك لأمْــرٍ لــو فَطنتَ لـه ... فَاربَــأْ بنَفْسِــك أن تَــرْعى مَــعَ الهملِ

لذا، فحديثنا – هنا – يدور حول **أربعة أمور**:

الأول: فضل العلم وأهله.

والثاني: فضيلة التعلّم.

والثالث: أقسام العلوم.

والرابع: آداب طالب العلم وحليته.

أوّلاً: فَضْلُ العِلمِ، وأَهْله:

ورد في فضل العلم وأهله، آيات، وأحاديث، وآثار كثيرة:

فمن الآيات:

(١) قوله تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: ١٨].

فانظر كيف بدأ – سبحانه وتعالى – بنفسه، وَثَنّى بالملائكة، وَثَلَّث بِأَهْل العلم، وناهيك بهذا شَرَفًا وَفَضْلاً.

(٢) وقال تعالى: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ [المجادلة: ١١].

(٣) وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ [فاطر: ٢٨].

قال الشيخ/ عبد الرحمن بن ناصر السّعدي - رحمه الله - في تفسير هذه الآية:

« كلّ من كان بالله أعلم، كان أكثر له خشية، وأوجبت له خشية الله، الانكفاف عن المعاصي، والاستعداد للقاء من يخشاه، وهذا دليل على فضيلة العلم، فإنه داع إلى خشية الله، وأهل خشيته هم أهل كرامته » ا.هـ[١].

والآيات في هذا المقام كثيرة.

ومن الأحاديث:

(١) عن أبي هريرة ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ :

« الدُّنْيا مَلْعُونةٌ، ملعونٌ ما فيها، إلاّ ذِكْرُ الله وما والاه، وعالِمٌ وَمُتَعَلِّمٌ » [٢].

(٢) وعن أبي الدرداء ﷺ قال:

(٣) سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول:

« مَنْ سَلِك طريقًا يبتغي فيه عِلْمًا، سَلَكَ اللّهُ به طريقًا إلى الجنّة، وإن الملائكة لَتضَعُ أَجْنِحَتَها رضًا لطالب العِلْم، وإن العالِمَ لَيَسْتَغْفِر له مَنْ في السموات وَمَنْ في الأرض حَتّى الحِيتَان في الماء، وَفَضْلُ الْعَالِم على العابد كَفَضْل القَمَرِ على سائر الكواكب، وإن العلماءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاء، إن الأنبياء لم يُورِّثوا دِينارًا ولا دِرْهَمًا؛ إنّما وَرَّثُوا العِلْمَ، فَمَن أَخذَه أخَذ بحَظٍّ وَافِرٍ، وَمَوْتُ العالِم مُصِيبةٌ لا تُجْبر، وَثُلْمَةٌ لا تُسَدّ، وَنَجْمٌ طُمِسَ، وموتُ قَبِيلةٍ أَيْسَر مِنْ

---

(١) « تفسير السّعدي » (٦٩٨).

(٢) صحيح بشواهده: رواه الترمذي، وابن ماجة، وغيرهما.

مَوْتِ عالم» (١).

(٤) وعن أبي هريرة ، قال:

قال رسولُ الله ﷺ :

«إذا مات الإنسانُ انْقطع عَمَلُه إلاَّ مِنْ ثلاثةِ أشياء: من صدقةٍ جارية، أو علمٍ يُنْتَفعُ به بَعْدَه، أَوْ وَلَدٍ صالحٍ يدعو له» (٢).

والأحاديث في هذا المعنى كثيرة.

ومن الآثار:

- **قال قتادة** – رحمه الله – : «بابٌ من العِلْم يَحْفَظه الرّجلُ يَطْلب به صلاحَ نَفْسه، وصلاحَ النّاسِ أفضل من عبادة حَوْل كامل!».
- **وقال ابن مسعود** ﷺ: «عليكم بالعلم قبل أن يرفع، ورفعه مَوْت رواته، فوالذي نفسي بيده ليودَّنّ رِجالٌ قُتلوا في سبيل الله شهداء، أن يبعثهم الله علماء، لما يَرَوْنَ من كرامتهم، فإن أَحَدًا لم يُولَد عَالِمًا، وإنما العِلْم بالتَّعَلّم».
- **وقال الحسن** – رحمه الله – : «يوزن مدادُ العلماء بدمِ الشهداء، فيرجح مدادُ العلماء بدم الشهداء».

ثانيًا: فَضِيلَةُ التَّعلّم:

جاء الحثُّ على طلب العلم وَفَضْله في آيات وأحاديث وآثار، منها:

فمن الآيات:

(١) قوله تعالى: ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ ﴾ [التوبة: ١٢٢].

---

(١) حسن: رواه أبو داود، وغيره، وحسنه ابن القيم في «مفتاح دار السعادة» (٦٣/١).

(٢) رواه مسلم (١٦٣١)، وغيره.

(٢) وقال تعالى: ﴿ فَسْئَلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنبياء: ٧].

ومن الأحاديث:

(١) عن أنس، قال : قال رسول الله ﷺ:

« **طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضة على كلّ مُسْلِمٍ** » [١].

(٢) وعن أبي سعيد، عن رسول الله ﷺ قال:

« **سَتَأْتيكم أقوامٌ يَطْلبون العِلْمَ، فإذا رأيتُموهم فَقُولُوا لهم: مَرْحَبًا مَرْحَبًا بوصيَّةِ رسول الله ﷺ، واقْنُوهم** »

قلتُ للحكم[٢]: ما « **اقْنُوهم** »؟

قال: عَلِّموهم[٣].

ومن الآثار:

- قال أبو الدّرداء ﷺ : « كُن عَالِمًا، أو مُتعلِّمًا، أَوْ مُسْتَمِعًا، ولا تكن الرابع فَتَهلك ».
- وقال الشافعيُّ - رحمه الله - : « طَلَبُ الْعِلْم أفضل من النافلة ».

ثالثًا: أقسام العلوم:

تنقسم العلومُ إلى قسمين:

الأول: علوم شرعية: وهي المقصودة بالبيان، وكلّها محمودة، وتنقسم إلى : أُصُولٍ، وَفُروعٍ، وَمُقَدِّماتٍ، وَمُتَمِّمات.

فالأصول: كتاب الله، وسنّة رسوله ﷺ، وإجماع الأمّة، وآثار الصحابة.

والفروع: ما فُهِم من هذه الأصول من معانٍ تنبهت لها العقول حتى فهم من اللّفظ

---

(١) حسن: رواه ابن ماجة، وغيره.

(٢) أحد رواة الحديث.

(٣) حسن: انظر: « صحيح سنن ابن ماجة » (٢٠٣).

الملفوظ غيره كما فهم من قوله ﷺ : «**لا يَقْضِي القاضي وهو غَضْبان**»[١]، أنه لا يقضي إذا كان خائفًا، أو جائعًا..

والمقدّمات: هي التي تجري مجرى الآلات كعلم النحو واللّغة فإنها آلة لعلم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

والمتممات: كعلم القراءات ومخارج الحروف، وكالعلم بأسماء رجال الحديث وعدالتهم وأحوالهم فهذه هي العلوم الشرعية وكلها محمودة [٢].

القسم الثاني: **علوم غير شرعية**: وتنقسم إلى ما هو **محمود**، وإلى ما هو **مذموم**، وإلى ما هو **مباح**.

- **فالمحمود**: ما يرتبط به مصالح أمور الدنيا، كالطّب، والحساب، وذلك ينقسم إلى ما هو فرض كفاية، وإلى ما هو فضيلة وليس بفريضة.

أما فرض الكفاية: فهو علم لا يستغنى عنه في قوام أمور الدنيا كالطّب، إذ هو ضروري في حاجة بقاء الأبدان، وكالحساب؛ فإنه ضروري في المعاملات وقسمة الوصايا والمواريث وغيرهما.

وهذه هي العلوم التي لو خَلاَ البلد عَمَّن يقوم بها حرج أهل البلد[٣]، وإذا قام بها واحدٌ كفي، وسقط الفرضُ عن الآخرين.

فلا يتعجّب من قولنا: إن الطب والحساب من فروض الكفايات، فإن أصول الصناعات أيضًا من فروض الكفايات، كالفلاحة والحياكة، والسياسة، بل الحِجَامة والخياطة، فإنه لو خلا البلد من الحجّام تسارع الهلاك إليهم، وحرجوا بتعريضهم أنفسهم للهلاك، فإن الذي أنزل الدّاء أنزل الدّواء، وأرشد إلى استعماله، وأعدّ الأسباب لتعاطيه، فلا يجوز التعرّض للهلاك بإهماله.

---

(١) رواه البخاري (٧١٥٨)، ومسلم (١٧١٧).

(٢) «مختصر منهاج القاصدين» (٩).

(٣) أي: أثموا.

وأمّا مَا يُعَدّ فَضِيلة لا فَرِيضة؛ فالتعمّق في دقائق الحساب، وحقائق الطب، وغير ذلك مما يستغنى عنه، ولكنه يفيد زيادة قوّة الْقَدْر الْمُحْتاج إليه.

- **وأمّا المذموم**: فَعِلْم السِّحر والطُّلْسمات وعلم الشّعبذة والتّلْبيسات.
- **وأما المباح منه**: فالعلم بالأشعار التي لا سخف فيها، وتواريخ الأخبار، وما يجري مجراه.

هذا ملخّص ما قاله الإمامُ الغزالي – رحمه الله – في «الإحياء» وهو تقسيم وسيم، يدلّ على عُمْق فِقْهِه، وَدِقّة فَهْمه، إذ لا يُعْقل أن يعيش المسلمُ إمامًا في الدين، بينما هو مأموم في الدنيا، يتسوّل من الكفار، ويحيا عالة على غيره!

رابعًا: آداب طالب العلم وحِلْيَته:

إذا أراد طالبُ الْعِلْمِ بعلمه تَهْذِيب نفسه، وَنَيْل بركات علمه، فينبغي له التَّحَلِّي بالآداب التالية:

- **الأول**: إخلاص النيَّة:

فالعلم عبادة، وقد قال بعضُ العلماء: «العلم: صَلاةُ السِّر، وعبادة الْقَلْب».

قال ابنُ جماعة – رحمه الله – :

«حُسْن النّية في طلب العلم بأن يُقْصَد به وَجْه الله تعالى، والعمل به، وإحياء الشريعة، وتنوير قلبه، وتحلية باطنه، والْقُرْب مِنَ الله تعالى يوم القيامة، والتعرّض لما أَعَد لأهله من رضوانه، وعظيم فَضْله.

ولا يقصد به الأغراض الدنيوية من تحصيل الرياسة والجاه والمال ومباهاة الأقران وتعظيم الناس له وتصديره في المجالس ونحو ذلك» ا.هـ[1].

فتصفية النّية من شوائب الرِّياء، وَتْخلِيصها من أَدْرَان الشِّرك في الأعمال واجب وإلاّ

---

(١) «تذكرة السامع والمتكلم» (٦٩).

فإحباط العمل، ثم النار. عياذًا بالله تعالى.

- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«**مَنْ تَعَلّم عِلْمًا ممّا يُبْتَغي به وَجْهُ اللّه، لا يَتَعَلَّمُهُ إلاّ لِيُصيبَ به عَرَضًا**[1] **مِنَ الدُّنْيا؛ لم يَجْد عَرْفَ الْجَنَّة يَوْمَ القِيامة**» يعني: ريحها[2].

- وعن ابن عمر، عن النبيّ ﷺ قال:

«**مَنْ طَلَب الْعِلْمَ لِيُمَاري به السّفهاءَ، أَوْ لِيُبَاهِي به العلماءَ، أو لِيَصْرِفَ وُجُوهَ النّاس إليه فهوَ في النّار**» [3].

قال الإمام الذهبيُّ - رحمه الله -:

«كان السّلف يطلبون العلم لِلّه فَنَبُلوا، وصاروا أئمَّة يُقْتَدى بهم، وطلبه قومٌ أوّلاً لا لِلّه، وحَصّلوه، ثم استفاقوا، وحاسبوا أنفسهم، فَجَرَّهم العلمُ إلى الإخلاص في أثناء الطريق، كما قال مجاهد وغيره: طَلَبْنا هذا العلم وما لنا فيه كبيرُ نيّة، ثم رزق الله النِّيَّةَ بَعْدُ، وبعضهم يقول:

طلبنا هذا العلم لغير الله، فأَبَى أن يكون إلاّ لله. فهذا أيضًا حَسَن. ثم نشروه بنيَّةٍ صالحة.

وقوم طلبوه بنيَّة فاسدة لأجل الدنيا، وليثنى عليهم، فلهم ما نووا. وترى هذا الضّرب لم يستضيؤوا بنور العلم، ولا لهم وقعٌ في النفوس، ولا لعلمهم كبيرُ نتيجة من العمل، وإنما العالِمُ مَنْ يخشى الله تعالى.

وقوم نالوا العلم، وولوا به المناصب، فظلموا، وتركوا التَّقَيّد بالعلم، وركبوا الكبائر والفواحش، فَتَبًّا لهم، فما هؤلاء بعلماء!.

---

(١) عَرَضًا؛ أي: متاعًا.

(٢) صحيح: «صحيح سنن ابن ماجة» (٢٠٦).

(٣) حسن: «صحيح سنن ابن ماجة» (٢٠٧).

وبعضهم لم يَتّق الله في عِلْمه، بل رَكِبَ الْحِيَل، وأفتى بالرُّخَص، وروى الشَّاذَّ من الأخبار. وبعضهم اجترأ على الله، ووضع الأحاديث، فَهَتَكه اللّهُ، وذَهَب عِلْمُهُ، وصار زاده إلى النار. فنسأل الله النجاةَ والعفو » ا.هـ[1].

■ **الثاني: الاشتغال بطهارة الباطن والظاهر من شوائب المخالفات:**

قال تعالى: ﴿ وَذَرُواْ ظَـٰهِرَ ٱلْإِثْـمِ وَبَـاطِنَهُۥٓ ﴾ [الأنعام: ١٢٠].

وقال سهل بن عبد الله – رحمه الله تعالى – :

« حَرَامٌ على قلب أن يَدْخُلَه النورُ وفيه شيءٌ مِمَّا يكْره اللّهُ ﷻ ».

والعلم نور:

قال الشافعيُّ – رحمه الله – :

شكوتُ إلى وكيع سُوءَ حِفْظي ... فأرشدني إلى تَرْكِ المعاصي

وأخبرني بأن العلم نورٌ ... ونورُ اللهِ لا يُهْدَى لِعَاصِي

هذا، واستقامة الباطن توجب استقامة الظاهر.

قال ﷺ : « **ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسدُ كله، وإذا فسدت فسد الجسدُ كُلّه ألا وهي القلب** »[2].

وقال خَيْرُ النّسّاج: « مَتَى أساءت الجوارحُ الأَدَب فهو من غَفْلَةِ القلب، وَظَلْمَة السِّرِّ ».

■ **الثالث: خَفْض الجَناحِ وَنَبذُ الخُيَلاء:**

فالزم – رحمك الله – اللّصُوق إلى الأرض، والإزرَاء على نفسك وَهَضْمها، ومراغمتها عند الاسْتشْراف لكبرياء، أو غَطْرسة أو حُبّ ظهور، أو عُجْب، ونحو ذلك من آفات العلم القاتلة له، الْمُذْهِبة لِهَيْبته، الْمُطْفِئة لِنُوره، واعلم أن من بركات العلم: التواضع.

---

(١) « سير أعلام النبلاء » (١٥٢/٧، ١٥٣).

(٢) رواه البخاري ومسلم.

سُئل عبد الله بن المبارك بحضور سفيان بن عيينة عن مسألة، فقال:

« إنّا نُهينا أن نَتَكلّم عِنْدَ أكَابرنا! » [١].

■ الرابع: التحلِّي بِحُسْنِ السَّمْت:

قال الخطيب: « يجب على طالب الحديث أن يتجنب اللّعب والعَبَث والتَّبذُّل في المجالس، بالسّخف، والضّحك والقهقهة، وكثرة التنادر، وإدمان المزاح والإكثار منه، فإنما يستجاز من المزاح بيسيره ونادره وطريفه والذي لا يخرج عن حدّ الأدب، وطريقة العلم، فأمّا متصله وفاحشه وسخيفه وما أوغر منه الصّدور، وجلب الشر، فإنه مذموم، وكثرة المزاح والضّحك يضع من القدر، ويزيل المروءة ».

قال الأحنف بن قيس - رحمه الله - :

« جَنِّبوا مجالسنا ذِكْر النّساء والطّعام، إني أبغض الرّجُلَ يكون وَصَّافًا لِفَرْجِه وَبَطْنِه » [٢].

■ الخامس: العمل بالعلم:

وهذا هو المراد الأوّل من طلب العلم.

□ قال ابن مسعود ﷺ

« كان الرّجُل مِنّا إذا تعلّم عَشْرَ آياتٍ لم يُجَاوِزْهُنّ حتى يَعْرِفَ مَعَانِيهن والعملَ بهنّ ».

□ وقال عليّ بن أبي طالب ﷺ :

« هَتَف العِلمُ بالعمل فإن أَجَابَهُ وإلاّ ارْتَحَل ».

□ وعن إبراهيم بن محمد بن سفيان، قال:

سمعتُ عاصم بن عصام البيهقي، يقول:

« بِتُّ ليلةً عند أحمد بن حنبل، فجاء بماءٍ فَوضَعه، فَلمّا أَصْبح نَظَر إلى الماء بِحَالِه،

---

(١) « السّير » (٨/٤٢٠).

(٢) « نفس المرجع » (٤/٩٤).

فقال: سبحانَ اللهِ! رَجُلٌ يَطلبُ العِلْمَ لا يكون له وِرْدٌ باللَّيل!!» [١].

وقد كان النبيُّ ﷺ يتخوّف على أُمّته من ظهور أقوام يعلمون ولا يعملون.

فعن عِمران بن حُصَين ﷺ قال:

قال رسول الله ﷺ: «**إنّ أَخْوَفَ ما أخافُ عليكم بَعْدِي كُلُّ مُنَافِقٍ عليم اللّسان**»[٢].

قال العلاّمةُ **المناوي** – رحمه الله –:

«قوله ﷺ: «**كُلُّ مُنَافِقٍ عليم اللّسان**»، أي: كثير عِلْم اللّسان، جاهل القلب والعمل، اتَّخذ العلم حِرْفة يَتَأَكَّل بها، ذا هيبة وأُبّهة، يَتَعزّر ويتعاظم بها. يدعو الناس إلى الله، وَيَفرُّ هو مِنْه، يستقبح عَيْبَ غيره، ويفعل ما هو أَقْبح مِنه. وَيُظْهر للناس التَّنَسُّك والتّعبُّد، وَيُسارر رَبَّهُ بالعظائم إذا خَلاَ به! »ا.هـ.

- **السّادس: عُلوُّ الهِمَّة في طَلَب العلم:**

فإن هذا العِلْم لا ينالُ بِرَاحة الْجَسَد.

وقد كان شِعارُ سَلَفِنا الصّالح: «مع الْمَحْبَرة حَتّى الْمَقْبَرة» !.

وَهَذه لَقَطات مِنْ حياتهم تَخْبرك عن هِمَمهم:

□ قال محمد بن إسماعيل الصائغ: كنت أصوغُ مع أبي ببغداد، فَمَرَّ بِنا أحمدُ بْنُ حنبل وهو يَعْدو وَنَعْلاه في يديه، فأَخَذ أبي بِمَجامع ثَوْبه، فقال:

يا أبا عبد الله، ألا تَسْتَحي، إلى متى تَعْدُو مع هؤلاء؟

قال: «إلى الموت!» [٣].

□ وقال عبد الله بن بشر الطالقاني: «أرجو أن يأتيني أَمْري[٤] والْمَحْبَرة بَيْن يَدَيّ!».

---

(١) «السّير» (١١/٢٩٨).

(٢) رجاله ثقات: أخرجه أحمد (١/٢٢)، وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح.

(٣) «مفتاح دار السعادة» (١/٧٤).

(٤) أي: الموت.

- وروى أبو زُرْعَة الطّبريّ، عن ابْنِ دُرُسْتُوَيْه، صاحِبُ سَهْل بن عبد الله التستري[١]، قال:

قال سَهْل، ورأى أصحابَ الحديث، فقال:

« اجْهَدُوا أن لا تَلْقَوْا الله إلا وَمَعكم الْمَحابر ».

وروى في كتاب « ذَمّ الكلام »[٢]: سُئِل سَهْل: إلى مَتَى يَكْتُب الرَّجُلُ الْحدِيثَ؟

قال: حتى يموت، ويُصَبّ باقي حِبْرِه في قَبْرِه!.

- **السّابع: الاهتمام بِعلم النَّحو:**

لِيأْمَن طَالبُ العِلْم من اللّحْنِ، والفهم الخاطئ، والكذب على الله أو على رسوله دون أن يَشْعر.

قال أبو داودُ السِّنْجي: سمعتُ الأصْمعيَّ يقول:

« إن أخوف ما أخاف على طالب العلم إذا لم يعرف النحو أن يدخل في جملة قوله ﷺ:

« **مَنْ كَذَب عَليَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبوَّأ مَقْعَدَهُ مِن النار** »[٣].

قال صاحب « توضيح الأفكار » (٢/٢٩٣): « إنما قال الأصْمعيّ: « أخاف » ولم يجزم، لأن من لم يَعْلم بالعربية وإن لحن لم يكنُ متعمّدًا للكذب » ا.هـ.

قلت: لكن يُخْشى بإهماله تَعلّمِها - مع تَصَدّره لمجالس الوعظ - أن يكون كَالْمُتعمّد، وقد قيل: « من تصدّر قبل أوَانه، تَعرَّض لِهَوَانه ».

---

(١) شيخ العارفين، الصُّوفي الزَّاهد. قال الذّهبيّ: « له كلمات نافعة، وَقَدمٌ راسِخٌ في الطَّريق » ا.هـ.

(٢) صاحبه: أبو إسماعيل عبد الله بن محمد الأنصاري الهروي المعروف بشيخ الإسلام. وهو صاحب كتاب « منازل السائرين ».

(٣) رواه البخاري ومسلم.

■ **الثامن: القناعة والزّهادة:**

فعلى طالب العلم: قمع الطمع ، والتَحَلِّي بالزّهادة ليصون علمه ونفسه ومن يعول، عن التّردِّي إلى مواطن الهَلَكة والْمَذَلّة، ولتتمكّن موعظتُه من القلوب.

دخل رجلٌ البصرة، فسأل أهلها: مَنْ سَيِّدكم؟

قالوا: الحسن البصري.

قال: بِمَ سَادكم؟

قالوا: احْتَجْنا لِعلْمِه، واسْتَغْنى عَنْ دُنْيانا.

■ **التاسع: التّمتّع بخصَال الرّجولة:**

فَتَمَتّع - طالب العلم - بخصال الرجولة من الشجاعة، وشدّة البأس في الحق، ومكارم الأخلاق، والبذل في سبيل المعروف، تجعل الأنظار تَرْنُو إليه، والقلوبَ تهوى إليه.

■ **العاشر: التَّجَمُّل في غَيْر إسْراف:**

« فخذ من اللباس ما يزينك ولا يشينك، ولا يجعل فيك مقالاً لقائل، ولا لَمْزًا للامز، وإذا تلاقى مَلْبَسُك وكيفية لبسك بما يلتقي مع شرف ما تحمله من العِلم الشرعي كان أدعى لتعظيمك والانتفاع بعلمك، بل بِحُسْنِ نيّتك يكون قُرْبَة؛ لأنه وسيلة إلى هداية الْخَلْق لِلْحَقّ.

وفي المأثور عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال:

« أُحِبّ القارِئ، أبيضِ الثّياب » .

أي ليعظم في نفوس النّاس، فيعظم في نفوسهم ما لديه من الحق » [1].

وللمزيد: انظر: « صفة التزّين والتجمّل» في كتابنا هذا.

---

(١) « حلية طالب العلم» للشيخ/ بكر أبو زيد (١٥).

■ **الحادي عشر: الإعْراض عن مَجَالِس اللّغو:**

لا تطأ بساط من يغشون في ناديهم المنكر، ويهتكون أستار الأدب، متغابيًا عن ذلك، فإن فعلت ذلك فإن جنايتك على العلم وأهله عظيمة[١].

■ **الثاني عشر: تَلَقّي العِلمَ عَنِ الأشياخ:**

الأصل في طلب العلم أن يكون بطريق التلقين عن الأساتيذ، والمثافنة للأشياخ، والأخذ من أفواه الرجال لا من الصّحف وبطون الكتب.. إذ العلم صنعة، وكل صنعة تحتاج إلى صانع، فلابد من معلمها الحاذق[٢].

ولذا قالوا: «لا تَأْخُذْ عِلْمَكَ عن صُحُفِي».

ولا يعني هذا إهمال المطالعة، كيف، وقد كان سَلَفُنا يستبقون إليها، ويعكفون عليها!.

- قال نُعيم بن حمّاد: كان ابن المبارك يكثر الجلوس في بيته، فقيل له:

ألا تستوحش؟

فقال: «كيف أستوحشُ وأنا مع النبيّ ﷺ وأصحابه؟!» [٣].

- كانت زوجة «الزُّبَير بن بَكّار» [٤] تقول:

- «واللهِ هذه الكُتبُ أشَدُّ عَليَّ من ثلاثِ ضَرَائِر!» [٥].

ولا يزال العلماء على مَرّ العصور، وكَرّ الدّهور، يُوصُون باقْتناء أُمّهات الكتب «النافعة»، ويوصون بكثرة المطالعة، والمذاكرة، والبحث، والتنقيب، وهذا أمر مشهور ومنشور، لكن

---

(١) نفس المرجع.
(٢) نفس المرجع (٢٢).
(٣) «السّير» (٣٨٢/٨).
(٤) العلاّمة الحافظ، النّسّابة، قاضي مكة وعالمها.
(٥) «السّير» (٣١٣/١٢).

يجب أن يكون أساسه : إتقان الأصول. قال ابْنُ جماعة:

«من لم يتقن الأصول حُرم الوصول» [(١)].

فلابّد - أوّلاً - من التأصيل والتأسيس لكل فن يطلبه طالب العلم بضبط أصله ومختصره على شيخ متقن لا بالتحصيل الذاتي، لأن من تكلّم في غير فنه أتى بالعجائب.

■ **الثالث عشر: التّأدّب مع الشّيخ بعد اختياره:**

قال الإمام ابن سيرين - رحمه الله - : «إن هذا الْعِلْم دِينٌ، فانظروا عَمَّن تأخذون دينكم».

فإذا اخترت شيخك، فَتَأَدَّب معه، وَمِنْ صُوَر التَّأَدُّب:

- احترامه.
- خفض الصوت عنده.
- الاستباق إلى حَمْل عصاه ونعليه.
- غَضّ الطّرف عن هفواته.
- حفظ سِرِّه.
- الصّبر على سوء خُلُقه.
- القعود بين يديه.
- تَقْبيل يديه.
- التقرّب إلى الله بخدمته.
- عدم زيارته في أوقات راحته.
- خطابه بأحب الأسماء إليه.
- التواضع إليه، وعدم التكبّر عليه.

---

(١) «تذكرة السامع والمتكلم» (١٤٤).

- رَدّ غيبته.
- توقير حُرمته.
- الدّعاء له في حال حضوره وغيابه.
- الاستغفار له بعد مماته.
- معاهدة قبره بالزيارة.
- التصدق عنه، بغية وصول الثواب إليه، فحسن العهد من الإيمان[١].

■ **الرابع عشر: تفريغ القلب للعلم:**

قال الإمام ابن قدامة - رحمه الله - :

«وينبغي لطالب العلم قطع العلائق الشاغلة فإن الفكرة متى توزّعت قصرت عن درك الحقائق، وقد كان السّلف يؤثرون العلم على كل شيء» ا.هـ[٢].

وليس المقصود من قطع العلائق أن يضيّع المرءُ مَنْ يَعول أو يكفّ عن السَّعي في طلب الرزق يتكفّف الناس أعطوه أو منعوه! فقد قال الشافعيُّ - رحمه الله - :

«لا تُشَاوِر مَنْ ليس في بَيْته دَقِيقٌ فإنّه مولَّهُ العقل».

وإنما القصد أن يقطع من العلائق الشاغلة ما هو في غنىً عنه مع الاقتصاد في السّعي، ومع تفريغ القلب، وبذل الجهد لطلب العلم، فالأمر كما قال أبو يوسف - رحمه الله - :

«العلم شيءٌ لا يُعْطيك بَعْضَه حتى تُعْطِيه كُلَّك»[٣].

■ **الخامس عشر: أكل الحلال:**

«فعلى طالب العلم أن يتحرَّى الحلال في طعامه وشرابه ولباسه ومسكنه وفي جميع ما يحتاج إليه هو وعياله ليستنير قَلْبُه، وَيَصْلح لقبول العلم ونوره والنفع به ولا يقنع لنفسه

(١) وللمزيد: راجع صفة «توقير العلماء» في كتابنا هذا.

(٢) «مختصر منهاج القاصدين» (١٤).

(٣) «فضل العلم» د. محمد سعيد رسلان (١٢١).

بظاهر الحل شرعًا مهما أمكنه التورّع و لم تُلْجِئه حاجة أو يجعل حظّه الجواز بل يطلب الرُّتبة العالية » [١].

▪ **السّادس عشر: حفظ القرآن، وكتابة الحديث:**

قال الإمام الْجُنَيْد - رحمه الله - :

« من لم يحفظ القرآن، و لم يكْتُبْ الحديث، لا يُقْتَدى به في هذا الأمر، لأن عِلْمَنا هذا مُقَيّد بالكتاب والسُّنة » [٢].

▪ **السّابع عشر: ملازمة التقوى:**

قال تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

وقال جعفر بن محمد بن نصير:

« إن ما بَيْن العبد وبين الوجود: أن تسكن التقوى قلبه، فإذا سكنت التقوى قلبه نزلت عليه بركاتُ العلم، وزالت عنه رغبة الدنيا » [٣].

أخي المسلم:

هذه بعض الآداب التي ينبغي لطالب العلم أن يتحلّى بها، إذا أراد أن يبلغ درجة العلماء، وينال مراتبهم، وعلى الله قصد السبيل.

۞۞۞۞۞

---

(١) « تذكرة السامع والمتكلم » (٧٥).

(٢) « الرسالة القشيرية » (٢٠).

(٣) « الرسالة القشيرية » (٣٠).

١٧- عُلُوُّ الهِمَّة

اعلم - أخي المسلم - أن العِلْمَ والْعَمَل تَوْأَمَانِ، أُمُّهُما: عُلُوُّ الْهِمَّة![1].

وَعُلُوُّ الهِمَّة: صفة الأنبياء والصّالحين.

وإذا كانتِ النّفُوس كِبَارا تَعِبَتْ في مُرَادِها الأجْسَامُ

ولأهمية هذه الصِّفة، فحديثنا - هنا- يدور حول **ثلاثة أمور:**

الأوّل: تعريف الهمّة.

والثاني: علوّ الهمّة في القرآن والسُّنة.

والثالث: لقطات من أقوال وأحوال أصحاب الهِمَم العالية.

راجيًا من الله تعالى أن يكون هذا الحديث سَبَبًا في إيقاظِ هِمَمِ الْمُسْلِمين، وَدَفْعِهم نحو المعالي.

أولاً: تعريفُ الهِمَّة:

قال أهلُ اللّغة: الهمّة: فِعْلة من الهَمّ، وهو مبدأُ الإرادة، ولكن خَصُّوها بنهاية الإرادة، والهَمُّ مَبْدؤها، والهِمَّة نهايتها.

وفي «**المصباح**»: الهِمّة؛ بالكسر: العَزْم، وقد تُطلَقَ على الْعَزْم القَوِيّ، فَيُقال: له هِمَّةٌ عالية[2].

ثانيًا: علوّ الهِمّة في القرآن والسُّنة:

جاء الحث على «علوّ الهمة» في مواطن كثيرة من القرآن والسنة:

(١) «اللطائف في الوعظ» للإمام ابن الجوزي (٧٧).

(٢) «بصائر ذوي التمييز» للفيروز آبادي (٥/٣٤٩).

فمن القرآن:

(١) قوله تعالى: ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

هذا نَدْبٌ وَأَمْرٌ من الله - تعالى - في فِعْل الخيرات، والمسارعة في نَيْل القُرُبات، فَمَنِ الْمُشَمِّر عالي الهِمَّة في الطّاعات؟.

(٢) وقال تعالى: ﴿ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ ﴾ [البقرة: ١٤٨].

قال الإمام ابن رجب الحنبلي - رحمه الله تعالى - :

«لَمّا سمع القومُ قول الله ﷻ: ﴿ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ ﴾ فهموا أن المراد من ذلك أن يجتهد كل واحد منهم أن يكون هو السابق لغيره إلى هذه الكرامة، والمسارع إلى بلوغ هذه الدّرجة العالية، فكان أحدهم إذا رأى من يعمل عملاً يعجز عنه؛ خشى أن يكون صاحب ذلك العمل هو السابق له، فيحزن لفوات سبْقه، فكان تنافسهم في درجات الآخرة واستباقهم إليها، ثم جاء من بعدهم قومٌ، فعكسوا الأمر، فصار تنافُسُهم في الدّنيا الدنيئة وحظوظها الفانية» ا.هـ[(١)].

(٣) وقال تعالى: ﴿ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ [الحديد: ٢١].

لقد حرّك القرآنُ : النّفوسَ الأبيّة، والهِمَم العالية.

فَحـيَّهلا إن كنـتَ ذا هِمَّـة فقـد حَـدَا بِكَ حَادِي الشَّوق فَاطْو الْمراحِلا

«فيا عجبًا للجنة، كيف نام طالبها، وكيف لم يسمح بمهرها خاطبها، وكيف طاب العيش في هذه الدّار بعد سماع أخبارها، وكيف قر للمشتاق القرار دون معانقة أبكارها، وكيف قرّت دُونها أَعْين المشتاقين، وكيف صَبَرت عنها أنفسُ الموقنين، وكيف صَدَفَتْ

---

(١) «لطائف المعارف» (٢٦٠).

عنها قلوبُ أكثر العالمين، وبأي شيءٍ تَعوَّضت عنها نفوسُ المعرضين؟!!» [١].

(٤) وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

قال صاحبُ الظّلال – رحمه الله تعالى – تحت ظلال هذه الآية:

«الذين جاهدوا في الله ليصلوا إليه، ويتصلوا به. الذين احتملوا في الطريق إليه ما احتملوا، فلم ينكصوا ولم ييأسوا. الذين صبروا على فتنة النفس، وعلى فتنة الناس. الذين حملوا أعباءهم، وساروا في ذلك الطريق الطويل الشاق الغريب. أولئك لن يتركهم الله وحدهم، ولن يُضيع إيمانهم، ولن ينسى جهادهم. إنه سينظر إليهم من عليائه فيرضاهم، وسينظر إلى جهادهم إليه فيهديهم، وسينظر إلى محاولتهم الوصول فيأخذ بأيديهم، وسينظر إلى صبرهم وإحسانهم فيجازيهم خير الجزاء» ا.هـ.

(٥) وقال تعالى: ﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴾ [الواقعة: ٨٨، ٨٩].

قال الإمام ابن كثير – رحمه الله – عن المقرّبين – في هذه الآية:

«هم الذين فعلوا الواجبات والمستحبات، وتركوا المحرّمات، والمكروهات وبعض المباحات، فلهم رَوْحٌ وَرَيْحَانٌ، وتبشّرهم الملائكةُ بذلك عند الموت والرّوْح والرَّيْحَان معناهما: أي رحمة ورزْق وفَرح وَسرور» ا.هـ.

والآيات في هذا المقام كثيرة.

ومن السُّنة المُطهَّرة:

(١) عن الحسين بن عليّ – رضي الله عنهما – قال:

قال رسولُ الله ﷺ: «**إنّ الله يُحبُّ مَعالى الأُمورِ وأَشْرَافها، ويَكْره سَفْسَافَها**» [٢].

---

(١) «حادي الأرواح» للإمام ابن القيم (٧).

(٢) **صحيح**: رواه الطبراني في «الكبير»، وغيره، وصحّحه الألباني.

(٢) وعن كليب ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ: «**إنّ الله تعالى يُحِبُّ من العامل إذا عَمِل أن يُحْسِن**»[١].

قلتُ: هذا في عمل الدّنيا، فما بالُك بعمل الآخرة؟

(٣) وعن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال:

قال رسولُ الله ﷺ: «**لِكُلِّ قَرْنٍ مِنْ أُمَّتي سَابِقون**»[٢].

قلتُ: هذا الحديث يثير الهِمَمَ الكامنة، ويُقَوِّي الأعضاء على الطاعة.

(٤) وعن أنس ﷺ

قال رسولُ الله ﷺ: «**مَنْ أَرَادَ أَنْ يَعْلمَ مَالَهُ عِنْدَ الله، فَلْيَنْظُرْ ما لِلّه عِنْده**»[٣].

زاد الحاكم في روايته: «**فإنّ الله يُنزل العبدَ منه حيث أَنزلَهُ مِنْ نَفْسه**».

قال العلامة المناوي - رحمه الله - في شرحه لهذا الحديث:

«فمنزلة الله عند العبد في قلبه على قدْر معرفته إيّاه وعلمه به وإجلاله وتعظيمه والحياء منه وإقامة الحرمة لأمره ونهيه والوقوف عند أحكامه بقلب سليم، ونفس مطمئنة، والتَّسْليم له بَدَنًا وروحًا وقَلْبًا ومراقبة تدبيره في أموره ولزوم ذِكْرِه والنّهوض بأثقال نِعَمِه وَمِنَنِه وترك مشيئته لمشيئته وَحُسْن الظّن به، والناس في ذلك درجات وحظوظهم بقدر حظوظهم من هذه الأشياء فأَوْفَرهم حَظًّا منها أعظمهم درجة عنده وعكسه بعكسه» ا.هـ[٤].

(٥) وعن أُبيّ بن كعبٍ ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ: «**مَنْ خَافَ أَدْلَج**[٥]**، وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمَنزلَ، ألا إن سِلْعَةَ الله**

---

(١) حسن رواه البيهقيّ في «الشّعب»، وانظر: «صحيح الجامع» (١٨٩١).

(٢) صحيح رواه أبو نعيم في «الحلية»، وانظر: «صحيح الجامع» (٥١٧٢).

(٣) حسن رواه الدارقطني، وغيره، وانظر: «الصحيحة» (٢٣١٠)، و «صحيح الجامع» (٦٠٠٦).

(٤) «فيض القدير» (٦/٦٤). ط. دار الكتب العلمية.

(٥) أدْلَج- بسكون الدّال مخففًا - : سار من أوّل الليل. وأمّا بالتشديد: فمعناه: سار من آخره.

غَالِيةٌ، ألا إن سِلْعَةَ الله الجَنَّةُ»[(١)].

قال العلاّمة المناوي - رحمه الله - في شرحه لهذا الحديث:

«يعني من خَشِي الله أَتى منه كُلّ خير، وَمَنْ أَمِنَ اجْتَرَأَ على كُلّ شَرّ، كذا في الكشّاف، وقال في «الرياض»: المراد: التشمير في الطاعة. وفي «الترغيب»: معناه: من خاف أَلْزَمَه الْخَوْفُ السّلوك إلى الآخرة والمبادرة بالعمل الصّالح خوف القواطع والموانع. وقيل: هو حثّ على قيام الليل، جعل قيامه من علامات الخوف لأن الخائف يدلج أي يمنعه الخوف من نوم كل الليل، **والأظهر**: أنه ضَرَب مثلاً لكلّ من خاف الرَّدَى أو فَوْت ما يَتَمَنّى أن يصل السَّيْر بالسّرى ولا يركن إلى الرّاحة والهوى حتى يبلغ الْمُنَى «**ألا إن سلعة الله غالية**» أي: رفيعة القَدْر «**ألا إن سلعة الله الجنة**».

قال الطيبي: هذا مَثَل ضَرَبه اللّهُ لسَالك الآخرة فإن الشيطان على طريقه، والنّفس وَأَمَانيه الكاذبة أعوانه، فإن تيقّظ في سَيْره وأخلص في عمله، أَمنَ من الشيطان وكيده، ومن قطع الطريق انتهى؛ وثمن هذه السّلعة: العمل الصّالح» ا.هـ[(٢)].

فهيّا أخا الإسلام:

كُــنْ كالصّــقور عــلى الــذُّرَا   تَصْــغى لوسْوَسَــة القَمــرْ
لا كالغــرابِ يُطــاردُ الــجِـيفَ الْحَقِــيرة في الحُفَــرْ

ثالثًا: لقطاتٌ مِن أقوال وأحوال أصْحابِ الهِمَمِ العالية:

أولاً: عُلُوُّ هِمّتهم في الإخلاص:

الإخلاص: مِسْكٌ مَصُونٌ في مِسك القلب، يُنَبِّه رِيحُه على حَامِله.

قال الإمامُ ابن عطاء الله السكندريّ - رحمه الله تعالى - :

«الأعمالُ صُوَرٌ قَائِمةٌ وأَرْوَاحُهَا وُجُودُ سِرِّ الإخْلاص فِيها»[(٣)].

---

(١) صحيح: رواه عبد بن حميد، والحاكم، وصحّحه، وغيرهما، وانظر: «صحيح الجامع» (٦٢٢٢).
(٢) «فيض القدير» (١٥٩/٦).
(٣) «الحكم العطائية» (٨).

وللمؤمن في إخلاصه أحوال وأقوال:

- كان إبراهيم النَّخْعِي[1] إذا قرأ في المصحف، فَدَخل عليه داخلٌ غَطّاه![2].

- وكان ابْنُ أبي ليلى[3] يُصَلّي - صَلاَة تطوّع -، فإذا دَخَل عليه أَحَدٌ نام على فراشه![4].

- وهذا حسّان بن أبي سنان، تقول عنه زوجتهُ:

«كان يَجِيءُ فَيْدخُل في فراشي، ثم يُخَادِعني كما تُخادع المرأةُ صَبيَّها، فإذا عَلِم أَنِّي نِمْتُ سَلَّ نَفْسَه فَخَرَج، ثم يقوم فَيُصَلِّي، قالت: فقلتُ له: يا أبا عبد الله، كم تُعذِّب نَفْسَك، ارْفُق بِنفسك، فقال: اسْكُتِي، وَيْحَكِ، فَيُوشك أن أَرْقُدَ رقدةً لا أقوم منها زَمَانًا!»[5].

- وذكر ابن الجوزي: أن «عمرو بن قيس الملائي» أقام عشرين سنة صائمًا، ما يعلم به أهْلُه، يأخذ غَذَاءَه وَيْغدو إلى الحانوت[6]، فيتصدّق بغدائه، ويصوم، وأهله لا يدرون!.

وكان إذا حضرته الرِّقّة[7]، يُحَوِّل وَجْهَهُ إلى الحائط، ويقول لجلسائه: ما أشدّ الزّكام![8].

أخي:

وليس كلّ ثَوبٍ يَعْلَق به الطِّيب، رُبَّ قائم حَظّه السَّهَر، كَم مِنْ مرائى في تَهجُّدِه،

---

(١) من كبار التابعين.

(٢) «صفة الصفوة» (٣/٨٧).

(٣) هو: محمّد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى الأنصاري الكوفي، القاضي الفقيه، تُوفّي سنة ١٤٨هـ.

(٤) «الحلية» (٤/٣٥١).

(٥) نفس المرجع السابق (٣/١١٧).

(٦) مَحَلّ تجارته.

(٧) البكاء من خشية الله.

(٨) «صفة الصفوة» (٣/١٢٤).

فَتَنْفض رِيحُ الرِّياء أَوْرَاقَ تَعَبّده، ﴿ فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ [محمد: ٢٣].
وعجبٌ ! منْ أهل الرِّياء على مَنْ يبهرجوه، ﴿ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ [القصص: ٦٩].

ثانيًا: عُلُوُّ هِمَّتهم في الصَّلاة:

أ – عُلُوُّ هِمَّة سيِّد المرسلين ﷺ في الصّلاة:

- عن المغيرة بن شعبة ﷺ: أن النبيّ ﷺ صلى حتى انتفخت قدماه، فقيل له:

أتكلّف هذا وقد غَفَر اللَّهُ لك ما تَقَدّم من ذَنْبك وما تأخّر؟

فقال: «**أفلا أكون عَبْدًا شكورًا**»(١).

- وعن ابن مسعود ﷺ قال:

«صليتُ مَعَ رَسُول الله ﷺ فأَطَال، حتى هَمَمْتُ بِأَمْر سُوء. قيل: وما هَممَتُ به؟ قال: هممتُ أن أجْلِسَ وَأَدَعَهُ»(٢).

- وعن أنس ﷺ قال:

وجد رسول الله ﷺ ذات ليلة شيئًا فلمّا أصبح قيل:

يا رسول الله، إن أَثَر الْوَجَع عليك لَبَيِّنٌ.

قال: «**إني على ما تَرَوْنَ – بحمد الله – قد قرأتُ السَّبْع الطّوال!**»(٣).

ولِلّه دَرُّ عبد الله بن رواحة ﷺ حين قال – يصف عبادة النبيّ ﷺ :

يَبِيتُ يُجَافِي جَنْبَهُ عَنْ فِراشِهِ ... إذا اسْتَثْقَلَتْ بالمشركين المضاجِعُ

---

(١) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

(٢) رواه البخاري ومسلم وابن ماجة.

(٣) **صحيح**: رواه أبو يعلى، والحاكم، وقال: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبيّ.

ب- علوّ همّة الملائكة في الصلاة:

عن أنس ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ: «**أَطَّت السَّمَاءُ وَيَحقُّ لها أَنْ تَئطَّ، والذي نَفْسُ مُحَمّد بِيَده، ما فيها مَوْضعُ شبرٍ إلاّ وَفِيه جَبْهةُ مَلَكٍ سَاجدٍ يُسَبِّحُ الله بِحَمْده!**» [1].

جـ- عُلّوُّ هِمّة السَّلَف في الصّلاة:

- **الحارث بن حسّان**: «يحضر صلاة الفجر ليلة زفافه!!»

عن عنبسة بن الأزهر، قال:

«تزوّج الحارثُ بن حسّان - وكان له صُحبة - ، فقيل له: أتخرج - يعني لصلاة الفجر - وإنّما بَنَيْتَ بأَهْلك في هذه الليلة؟ فقال: والله إن امرأة تمنعني من صلاة الغداة في جمعٍ لامرأة سوءٍ» [2].

- **أبو الدَّرْدَاء** ﷺ: «يحرص على حضور الجماعة في مرضه الذي مات فيه!:»

عن ابن أبي ليلى، عن أبي الدرداء: «أنه قال في مرضه الذي مات فيه: ألا احملوني، فحملوه، فأخرجوه، فقال:

اسْمَعوا وبَلّغوا من خَلْفكم: حافظوا على هاتَيْن الصّلاتين «العِشَاء والصّبح»، ولو تعلمون ما فيهما لأَتَيْتُمُوها ولو حَبْوًا على مَرَافِقِكم وَرُكَبِكم» [3].

- **الإمام مسروق**: «راهِبٌ صومعته الحياة»:

كانت امرأة مسروق[4] تقول: «والله ما كان مَسْروق يُصْبح لَيْلة من الليالي إلاّ وساقاه مُنتفختان من طول القيام، وكنتُ أجلس خَلْفه فأبكي رحمة له، وكان - رحمه الله - إذا طال عليه الليلُ وتعب، صلّى جالسًا ولا يترك الصّلاة، وكان إذا فرغ من صلاته يَزْحف كما يزحف البعير من الضَّعْف!» .

(١) **صحيح**: رواه ابن مردويه، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» برقم (١٠٢٠).
(٢) قال الهيثمي في «المجمع» (٢/٤١): رواه الطبراني في «الكبير» بإسناد حسن.
(٣) رواه ابن أبي شيبة.
(٤) من كبار التابعين، وكان تلميذًا لابن مسعود.

أخي:

سفر الليل لا يطيقه إلا مُضمر المجاعة تجتمع جنود الكسل فتتشبّثُ بذيل التواني، فتُزَيّن حُبَّ النّوم، وتُزخرف طِيب الفِراش، وتخوّف برد الماء، فإذا ثارت شعلة من نار الحزم، أضاءت بها طريق القصد، فسمعت أذن اليقين هاتف «**هل من سائل فأُعطِيْه**» (1)، فقمت أفرش خدّي في الطريق له ذُلاّ، وأسحب أجفاني على الأثر، نفس المحبّ في الليل على آخر نَفَس، وفي المتعبّدين قوة ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[الذاريات: ١٨]، صُراخ الأطفال، غير بكاء الرجال، سهر الليل هودج الأحباب.

إن ناموا توسّدوا درْع الهمم، وإن قاموا فعلى أقدام القلق، كأنّ النوم حَلَف على جَفَا أَجْفَانِهم، هذا رضاك نَفَى نَوْمي فَأَرَّقَني.

فلمّا تمخّض الدُّجى بالسَّحر، تساندوا إلى رواحل الاستغفار.

شكونا إلى أحْبَابِنا طُول لَيْلِنا   فقالوا لنا، ما أَقْصَر اللّيلُ عِنْدَنا[2]

أخي:

عبادةُ النَّسيم لا يفهمها إلا المشتاق، وكلّما تَعَاظَمت الْهِمَمُ، تَصَاغَرت الْجُثَثُ!.

وَلَسْتَ تَرَى الأَجْسَامَ وهي ضئيلة   نواحِلَ إلاّ والنّفوس كبار.

▫ **أبو مسلم الخولاني:** «يَجْلد نَفْسه لِتواصِل الْمَسير!!».

عن عثمان بن أبي العاتكة، قال:

«عَلّق أبو مسلم[3] سَوْطًا في المسجد، فكان يقول: أنا أَوْلى بالسَّوْط من البهائم، فإذا فَتر[4] مَشَقَ[5] ساقيه سَوْطًا أو سَوْطين. قال: وكان يقول: لو رأيتُ الجنة عيانًا أو النار

(١) جزء من حديث قدسي صحيح.

(٢) «اللطائف في الوعظ» لابن الجوزي (٣٠).

(٣) من كبار التابعين. راجع ترجمته في كتابنا: «صور ومواقف من حياة التابعين» ط. المكتبة التوفيقية.

(٤) فتر: تعب.

(٥) مشق: ضرب بسرعة.

عَيانًا، ما كان عندي مُسْتَزاد! »[١].

وكان - رحمه الله - يقول:

« أيظنّ أصحابُ محمد ﷺ أن يسبقونا عليه، والله لأزاحمنهم عليه حتى يعلموا أنهم خلفوا بعدهم رجالاً ».

□ **الرَّبيعُ بْنُ خُثَيْم:** « يُحْمَل إلى الصّلاة وهو مشلول!! »:

عن أبي حيّان التّيمي عن أبيه، قال:

« أصاب الرَّبيعَ[٢] الْفَالِجُ[٣]، فكان يُحْمل إلى الصّلاة، فيقل له: أنه رُخِّص لك. قال: قد علمتُ، ولكن أسْمع النّداء بالْفَلاَح! »[٤].

□ **الإمام أحمد بن حنبل:** « يُصَلي قائمًا في الليلة التي مات فيها!! »:

وهذه هِمّةُ « إمام أهل السنة » في مَرَضه الذي تُوفّي فيها.

يحكى صالِحُ بن الإمام أحمد قصّة مرض أبيه وعبادته وأحواله أثناء مرضه فيقول:

« لّما كان أوّلُ ربيع الأوّلُ من سنة إحدى وأربعين ومائتين، حُمَّ أبي ليلة الأربعاء، وباتَ وهو مَحْمومٌ، يَتَنفَّس تَنَفُّسًا شديدًا، وكنتُ قد عرفتُ عِلَّته، وكنتُ أُمَرِّضُه إذا اعتلَّ .. ثم أراد القيام، فقال:

خُذْ بِيَدي.

فأخذتُ بيده، فلمّا صار إلى الْخَلاَء[٥]، ضَعُفَ، وَتَوكَّأ عَلَيَّ، وكان يَخْتَلف إليه[٦] غيرُ مُتَطَبّب كُلُّهم مسلمون .. وكَثُر النّاسُ... فجعلوا يدخلون عليه أفواجًا، حتى تمتلئ

(١) « سير أعلام النبلاء » (٤/٩).

(٢) هو: الرَّبيعُ بْنُ خُثَيْم: أحد التّابعين، كان ابْنُ مسعود إذا رآه قال: «وَبشّرِ الْمُخْبِتِين

(٣) داء يصيب البدن بالشلل النصفي.

(٤) « الحلية » (٢/١١٤).

(٥) مكان قضاء الحاجة.

(٦) يتردد عليه.

المنزل، فيسألونه، وَيدعون له، ويخرجون، ويدخل فَوْجٌ، وكثر الناسُ، وامتلأ الشارع، وأغلقنا بابَ الزُّقاق.

وجاء جارٌ لنا قد خَضَب[1]، فقال أبي:

إني لأرى الرَّجُلَ يُحيي شيئًا من السُّنَّة فَأَفْرَحُ به.

وقال: اقرأ عليّ الوصيّة، فقرأتُها، فَأَقَرَّها.

وكنتُ أنام إلى جَنْبه، فإذا أراد حاجةً، حَرَّكَني فَأُناوِلُه، وَجَعلُ يحرِّك لِسَانه – يعني: بذكر الله تعالى –، ولم يَئِنَّ إلاّ في اللّيلة التي تُوفِّي فيا. وَلَمْ يَزَلْ يُصَلّي قائمًا، أَمْسِكُهُ فيركَعُ وَيَسْجُد، وأرفعهُ في ركوعه.

قال: واجتمعتْ عليه أوجاع الحَصْر، وغيرُ ذلك، ولم يزل عَقْلُه ثَابتًا، فلمّا كان يوم الجمعة، لاثنتي عشرة خلت من ربيع الأوّل، لساعتين من النهار، تُوفِّي » [2]. رحمه الله.

أخي:

لم يَحْصُل بَرْدُ الْعَيْش إلا بِحَرِّ التَّعَب، ما العِزُّ إلاّ تحت ثَوْب الكدِّ، على قَدْر الاجتهاد تعلو الرُّتَب.

ومن أشرقت بداياته، أشرقت نهاياته.

ثالثًا: علوّ همتهم في الصّدقة:

- **شُعْبَةُ بْنُ الحَجّاج**: « يَتَصَدَّق بِخَشَبَةٍ مِنْ سَقْفِ بَيْته!! »:

ذكر **الإمام الغزالي** – رحمه الله – : « أن سائلاً جاء إلى « شعبة بن الحجّاج » وليس عنده شيءٌ؛ فنزع خشبةً من سقف بيته – فأعطاها له – ثم اعتذر إليه!! » [3].

---

(١) **الخضاب**: تغيير شعر الرأس واللحية بغير السّواد، وهو من السُّنّة.

(٢) « سير أعلام النبلاء » (١١/٣٣٤، ٣٣٥) باختصار.

(٣) « الإحياء » (٣/٢٧٣).

- **معروف الكَرْخي:** «يتَصَدّق بنَعْلَيْه!!»:

دخل سائلٌ يومًا على «معروف الكرخي» فلم ير عنده ما يُعْطِيه غَيْرَ نَعْلِه، فأعطاه إيّاه، ثم بلغ معروفًا بعد ذلك أنه - أي السائل - باع النّعل واشترى بثمنها فاكهة، فقال معروف: «الحمد لله، لعلّه كان يشتهي الفاكهة فواسيناه بثمنها!» [(١)].

- **بِشْرُ بْن الحارث:** «يتصدّق بقميصه الوحيد!!»:

قال عباس بن دَهْقَان: «ما خرج أحد من الدنيا كما دخلها إلاّ بشر بن الحارث، فإنه أتاه رجلٌ في مرضه فشكا إليه الحاجة، فنزع قميصه وأعطاه إيّاه، واستعار ثوبًا فمات فيه!!».

أخي المسلم:

أرأيت علوّ همتهم في الصّدقات! فأين أخلاقُنا من أخلاقهم؟!.

آهٍ لأمراض نفوسٍ قَدْ يَئِس طَبِيبُها، ولأصواتِ مواعِظَ قد أخرس مُجِيبهُا.

رابعًا: عُلُوَ هِمّتهم في الصِّيام:

- **إبراهيم بن هانئ:** «يموت صائمًا!»

قال أبو بكر بن زياد: «حضرتُ إبراهيم بن هانئ عند وفاته، فقال:

«أنا عطشان».

فجاءه ابنهُ بماء، فقال:

«أَغَابَتِ الشّمْسُ؟»

قال: لا

فَرَدّه، وقال: ﴿ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴾ [الصافات: ٦١].

ثم مات!» [(٢)].

---

(١) «صلاح الأمّة» د. سيد العفّاني (٦٢٢/٢).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (١٨/١٣).

فانظر - أخي الكريم - لهذه الهمة، وقارن بينها وبين همم المسلمين اليوم!!

كم من مسلم يفطر في نهار رمضان دون مواربة ولا خجل؟!

بل كم من مسلم يسخر من المصلين والصائمين؟!

فَلَيْت شِعْري أين ذهب دينُ هؤلاء؟

وأين حياؤهم؟!

موعظة:

يا ذَوِي الهمّة، اركب مَطَايا الجِدّ وإن طال السُّرى، علامة التوفيق فَصْم[1] عُرَى التواني، وآية الخُذْلان مُسَامَرة الأماني.

خَرَجْتَ عَنْ عُمْران التّقوى، فَوَقَعَتْ في فَقْر الزّلل.

مَنْ غَرَّهُ سَرَابُ الطّمع، مَاتَ سَرِيع الظّمَأ. أَفَلا تَعْقِل؟

خامسًا: عُلُوُّ هِمَّتهم في ذِكْر اللهِ تعالى:

كان سَلَفُنا - رحمهم اللّهُ - يوقنون أن رأسَ مَالِهم لحظاتُ أَعْمارهم، لذا استَثْمَروها خير استثمار.

وها هو خالدُ بْنُ مَعْدان - رحمه الله - يَقْرع آذاننا، ويضرب على أَوْتار قلوبنا، ويَدقّ على باب هِمَمِنا فيقول:

«**إذا فُتح لأحدِكم بابَ خَيْرٍ فَلْيُسْرِعْ إليه، فإنه لاَ يْدري مَتَى يُغْلَقُ عَنْه**»[2].

نعم، إن لِرَبّكُم في أيّام دَهْرِكُم لَنَفحات، ألا فَتَعَرّضوا لها.

ومن أعظم أبواب الخير: «ذكر الله»، لذا كان لِلسّلف الصّالح فيه القدح الْمُعَلّي، وهذه بعض أقوالهم وأحوالهم:

---

(١) الفَصْمُ: الكَسْر والقطع من غير بينونة.

(٢) «الحلية» (٥/٢١٢).

□ **خالدُ بْنُ مَعْدان:** «يتحرّك إصْبعه بالتَّسْبيح بَعْد الموت!»:

خالد بن معدان: شيخ أهل الشام. قال الإمام الذهبيّ: «وهو معدود في أئمة الفقه» ا.هـ.

أدرك سبعين من أصحاب النبيّ ﷺ.

قالت عبدة بنت خالد: «قَلّما كان خالد يأوى إلى فراشه إلاّ وهو يذكر شوقه إلى رسول الله ﷺ، وإلى أصحابه من المهاجرين والأنصار، ثم يُسَمِّيهم، ويقول: هُمْ أَصْلِي وَفَصْلي، وإليهم يَحِنُّ قَلْبي، طال شَوْقي إليهم، فَعَجِّل رَبِّ قَبْضِي إليك، حتى يغلبه النّوم وهو في بعض ذلك»[(١)].

كَرَامَةٌ بَعْد الْمَوْت:

عن سلمة بن شبيب، قال:

كان خالد بن معدان يُسَبِّح في اليوم أربعين أَلْف تَسْبيحة سوى ما يقرأ من القرآن؛ فلما مات، فَوُضِع على سَرِيره لِيُغَسَّل، جَعَل بأصْبعه كذا يُحَرِّكُها - يعني بالتَّسْبيح -![(٢)].

□ **وَرْقَاءُ بْنُ عُمَر:** «يَذْكُرُ الله حتى آخِرِ نَفَس!»:

قال أبو المنذر إسماعيل بن عمر:

دخلنا على «وَرْقَاءِ بْنِ عُمَر»[(٣)] وهو في الموت، فجعل يهلل ويكبر، ويذكر الله، وقال لابنه:

«يا بُنَيّ، اكْفِني رَدَّ السَّلام على هؤلاء لا يشغلوني عن رَبِّي ﷻ!»[(٤)].

---

(١) «الحلية» (٥/٢١٠).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٤/٥٤٠).

(٣) الإمام الثقة، الحافظ، العابد، نزيل المدائن. تُوفِّي نيفٍ وستين ومائة.

(٤) «السِّير» (٧/٤٢٢).

□ **مَعْرُوفُ الكَرْخِي**: «شبيه الملائكة في تسبيحهم!!»:

معروف الكرخي: عَلَمُ الزُّهاد، بركةُ العصر، ذُكِرَ عند الإمام أحمد - يَوْمًا -، فقيل: قَصيرُ الْعِلْم.

فقال الإمامُ أحمد: «أَمْسِكْ، وهل يُرَادُ مِنَ الْعِلْمِ إلاّ مَا وَصَل إليه مَعْرُوف».

وعن علوّ هِمّته في ذكر الله - تعالى - يقول الإمام الذهبيّ - رحمه الله -:

«قَصّ إنسانٌ شَارب معروف، فَلَمْ يَفْتُرْ مِنْ الذّكْر، فقال: كيف أَقُصُّ؟

فقال: أَنْتَ تَعْمَلُ، وأنا أَعْمَلُ!» ا.هـ[1].

سادسًا: عُلُوُّ هِمَّتهم في تلاوة القرآن:

أَعْلى الذّكْر منزلة: تلاوة القرآن... أَحْسَن الحديث، والطَّيِّب من القول... مزامير الأُنْس من حَضرة القُدْس، بألحان التوحيد من رياض التمجيد، هذا طعم الْخَبَر فكيف طعم النَّظَر!.

آياتٌ مُنزلةٌ مِنْ حَوْل الْعَرْش، الأَرْض بها سَماء هي منها كواكب.

ألفاظٌ إذا اشْتَدّت فأَمْواجُ البحار الزّاخرة، وإذا لانْتَ فَأَنْفَاسُ الحياة الآخرة.

معانٍ هي عذوبةٌ ترويك من ماء البيان، ورقّة تَسْتَرْوح منها نسيمَ الجنَان.

نورُ القلوب الذي لا تَسْتَضِيءُ إلاّ به، وحياةُ الأرْواح... بل الرّوح الذي تتوقف الحياةُ الحقيقيةُ عَلَيْه... فَضْلُ الله ورحمته، ونعمته الكبرى، لا يَسَعها ولا يُحيطُ بها حَمْدُ وشكْرُ الخلائق.

﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [العنكبوت: ٥١].

وقال تعالى: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس: ٥٨].

---

(١) «السِّير» (٩/٣٤١).

وإذا فرح العبدُ بفضل الله ورحمته وأَنِسَ به لَهِجَ به، وَعَلَتْ هِمَّته في تلاوته وتدبره، حتى يصير عنوانه، وجنّته، وبستانَه، وَأُنْسه، وَمَيْدانه.

وإليك بعض أحوال الصالحين مع القرآن:

- **عبد الله بن إدريس:** «ختم القرآن في بيته أربعة آلاف ختمة!!» :

عبد الله بن إدريس: الإمام الحافظ المقرئ القدوة، شيخ الإسلام، أبو محمد الأَوْديُّ الكوفيّ.

قال عنه الإمام أحمد: «كان ابْنُ إدريس نَسِيجَ وَحْدِه».

وعن همّته في تلاوة كتاب الله يقول **حُسَيْن العَنْقَزِيّ**: «لَمّا نزل بابن إدريس الموتُ، بَكَتْ بِنْتُه، فقال: لا تبكي يا بُنَيَّة، فقد خَتَمْتُ القرآن في هذا البيت أربعة آلاف خَتْمَة!» [١].

- **أبو معاوية الأسود:** «وكرامة عجيبة عندما ينظر في المصحف»:

كان أبو معاوية من كبار أولياء الله، صَحِبَ سفيانَ الثوريّ، وإبراهيمَ بن أدهم، وغيرهما. **قال الإمام الذهبيُّ** - رحمه الله - :

«قيل: إنه ذَهَب بَصَرُه، فكان إذا أراد التّلاوةَ في الْمُصْحَف، أَبْصَر بإذن الله !!» [٢].

قلت: هذه كرامة أجراها الله - تعالى - لهذا الوليّ الصّالح، والله على كلّ شيء قدير.

- **الإمام الجنيد:** «يُحَرِّك لِسانه بالقرآن حتى خروج الروح!!»:

قال أبو بكر الْعَطَويّ: «كنتُ عند الجنيد لمّا احْتُضِر، فَخَتَم القرآنَ ثم ابْتدأ سورةَ البقرة، فتلا سَبْعين آيةً ومات!!» [٣].

---

(١) «السّير» (٩/٤٤).

(٢) نفس المرجع السابق (٩/٧٩).

(٣) نفس المرجع السابق (١٤/٧٦).

□ **وآخر على الطريق:**

كان عبد الرحمن بن الأسود - رحمه الله - من المتهجّدين العُبّاد، ذكر أهل التاريخ وأصحاب السِّير أنه:

صام حتى أحْرَق الصّومُ لِسَانه!!.

وعن ابن إسحاق، قال:

قَدِمَ علينا عبدُ الرحمن بن الأسود حَاجًّا، فاْعتلّت رِجْلُه، فَصَلَّى على قَدَمٍ حتى أَصْبَح!!.

قلت: أستغفر الله من أحوالنا، وتفريطنا:

لا تَأْتِينَّ بِذكْرِنا مع ذَكْرِهم ... لَيْسَ الصَّحيحُ إذَا مشى كالْمُقْعَدِ

قال الحكم:

«لمّا احْتُضِرَ عَبْدُ الرحمن بْنُ الأَسْود، بكى، فيقل له؟ - يعني ما يُبكيك؟ - فقال: أسفًا على الصّلاة والصوم، ولم يزل يتلو حتى مات!!» [1].

إنها هِمَمٌ لا تعرف الوهن، ولا يَعْتريها ضَعْفٌ، ولا تُصَاب بالشيخوخة!

وهذا حال من أراد الآخرة وسعى لها سعيها، وهو مؤمن.

□ **وثالث على الطريق:**

كان «أبو إسحاق السَّبيعي» من خيار التابعين، ومن العلماء العاملين. قال عنه **الإمام الذهبيّ:**

«الحافظ، شيخُ الكوفة، وعالِمُها، وَمُحَدِّثُها» ا.هـ.

وعن عُلوّ هِمّته، يُحدِّثنا عن نفسه، فيقول:

«ذهبت الصّلاةُ مني وَضَعُفْتُ، وإنّي لأُصَلّي فما أقرأ وأنا قائم إلاّ البقرة وآل عمران!!» ..

---

(١) نفس المرجع (١٢/٥).

وقال ابْنُ عينية: «قال عونُ بن عبد الله لأبي إسحاق: ما بَقيَ منك؟ قال: أقرأ البقرة في ركعة. قال: بَقِيَ خَيْرُك، وَذَهِبِ شَرُّك»[1].

قلت: كان عمره - يومئذ - فوق التسعين!.

سابعًا: عُلُوّ هِمّتهم في الجهاد في سبيل الله:

الجهاد في سبيل الله: ذروة سنام الإسلام. وفضائله أكثر من أن تحصى، منها:

(١) قال ﷺ: «**عليكم بالجهادِ في سبيل الله، فإنّه بابٌ مِنْ أبوابِ الجنة، يُذْهِب اللّهُ به الْهَمَّ والغَمَّ**»[2].

(٢) وقال ﷺ: «**يغفرُ للشّهيد كُلَّ ذَنْبٍ إلاّ الدَّيْن**»[3].

(٣) وقال ﷺ: «**للشّهيد عِنْد اللّه سَبْع خِصَال: يُغْفر لَهُ في أوّل دَفْعة مِنَ دَمه، وَيَرى مقعَده من الجنّة، وَيُحلّى حُلَّةَ الإيمان، وَيُزَوّج اثنتين وسبعين زوجةً مِنَ الْحُور العين، وَيُجَار مِنْ عَذَابِ القبر، ويأْمَنُ مِنَ الفَزَع الأكبر، وَيُوضَع على رأْسِه تاجُ الْوقَار، الياقُوتَةُ منه خيرٌ مِنَ الدّنيا وما فيها، وَيَشْفَعُ في سَبعين إنْسَانًا مِنَ أَهْلِ بَيْته**»[4].

والأحاديث في هذا المقام كثيرة، وقد ذكرنا جملة منها في غير هذا الموضع.

والمقصود: أن الجهاد في سبيل الله: أغلى التجارات مع الله .. أيقن المؤمنون بذلك، فسَطّروا أَرْوع آياتِ الجهاد، وتَعَجَّلوا الاستشهاد:

﴿ يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴾ [فاطر: ٢٩].

وهذه لقطات حَيَّة، من عُلُوّ هِمّتهم في الجهاد، وَحُبّ الاسْتشهاد:

---

(١) نفس المرجع (٥/٣٩٩).

(٢) **صحيح**: رواه الطبراني في «الأوسط»، وأحمد، وغيرهما، وانظر: «الصحيحة» (١٩٤١).

(٣) رواه أحمد ومسلم.

(٤) **صحيح**: رواه أحمد، والترمذي، وغيرهما، وانظر: «صحيح الجامع» (٥١٨٢).

- **أحمد السُّرْمَاري:** «يَقْتُل بسيفه أَلْفًا من الْعَدوّ!!»:

هو: الإمام، الزّاهد، العابد، المجاهد، فارس الإسلام، أبو إسحاق:

من أهل سُرْماري، من قُرى بخارى.

قال عنه الإمام الذهبيّ – رحمه الله – :

«كان أَحَدَ الثّقات. وبشجاعته يُضْرَب الْمَثَلُ» ا.هـ[1].

وكان – رحمه الله تعالى – يتمتع بصفتين بارزتين:

الأولى: الرحمة.

والثانية: الشجاعة.

والدليل على الأولى: قَوْلُ أَحَد أَوْلاده، وهو : أَبُو صَفْوان: «دخلتُ على أبي يومًا، وهو يأكلُ وَحْده، فرأيتُ في مائدته عُصْفورًا يأكلُ معه، فلمّا رآني طار!!»[2].

والدليل على الثانية: قولُ عبيد الله بن واصل: سمعتُ أحمد السُّرْمَاري يقول، وأخرج سيفه، فقال:

«اعلم يقينًا أني قتلتُ به أَلْفَ تُرْكي، وإن عِشْتُ قَتَلْتُ به ألفًا أخرى، ولولا خوفي أن يكون بِدْعةً لأَمرْتُ أن يُدْفن مَعي!!»[3].

أخي:

كانت هذه هممهم، فأين هِمَمُنا اليوم؟

أمّـــا الخـــيامُ فإنّهـــا كخـــيامِهم ... وأَرَى نســـاءَ الْحَـــيّ غَـــيْر نِسَـــائها

فإلى الله المشتكى.

---

(١) «السِّيَر» (١٣/٣٧).

(٢) نفس المرجع السابق (١٣/٣٧).

(٣) «تهذيب التهذيب» (١/١٤).

- **زُهَيْرُ بْنُ مُحَمَّد بن قُمَيْر**: «لا يأكُل اللّحم إلا مِنْ مَغَانم الرّوم!»:

هو: الإمام الرّباني المحدّثُ الثّبْتُ، نزيل بغداد.

قال الخطيب: «كان ثقة ورعًا زاهدًا. انتقل في آخر عمره عن بغداد إلى طرسوس، فرابط بها إلى أن مات!» (١).

وقال البغوي: «ما رأيتُ بعدَ أحمد بْن حنبل أفْضَلَ منه، سمعتهُ يقول: أشْتَهي لَحْمًا من أربعين سَنَة، ولا آكله حتى أَدْخلَ الرّومَ، فآكُلُ مِنْ مغانِمِ الرُّوم!» (٢).

ثامنًا: عُلُوّ هِمّتهم في طلب العلم:

قال الإمام ابن القيم - رحمه الله -:

«العلماء باللّهِ وَأمْره هم حياة الموجود وروحه، ولا يُسْتغنى عنهم طرفة عين، فحاجة القلب إلى العلم ليست كالحاجة إلى التنفّس في الهواء؛ بل أعظم.

وبالجملة: فالعلم للقلب مثل الماء للسّمك، إذا فقده مات، فنسبة العلم إلى القلب كنسبة ضوء العين إليها» ا.هـ(٣).

وعن أهمية علوّ الهمّة بالنسبة لطالب العلم، قال - رحمه الله -:

«لا ينال العلم إلاّ بهَجْر اللّذات وتطليق الرّاحة» ا.هـ(٤).

عَلِمَ سَلَفُنا الصالح - رحمهم الله تعالى - ذلك، فعلت هِمَّتهُم، وجابوا البلاد طولاً وعرضًا في طلب العلم وتحصيله.

وهذه بعض أحوالهم:

---

(١) «تاريخ بغداد» (٤٨٤/٨).

(٢) نفس المرجع (٤٨٥/٨).

(٣) «مفتاح دار السعادة» (٧٤/١).

(٤) نفس المرجع (١٤٢/١).

□ **الإمام أبو زُرْعة:** «يحفظ مائتي ألف حديث!!»:

قال أبو عبد الله بن مَنْدَه الحافظ: سمعتُ أبا العبّاس محمد بن جعفر ابن حَمْكَوَيْه بالرَّي يقول: سُئل أبو زُرعة عن رجلٍ حلف بالطلاق: أن أبا زرعة يحفظ مائتي ألف حديث، هل حَنَث؟ فقال:

«لا».

ثم قال أبو زُرْعة: «أحفظ مائتي ألف حديثٍ، كما يحفظ الإنسان: ﴿**قل هو الله أحد**﴾ وفي المذاكرة ثلاثمائة ألف حديث!»[1].

وكان - رحمه الله تعالى - يقول:

«عجبتُ مِمّن يُفْتِي في مسائل الطّلاق، يَحْفَظُ أَقَلّ من مائة أَلْفِ حديث!!»[2].

قلت: لا يتم حفظ الأربعين النووية، ويتصدّر - اليوم - للإفتاء، ويتطاول على كبار العلماء.

شخصياتٌ مُؤْذِية، وأحوال مُرْدِية.

شَـــعْوذَةَ تَخْطُــــر في حِجلـــين وفِتْــنَة تَمْشـــي عـــلى رِجْلَــيْن

□ **الإمام يَحْيى بن عُمَر:** «أنفق في طلب العلم ستة آلاف دينار!!»:

شيخ المالكية، أبو زكريا، الأندلسي الفقيه.

قال أبو بكر بن اللّباد: كان من أهل الصّيام والقيام، مُجَابَ الدُّعاء، كانت له براهين.

وقال محمد بن حارب: «كان مُتَقَدِّمًا في الْحِفْظ».

وقال يحيى الكناش: «أنفق يحيى بن عُمر في طلب العلم سِتّة آلاف دينار!»[3].

---

(١) «السير» (١٣/٦٨).

(٢) نفس المرجع.

(٣) نفس المرجع (١٣/٤٦٣).

- **الحافظ ابن خِراش:** «شَرِبَ بَوْلَه في طَلَب العِلْم!!»:

هو: الحافظ، الناقد، البارع، أبو محمد، عبد الرحمن بن يوسف بن سعيد بن خراش، الْمَرْوَزي ثم البغدادي.

قال أبو نُعيم بن عَدِي: «ما رأيتُ أَحَدًا أحفظ من ابن خراش».

وقال بكر بن محمد: سمعته يقول: «شَرِبْتُ بَوْلِي في هَذَا الشأن - يعني الحديث - خَمْسَ مرّات!!»[1].

قلت: لِبُعد الأسْفَار، وانقطاع الزّاد.

فَقُـلْ لِمُـرَجِّي مَعَـالِي الأمـور بغـير اجـتهادٍ رَجَـوْتَ الْمُحَـالا

- **الإمام عبد الله بن المبارك:** «آية في طلب العلم»:

قال - رحمه الله تعالى - عن نفسه:

«حَمَلْتُ العِلْمَ عن أربعةِ آلاف شيخ، فَرَوَيْتُ عن أَلْفِ شيخ!!».

وقال عند الإمام أحمد:

«لم يكن أحد في زمان ابن المبارك أَطْلَبَ لِلْعِلْم منه».

تاسعًا: عُلُوّ همتهم في التَّصْنِيف:

- **الإمام الْجُرْجاني:** «يكتب تسعين وَرَقة في الليلة!»:

هو: الإمام، الجوّال، أبو إسحاق، إسماعيل بن زيد الْجُرْجَاني الحافظ.

قال أبو أحمدَ بْنُ عَدِي: «كان إسماعيل هذا يكتب في الليلة تسعين وَرَقَةً، بِخَطٍّ دَقِيق!».

قال الإمام الذهبيّ - رحمه الله -:

«قلت: هذا كان يمكنه أن يكتب «صحيح مسلم» في أسبوع!» ا.هـ[2].

---

(١) «السير» (١٣/٥٠٩).

(٢) «السّير» (١٣/٥٤).

أخي الكريم:

هذه بعض أحوال وأقوال أصحاب الهمم العالية، فاسلك طريقهم، واستعن بالله ولا تعجز.

وإيّاك وَقُطّاع الطريق. وليكن شعارك أبدًا:

وَمَــنْ يَتَهَيَّــب صُــعودَ الجِــبالِ ... يَعِــشْ أَبَــدَ الدَّهْــر بَــيْنَ الْحُفَــرِ



١٨- التَّوَسُّل

اعلم: أنّ مسألة «التوسّل» من المسائل التي اختلف فيها الناسُ اختلافًا كبيرًا، بين مُحَلِّل ومحرِّم، ومُغالٍ ومُتَساهل.

ولبيان الحَقّ في هذه «المسألة»، فالحديث على السُّطور التالية يدور حول ثلاثة أمور:

الأول: معنى التوسل.

والثاني: الحث عليه من الكتاب والسنة.

والثالث: أقسامه.

واللّهُ الموفّق، لا إله غيره، ولا رب سواه.

أوّلاً، معنى التوسُّل:

التوسّل: «**لُغَةً**»: قال ابن فارس: الواو والسِّين واللام أَصْلٌ له معنيان مُتباينان جِدًّا:

الأوّلُ: الرّغبة والطّلب، يقال: وسل إذا رغب، والواسل: الراغب إلى الله - ﷻ - وهو في قول لَبيد:

أرى الـنّاسَ لا يَـدْرون ما قَدْر أَمْرِهمْ ... بـل كُـلُّ ذِي دِيـنٍ إلى الله وَاسِـلُ

ومن ذلك القياس الوسيلة.

والآخرُ: السَّرِقَة[1].

والوسيلة: مما يُتَقرّبُ به إلى الغَيْر، والجَمْعُ الْوُسُلُ والوسَائِلُ، والتَّوسُّلُ واحد، يُقال: وَسَّل فلانٌ إلى رَبِّه وسيلةً، وتوسَّل إليه بوسيلةٍ، أي: تَقَرّب إليه بِعَمل[2].

---

(١) «مقاييس اللغة» (٦/١١٠).

(٢) «الصّحاح» (٥/١٨٤١).

و«**اصطلاحًا**»: قال الرّاغبُ: «الوسيلةُ: التَّوصُّلُ إلى الشّيء بِرَغْبةٍ، وهي أخصُّ من الْوَصِيلة لتضمنُّها مَعنى الرَّغْبة».

وحقيقة الوسيلة إلى الله تعالى مُرَاعاةُ سَبِيله بالعلمِ والعبادةِ وَتَحرِّي مكارم الشَّريعة» ا.هـ[1].

ثانيًا: الحثُّ على الوسيلة من الكتاب والسّنة:

جاء الحث على الوسيلة والأَمْرِ بها في القرآن والسُّنّة المطهرة:

فمن القرآن:

(١) قال اللّهُ تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَـٰهِدُواْ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [المائدة: ٣٥].

قال الإمامُ ابن تيمية - رحمه الله تعالى -:

«الوسيلة التي أَمَر اللّهُ - تعالى - أن تُبْتَغي إليه، وأخبر عن ملائكته وأنبيائه أنهم يبتغونها إليه[2]: هي ما يُتقرّب به إليه من الواجبات والْمُسْتَحبّات» ا.هـ[3].

(٢) وقال تعالى: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ [الإسراء: ٥٧].

قال الإمام ابْنُ القيم - رحمه الله - في تفسير لهذه الآية:

«ذكر الله - تعالى - في هذه الآية المقامات الثلاثة: الحبُّ وهو ابتغاء القُرب إليه، والتوسّل إليه بالأعمال الصّالحة، والرّجاء والخوف» ا.هـ[4].

---

(١) «المفردات» (٥٢٣، ٥٢٤).

(٢) كما في الآية التالية.

(٣) «مجموع الفتاوى» (١/١٩٩).

(٤) «فتح المجيد شرح كتاب التوحيد» (٩٩).

ومن السُّنة:

(١) عن مِحْجَنِ بْنِ الأَدْرَعِ الأَسْلَميِّ ﷺ قال: إن رسولَ اللّه ﷺ، دخل المسجد إذا رجلٌ قد قَضَى صَلاته وهو يَتَشَهَّدُ. فقال:

«اللّهم إني أسالُك يا الله بأنّك الواحدُ الأحَدُ الصّمدُ الذي لم يَلد ولم يولد ولم يكن له كُفُوًا أحد أن تغفر لي ذُنوبي إنّك أنتَ الغفور الرّحيم»، فقال رسولُ الله ﷺ: «**قَدْ غُفِر له**» - ثلاثًا -[١].

(٢) وعن جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - قال:

قال رسولُ ﷺ :

«**مَنْ قال حين يسمعُ النّداء: اللّهم رَبَّ هذه الدعوة التّامة والصّلاة القائمة آت محمدًا الوسيلةَ والفَضيلة وابْعَثْه مَقامًا محمودًا الذي وعدته. حَلَّتْ له شَفاعتي يَوْمَ القيامة**»[٢].

والأحاديث في هذا المقام كثيرة، وسيأتي المزيد منها بعد قليل إن شاء الله تعالى.

ثالثًا: أقسامُ التّوسُّل:

اعلم: أن التوسّل قسمان:

القسم الأول: توسّل مشروع: وهو أنواع:

الأوّل: التوسّل إلى الله تعالى بأسمائه وصفاته: كما أمر الله تعالى بذلك في قوله:

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

والمعنى: ادعوا الله تعالى متوسّلين إليه بأسمائه الحسنى.

والدليل على مشروعية هذا النوع من السُّنة ما وَرَد في الحديث التالي:

---

(١) صحيح: رواه النسائي (٣/٥٢)، وصحّحه الألباني.

(٢) رواه البخاري (٦١٤).

عن أنس رضي الله عنه قال:

كنتُ مع رسول الله ﷺ جالسًا ورجلٌ قائم يُصلّي، فلمّا ركع وسَجَد وتشهَّدَ دَعَا، فقال في دُعائه:

« اللّهم إني أسألُك بأن لَكَ الْحَمْد لا إله إلا أنت المَنانُ بَديعُ السّموات والأرضِ يا ذا الْجَلال والإكْرام، يا حيُّ يا قَيّومُ إنّي أسألُك » فقال النبيُّ ﷺ لأصحابه:

« **تَدْرونَ بِمَا دَعَا؟** ».

قالوا: الله ورسولهُ أعلم.

قال: « **والذي نفسي بيده لقد دعا باسْمِه العظيم، الذي إذا دُعِي به أَجَاب، وإذا سُئِل به أَعْطى** » [1].

والنوع الثاني: التوسّل إلى الله تعالى بالإيمان والأعمال الصالحة التي قام بها المتوسِّل: كما قال تعالى عن أهل الإيمان:

﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴾ [آل عمران: ١٩٣].

وكما في حديث الثلاثة أصحاب الغار، ونصّه:

عن ابن عُمرَ، قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول:

« **انطلق ثلاثةُ نَفرٍ ممّن كان قَبْلكم، حتى آواهم الْمَبيتُ، إلى غار فَدَخَلُوه، فانْحَدَرتْ صَخْرةٌ من الجَبَل فَسَدَّتْ عليهم الغَارَ؛ فقالوا: إنّه لا يُنْجيكُم مِنْ هَذه الصَّخْرَةِ إلاّ أن تدعوا الله بِصَالِح أَعْمَالكم.**

قال رجلٌ منهم: اللّهم كان لي أَبَوان، شَيْخَانِ كَبِيران، وكنتُ لا أَغْبقُ[2] قَبْلَهُما أَهْلاً ولا مَالاً. فَنَأى[3] بي طَلَبُ الشَّجَر، فلم أَرُحْ عليهما حتى ناما، فَحَلَبْتُ لهما غَبُوقَهُما،

---

(١) **صحيح** : انظر: « صحيح سنن النسائي » (١٢٣٣).

(٢) **أغبق** : أي: لا أقدّم في الشرب قبلهما أهلاً ولا مالاً من رقيق وخادم. والغبوق: شُرب العشي.

(٣) **نأى** : بَعُد.

فوجدتُهما نائمَيْن، فكرهتُ أن أُوقظَهُما، وأَنْ أَغْبِقَ قَبْلَهما أَهْلاً أو مَالاً، فَلَبثتُ - والقَدَحُ على يَدَيَّ - أنتظرُ اْستيقاظَهُما حتى بَرَق الفَجْرُ، والصِّبْيَةُ يَتَضَاغَوْن[1] عند قَدميَّ، فاسْتَيْقَظا، فَشَرِبَا غَبُوقَهُما. اللَّهُمّ إن كنتُ فعلتُ ذلك اْبتغاء وَجْهك، فَفَرِّجْ عَنَّا ما نحن فيه مِنْ هَذه الصَّخْرة. فاْنفَرجَتْ شَيْئًا لا يَسْتَطيعونَ الْخروجَ مِنْهُ.

قال الآخَرُ: اللَّهُمّ إنّه كانت لي ابنةُ عَمٍّ، كانت أَحَبَّ النّاسِ إليَّ - وفي رواية - كنتُ أُحبُّها كأشد ما يُحبّ الرّجالُ النّساء، فأردتُها على نَفْسها فامْتَنَعتْ مِنِّي حتى أَلَمَّتْ بها سَنَةٌ[2] من السِّنين، فجاءتْني فأعَطيتُها عِشْرين ومائةَ دِينارٍ، على أن تُخَلّي بيني وبين نَفْسها فَفَعَلَتْ، حتى إذا قَدَرْتُ عليها - وفي رواية - فَلَمّا قَعدتُ بَيْن رِجْلَيْها - قالت: اتّق الله، ولا تَفُضَّ الخَاتَمَ إلاّ بَحقّه[3]، فانْصَرفتُ عنها وهي أحَبُّ النّاس إليَّ، وتركتُ الذَّهَبَ الّذي أعْطَيْتُها. اللَّهُمّ إن كُنْتُ فَعَلْتُ ذلك ابتغاءَ وَجْهك، فافْرُجْ عَنّا ما نَحْنُ فِيه. فانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ غَيْر أَنّهم لا يستطيعون الخُروج منها.

وقال الثّالثُ: اللهمّ اْستأجَرْتُ أُجَرَاءَ، وأعطَيْتُهم أجْرَهُمْ غَيْر رَجُلٍ وَاحدٍ، تَرَك الّذي له وَذَهَبَ، فَثَمَّرْتُ أَجْرَهُ حتى كَثُرَتْ مِنْهُ الأمْوَالُ، فجاءَنِي بَعْد حِينٍ، فقال: يا عَبْدَ الله أَدِّ إليَّ أَجْري، فقلتُ: كُلُّ مَا تَرَى مِنْ أَجْرِك مِن الإبل والْبَقرِ والغنم والرَّقيق. فقال: يا عَبْدَ الله لا تَسْتَهْزِئْ بِي. فقلتُ: لا أَسْتَهزِئ بكَ، فَأَخَذه كُلَّهُ، فاْستَاقَه فَلَمْ يَتْرِكْ مِنْهُ شيئًا، اللَّهُمّ إن كُنْتُ فَعلتُ ذلك ابتغاءَ وَجْهِك فافْرجَ عَنّا ما نحنُ فِيه، فَانْفرجت الصَّخْرَةُ، فَخَرجُوا يَمْشُون»[4].

النوع الثالث: التوسُّل إلى الله تعالى بِتَوْحيده: كما توسّل يونسُ ﵇:

﴿ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

وقد تقدّم حديث مِحْجَن بن الأدْرع الأسْلمي قريبًا.

---

(١) يتضاغون يصيحون من الجوع.

(٢) ألمت بها سنة؛ أي: نزل بها فاقة وفقر وحاجة.

(٣) لا تفض الخاتم كناية عن الفرج وعذرة البكارة، أي: لا تزل عفافي إلاّ بالزّواج.

(٤) رواه البخاري (٣٤٦٥)، ومسلم (٢٧٤٣).

النوع الرابع: التوسّل إلى الله تعالى بإظهار الضَّعْف والحاجة والافتقار إلى الله تعالى: كما قال أيوب عليه السلام:

﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٣].

النوع الخامس: التوسُّل إلى الله – تعالى – بدعاء الصّالحين الأحياء:

«كأن يقع المسلم في ضيق شديد، أو تحلّ به مصيبة كبيرة، ويعلم من نفسه التفريط في جنب الله – تعالى – فيُحب أن يأخذ بسبب قويّ إلى الله، فيذهب إلى رجل يعتقد فيه الصّلاح والتقوى، فيطلب منه أن يدعو له ربّه، ليفرّج عنه كربه، ويزيل عنه همّه، فهذا من التوسّل المشروع، دلّتْ عليه الشّريعةُ المطهّرة، وأرشدتْ إليه، وقد وردت أَمْثلة من السُّنّة الشريفة، كما وقعت نماذج منه من فعل الصّحابة الكرام» [(١)].

فمن ذلك:

- عن عائشة – رضي الله عنها – قالت:

شَكا النّاسُ إلى رسول الله ﷺ ، قُحُوط الْمَطَر، فَأَمَر بمنبر، فَوُضع له في الْمُصَلّى وَوَعَد النّاس يَوْمًا يَخرجُون فيه، قالت عائشةُ: فخرج رسولُ الله ﷺ حين بَدَا حَاجبُ الشّمس[(٢)]، فَقَعَد على المنبر، فكَبَّر ﷺ وَحَمدَ الله – ﷻ – ثم قال:

«**إنّكم شَكَوْتُمْ جَدْبَ دِيَارِكم واسْتئخَارَ الْمَطَر عن إبَّانِ زَمَانه عنكم، وقد أمَركم اللّهُ أن تَدْعوه وَوَعَدَكم أن يَسْتَجِيب لكم**» ثم قال:

«**الحمدُ لله رَبّ العالمين. الرّحمن الرحيم . مَالك يوم الدين، لا إله إلاّ الله يَفْعَلُ ما يريد. اللّهم أنْتَ الله لا إله إلا أنت الغَنِيُّ ونحنُ الفقراءُ، أنزلْ علينا الغَيْثَ، واْجعَلْ ما أنزلتَ لنا قُوّةً وَبَلاغًا إلى حِين**»، قالت:

ثم رفع يديه فلم يزل في الرَّفع حتى بَدَا بياضُ إبطيْه، ثم حوّل إلى النّاسِ ظَهْره، وَقَلبَ أو حَوَّل رداءَه، وهو رافع يديه، ثم أقبلَ على الناس، ونزل فَصَلّى ركعتين فأنْشأَ اللّهُ

---

(١) «التوسّل. أنواعه وأحكامه» للشيخ الألباني (٤١). تنسيق/ محمد عيد العبّاسي.

(٢) : ظهر.

سحابةً فَرَعدتْ وَبَرقَت، ثم أَمْطَرَتْ بإذن الله، فلم يأت مَسْجده حتى سَالت السّيولُ، فلمّا رأى سُرعَتَهم إلى الكنِّ[١]، ضَحِكَ ﷺ حتى بَدَت نَواجذُه، فقال:

« **أشْهَدُ أنّ الله على كلّ شيء قدير، وأنّي عَبْدُ الله ورسولُه** »[٢].

□ وعن أنس رضي الله عنه : أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا قَحَطُوا اسْتَسْقى بالعباس بْن عبد المطلب فقال:

« اللّهم إنا كنّا نتوسّلُ إليك بنبيِّنا فَتَسْقِينا، وإنّا نَتوسَّلُ إليك بِعَمّ نبيِّنا فاسْقنا ». قال: « فَيُسْقَوْن »[٣].

□ وقال سُليم بن عامر الخبائريّ - رحمه الله - :

« إن السّماء قَحطَتْ، فخرج « معاويةُ بْنُ أبي سفيان » وأهلُ الشّام يَسْتَقُونَ فلمّا قعد « معاويةُ » على الْمنبَر، قال: أين يزيدُ بْنُ الأسْود الْجُرَشيُّ[٤]؟ فناداه الناسُ، فأقبل يَتَخَطّى النّاسَ، فأمره معاويةُ[٥] فَصَعد الْمِنبَر، فَقَعد عند رِجْلَيْه، فقال معاويةُ:

« اللّهمّ إنا نَسْتَشْفِعُ إلَيْك الْيَومَ بِخَيْرنا وأَفْضَلنا، اللّهمَّ إنا نَسْتَشْفِعُ إليك اليوم بيَزيد ابْنِ الأسودِ الجرشيّ، يا يزيدُ، ارفَعْ يَدَيْك إلى الله »، فرفع يديه، ورفع النّاسُ أيديَهم، فما كان أَوْشَكَ أن ثارت سَحَابةٌ في الْغَرْب كأنها تُرْسٌ، وَهَبّتْ لها ريحٌ فَسَقَتْنا، حتى كان النّاسُ أن لا يَبْلُغوا مَنَازِلهم »[٦].

قال الإمام ابْنُ تيمية - رحمه الله - :

« لفظُ التوسّل يُراد به ثلاثةُ مَعان:

---

(١) **الكنّ**: ما يردّ به الحرّ والبرد من المساكن وفي « القاموس »: الكن: وقاء كُلّ شَيءٍ وستره.

(٢) **إسناده جيد**: رواه أبو داود (١١٧٠)، وقال: هذا حديث غريب إسناده جيد، ورواه الحاكم، وقال: صحيح على شرط الشيخين، وصحّحه ابن السكن والألباني.

(٣) رواه البخاري (١٠١٠).

(٤) من خيار التابعين، راجع ترجمته في كتابنا « صور ومواقف من حياة التابعين » ط. المكتبة التوفيقية.

(٥) وفي رواية أنه قال له: « قُمْ يا بَكّاء ».

(٦) **صحيح**: رواه ابن عساكر في « تاريخه » (١/١٥١/١٨) وصحّحه الحافظ ابن حجر في « الإصابة » (٦٣٤/٣)، والألباني في « التوسل » (٤٥).

أحدها: التوسّل بطاعة النبيّ ﷺ فهذا فَرْضٌ لا يتمّ الإيمانُ إلاّ به.

والثاني: التوسّل بدعائه وشفاعته، وهذا كان في حياته، ويكون يوم القيامة يتوسّلون بشفاعته.

الثالث: التوسُّل به بمعنى الإقسام على الله بذاته ﷺ، فهذا هو الذي لم تكن الصّحابة يفعلونه في الاستسقاء ونحوه لا في حياته، ولا بعد مماته، لا عند قبره ولا غير قبره ولا يُعرف هذا في شيء من الأدعية المشهورة بينهم، وإنما يُنقل شيءٌ من ذلك في أحاديث ضعيفة مرفوعةٍ وموقوفة، أو عن من ليس قوله حُجَّة. وهذا هو الذي قاله أبو حنيفة وأصحابه : إنّه لا يجوز ونحوا عنه حيث قالوا:

« لا يُسْأل مخلوق ».

وقال القُدُريُّ: المسألة بِخَلْقه لا تجوز؛ لأنه لا حقّ لِلخَلْق على الخالق فلا تجوز وِفَاقًا» ا.هـ[1].

وقال – أيضًا – : « وأمّا التوسّل بدعائه وشفاعته فهو جائزٌ بإجماع المسلمين، ومنه قولُ عمر بن الخطاب ﷺ: « اللّهم إنا كُنّا إذا أَجْدَبْنا توسّلنا إليك بنبيّنا فَتَسْقِينا، وإنا نتوسّل إليك بِعمٍّ نَبيّنا فاسقنا » ، فإنه توسّل بدعائه لا بذاته، ولهذا عدلوا عن التوسّل به إلى التوسّل بعمّه العباس ولو كان التوسّل هو بذاته لكان هذا أَوْلى من التوسّل بالعباس » ا.هـ[2].

وقال – أيضًا – :

« فإن دعاء الملائكة والأنبياء بعد موتهم وفي مغيبهم وسؤالهم والاستغاثة بهم، والاستشفاع بهم في هذه الحال، ونصب تماثيلهم بمعنى طلب الشفاعة منهم، هو من الدّين الذي لم يشرعه الله ولا ابتعث به رسولاً ولا أنزل به كتابًا وليس هو واجبًا ولا مُستحبًّا

---

(١) « مجموع الفتاوى » (١/٢٠٢، ٢٠٣).

(٢) نفس المرجع (١/٢٠١).

باتفاق المسلمين، ولا فعله أحدٌ من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، ولا أمر به أمامٌ من أئمّة المسلمين، وإن كان ذلك ممّا يفعله كثيرٌ من الناس ممّن له عبادةٌ وزهدٌ، ويذكرون فيه حكايات ومنامات فهذا كلّه من الشيطان.. ومن تَعَبَّدَ بعبادة ليست واجبةً ولا مُستحبّة، وهو يعتقدها واجبة أو مُستحبّة فهو ضال مبتدع باتفاق أئمة الدين .. فلا يقول أحدٌ: يا ملائكة الله اشفعوا لي عند الله سلوا الله أن يرزقنا أو ينصرنا أو يهدينا.. ولا يكتب أحدٌ ورقة ويعلّقها عند القبور» ا.هـ[1].

النوع السادس: التوسُّل إلى الله بالاعتراف بالذّنْب: كما حكى القرآن عن موسى عليه السلام:

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي ﴾ [القصص: ١٦].

القسم الثاني: توسّل غير مشروع:

وهوالتوسّل بطلب الدعاء والشفاعة من الأموات، والتوسّل بجاه النبيّ ﷺ ، والتوسّل بذوات المخلوقين أوحقهم.

- **أما طلب الدعاء من الأموات:** فإنه لا يجوز - وقد تقدم قول الإمام ابن تيمية آنفًا- وكذلك فِعْلُ عمر رضي الله عنه.

وما يفعله بعض الضُّلال من قصد القبور، والتمسّح بها، والتمرّغ على أعتابها، والانكسار عندها، والطواف حولها، ودعاء أهلها، فهذا من الشّرك البيِّن، وقد قال النبيّ ﷺ في الحديث «الصحيح»:

«**اللّهم لا تَجْعَلْ قَبْري بعدي وَثَنًا يُعْبد**».

ولقد رأينا أقوامًا يقصدون قبورًا مجهولة، لا يُعرف من أصحابها، فيجأرون عندها بالشكوى!

ورحم اللّهُ من قال: «كم من ضريح يُزار، وصاحبه في النار».

---

(١) نفس المرجع (١٦١/١).

- وأمّا التوسّل بجاه النّبيّ ﷺ: فلا يجوز - أيضًا - وحديث:

« **إذا سألتم الله فاسألوه بجاهي، فإن جاهي عند الله عظيم** » حديث مكذوب.

- وأمّا التوسّل بذات المخلوقات: فلا يجوز - أيضًا - وقد تقدم قول ابن تيمية - رحمه الله - في ذلك.

وكذلك التوسّل بحق المخلوقين لا يجوز - كما مَرَّ مَعَنا - وأمّا الحديث الذي فيه: « **أسألك بحَقِّ السّائلين** » فهو حديث لم يثبت لأن في إسناده « عطية العوفي » وهو ضعيف مجمع على ضعفه[1].

أخي الكريم:

هذا هو الحدّ الفاصل بين الحق والباطل، فالزم طريق الْهُدَى، ولا يَضرّك قِلّةُ السّالكين.

« اللّهم أَرِنا الحقَّ حقًّا وارزقنا اتّباعه، وأَرِنا الباطلَ بَاطلاً وارْزُقْنا اجتنابه، ولا تجعله مُلْتَبِسًا علينا فَنَضِلّ ».

۞۞۞۞۞

(١) راجع « كتاب التوحيد » للدكتور/ صالح بن الفوزان (٦٨- ٧١).

١٩- تَعلُّق القَلْبِ بالْمَساجِدِ

المساجد: هذه البقاع الأرضية التي تنضرها السماء، وترف عليها الملائكة على تعاقب الجديدين واختلاف الملوَيْن[1] بأجنحة من نور..

هذه الأماكن المقدسة التي تشهد تربتها كلّ يوم خمس مرات هذه الجباه الساجدة الضّارعة لبارئها، وهذه الأصلاب الراكعة المنحنية على التسبيح لخالقها ﷻ...

وهذه المساجد بمآذنها السّامقة رَمْزًا لعلوّ هامة المسلم وشموخه على الزّمان والمكان...

هذه المهابط لرحمة اللّه ورضوانه على ظهر هذا الكوكب الذي نَتِنَت أَجْواؤه بخطايا البشرية.

هذه المساجد التي يُهرع إليها من مادّية الزّمان والمكان، ويجد المسلمُ السكينة والطمأنينة بين رحابها.

من هذه المساجد ينطلق نشيد السماء العلويّ المقدّس «**الله أكبر**».

هذا النداء الذي تتجاوب أصداؤه بين الجوارح المؤمنة فتهتزّ له حبّات القلوب الخاشعة مع كل صلاة، بل مع كل خفقة من خفقات الأفئدة.

«**الله أكبر**» نداء المساجد من فوق هامات المآذن حين تُصبح، وحين تُظهر، وحين تُمسى.

هنا في المسجد تلمس الروح معاني كلام الله، يفيض عليها بمثل النّدى، فإذا هي ترف رفيفًا، وإذا هي كالزّهرة التي مَسَّها الطَّلُّ.

هنا في المسجد يتلقّى القلبُ الآيات والعظات كقلب الشجرة يتناول الماء ويكسوها منه.

---

(١) **الملوين**: الليل والنهار.

هنا يَهْتَزّ المكان والزّمان، كأنّما مُحيت الدّنيا التي في الخارج من المسجد وبطل باطنها فلم يَبْقَ على الأرض إلاّ الإنسانية الطّاهرة ومكان العبادة ، وهذه هي معجزة الرّوح متى كان الإنسان في لذّة رُوحه مُرْتفعًا على طبيعته الأرضية.

هنا السّموات تبدو قُرْب طَالبها هنا الرِّحاب فَضَاء حين يلتمس
هنا الطّهارة تَحْيَا في أماكنها لا الطِّيب يَبْلى ولا الأصداء تَنْدرس[1]

- قال ﷺ: «**أحَبّ البلاد إلى الله مَسَاجدها، وأبغض البلاد إلى الله أسواقها**»[2].
- وقال ﷺ: «**خَيْرُ الْبِقَاعِ الْمَسَاجِد، وشَرُّ الْبِقَاع الأَسْوَاق**»[3].
- وقال ﷺ: «**المسجدُ بَيْتُ كُلِّ تَقِيٍّ**»[4].

أخي الكريم

ولأهمية المسجد في الإسلام، فالحديث على السطور التالية يدور حول:

الأول: تعريف المسجد:

والثاني: فضل المساجد.

والثالث: فضل بنائها.

والرابع: آداب المشي إليها.

والخامس: أحكامها.

والسادس: تعلّق الصّالحين بها.

ومن الله - تعالى - العون والتوفيق.

---

(١) «من يظلّهم الله» د. سيد العفاني (١/٣١٢- ٣١٤) باختصار شديد.

(٢) رواه مسلم وغيره.

(٣) حسن رواه الطبراني في «الكبير» والحاكم في «المستدرك» ، وانظر: «صحيح الجامع» (٣٢٦٦).

(٤) حسن رواه أبو نعيم في «الحلية» ، وانظر: «صحيح الجامع» (٦٥٧٨).

أوّلاً: تعريف المسجد:

المسجد «**لغة**»: الموضع الذي يسجد فيه، ثم اتسع المعنى إلى البيت المتّخذ لاجتماع المسلمين لأداء الصّلاة فيه.

و «**اصطلاحًا**»: المكان الذي أُعدّ للصّلاة فيه على الدّوام[(١)]، وأصل المسجد شرعًا: كلّ مَوْضعٍ من الأَرْض يُسْجَد لِلّه فيه[(٢)]، لحديث جابر ﷺ عن النبيّ ﷺ: «... **وَجُعلتْ لي الأَرْضُ مَسْجِدًا وطهورًا، فأيُّما رجل من أُمَّتي أدركته الصّلاة، فَلْيُصَلِّ**» [(٣)].

قال الإمام النووي - رحمه الله تعالى - :

«فيه جواز الصّلاة في جميع المواضع إلاّ ما استثناه الشرع من الصّلاة: في المقابر، وغيرها من المواضع التي فيها نجاسة: كالمزبلة، والمجزرة، وكذا ما نُهِيَ عنه لمعنى آخر: فَمِنْ ذلك: أعطان الإبل، ... ومنه: قارعة الطريق، والحمَّام، وغيرها، لحديث وَرَدَ فيها» ا.هـ[(٤)].

أمّا الجامع: فهو نعت للمسجد، سُمِّي بذلك، لأنه يجمع أهله؛ ولأنه علامة للاجتماع.

ثانيًا: فضل المساجد:

تقدّم - قَبْل قليل - شيءٌ من فضلها، وإليك المزيد:

(١) قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ﴾ (الآية) [التوبة: ١٨].

(٢) وقال تعالى: ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾ [الجن: ١٨].

ففي هذه الآية، والتي سبقتها، أضاف اللّهُ - تعالى - المساجدَ إلى نَفْسه إضافة

---

(١) «معجم لغة الفقهاء» للأستاذ الدكتور/ محمد روّاس (٣٩٧).

(٢) «إعلام الساجد بأحكام المساجد» للزركشي (٢٧).

(٣) رواه البخاري ومسلم.

(٤) «صحيح مسلم بشرح النووي» (٥/٥).

تشريف وتكريم.

«مع أن جميع البقاع وما فيها مِلْكٌ لله ﷻ، فهو خالق كُلّ شيء ومالكه، ولكن المساجد لها ميزة وشرف؛ لأنها تختصّ بكثير من العبادات والطاعات، والقربات، فليست المساجد لأحد سوى الله، كما أن العبادة التي كلّف الله بها عباده لا يجوز أن تُصرف لأحد سواه» [1].

(٣) وقال تعالى: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴾ [الحج: ٤٠].

فالجهاد شُرع لإعلاء كلمة الله، والمساجد هي أفضل البقاع التي ترفع فيها كلمة التوحيد، وتؤدّى فيها أعظم الفرائض بعد الشهادتين، ولهذا كان الدفاع عنها واجبًا على المسلمين.

(٤) ولعظم فضل المساجد جعل الله ﷻ من أقبح القبائح، وأعظم الظّلم المنع من عمارتها، فقال ﷻ:

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ﴾ [البقرة: ١١٤].

(٥) وقال ﷺ: «**ما اجتمع قَوْمٌ في بيت من بيوت الله، يتلون كتابَ الله، ويتدارسونه بينهم إلاّ نزلَت عليهم السّكينة، وغشيتهم الرّحْمَة، وذكرهم اللّهُ فيمن عنده**» [2].

ثالثًا: فضل بناء المساجد:

ورد في فضل بناء المساجد أحاديث كثيرة، منها:

(١) عن عليّ ﵁ قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«**مَنْ بَنَى لِلّه مَسْجِدًا، بنى اللّهُ له بَيْتًا في الجنَّة**» [3].

---

(١) «المشروع والممنوع في المسجد» للشيخ/ محمد بن علي العرفج (٦).

(٢) رواه مسلم (٢٦٩٩).

(٣) صحيح: رواه ابن ماجة، وانظر: «صحيح الجامع» (٦١٢٧).

(٢) وعن أنس ﷺ قال:

قال رسول الله ﷺ :

«سَبْعٌ يَجْرِى لِلْعَبدِ أَجْرهُنّ وهو في قَبْره بعد مَوْته: من عَلّم عِلْمًا، أو أَجْرى نَهَرًا، أو حَفَر بئرًا، أو غَرَس نَخْلاً، أو بَنى مَسْجدًا، أو ورّث مُصْحَفًا، أو ترك وَلَدًا يستغفر له بعد موته» [1].

والأحاديث في هذا المعنى - كما ذكرتُ - كثيرة.

رابعًا: فضل وآداب المشي إليها:

اعلم - أخي الكريم - أن للمشي إلى المساجد فضائل وآداب:

فمن فضائل المشي إلى المساجد:

(١) عن عقبة بن عامر ﷺ عن النبيّ ﷺ قال:

«إذا تطهّر الرّجُلُ، ثم أَتَى الْمَسْجد يَرْعَى الصَّلاةَ، كَتَب له كاتبَاه أو كَاتِبُهُ بِكلّ خَطْوةٍ يَخْطُوها إلى المسجد عَشْرَ حَسَناتٍ، والقاعدُ يَرْعَى الصَّلاة كَالْقَانت[2]، ويُكْتَبُ من الْمُصَلِّين مِنْ حين يَخْرُجُ مِنْ بَيْتِه حَتّى يَرْجِعَ إِلَيْه» [3].

(٢) وعن عثمان ﷺ أنه قال:

سمعتُ رسول الله ﷺ يقول:

«مَنْ تَوضَّأ فأسْبَغَ الوضوء، ثُمّ مَشَى إلى صَلاةٍ مكْتُوبةٍ فَصَلاَّها مع الإمام، غُفِر له ذَنْبُهُ» [4].

---

(١) **حسن**: رواه البزّار، وانظر: «صحيح الجامع» (٣٦٠٢).

(٢) المراد بالقنوت — هنا - : القيام في الصّلاة.

(٣) **صحيح**: رواه أحمد، وأبو يعلى، وغيرهما، وانظر: «صحيح الراغب» (٢٩٧).

(٤) **صحيح**: رواه ابن خزيمة، وانظر: «صحيح الترغيب» (٢٩٩).

(٣) وعن أبي هريرة - ﷺ - قال:

قال رسول الله ﷺ:

« لا يَتوضأُ أحدُكم فَيُحْسِنُ وَضُوءَه فَيُسْبِغُهُ، ثم يأتي الْمَسْجِدَ لا يُريدُ إلاّ الصَّلاة إلاّ تَبَشْبَشَ اللّهُ إليه كما يَتَبَشْبَشُ أَهْلُ الغَائِب بِطَلْعته » (١).

فهل هناك شَرَف يُداني هذا الشَّرف؟

(٤) وعن عليّ بن أبي طالب ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:

« إسْبَاغُ الوضوء في الْمَكَارِه، وإعْمَالُ الأقْدَامِ إلى المساجد، وانتظارُ الصّلاة بعد الصلاة. تَغْسِلُ الخَطَايا غَسْلاً » (٢).

(٥) وعن أبي هريرة ﷺ أن النبيّ ﷺ قال:

« مَنْ غَدَا إلى المسجدِ، أَوْ رَاحَ، أَعَدَّ اللّهُ له في الجنّة نزلاً كُلَّما غَدَا أَوْ رَاحَ » (٣).

(٦) وعن بريدة ﷺ عن النبيّ ﷺ قال:

« بَشِّر المشّائين في الظُّلَم إلى المساجد بالنّور التّامّ يَوْمَ القيامة » (٤).

(٧) وعن أبي أُمامة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:

« مَنْ خَرَجَ مِنْ بَيْته مُتَطهِّرًا إلى صَلاة مَكتوبة، فَأَجْرُه كأجْرِ الحَاجِّ الْمُحْرِم، وَمَنْ خرج إلى تَسْبيح الضُّحَى لا يَنْصِبُهُ(٥) إلا إيَّاهُ فَأَجْرُه كَأَجْرِ الْمُعْتَمِر، وصَلاَةٌ على إثْر صَلاَةٍ لا لَغْوَ بَيْنَهُما كِتَابٌ في عِلِّيِّين » (٦).

---

(١) **صحيح**: رواه ابن خزيمة في «صحيحه»، وانظر: «صحيح الترغيب» (٣٠١).

(٢) **صحيح**: رواه أبو يعلى والبزار، وصحّحه المنذريّ والألبانيّ.

(٣) رواه البخاري (٦٦٢)، ومسلم (٦٦٩).

(٤) **صحيح**: رواه أبو داود، والترمذي، وانظر: «صحيح الترغيب» (٣١٣).

(٥) **لا ينصبه**: أي: لا يتعبه، ولا يزعجه: إلاّ ذلك.

(٦) **حسن**: رواه أبو داود، وانظر: «صحيح الترغيب» (٣١٨).

(٨) وعنه ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:

«ثلاثةٌ كُلُّهُمْ ضَامِنٌ على الله، إن عاشَ رُزِقَ وكُفِي، وإن ماتَ أَدْخَله اللّهُ الجَنَّة:

مَنْ دَخَل بَيْته فَسَلَّم فهو ضامِنٌ على الله.

وَمَنْ خَرَج إلى المسجدِ فهو ضامِنٌ على الله.

وَمَنْ خرج في سَبيل الله فهو ضَامِنٌ على الله» [1].

(٩) وعن سلمان ﷺ أن النبيّ ﷺ قال:

«مَنْ تَوضَأ في بَيْته فأحْسَن الوُضوء، ثم أتى الْمَسْجِدَ فهو زَائِرُ اللهِ، وَحَقٌّ على الْمَزورِ أنْ يُكْرِم الزَّائِرَ» [2].

هذه بعضُ فضائل المشي إلى المساجد.

أمَا آدابُ المشي إليها، فمنها:

(١) يتوضأ في بيته، ويسبغ الوضوء؛ وقد تقدّم - قريبًا - فضل ذلك.

(٢) يَتجنّب الرّوائح الكريهة والْمُؤْذية؛ لقوله ﷺ :

«مَنْ أَكَل الْبَصَل والثّوْم والكُرّاث، فلا يقربنّ مَسْجِدنا؛ فإنّ الملائكةَ تَتأذّى ممّا يتأذّى منه بنو آدم» [3].

(٣) يَتزَيّن وَيَتجَمّل؛ لقوله تعالى:

﴿ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٍ ﴾ [الأعراف: ٣١].

قال العلاّمة السَّعْدي - رحمه الله - في تفسيره لهذه الآية:

«أي: استروا عوراتكم عند الصّلاة كلّها، فرضها ونفلها، فإن سترها زينة للبدن،

---

(١) صحيح: رواه أبو داود، وابن حبان في «الصحيحة»، وانظر: «صحيح الترغيب» (٣١٩).

(٢) حسن: رواه الطبراني في «الكبير»، وانظر: «صحيح الترغيب» (٣٢٠).

(٣) رواه البخاري (٨٥٥)، ومسلم (٥٦٤).

كما أن كشفها يدع البدن قبيحًا مشوها.

ويحتمل أن المراد بالزّينة هنا فوق ذلك من اللباس النظيف الحسن، ففي هذا الأمر بستر العورة في الصلاة، وباستعمال التجمّل فيها، ونظافة السّترة من الأدناس والأنجاس» ا.هـ[1].

(٤) استحضار النّية، والدّعاء بدُعَاء الْخُرُوج الثّابت؛ ومن الأدعية الواردة:

أ - «بِسْمِ الله، تَوَكَّلتُ على الله، ولا حَوَلَ ولا قُوّة إلا بالله»[2].

ب- «اللّهمّ إنّي أعوذُ بك أن أَضِلّ أو أُضَلّ، أو أزِل أَوْ أُزَلّ، أو أَظْلِم أو أُظْلَم، أو أَجْهَل أو يُجْهَل عليَّ»[3].

جـ- «اللّهُمّ اجْعَل في قَلْبِي نُورًا، وفي لِسَانِي نورًا، وفي سَمْعِي نورًا، وفي بَصَرِي نورًا، وَمِنْ فَوْقِي نُورًا، وَمِنْ تَحْتِي نُورًا، وَعَنْ يَمِني نُورًا، وعن شِمالي نورًا، ومن أمامي نورًا، وَمِنْ خَلْفِي نورًا، واجْعَل في نفسي نورًا، وأعْظِمْ لي نُورًا، وَعَظِّم لي نورًا، واجْعَلْ لي نورًا، واجْعَلْني نورًا، اللّهم أعْطِني نُورًا، واجْعَل في عَصَبِي نورًا، وفي لَحْمِي نورًا، وفي دَمِي نورًا، وفي شَعْرِي نورًا، وفي بَشرِي نُورًا»[4].

(٥) لا يُشَبّك بين أصابعه أثناء سَيْره إلى المسجد؛ لقوله ﷺ:

«إذا تَوَضّأ أحدُكم فأَحْسَن وضوءَه، ثم خرج عامِدًا إلى المسجد فلا يُشَبِّكَنّ بين أصابعه، فإنّه في صلاة»[5].

(٦) يَمْشِي بِسَكِينة وَوَقار؛ لحديث:

«إذا سَمْعتُم الإقامة فامْشُوا إلى الصّلاة وعليكم السَّكِينَة والوقار، ولا تُسْرِعوا، فما أدْرَكْتُم فَصَلّوا، وما فاتكم فَأَتِمّوا»[6].

---

(١) «تفسير السعدي» (٢٨٧).

(٢) صحيح: رواه أبو داود والترمذي.

(٣) صحيح: رواه أبو داود، وابن ماجة، وغيرهما.

(٤) رواه البخاري ومسلم.

(٥) صحيح: رواه الترمذي (٣٨٧)، وصحّحه الألباني.

(٦) رواه البخاري ومسلم.

(٧) يدخل المسجد بالْقَدم الْيُمْنى ويقول:

- « **أعوذ بالله العظيم، وَبِوَجْهِه الكريم، وَسُلْطَانه القديم، مِنَ الشَّيْطَان الرّجيم** » [(١)].
- « **بِسْمِ الله والصّلاة** » [(٢)] « **والسّلامُ على رسول الله، اللّهمّ افْتَح لي أَبْوَابَ رَحْمَتِك، فإذا خَرجَ فَلْيَقُلْ: اللّهمّ إنّي أسألُك مِنْ فَضْلِك** » [(٣)].

(٨) يُصَلّي تَحِيّةَ الْمَسْجد؛ لقوله ﷺ:

« **إذا دَخَل أَحَدُكمَ المسجدَ فلا يَجْلِس حتى يُصَلّي رَكْعَتَيْن** » [(٤)].

وتحية المسجد تؤدّى في جميع الأوقات دون استثناء. قال الإمام ابن تيمية:

« وأرجح الآراء أن التطوّع في أوقات النّهي مكروه، إذا كانت تطوّعًا مُطلقًا، أمّا التي لها سبب فلا نهي في صلاتها وقت النّهْي. وذلك كتحية المسجد، وسنّة الوضوء، وركعتي الطواف، ونحو ذلك » ا.هـ[(٥)].

قلت: والحديث المتقدّم يشهد لهذا الكلام.

(٩) يجتهد في الوصول إلى الصّف الأوّل، دون إيذاء ولا مُزَاحمة؛ لقوله ﷺ:

« **لو يَعْلَمُ الناسُ ما في النّداء والصّف الأوّل ثم لم يجدوا إلاّ أن يَسْتَهموا عليه لاسْتهموا** » [(٦)].

والجلوس ميامن الصفوف أفضل؛ فعن عائشة – رضي الله عنها – قالت:

قال رسولُ الله ﷺ:

« **إنّ الله وملائكته يُصَلّونَ على مَيَامِن الصُّفوف** » [(٧)].

---

(١) صحيح «صحيح سنن أبي داود» (٤٤١).
(٢) حسن أخرجه ابن السُّنّي في «عمل اليوم والليلة» (٨٨)، وحسنه الألباني.
(٣) صحيح رواه مسلم وأبو داود.
(٤) رواه البخاري (٤٤)، ومسلم (٧١٤).
(٥) «التيسير في فقه الإمام ابن تيمية» د. أبو سريع محمد عبد الهادي (٣٠، ٣١).
(٦) رواه البخاري (٦١٥)، ومسلم (٤٣٧).
(٧) حسن رواه أبو داود (٦٧٦)، وغيره.

(١٠) يجلس مُسْتَقْبلاً القِبْلة؛ لحديث:

« إن لكلّ شيءٍ سَيِّدًا، وإن سَيِّد المجالِس قُبَالة القِبْلة » (١).

ولا يخفى أن في استدْبار القِبْلة، واستقبال وجوه المصلين والجالسين إيذاء لهم، وشغل عن الذّكر والصَّلاة.

(١١) يخرج بقدمه اليسرى عند الخروج؛ قال أنس ﷺ: « منَ السُّنَّة إذا دخلتَ المسجد أن تبدأ برِجْلِك الْيُمْنى، وإذا خرجتَ أن تبدأ برْجلكِ الْيُسْرى » (٢).

ويقول: « **بِسْمِ الله والصَّلاة والسَّلام على رسول الله، اللّهم إنِّي أسأَلُك مِنَ فَضْلك** » (٣).

« **اللّهمّ اعْصِمْني من الشَّيْطان الرّجِيم** » (٤).

خامساً: أحكام المساجد:

للمساجد عدّة أحكام، منها:

(١) **تنظيفها وتطييبها:**

وقد ورد في ذلك أحاديث، منها:

أ - **عن سَمُرة بن جندب** ﷺ قال:

« أَمَرنا رَسُولُ الله ﷺ أن نَتَّخذَ الْمَسَاجِد في ديارنا، وَأَمَرنا أن نُنَظِّفَها » (٥).

ب - **عن عائشة** - رضي الله عنها - قالت:

« أَمَرنا رَسُولُ الله ﷺ ببناء المساجد في الدّور، وأن تُنَظَّف وَتُطَيَّب » (٦).

---

(١) قال الهيثمي في « المجمع » (٥٩/٨): رواه الطبراني في « الأوسط » وإسناده حسن.

(٢) أخرجه الحاكم، وقال: « صحيح على شرط مسلم »، ووافقه الذهبي.

(٣) رواه مسلم (١١٣)، وغيره.

(٤) **صحيح**: رواه ابن ماجة (٧٧٣).

(٥) **صحيح**: رواه أحمد والترمذي، وقال: حديث صحيح، وهو كما قال.

(٦) **صحيح**: رواه أحمد والترمذي، وقال: حديث صحيح، وهو كما قال.

جـ - وعن جابر، قال:

أتانا رسولُ الله ﷺ في مسجدنا، وفي يده عُرْجُونٌ، فرأى في قِبْلةِ المسجد نُخَامَةً، فَأَقْبل عليها فَحَتّها بالعُرْجون، ثم قال:

« **أيّكم يُحِبُّ أن يُعْرِضَ اللّهُ عنه؟ إن أحَدَكم إذا قَامَ يُصَلّي، فإنّ الله تعالى قِبَلَ وَجْهِه، فلا يَبْصُقَنّ قِبَلَ وَجْهه، ولا عَنْ يمينه، وَلْيَبْصُق عن يَسَاره تَحْتَ رجْله الْيُسْرى**[1]**، فإن عَجِلَتْ بِه بَادِرَةٌ فَلْيَتْفُلْ بِثَوْبِه هَكَذا** » وَوَضَعَه على فِيهِ، ثم دَلَكَهُ[2].

د - وعن أبي أُمامة ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ :

« **التّفلُ في الْمَسْجِد سَيِّئةٌ، وَدَفْنُهُ حَسَنةٌ** » [3].

هـ - وعن ابن عمر، قال:

أمر رسول الله ﷺ رجلاً يصلّي بالناس الظهر فتفل في القبلة، وهو يصلي للناس، فلمّا كانت صلاة العصر أرسل إلى آخر، فأشفق الرجل الأول، فجاء إلى النبيّ ﷺ فقال:

يا رسول الله أأنزل فيَّ شيء؟

قال: « **لا، ولكنّك تَفَلْتَ بَيْن يَدَيْك وأنْتَ قائم تَؤُمُّ النّاس، فَآذَيْت الله والملائكة** » [4].

(٢) التخلّص من الروائح الكريهة قبل دخول المساجد:

وقد تقدّم - قريبًا - بعض الأحاديث الدالة على ذلك.

(٣) حِفْظ اللِّسان عن كُلِّ ما يُؤْذي:

قال تعالى: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا

---

(١) هذا إذا كان يصلّي وليس بينه وبين الأرض حائل من سجّاد ونحوه.

(٢) صحيح: رواه أبو داود، وانظر: « صحيح الترغيب » (٢٨١).

(٣) حسن: رواه أحمد بإسناد لا بأس به، كذا قال المنذري، وحسّنه الألباني.

(٤) حسن: رواه الطبراني في « الكبير »، وجوّد إسناده المنذريّ، وحسّنه الألباني.

بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ [النور: ٣٦].

قال الإمام القرطبي - رحمه الله تعالى - في تفسيره لهذه الآية:

« و ﴿ تُرْفَعَ ﴾ قيل: معناه تُبْنى وتُعَلّى؛ قاله مجاهد وعكرمة. وقال الحسن البصري وغيره: معنى ﴿ تُرْفَعَ ﴾ تعظّم، ويرفع شأنها، وتطهّر من الأنجاس والأقذار، وَمِمّا تُصَان عنه المساجد وتُنزه عنه، الرّوائح الكريهة والأقوال السّيئة وغير ذلك على ما نبيّنه؛ وذلك من تعظيمها.

وقد قال ﷺ: « مَنْ أَكَلَ الْبَصَل والثَّوْم والكُرّاث فلا يَقْرَبَنّ مَسْجِدنا، فإن الملائكة تتأذّى مِمّا يتأذّى منه بنو آدم » [1].

وقال عمر بن الخطاب ﷺ في خطبته:

« ثمّ إنّكم أيُّها النّاس تأكلون شَجَرتَيْن ولا أراهما إلا خَبيثَتَيْن، هذا البصل والثُّوم، لقد رأيتُ رسولَ الله ﷺ إذا وَجَد رِيحَهما مِنْ رَجُلٍ في المساجد أمَر به فَأُخْرِج إلى البقيع، فَمَنْ أكَلَهُما فَلْيُمِتْهُما طَبْخًا » . خرّجه مسلم في « صحيحه » .

قال العلماء: وإذا كانت العلّة في إخراجه من المسجد أنه يُتَأذّى به ففي القياس أن كلّ مَنْ تأذّى به جيرانُه في المسجد بأن يكون ذَرِب اللّسان، سفيهًا عليهم، أو كان ذا رائحة قبيحة لا تَرِيمه لسوء صناعته، أو عاهة مُؤْذية كالجُذام وشبهه. وكلّ ما يتأذّى به الناسُ كانَ لهم إخْراجه ما كانت العِلّة موجودة فيه حتى تزول.

وكذلك يجتنب مجتمع الناس حيث كان، لصلاة أو غيرها كمجالس العلم والولائم وما أشبهها، من أكل الثوم وما في معناه، ممّا له رائحة كريهة تُؤذي الناس. ولذلك جمع بين البصل والثّوم والكُرّاث، وأخبر أن ذلك مما يتأذّى به.

وقال ابْنُ عبد البرّ: وقد شاهدتُ شيخنا أبا عمر أحمد بن عبد الملك بن هشام - رحمه الله - أفتى في رجل شكاه جيرانه، واتفقوا عليه أنّه يؤذيهم في المسجد بلسانه

---

(١) تقدّم قريبًا.

ويده فشُوورَ فيه؛ فأفتى بإخراجه من المسجد وإبعاده عنه، وألاّ يُشَاهد معهم الصلاة؛ إذ لا سبيل مع جنونه واستطالته إلى السّلامة منه، فَذَاكَرْتُه يومًا أمره، وطالبتهُ بالدليل فيما أفتى به من ذلك، وراجعتهُ فيه القول؛ فاستدلّ بحديث الثوم، وقال: هو عندي أكثر أذىً من أكل الثّوم، وصاحبه يُمنع من شهود الجماعة في المسجد.

قلتُ - أي القرطبيّ - : وفي الآثار المرسلة «**أنّ الرَّجُل لَيكَذِبُ الكَذِبَة فَيَتباعد عنه الْمَلَكُ من نتن ريحه**».

فعلى هذا يخرج من عرف منه الكذب والتقوّل بالباطل فإن ذلك يُؤذى» ا.هـ[١].

(٤) **تجنيب الْمَسْجِد حَدِيث الدّنيا؛**

قال الإمامَ ابن الحاجّ - رحمه الله تعالى - : «ينهي الناس عمّا يفعلونه من الْحِلَق والجلوس جماعة في المسجد للحديث في أمْر الدُّنْيا وماجرى لفلان وما جرى على فلان .. إنّما يجلس في المسجد لما تَقَدّم ذِكْرُه من الصّلاة، والتلاوة، والذّكر، والتفكّر، أو تدريس العلم بشرط عدم رفع الصَّوت، وعدم التشويش على المصلّين والذّاكرين.

وقد أخرج ابن حبّان من حديث ابن مسعود والحاكم من حديث أنس، وقال: صحيح الإسناد ورفعه:

«**يأتِي على النّاس زمانٌ يُحلّقون في مَسَاجِدهم، وليس هَمّهم إلاّ الدُّنْيا، وليس لِلّه فيهم حَاجَة فلا تُجالسوهم**»[٢] ا.هـ.

(٥) **رفع الصَّوْت لغير ضرورة شرعية؛** لحديث أبي سعيد ﷺ قال:

اعتكف رسولُ الله ﷺ في المسجد فسمعهم يجهرون بالقرآن، فكشف السّتر، وقال:

«**ألاَ كُلّكم مُناج رَبّه، فلا يُؤْذينَّ بعضكم بعضًا، ولا يرْفع بعضكُم على بعضٍ في**

---

(١) «تفسير القرطبي» (١٢/٢٤٨).

(٢) حسن: انظر: «الصحيحة» (١١٦٣).

هريرة، ثم قال:

«في الصلاة»[1].

([illegible]) **تحريمُ السؤال عن الضالة في المسجد**؛ لحديث أبي هريرة رضي الله عنه قال:

قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ سَمِعِ رَجُلاً ينشد ضالّة[2] في المسجد فَلْيَقُلْ: لا رَدّها اللّهُ عَلَيك، فإن المساجد لم تُبْنَ لهذا»[3].

(٣) **تَحْرِيمُ البيع والشّراء في المساجد**؛ لحديث أبي هريرة - أيضًا - أن رسول الله ﷺ قال:

«إذا رأيتم مَنْ يبيع أو يبتاع[4] في المَسْجد فقولوا: لا أَرْبَح اللّهُ تجارتك ...» الحديث[5].

(٨) **تحريمُ اتّخاذَ القبور مَسَاجد**؛ لحديث أبي هريرة - أيضًا - أن رسول الله ﷺ قال:

«لَعَنَ اللّهُ اليهودَ والنّصارى اتّخذوا قُبورَ أنبيائهم مَسَاجد»[6].

قال الشيخ/ علي محفوظ - رحمه الله - :

«والسّر في ذلك: أن تخصيص القبور بالصّلاة عندها يشبه تعظيم الأصنام بالسجود لها والتقرّب إليها .. ولهذه المفسدة نهى النبيُّ ﷺ عن الصلاة في المقبرة مطلقًا، وإن لم يقصد الصّلاة عندها، ووقت طلوع الشمس وعند استوائها، وعند غروبها، لأنها أوقات يقصد المشركون الصّلاة للشمس فيها، فنهى أمّته عن الصّلاة، وإن لم يقصدوا ما قصد المشركون، سدًّا للذّريعة، وبُعدًا عن التشبّه بعبدة الأوثان..

---

(١) صحيح رواه أبو داود، وأحمد بنحوه، وصحّحه الألباني والشيخ/ أحمد شاكر.

(٢) الضّالة الضّائعة، ونشدها: طلبها والسؤال عنها.

(٣) رواه مسلم (٥٦٨).

(٤) يبتاع يشتري.

(٥) صحيح رواه الترمذي (١٣٢١)، والحاكم وصحّحه، ووافقه الذهبيّ والألباني.

(٦) رواه البخاري (٤٣٦)، ومسلم (٥٣٠).

وعلى الجملة: تحرم الصلاة إلى قبور الأنبياء والأولياء تبرّكًا وإعظامًا، وكذا الصلاة عليها للتبرّك والإعظام، كما صرّح به الإمامُ النووي في شرح المهذّب» ا.هـ[1].

(٩) **لا تُقام الحدود في المساجد ولا يُستقاد فيها**؛ لحديث حكيم بن حزام، أنه قال:

«نهى رسولُ الله ﷺ : أن يُسْتقاد في المسجد، وأن تُنْشَد فيه الأشعار، وأن تقام فيه الْحُدود»[2].

(١٠) **النهي عن تناشد الأشعار في المسجد**؛ للحديث المتقدّم - آنفًا - :

قال الشيخ/ سعيد بن علي القحطاني - حفظه الله - :

«أمّا الأشعار التي لا تجوز في المساجد فهي أشعار الجاهلية، وأهل المعاصي، بخلاف الأشعار التي تدعو إلى الفضيلة فإنه لا بأس بها» ا.هـ[3].

قلت: أمّا ما اخترع في المساجد باسم التواشيح والابتهالات «الدّينية!» وتخصيص لها مواضع قبل الأذان - مثلاً - أو بعد تلاوة القرآن، فهذا يعدّ من الأمور المحدثة التي يجب التنزه عنها لما يترتب عليها من زعيق مؤلم، ومدح للنبيّ ﷺ يخالف الشرع، وتشويش على المصلين، والمرضى.

(١١) **النهي عن التّحَلُّق في المسجد قبل صلاة الجمعة**؛ لحديث عبد البر بن عمرو بن العاص:

«نُهى عن تناشد الأشعار في المسجد، وعن البيع والشراء فيه، وأن يتحلق الناس فيه يوم الجمعة قبل الصّلاة»[4].

والتحلّق، والحِلَق: جَمْع حَلْقة: الجماعة من الناس، فنهاهم أن يجلسوا مُتَحَلِّقِين حلقة

---

(١) «الإبداع في مضار الابتداع» (ص٢٠٠) باختصار.

(٢) حسن: رواه أبو داود (٤٤٩٠)، وغيره، وحسّنه الألباني.

(٣) «المساجد» لفضيلته (٦١).

(٤) حسن: رواه النسائي (٧١٤)، وأبو داود (١٠٧٩)، وغيرهما، وحسّنه الألباني.

واحدة أو أكثر، حتى ولو كان ذلك لمذاكرة العلم.

والسّبب في النّهي عن ذلك - والله أعلم - الأمر بالتبكير يوم الجمعة، والتراصّ في الصّفوف: الأوّل، فالأوّل.

(١٢) **الأمْرُ بِإمْسَاك نِصَال السّلاح في المساجد والأسواق**؛ فعن جابر ﷺ:

«أنَّ رَجُلاً مَرَّ في المسجد بأَسْهُم قد بَدَا[١] نُصولها[٢]، فَأُمِر أن يأخذ بُنصُولها لا يخدش مسلمًا»[٣].

(١٣) **الْحَذَر مِنْ تَخَطّي الرّقاب**؛ فعن جابر - أيضًا - أنّ رَجُلاً دَخَل المسجد يوم الجمعة، ورسولُ الله ﷺ يَخْطُب فجعل يَتَخطّى النّاسَ، فقال رسولُ الله ﷺ : **«اجْلِسْ فَقَد آذَيْتَ وآنَيْتَ[٤]»**[٥].

قال الإمام ابن تيمية - رحمه الله - :

«ليس لأحدٍ أن يَتَخَطّى رقابَ النّاس؛ ليدخل في الصَّف، إذا لم يكن بين يديه فُرْجة، لا يوم الجمعة ولا غيره؛ لأن هذا من الظُّلْم، والتعدِّي لحدود الله» ا.هـ[٦].

قلت: وعلى السابقين إلى الصلاة أن يسدّوا الخَلَل والفُرَج، ويرصّوا أنفسهم في الصّف، حتى يقطعوا طمع من يأتي بعدهم من أن يتخطّى رقابهم».

(١٤) **تحريمُ الْمُرور بَيْن الْمُصَلّي وَسُتْرته**؛ لقوله ﷺ :

«لو يعلم المارّ بَيْن يدي الْمُصَلي مَاذَا عليه[٧]، لكان أن يقف أرْبَعين خَيْرٌ له مِنْ أن يَمُرّ

---

(١) بدا: ظهر.

(٢) النصول: جمع نصل، وهو حديدة السّهم.

(٣) رواه البخاري (٤٥١)، ومسلم (٢٦١٤).

(٤) آنيت: تأخّرت وأبطأت.

(٥) صحيح: أخرجه ابن ماجة (١١١٥)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (١/١٨٤).

(٦) «الاختيارات الفقهية» (٨١).

(٧) يعني: من الإثم أو العذاب.

بَيْن يَدَيْه » .

قال أبو النّضر: لا أدري قال: أربعين يومًا، أو شَهْرًا، أو سَنَة[١].

(١٥) **لا يَتَّخِذ مكانًا خاصًّا لا يُصَلّي إلاّ فيه**؛ لحديث عبد الرحمن بن شبل ﷺ قال:

« نهى رسولُ اللهِ ﷺ عن نقْرة الغُراب، وافتراش السّبع، وأن يوطن الرجل المكان في الْمَسْجد كما يوطن الْبَعِير » [٢].

(١٦) **الإنصات لِخُطْبة الجمعة**؛ لقوله ﷺ :

« **إذا قلت لصاحبك يوم الجمعة: أنصت والإمام يخطب، فقد لغوت** » [٣].

قال الإمام النووي – رحمه الله تعالى – :

« ومعنى « **فقد لغوت** » أي: قلت اللّغو، وهو الكلام الملغي السّاقط الباطل المردود. وقيل معناه: قُلْتَ غير الصَّواب. وقيل: تكلّمت بما لا ينبغي. ففي الحديث. النّهي عن جميع أنواع الكلام حال الخطبة » ا.هـ[٤].

فوائد:

- يباح الأكل، والمبيت، والمقيل في المسجد، لمن ليس له مسكن من المسلمين، رجلاً كان أو امرأة عند أَمْنِ الفتنة[٥].
- يباح اللّعب بالسّلاح في المسجد؛ فعن عائشة – رضي الله عنها – قالت:

لقد رأيتُ رسول الله ﷺ يومًا على باب حجرتي والحبشة يلعبون في المسجد، ورسولُ الله ﷺ يسترني بردائه، أنظر إلى لعبهم» . وفي لفظ:

---

(١) رواه البخاري (٥١٠)، ومسلم (٥٠٧).

(٢) حسن: رواه أبو داود (٨٦٢)، وأحمد (٤٤٦/٥)، والحاكم (٢٢٩/١).

(٣) رواه البخاري (٩٣٤)، ومسلم (٨٥١).

(٤) « صحيح مسلم بشرح النووي » (٤٥٣/٦).

(٥) « سبل السّلام » (١٩٦/٢).

« كان الحبشة يلعبون بحرابهم فَيَسْتُرني رسولُ الله ﷺ وأنا أنظر، فما زلتُ أنظر حتى كنتُ أنا أنصرف، فاقْدروا قدر الجارية الحديثة السّن تسمع اللّهو » [١].

قال الحافظ ابن حجر - رحمه الله - :

« واللّعب بالحراب ليس لَعِبًا مُجَرَّدًا، بل فيه تدريب الشجعان على مواقع الحروب، والاستعداد للعدوّ » ا.هـ[٢].

وقال العلاّمةُ ابن باز - رحمه الله - :

« هذا الحديث يدلّ على أن نظر النّساء في الجملة لا حَرَج فيه كما ينظرون الرّجالَ في الأسْفَار والمساجد، فالنّظر العام للماشين والمصلّين، واللاّعبين لا يَضرّ؛ لأنه في الغالب لا يكون مع الشّهوة... » ا.هـ[٣].

- يباح الكلام المباح في المسجد؛ فعن جابر بن سمرة، قال:

« شهدتُ النبيَّ ﷺ أكثر مِنْ مِائة مرّة في المسجد، وأصحابه يتذاكرون الشّعر وأشياء من أَمْر الجاهلية، فَرُبَّما تَبَسَّم معهم » [٤].

- ورد في النّهي عن تشييد المساجد - على سبيل التباهي - وزخرفتها أحاديث وآثار، منها:

أ- عن أنس، قال:

قال رسولُ الله ﷺ : « **لا تقوم السّاعةُ حتى يَتَباهى النّاسُ في المساجد** » [٥].

ب- وعن ابن عباس، قال:

قال رسول ﷺ : « **ما أُمِرتُ بِتَشْيِيد**[٦] **الْمَسَاجد** » [٧].

---

(١) رواه البخاري (٤٥٤)، ومسلم (٨٩٢).

(٢) « فتح الباري » (١/٥٤٩).

(٣) من تقرير الشيخ - رحمه الله - على بلوغ المرام لابن حجر، الحديث رقم (٢٧١)، وانظر: « المساجد » (٧٥).

(٤) **صحيح** : رواه أحمد (٥/٩١)، والترمذي بنحوه.

(٥) **صحيح** : رواه أبو داود (٤٤٩)، وغيره، وصحّحه الألباني.

(٦) المراد بالتشييد: رفع البناء وتطويله.

(٧) **صحيح** : رواه أبو داود (٤٤٨)، وصحّحه الألباني.

جـ - وقال ابن عباس: «لَتُزخْرِفُنَّها[1] كما زخرفت اليهود والنصارى»[2].

د - وقال عمر بن الخطاب - عندما أمر ببناء المسجد:

«أَكِنَّ النّاسَ من الْمَطَر، وإيّاك أن تُحَمِّر، أو تُصَفِّر، فَتَفْتِن النّاس»[3].

سادسًا: تَعَلُّق الصّالحين بالمساجد:

التعلّق بالمساجد، دليل على الإيمان بالله واليوم والآخر:

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ (الآية) [التوبة: ١٨].

كما أنه علامة على التقوى:

عن سلمان ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«الْمَسْجِدُ بَيْتُ كُلِّ تَقيٍّ، وَتكَفَّل اللّهُ لِمَنْ كان المسجدُ بَيْتَه بالرُّوح والرَّحْمَةِ والجواز على الصِّراط إلى رضوان الله إلى الجنّة»[4].

وقد بيّن النبيُّ ﷺ أن من السبعة الذين يظلّهم اللّهُ - تعالى - في ظلّه يوم لا ظلّ إلاّ ظلّه:

«**رجل قلْبُه مُعَلّق بالمساجد**»، وفي رواية: «**في المساجد**»:

عن أبي هريرة ﷺ قال:

سمعتُ رسولُ الله ﷺ يقول:

---

(١) الزّخرفة: النقوش، وتذهيب الحيطان وتمويهها بالذّهب.

(٢) رواه البخاري (٤٤٦) مُعلّقًا، ووصله أبو داود، برقم (٤٤٨).

(٣) رواه البخاري.

(٤) صحيح: رواه الطبراني في «الكبير»، والبزار، وقال: إسناده حسن، ووافقه المنذري، وصحّحه الألباني. انظر: «صحيح الترغيب» (٣٢٨).

« سَبْعَةٌ يُظلُّهم اللّهُ في ظِلِّه يَوْمَ لا ظِلَّ إلاّ ظِلُّهُ: الإمامُ العادل، وشابٌّ نَشَأَ في عبادة الله ﷻ، وَرَجُلٌ قَلْبُه مُعَلَق بالمساجد، ورجلان تَحابَّا في الله اجتمعا على ذلك وتَفرَّقا عليه، ورجلٌ دَعَتْهُ امْرأةٌ ذاتُ مَنْصَبٍ وَجَمَالَ، فقال: إنِّي أخافُ الله، وَرَجُلٌ تَصَدَّق بِصَدَقةٍ فَأَخْفَاها حتى لا تَعْلَمَ شِمَالُهُ ما تُنْفِقُ يَمِينُهُ، ورجلٌ ذَكَر الله خاليًا فَفَاضَتْ عَيْنَاه » (١).

قال الحافظ ابْنُ حَجَر – رحمه الله – :

« قوله: « **مُعَلَّق في المساجد** » هكذا في « الصحيحين »، وظاهره أنه من التعليق كأنّه شبّهه بالشيء المعلق في المسجد كالقنديل مثلاً إشارة إلى طول الملازمة بقلبه وإن كان جسده خارجًا عنه، ويدلّ عليه رواية الجوزقي « **كأنّما قَلْبُه مُعَلّق في المسجد** »، ويحتمل أن يكون من العلاقة وهي شدّة الحبّ، ويدل عليه رواية أحمد: « **مُعلّق بالمساجد** »، وكذا رواية سلمان: « **من حُبّها** » ا.هـ(٢).

هذا، والحديث عن تعلّق قلوب الصالحين بالمساجد حديث يطول، ويكفي أن نشير – هنا – إلى لقطات من حياتهم تدلّ على مدى هذا التعلّق، والذي فاق كل تصوّر فمن هؤلاء:

(١) **سعيد بن الْمُسَيّب**: « قدوة العُبّاد »:

قال عثمان بن حكيم: سمعتُ سعيد بن المسيب يقول:

« ما أذن المؤذن منذ ثلاثين سنة إلاّ وأنا في المسجد!! » (٣).

وكان – رحمه الله – يقول عن نفسه:

« ما دخل عليّ وقتُ الصّلاة إلاّ وقد أخذت أهُبتها، ولا دخل عليّ قَضَاء فرض إلا وأنا إليه مُشْتاق » (٤).

---

(١) رواه البخاري ومسلم وأحمد وغيرهم.

(٢) « فتح الباري » (٢/١٧٠).

(٣) قال الإمام الذهبي: إسناده ثابت.

(٤) « الحلية » (٢/٩٥).

وقال – رحمه الله – : «من حافظ على الصّلوات الخمس في جماعة فقد ملأ البّر والبحر عبادة».

وعنه – رحمه الله – قال:

«ما أُقيمت الصّلاة منذ أسلمتُ، إلاّ وأنا على وضوء!» [١].

(٢) **الحارث بن حسان** : «يحضر صلاة الصّبح ليلة زفافه!».

روى الإمام الطبراني عن عنبسة بن الأزهر، قال:

«تزوّج الحارث بن حسّان– وكان له صُحبة – ، فقيل له: أتخرج[٢] وإنما بنيت بأهلك في هذه الليلة؟ فقال:

والله إن امرأة تمنعني من صلاة الغداة في جمع[٣] لامرأة سوء!» [٤].

(٣) **أبو عَبْد الرّحمن السّلمي:** «يموت وهو يَنْتَظِر الصّلاة!!»:

عن عطاء بن السائب، قال:

دخلنا على أبي عبد الرحمن السّلمي وهو يقضي – أي: في سياق الموت – في المسجد، فقلنا له:

لو تحوّلت إلى الفراش[٥] فإنه أوثر[٦]، قال:

حدثني فلان أن النبيّ ﷺ قال:

«لا يزالُ أَحدُكم في صَلاَة ما دام في مُصلاّه يَنْتَظِر الصّلاة، والملائكة تقول: اللّهم اغفِرْ له، اللّهمّ ارْحَمْه» [٧].

---

(١) «السّير» (٣/١٦٤).

(٢) يعني لصلاة الصّبح.

(٣) أي: في جماعة.

(٤) قال الهيثمي في «المجمع» (٢/٤١): رواه الطبراني في «الكبير» بإسناد حسن.

(٥) أي: فراش بيته.

(٦) أوْثر: ألْيَن.

(٧) رواه البخاري بنحوه.

فأُرِيدُ أن أَمَوت وأنا في مَسْجِدي! [١].

فأين هذه الهمم اليوم أيها الناس؟!

اللهم ارحم عجزنا، وضعفنا، وتقصيرنا.

(٤) **الأعمش:** « لم تَفُتْه تكبيرةُ الإحْرام سَبْعِين عَامًا! »:

قال وكيع بن الجرّاح[٢] - رحمه الله - :

« كان الأعمش[٣] قريبًا من سبعين سنة لم تفته التكبيرة الأولى! ».

فانظر - أخي الكريم - إلى أهمية الصّلاة عند السّلف، وقارن بين حالهم وحالنا.

لقد بلغ من حرصهم عليها ما ثبت عنهم أنهم كانوا « إذا فاتتهم تكبيرة الإحرام عزّوا أنفسهم ثلاثة أيّام، وإذا فاتتهم الجماعة عَزّوا أنفسهم سبعة أيام! » [٤].

قال القاري: - مُعلّقًا - : « وكأنهم ما فاتتهم الجمعة، وإلاّ عزوا أنفسهم سبعين يومًا » ا.هـ.

وقال إبراهيم التيمي: « إذا رأيتَ الرَّجُل يتهاون في التكبيرة الأُولى، فاغْسِلْ يدك منه! ».

(٥) **الرَّبيعُ بْنُ خُثَيْم:** « يُحمل إلى صلاة الجماعة وهو مشلول!! »:

عن أبي حيّان التيمي عن أبيه، قال:

أصاب الرَّبيعَ الفالجُ[٥]، فكان يُحْمَل إلى الصّلاة، فقيل له:

إنه قد رُخِّص لك[٦].

---

(١) « الطبقات الكبرى » لابن سعد (٦/١٧٥).

(٢) شيخ الشافعيّ.

(٣) من التابعين.

(٤) « تحفة الأحوذي » (٢/٤٥).

(٥) مرض يصيب نصف البدن بالشّلل.

(٦) يعني في ترك الجماعة لمرضك.

قال: قد علمتُ، ولكن أَسْمَع النّداء بالفلاح[١].

(٦) عامرُ بْنُ عَبْد الله بن الزّبير: «يموت في صلاة الجماعة!!».

قال مصعب: سمع عامرٌ المؤذّن، وهو يجود بنفسه، فقال:

خذوا بيدي!

فقيل: إنك عليل.

قال: أسْمَع داعِي الله فلا أُجيبه؟!

فأخذوا بيده فدَخل مع الإمام في المغرب، فركع ركعة، ثم مات!! [٢].

أخي:

لا يُصْـــــنَع الأَبْطَـــــال إلاّ ... في مســـــاجِدنا الفســـــاحْ

في رَوْضَـــــة القــــرآن في ... ظِـــلِّ الأحاديـــثِ الصِّـــحاحْ

شَـــعْبٌ بغـــير عَقـــيدة ... وَرَقٌ يُذْرِيـــه الـــرِّياحْ

مَـنْ خـان «حَـيّ عـلى الصّـلاة» ... يخـون «حَـيّ عـلى الكِفَـاح»

أرجو أن تكونَ الرّسَالة قد وَصَلَت.

وعلى الله قصد السبيل.

۞۞۞۞۞

(١) «الحلية» (٢/١٣٣).

(٢) «السّير» (٥/٢٢٠).

٢٠- الصَّلاَة

اعلم - أخي الكريم - أن الصّلاة هي أجلّ مباني الدين بعد التوحيد، ومحلّها في الدين محلّ الرأس من الجسد، فكما أنه لا حياة لمن لا رأس له، فكذلك لا دين لمن لا صلاة له.

كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ يكتب إلى الآفاق:

«إن أهم أموركم عندي الصّلاة، فمن حفظها فقد حفظ دينه، ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع، ولا حظّ في الإسلام لمن ترك الصّلاة».

فالصّلاة عون على باقي أركان الدين؛ لأنها تذكّر العبد جلالة الربوبية، وذلّة العبودية، وأمر الثواب والعقاب، فعند ذلك يسهل عليه الانقياد للطاعة، ولذلك قال تعالى: ﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ [البقرة: ٤٥].

وقال ﷺ في الحديث الصّحيح: «**رَأْسُ الأَمْرِ الإسْلام، وعموده الصّلاة، وذُرْوة سَنَامه الجهادُ في سبيل الله**».

فالصلاة قوام الدين الذي يقوم به كما يقوم الخَبَاء على عموده، وهل يرفع الخباءَ أنْفُ وَتَد إن لم يكن له عِمَادٌ في الوسط؟[1].

لذا، فالحديث - هنا - يدور حول ستة أمور:

الأوّل: تعريف الصّلاة.

والثاني: فضلها.

والثالث: حكم تاركها.

والرابع: حكم صلاة الجماعة.

---

(١) «الصلاة لماذا» للشيخ/ محمد بن إسماعيل المقدّم (٩، ١٠).

والخامس: المعاني الباطنة التي تتم بها حياة الصلاة.

والسادس: لقطات من حياة أهل الخشوع.

والله الموفق لا إله غيره، ولا ربّ سواه.

أولاً: تعريف الصّلاة:

الصّلاة «**لُغةً**»: هي - كما قال كثيرٌ من أهل اللُّغة: الدُّعَاء والتَّبْريك والتَّمْجيد، يقال: صَلَّيْتُ له أي: دَعوتُ له وَزَكَّيْتُ ...، وصلاةُ اللهِ للمسلمين: هو في التّحقيق تزكيتُهُ إيَّاهم، قال تعالى:

﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ [البقرة: ١٥٧].

والصّلاة من الملائكة هي: الدعاء والاستغفار، كما هي من الناس، قال تعالى:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَـٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ﴾ [الأحزاب: ٥٦].

و«**اصطلاحًا**»: أقوالٌ وأفعالٌ مُفْتَتَحةٌ بالتَّكْبير مُخْتَتَمَةٌ بالتَّسْلِيم، بشرائِطَ مَخْصُوصَة.

ثانيًا: فضلها:

اعلم - وَفّقني الله تعالى وإيّاك لطاعته - أن فضل الصّلاة عظيم، ونفعها عميم، واستقصاء منافعها، وفضائلها شيء يصعب على الحصر، فمن ذلك؛ أنها:

(١) أُمُّ العِبادات:

فهي العمود الفقري للإسلام كما في الحديث المتقدم: «**وعموده الصلاة**».

قال الإمام ابن القيم - رحمه الله - :

«ولمّا كانت الصّلاة مشتملة على القراءة والذّكر والدعاء، وهي جامعة لأجزاء العبودية على أتمّ الوجوه، كانت أفضل من كل من القراءة والذكر والدعاء بمفرده، لجمعها ذلك كلّه مع عبودية سائر الأعضاء» ا.هـ[١].

(١) «الوابل الصيّب» (١٦٦).

(٢) شِعَارُ دَارِ الإسْلام:

فعن أنس ﷺ: «أن النبيَّ ﷺ كان إذا غَزَا بنا قَوْمًا، لم يكن يَغْزو بنا حتى يُصْبح وينظر، فإن سَمِع أَذَانًا كَفَّ عنهم، وإن لم يسمع أذانًا أَغَارَ عَلَيْهم» [١].

(٣) براءةٌ مِنَ النِّفاق:

فعن أنس ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«مَنْ صَلَّى لِلّه[٢] أربعين يَوْمًا في جماعة يُدْرِكُ التكبيرةَ الأُولى، كُتِبَ لَهُ بَراءَتَان: براءَةٌ من النَّار، وبراءٌ من النِّفَاق» [٣].

(٤) خَيْرُ مَوْضوع:

فعن أبي هريرة ﷺ

قال رسولُ الله ﷺ:

«الصَّلاةُ خَيْرُ مَوْضوع[٤] فَمَنِ اسْتَطاع أن يَسْتَكْثِر فَلْيَسْتَكْثِر» [٥].

قال العلامة المناويُّ – رحمه الله – :

«لأن بها تبدو قوّة الإيمان في شهود ملازمة خدمة الأركان، ومن كان أقواهم إيمانًا كان أكثرهم وأطولهم صلاة وقنوتًا وإيقانًا» ا.هـ[٦].

«وسجود المحراب، واستغفار الأسحار، ودموع المناجاة: سيماء يحتكرها المؤمنون.. ولئن توهّم الدّنيويّ جنّاته في الدِّينار والنساء والقصر المنيف، فإن جنّة المؤمن في محرابه» [٧].

---

(١) رواه البخاري.

(٢) وما كان لله دام واتصل.

(٣) حسن رواه الترمذي، وانظر: «صحيح الترغيب» (٤٠٧).

(٤) أي: أن الصلاة أفضل ما وضعه الله – أي: شرعه من العبادات.

(٥) حسن رواه الطبراني في الأوسط، وأحمد، وغيرهما، وانظر: «صحيح الجامع» (٣٧٦٤).

(٦) «فيض القدير» (٢٤٧/٤).

(٧) «الرقائق» للأستاذ/ محمد أحمد الراشد (١٥).

(٥) قُرْبى إلى اللهِ تعالى:

قال تعالى: ﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾ [العلق: ١٩].

وفي الحديث القدسي: «**وما تَقرّبَ إليّ عبدي بشيء أَحَبَّ إليَّ مِمّا افْترضتُ عليه**» الحديث [١].

(٦) تفتح لها أبواب السّماء:

قال ثابتُ الْبُنَاني - رحمه الله - :

الصّلاةُ خِدمة الله في الأرض، ولو كان شَيء أَفْضَل منها لما قال تعالى:

﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ ﴾ [آل عمران: ٣٩].

(٧) تُزيّن عندها الجنّة:

قال يحيى بن أبي كثير - رحمه الله تعالى - :

«مَوْطِنان تُزَخْرف فِيهما الجَنَّةُ، وتُزَيَّن الحور العين: عند الصّلاة، وعند القتال» [٢].

(٨) راحة نفسية، وطمأنينة قلبية:

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ [الحجر: ٩٧، ٩٨].

وكان النبيّ ﷺ يقول:

«**يا بلال، أَقِمِ الصّلاة، أَرِحْنَا بِها**» [٣].

وكان يقول:

«**وَجُعِلَتْ قُرّةُ عَيْني في الصّلاة**» [٤].

---

(١) رواه البخاري.

(٢) «الحلية» (٣/٧٠).

(٣) صحيح: رواه أحمد وأبو داود، وصحّحه الألباني.

(٤) صحيح: رواه أحمد في «المسند» (٣/١٢٨).

(٩) نور للمسلم في الدَّارين:

- قال ﷺ: «والصَّلاة نُورٌ»(١).

- وعن سهل بن سعد السّاعديّ رضي الله عنه قال:

قال رسولُ الله ﷺ: «بَشِّر المشّائين في الظُّلَم إلى الْمَسَاجِد بالنُّور التَّامِّ يَوْمَ القيامة»(٢).

(١٠) وقاية وحماية:

فعن سَمُرة بن جندب رضي الله عنه عن النبيَّ ﷺ قال:

«مَنْ صَلّى الصّبح في جماعة فهو في ذِمّة الله تعالى»(٣).

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال:

سمعتُ رسول الله ﷺ يقول:

«ما مِنْ ثَلاثةٍ في قَرْيَة، ولا بَدْوٍ لا تُقَامُ فيهم الصَّلاةُ إلاّ اسْتَحْوَذ عليهم الشّيطانُ، فعليكم بالجماعة، فإنما يأكل الذِّئْبُ من الغَنم القَاصِية»(٤).

(١١) كفّارة للسّيئات، ماحية للخطيئات:

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

سمعتُ رسول الله ﷺ يقول:

«أرأيتمُ لو أن نهرًا ببابِ أحدِكم يغتسلُ فيه كُلَّ يومٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ هَلْ يَبقى من دَرَنِه(٥) شيءٌ؟»

---

(١) رواه مسلم.

(٢) صحيح: رواه ابن ماجة، وغيره، وانظر: «صحيح الترغيب» (٤٢٣).

(٣) صحيح: رواه ابن ماجة، وانظر: «صحيح الترغيب» (٤١٨).

(٤) حسن: رواه أحمد، وأبو داود، وغيرهما، وانظر: «صحيح الترغيب» (٤٢٥).

(٥) الدَّرنَ: الوسخ.

قالوا: لا يبقى من درنه شيء.

قال: « **فكذلك مَثَلُ الصّلوات الْخَمْسِ يَمْحُو اللّهُ بِهِنَّ الخَطَايا** » (١).

(١٢) تَرْفَعُ الدّرجات:

فعن عبادة بن الصامت ﷺ أنه سمع النبيَّ ﷺ يقول:

« **مَا مِنَ عَبْدٍ يسجد للّه سَجْدةً إلاّ كتب اللّهُ له بها حَسَنةً، وَمَحا عَنْهُ بها سَيِّئة، وَرَفع لَهُ بِها دَرَجَةً، فاسْتَكْثِروا من السُّجود** » (٢).

(١٣) طريق الجنة:

فعن ابن مسعود ﷺ أن النبيَّ ﷺ مَرَّ على أصحابه يومًا، فقال لهم:

« **هل تَدْرونَ ما يَقولُ رَبكُم تَبارك وتعالى؟** »

قالوا: الله ورسوله أعلم، قالها ثلاثًا، قال:

« **وعزَّتِي وَجلالي لا يُصَلِّيها أحَدٌ لوقتها، إلاّ أدْخَلْتُهُ الجنّة، ومن صَلاّها بغير وقتها، إن شئتُ رَحِمْتُهُ، وإن شئتُ عَذَّبْتُه** » (٣).

(١٤) يُبَاهي اللّهُ تعالى بأهلها الملائكة:

فعن ابن عمر – رضي الله عنهما – قال:

صَلَّيْنا مع رسول الله ﷺ المغربَ فَرَجَعَ مَنْ رَجَعَ، وعَقَّبَ مَنْ عَقَّبَ، فجاء رسولُ الله ﷺ مُسْرعًا قَدْ حَفَزَهُ النَّفَسُ، قَدْ حَسَرَ عَنْ رُكْبَتَيْه، قال:

« **أَبْشروا، هذا رَبّكُم قد فتح بَابًا من أبواب السَّماءُ يباهي بِكم الملائكة يقول: انظُروا إلى عبادي قد قَضَوْا فرِيضةً وهم يَنْتظرون أُخْرى** » (٤).

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) **صحيح**: رواه ابن ماجة، وانظر: « صحيح الترغيب » (٣٨٢).

(٣) **حسن**: رواه الطبراني في « الكبير »، وانظر: « صحيح الترغيب » (٣٩٨).

(٤) **صحيح**: رواه ابن ماجة، وانظر: « صحيح الترغيب » (٤٤٥).

١٠- سَبَبٌ في سعة الرِّزق:

فعن أبي أُمامة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«ثلاثةٌ كُلُّهم ضَامِنٌ على الله، إن عَاشَ رُزِقَ وَكُفِي، وإن مَات أَدْخَلَه اللَّهُ الجنّة؛ مَنْ دخل بيته فسلَّم فهو ضامِنٌ على اللهِ، ومن خَرَجَ إلى الْمَسْجِد فهو ضامن على الله، وَمَنْ خرج في سبيل الله فهو ضَامِنٌ على الله» [(١)].

هذه بعض فضائل الصَّلاة، والأحاديث في فضائلها - كما ذكرنا آنفًا - أكثر من أن تحصى. ورحم الله الإمام الحسن حين قال:

«يا ابن آدم، أيّ شيءٍ يعزُّ عليك مِنْ دينك إذا هانت عليك صلاتك».

ثالثًا: حُكْمُ تاركها:

مَنْ ترك الصَّلاة جحودًا بفرضيتها، وإنكارًا لشرعيتها، أو استخفافًا بها، فهو عند جميع العلماء كافر، لأنه أنكر معلومًا من الدِّين بالضرورة.

أمّا من تركها هَمَلاً وكَسَلاً، فقد اختلف العلماء في حُكمه على قولين:

الأوّل: أنه كافر، خارج من الملّة.

والثاني: أنه فاسق داخل الملّة، لكن يخشى عليه سوء الخاتمة، وحمل هذا الفريق الأحاديث الواردة في كفر تارك الصلاة كقوله ﷺ :

«العهدُ الذي بَيْننا وَبَيْنهم الصّلاةُ، فَمَن تَركها فقد كَفَر» [(٢)].

على أنّه كفرٌ دون كفر.

وهذا - والله أعلم - هو الرّاجح للحديث التالى:

عن عبادة بن الصّامت رضي الله عنه قال:

---

(١) **صحيح**: رواه أبو داود، وغيره، وانظر: «صحيح الترغيب» (٣١٩).

(٢) **صحيح**: رواه الترمذي (٥/٢٦٢١)، وغيره، وقال محقق «جامع الأصول» (٥/٢٠٣): حديث صحيح.

أشهد أنّي سَمِعتُ رسولُ الله ﷺ يقول:

« **خَمْسُ صَلَواتٍ افْتَرَضَهنّ اللّهُ ﷻ، مَنْ أَحْسَن وضوءَهُنّ وصلاَّهُنّ لِوَقْتِهنّ، وَأَتَم ركوعهنّ وسجودهنّ وخشوعهنّ كان له على الله عَهْدٌ أن يَغْفِر له، ومن لم يفعل فَلَيْس له على الله عَهْدٌ، إن شاء غَفَر له، وإن شاء عَذَّبَه** » [1].

فتارك الصّلاة يتأرجح بين الكُفْر والفِسْق، ويكفي لردعه ما ورد فيه من آيات وأحاديث تقشعر منها الأبدان، وتشيب الولدان، وإليك بعض أقوال العلماء في تارك الصلاة:

قال الإمام أحمد - رحمه الله - :

« أخشى ألاّ يحلّ للرجل أن يقيم مع امرأة لا تصلّي، ولا تغتسل من الجنابة، ولا تتعلّم القرآن » ا.هـ[2].

وقال الإمام ابن الجوزي - رحمه الله - :

« وتارك الصّلاة على صحة البدن لا تجوز شهادته، ولا يحلّ لمسلم أن يؤاكله، ولا يزوّجه ابنته، ولا يدخل معه تحت سَقْف » ا.هـ[3].

« وبعيدًا عن اختلاف العلماء في نوع هذا الكفر في حق من ترك الصّلاة تكاسلاً مع اعتقاده وجوبها، فإننا نهمس في أذن تارك الصلاة: هل يرضيك أن يكون انتسابك إلى ملّة الإسلام، ودين التوحيد، وأمّة محمد ﷺ مسألة هي خلاف بين العلماء، ففريق يقول: « إنك كافر مُشْرِك حَلال الدّم .... »، وفريق آخر يقول: « بل أنت فاسق عاصٍ فاجر، يجب قتلك حدًّا، إن أصررت على ترك الصّلاة؟! » [4].

يــــا تاركًــــا لصَــــلاته إن الصّــــــلاة لَتَشـــــتكي
وتقـــــول في أَوْقَاتهـــــا: اللّــــــهُ يَلْعَـــــن تـــــارِكي

---

(١) صحيح: رواه مالك وأبو داود والنسائي، وغيرهم، وانظر: « صحيح الترغيب » (٣٩٦).

(٢) « حاشية الروض المربع شرح زاد المستنقع » (٤٥٧/٦).

(٣) « بحر الدموع » (١٨٩).

(٤) « الصلاة لماذا؟ » (١٥٥).

رابعًا: حكم صلاة الجماعة:

صلاة الجماعة - على الرّاجح - واجبة، لقوله تعالى:

﴿ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ [البقرة: ٤٣].

ولقوله ﷺ: « **مَنْ سَمِع النّداءَ فَلَم يُجِبْ، فلا صَلاَةَ لَه إلاّ مِنْ عُذْرٍ** »[١].

ومعنى: « **فلا صلاة له** » يعني: كاملة الأجر، لقوله ﷺ:

« **صلاةُ الْجَماعة أَفْضَلُ من صَلاَة الفَذّ بسبعٍ وعِشْرينَ دَرَجة** »[٢].

لكن ترك الصلاة في المساجد يُعدّ سعيًا في خَرابها - خصوصًا إذا داوم الإنسان على هجرها - قال تعالى:

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة: ١١٤].

كما أن هجر الجماعة يُعَدُّ صفة من صفات المنافقين:

قال ابن مسعود رضي الله عنه:

« مَنْ سَرَّه أن يَلْقَى الله غَدًا مُسْلِمًا فَلْيُحَافظْ على هؤلاء الصّلوات حيث يُنَادَى بهنّ، فإنّ الله تعالى شَرَع لنبيّكم سُنَنَ الهُدَى، وأنّهنّ من سُنَن الْهُدَى، ولو أنكم صَلَّيْتمُ في بيوتكم كما يُصَلّي هذا الْمُتَخَلِّفُ في بَيْته، لتركتم سُنَّة نبيّكم، ولو تركتم سُنّة نبيّكم لضَلَلْتم، وَمَا مِنْ رَجُل يَتطهّر فَيُحْسِنُ الطُّهورَ، ثم يَعْمدُ إلى مَسْجد من هذه الْمَسَاجدَ إلاّ كَتَب اللّهُ له بِكلّ خَطْوَة يَخْطُوها حَسَنةً ، ويَرفعُهُ بها دَرَجَة، وَيَحُطُّ عنه بها سَيِّئَةً، ولقد رأيْتُنا، وماْ يَتَخلَّفُ عنها إلاّ مُنافِقٌ مَعْلومُ النِّفاق، ولقد كان الرَّجُلُ يُؤْتَى به يُهَادَى بَيْن

---

(١) رواه ابن ماجة، وابن حبان، والقاسم بن أصبغ، وحسّنه الألباني في « صحيح الترغيب » (٤٢٥).

(٢) رواه مالك والبخاري ومسلم وغيرهم.

الرِّجُلَيْن حتى يُقَامَ في الصّف»

وفي رواية: «لقد رأيتُنا، وما يتخلّف عن الصّلاة إلاّ مُنافقٌ قد عُلِمَ نِفَاقُهُ أَوْ مَرِيضٌ، إنْ كانَ الرّجُلُ لَيَمْشي بَيْن رَجُلَيْن حتى يأتي الصَّلاَةَ، وقال:

إن رسول الله ﷺ علّمنا سُنَنَ الْهُدَى، وإنّ مِنْ سُنَن الْهُدَى الصَّلاةَ في المسجدِ الذي يُؤَذَّنُ فيه» (١).

خامسًا: المعاني الباطنة التي تتمّ بها حَيَاةُ الصّلاة:

اعلم أن الخشوع في الصّلاة واجب. قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله –:

«قال تعالى: ﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴾ [البقرة: ٤٥]. وهذا يقتضي ذمّ غير الخاشعين. والذّم لا يكون إلاّ لترك واجب أو فعل محرّم، وإذا كان غير الخاشعين مذمومين، دل ذلك على وجوب الخشوع» ا.هـ(٢).

وإنما كان الخشوع في الصّلاة واجبًا، لأن به تَتِمّ حياة الصّلاة، والصّلاة ذات الرّوح تثمر سُكونًا، واطْمِئْنَانًا وَقَبولاً، كما أنها تكبح جماح النفس عن الفحشاء والمنكر. قال تعالى:

﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

وقال ﷺ: «**مَثَل الّذي لا يُتم ركوعه، وَيَنْقُر في سجوده، مَثَل الجائع يأكل التّمْرة، والتّمْرتَيْن، لا يُغنيان عنه شيئًا**» (٣).

وقال ﷺ: «**إن العبد لَيُصَلّي الصّلاةَ ما يُكْتب له منها إلاّ عُشرها، تُسعُها، ثُمنها، سُبعُهَا، سُدسها، خُمُسها، رُبعها، ثُلثها، نِصْفها**» (٤).

---

(١) رواه مسلم، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجة.

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٢/٥٥٣).

(٣) حسن: رواه الطبراني في «الكبير» (٤/١١٥).

(٤) صحيح رواه أحمد (٤/٣٢١)، وانظر: «صحيح الجامع» (١٦٢٦).

والخشوع في الصّلاة إنما يحصل لمن فرّغ قلبه لها، واشتغل بها عمّا عداها، وآثرها على غيرها، وحينئذٍ تكون راحة له، وقرّة عين.

هذا، والمعاني الباطنة التي تتمّ بها حياةُ الصّلاة يجمعها - كما قال الإمام الغزاليّ - :

ستّ جُمَل:وهي: حضور القلب، والتّفهم، والتّعْظيم، والهَيْبة، والرّجاء، والحياء.

ولنذكر تفاصيلها:

أمّا حُضور القلب: ونعني به أن يُفرّغ القلب من غير ما هو مُلابس له ومتكلّم به، فيكون العلم بالفعل والقول مقرونًا بهما، ولا يكون الفكر جائلاً في غيرهما، ومهما انصرف في الفكر عن غير ما هو فيه، وكان في قلبه ذكر لما هو فيه، ولما فيه غفلة عن كل شيء، فقد حصل حضور القلب.

وأمّا التّفهّم: فهو اشتمال القلب على العلم بمعنى اللّفظ، وهذا مقام يتفاوت الناس فيه، إذ ليس يشترك الناس في تفهم المعاني للقرآن والتسبيحات، وكم من معانٍ لطيفة يفهمها المصلّي في أثناء الصّلاة،ولم يكن قد خطر بقلبه ذلك قبله، فيقبل الإنسان على الفكر في المعاني، ويتشمّر لدفع الخواطر.

والتعظيم: يتولّد من: معرفة جلال الله ﷻ وعظمته، ومعرفة حقارة النّفس وخستها، وكونها عبدًا مربوبًا مسخّرًا، فيتولّد من المعرفتين:

الاستكانة والانكسار والخشوع لله سبحانه.

وأمّا الهيبة: فخوف مصدره الإجلال والتعظيم، وتتولد من المعرفة بقدرة الله ونفوذ مشيئته.

وأمّا الرّجاء: فسببه: معرفة لطف الله ﷻ، وكرمه وعميم إنعامه، ولطائف صنعه، ومعرفة صدقه في وعده بالجنة بالصّلاة.

وأمّا الحياء: فباستشعاره التقصير في العبادة، وعلمه بالعجز عن القيام بعظيم حق الله ﷻ، ويقوى ذلك بالمعرفة بعيوب النفس وآفاتها، وقلّة إخلاصها وخبث دخيلتها، وميلها إلى

الحظّ العاجل، مع العلم بعظيم ما يقتضي جلال الله ﷻ، وأنه مطّلعٌ على السّر وخطرات القلب.

وبقدر الإيمان واليقين بهذه المعاني يخشع القلب» ا.هـ[1].

واعلم أن الناس في الصلاة - كما قال **الإمام ابن القيم** - على مراتب خمس:

أحدها: مرتبة الظالم لنفسه المفرط، وهو الذي انتقص من وضوئها ومواقيتها، وحدودها، وأركانها.

الثاني: من يحافظ على مواقيتها، وحدودها، وأركانها الظّاهرة، ووضوئها، لكن قد ضيّع مجاهدة نفسه في الوسوسة، فذهب مع الوساوس والأفكار.

الثالث: من يحافظ على حدودها وأركانها، وجاهد نفسه في دفع الوساوس والأفكار، فهو مشغول بمجاهدة عَدوِّه لِئلاّ يَسْرِقَ صلاته، فهو في صلاة وجهاد.

الرابع: مَنْ إذَا قَامَ إلى الصّلاة أكمل حقوقها وأركانها وحدودها، واستغرق قَلْبَهُ مُراعاةَ حدودها وحقوقها لئلا يُضَيِّعَ شيئًا منها، بل هَمُّهُ كلُّه مصروفٌ إلى إقامتها كما ينبغي، وإكمالها وإتمامها، قد استغرق قَلْبَهُ شأنُ الصَّلاة وعبوديّة رَبِّه تبارك وتعالى فيها.

الخامس: مَنْ إذا قام إلى الصّلاة قام إليها كذلك، ولكن مع هذا قد أخذ قَلْبَهُ وَوَضَعَه بَيْن يَدَي رَبِّه - عزّ وجلّ - ناظرًا بقلبه إليه، مراقبًا له ممتلئًا من محبّته وعظمته كأنه يراه ويشاهده، وقد اضمحلّت تلك الوساوس والخَطرات، وارتفعت حُجُبُها بينه وبين رَبِّه، فهذا بَيْنَه وبين غيره في الصّلاة، أفضلُ وأعظمُ مِمّا بَيْن السَّماء والأرض، وهذا في صلاته مشغولٌ بِرَبِّه - ﷻ - قَرِيرُ الْعَيْن به.

فالقسم الأوّل معاقَبٌ، والثاني مُحَاسَبٌ، والثالث مُكَفَّرٌ عنه، والرابعُ مُثَابٌ،

---

(١) «الإحياء» (١/٢٧٨) باختصار.

والخامسُ مُقَرَّبٌ مِنْ رَبِّهِ ﷻ. ا.هـ[١].

هذا، واعلم أنَ مِمّا يُعين على الخشوع غير ما تقدم:

(١) الاستعداد للصلاة والتهيؤ لها:

ويحصل ذلك بأمور منها:

- الترديد مع المؤذّن.
- الإتيان بالدّعاء المشروع عَقبه.
- إحسان الطهور، وإسباغ الوضوء.
- استعمال السّواك.
- لبس أجمل الثياب، والتزيّن.
- التعطّر.
- المشي إليها بسكينة ووقار.
- صلاة تحية المسجد.
- صلاة السّنّة الراتبة.
- وَصْل الصّف.
- غضّ البصر والصَّوْت.

(٢) الطمأنينة في الصّلاة:

وذلكَ يكون: بإتمام ركوعها وسجودها، وتدبّر التلاوة فيها، وذلك اتباعًا لقول النبيِّ ﷺ :

«**صلّوا كما رأيتموني أُصَلّي**» [٢].

---

(١) «الوابل الصَّيب» (٣٨، ٣٩).

(٢) رواه البخاري.

ولأن الصّلاة على غير ما أَمَر النبيُّ ﷺ مهددة بالبطلان وعدم القبول:

فعن أبي عبدَ الله الأشعريّ ﷺ أن رسول الله ﷺ رأى رَجُلاً لا يُتمُّ ركوعَه، وَيَنْقُر في سُجُوده وهو يصلّي، فقال رسولُ الله ﷺ:

« **لو ماتَ هذا على حَالِه هذهِ مات على غيرِ مِلّةِ مُحمّد ﷺ** » [1].

ولِلّه دَرُّ القائل:

ألا َفي الصَّلاةِ الخيرُ والفَضْلُ أَجْمعُ	**لأنَّ بها الآرَاب[2] لِلّه تَخْضَعُ**
وأَوّلُ فَرْضٍ من شريعةِ دينِنا	**وآخر ما يَبْقى إذا الدِّين يُرْفَعُ**
فَمَنْ قام للتكبير لاقَته رحمة	**وكان كعبدٍ بابَ مَوْلاه يَقْرَعُ**
وصارَ لِربِّ الْعَرْشِ حين صلاته	**نَجِيًّا فيا طُوباهُ لو كان يَخْشعُ**

(٣) تذكر الموت في الصلاة:

قال ﷺ: « **اذكُرْ الموتَ في صلاتك، فإنّ الرَّجُلَ إذا ذَكَر الموتَ في صلاته لَحَريّ أن يُحسن صلاته، وصَلِّ صَلاةَ رَجُلٍ لا يظنّ أنه يُصَلّي غيرها** » [3].

(٤) الصَّلاَةُ إلى سُتْرةٍ والدُّنوّ منها:

قال ﷺ: « **إذا صلّى أحدُكم فَلْيُصَلِّ إلى سُتْرةٍ وَلْيَدْنُ[4] منها** » [5].

ولا يخفى أن في اتخاذ السّترة فوائد، منها:

أ - عدم قطع الصلاة بالمرور.

ب- استجماع القلب.

جـ- أقصر لنظر المصلّي.

---

(١) حسن: رواه الطبراني في «الكبير»، وغيره، وانظر: «صحيح الترغيب» (٥٢٩).

(٢) الآراب: أعضاء السّجود.

(٣) حسن: رواه الديلمي في «مسند الفردوس» (١/١/٥١ - مختصره)، وانظر: «الصحيحة» (١٤٢١).

(٤) وليدن: وليقرب.

(٥) صحيح: رواه أبو داود، وانظر: «صحيح الجامع» (٦٥١).

(٥) وضع اليد اليمنى على اليُسْرى على الصَّدْر:

قال ﷺ: «**إنا مَعْشَر الأنبياء أُمِرْنا أن نَضَع أَيْمَاننا على شمائلنا في الصّلاة**»[١].

وقد روي عن الإمام أحمد - رحمه الله - أنه سُئل عن المراد بذلك، فقال:

«هو ذُلّ بين يَدَي عَزِيز».

قال عليّ بن مُحمّد المصري الواعظ - رحمه الله - :

«ما سَمِعتُ في العِلْمِ بأحْسن مِنْ هَذا»[٢].

(٦) النَّظَرُ إلى مَوْضِعَ السُّجود:

فعن عائشة - رضي الله عنها - قالت:

«كان رسولُ اللهِ ﷺ إذا صَلَّى طأطأ رَأْسَهُ، وَرَمى بِبَصَرِه نحو الأرض»[٣].

(٧) التَّنْويع في السُّور والآيات والأذكار والأدعية في الصّلاة:

«وهذا يُشعر المصلّي بتجدّد المعاني ويفيده ورود المضامين المتعددة للآيات والأذكار، وهذا ما يفتقده الذي لا يحفظ إلاّ عددًا محدودًا من السّور «وخصوصًا قصارها» والأذكار، فالتنويع من السُّنّة أكمل في الخشوع»[٤].

(٨) إزالة ما يشغل الْمُصَلّي مِنَ المكان واللّباس:

فعن أنس رضي الله عنه قال:

كان قِرام[٥] لعائشة - رضي الله عنها - سترت به جانب بيتها، فقال لها النبيُّ ﷺ:

---

(١) قال الهيثميّ في «المجمع» (٣/١٥٥): رواه الطبراني في «الأوسط»، ورجاله رجال الصحيح.

(٢) «الخشوع في الصلاة» لابن رجب (٢٢).

(٣) **صحيح**: رواه الحاكم (١/٤٧٩)، وقال: «صحيح على شرط الشيخين» ، ووافقه الألباني.

(٤) «٣٣ سببًا للخشوع في الصلاة» للشيخ/ محمد صالح المنجد (٢٥).

(٥) **القرام**: ستر فيه نقش.

«**أَميطي**[١] **عَنِّي فإنّه لا تَزَال تَصَاوِيره تَعْرض لي في صَلاَتِي**» [٢].

وقد ذكرنا في خُلُق «الخشوع» قصّة الخِميصة التي أَلْهَتِ النبيَّ ﷺ في صلاته، فاستبدلها بأنبجانية.

(٩) **أن لا يُصَلِّي وَبِحَضْرته طعام يَشْتَهيه، ولا وهو يُدَافعه الأَخْبَثان:**

قال ﷺ : «**لا صَلاَة بِحَضْرةِ طعامٍ ولا وهو يُدافعه الأخبثان**[٣]» [٤].

(١٠) **أن لا يصلي في مكان به ضوضاء**؛ إن استطاع، ولا يخفى أن علوّ الصوت، والصّخب، من الأمور، التي تذهب الخشوع، لأنها تصرف وجْهَةَ القَلْب عَنْ مَقْصُودها.

قال ﷺ : «**لا تُصَلّوا خَلْفَ النائم ولا المتحدّث**» [٥].

سادساً: لقطات من حياة أهل الخشوع:

كان الإمام الحسن – رحمه الله – إذا تلا:

﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ ﴾ [المؤمنون: ٢].، قال:

«رَحِم اللّهُ قَوْمًا كان خشوعهم في قلوبهم، فغضّوا أَبْصارهم، وَحَفِظوا فروجَهم، وتجنّبوا المحارم، فنالوا أعْلى الدرجات».

وهذه لقطات من حياة هؤلاء، عسى أن تكون سببًا في إيقاظ القلوب، وعلوّ الهمم، وتعظيم قدر الصّلاة.

- **خشوع الأوزاعي:**

قال بشر بن المنذر : «رأيتُ الأوزاعيّ كأنه أعمى من الخشوع!» [٦].

---

(١) **أميطي** : أزيلي.

(٢) رواه البخاري.

(٣) **الأخبثان** : البول والغائط.

(٤) رواه مسلم (٥٦٠).

(٥) **حسن** : رواه أبو داود (٦٩٤)، وحسّنه الألباني.

(٦) «سير أعلام النبلاء» (١١٩/٧).

وكان - رحمه الله تعالى - يقول:

« مَنْ أَطَال قيامَ اللّيل، هَوّن اللّهُ عَلْيه وقوفَ يومِ القيامة » [١].

- **خشوع شُعْبة بن الحجّاج:**

قال أبو قطن - رحمه الله - :

« ما رأيتُ شُعْبة رَكَع قَطّ إلاّ ظننتُ أنه نَسِي، ولا قَعَدَ بَيْن السَّجْدَتَيْن إلاّ ظننتُ أنّه نَسِي » [٢].

- **خشوع الحسن بن صالح:**

قال أبو سليمان الدارانيّ - رحمه الله - :

« ما رأيتُ أحدًا الخوفُ، ظهرُ على وَجْهه والخشوع من الحسن بن صالح، قام ليلة: بـ ﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ [النبأ: ١]، فغشي عليه، فلم يختمْهَا إلى الفَجْر! » [٣].

- **خشوع منصور بن المعتمر:**

قال أبو الأحوص: « قالت بِنْت لِجَارِ « منصور بن المعتمر »: يا أبة أين الخشبة التي كانت على سطح منصور قائمة؟

قال: يا بُنيّة ذاك مَنْصورٌ، كان يقوم الليل! » [٤].

- **خشوع زين العابدين « عليّ بن الحسين »:**

عن أبي نوح الأنصاريّ، قال:

« وقع حَرِيق في بَيْتٍ فيه عليٌّ بن الحسين، وهو سَاجد، فجعلوا يقولون: يا ابن رسول الله، النّار، فَمَا رفع رأسه حتى طُفِئت. فقيل له في ذلك، فقال:

---

(١) نفس المرجع (١١٩/٧).

(٢) نفس المرجع (٢٠٧/٧).

(٣) « التذكرة » (٢١٧/١).

(٤) « السّير » (٤٠٣/٥).

ألهتني عنها النّارُ الأُخْرى!» [١].

وعن عبد الله بن أبي سليمان، قال:

كان عليُّ بن الحسين إذا مشى لا تجاوز يدُهُ فَخِذَيْه ولا يَخْطِرُ بها، وإذا قام إلى الصلاة، أخذتْه رَعْدة، فقيل له، فقال:

«تَدْرُون بَيْن يَدَي مَنْ أَقُوم وَمَنْ أُناجِي؟!» [٢].

وعنه، أنه كان إذا تَوضَّأ اصْفَرَّ[٣].

■ **خشوع مسلم بن يسار:**

قال ابْنُ عون، عن عبد الله بن مسلم بن يسار: إن أباه كان إذا صَلَّى كأنّه وَدٌّ[٤] لا يَميلُ لا هَكَذا ولا هكذا! [٥].

وقال ابنُ شَوْذَب: كان مسلم بن يسار يقول لأهله إذا دخل في الصّلاة:

«تَحدَّثوا فَلَسْتُ أَسْمَعُ حَديثكم» [٦].

وقال غَيْلان بن جرير: «كان مسلم بن يسار إذا صَلَّى كأنّه ثَوْبٌ مُلْقَى!».

■ **خشوعُ الْمُعَلّى بن منصور:**

قال يحيى بن مَعين: «كان الْمُعَلّى بن منصور يَوْمًا يُصَلّي، فوقع على رأسه كورُ الزّنابير، فَما الْتَفَتَ ولا انْفَتل حتى أَتمَّ صَلاته، فنظروا فإذا رأسه قد صار هكذا من شِدَّة الانتفاخ!» [٧].

---

(١) «ابن عساكر» (١٢/١٩ب).

(٢) نفس المرجع.

(٣) نفس المرجع.

(٤) **الودّ**: الوتد.

(٥) «السّير» (٤/٥١١).

(٦) «الحلية» (٢/٢٩٠).

(٧) «تاريخ بغداد» (١٣/١٨٩).

أخي الكريم:

هذه بعض أحوال الخاشعين.

في ظُلَمِ اللّيالي قائمين.

ولكتاب رَبِّهم تالين.

بنفوسٍ خائفة.

وقلوبٍ واجفة.

قد وضعوا جباههم على الثَّرى.

ورفعوا حَوَائِجهم لِمَنْ يَرَى ولا يُرَى.

﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ [الزمر: ١٨].

نسأل الله أن يَجْعَلَنا من أتْباعِهم، وأن يُوفِّقَنا لاتّباعِهم.



٢١- قِيامُ اللّيْلِ

قيام الليل: شَرَفُ المؤمن؛ فعن سَهْل بنْ سَعْدٍ ﷺ قال:

جاء جبريلُ إلى النبيِّ ﷺ فقال:

« يا مُحَمّد، عِشْ ما شئْتَ فإنّك مَيِّتٌ، واعْمَلْ ما شئْتَ فإنّك مَجْزِيٌّ به، وَأَحِبْ مَنْ شئْتَ فإنّك مُفَارِقُهُ، واعْلَمْ أن شَرَفَ المؤمنِ قِيامُ اللَّيْلِ، وَعِزُّه اسْتِغنَاؤه عن النَّاس » [١].

وهو: دَأبُ الصّالحين قَبْلنا؛ فعن أبي أُمامة الباهليّ ﷺ عن رسول الله ﷺ قال:

« عليكم بقيام اللّيْل، فإنّه دَأبُ الصَّالحين قَبْلكم، وَقُرْبَةٌ إلى رَبِّكم، وَمَكْفَرةٌ للّسيِّئاتِ، وَمَنْهَاةٌ عن الإثم » [٢].

أخي المسلم:

« حين يطول الأَمَدُ، ويشق الجهد، قد يضعف الصَّبر - الصَّبر على الطاعات ، والصَّبر على بطء النَّصْر، والصَّبر على بُعْد الشّقّة، والصَّبر على انتفاش الباطل، والصبر على قلّة الناصر، والصَّبر على طول الطريق الشّائك، والصَّبْر على التواء النفوس، وضلال القلوب، وثقلة العناد، ومضاضة الإعراض - أو ينفد إذا لم يكن هناك زَادٌ وَمَدد - ومن ثمّ قرن اللّهُ - تعالى - الصلاة إلى الصبر[٣]، فهي المعين الذي لا ينضب، والزّاد الذي لا ينفد.

المعين الذي يجدّد الطّاقة، والزّاد الذي يزوّد القلب، فيمتد حَبْلُ الصّبر ولا ينقطع، ثم يضيف إلى الصّبر: الرّضا والبشاشة والطمأنينة والثّقة واليقين.

---

(١) **حسن**: رواه الطبراني في « الأوسط »، وحسّنه المنذريّ والألباني.

(٢) **حسن**: رواه الترمذي، وابن أبي الدنيا في « التهجّد »، وانظر: « صحيح الترغيب » (٦٢٠).

(٣) في قوله تعالى: ﴿**واستعينوا بالصبر والصلاة**﴾ [البقرة: ٤٥].

إنه لابدّ للإنسان الفاني الضعيف المحدود أن يتّصل بالله حين يتجاوز الجهد قواه المحدودة، حينما تواجهه قوى الشّر الظّاهرة والباطنة، حينما يثقل عليه جهد الاستقامة على الطريق بين دفع الشهوات وإغراء المطامع، وحينما تثقل عليه مجاهدة الطغيان وهي عنيفة، حينما يطول به الطريق، وتبعد به الشّقة في عمره المحدود، ثم ينظر فإذا هو لم يبلغ شيئًا، وقد أوشك المغيب، ولم ينل شيئًا وشمس العمر تميل للغروب، حينما يجد الشّر نافشًا والخير ضاويًا، ولا شعاع في الأفق ولا مَعْلم في الطريق، هنا تبدو قيمة الصّلاة.

إنّها الصّلة المباشرة بين الإنسان الفاني ومولاه الباقي.

إنّها الموعد المختار للالتقاء بالنبع الذي لا يغيض.

إنها مفتاح الكنز الذي يغني ويقني ويفيض.

إنها الانطلاقة من حدود الواقع الأرضي الصغير إلى مجال الواقع الكوني الكبير.

إنها الرّوح والنّدى والظلال في الهاجرة.

إنّها اللّمسة الحانية للقلب المتعب المكدود.

إنها زاد الطريق ومدد الروح وجلاء القلب.

إن الله – سبحانه – حينما انتدب محمدًا – ﷺ للدور الكبير الشاق الثقيل قال له:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ [المزمل: ١- ٥].

فكان الإعداد للقول الثقيل والتكليف الشاق والدور العظيم هو «**قيام الليل**»، و «**ترتيل القرآن**»، إنّها العبادة التي تفتح القلب، وتوثق الصّلة، وتيسّر الأمر، وتشرق بالنّور، وتفيض بالعزاء والسّلوى والرّاحة والاطمئنان.

ومن ثّمّ يُوجّه اللّهُ المؤمنين – هنا – وهم على أبواب المشقات العظام إلى الصّبر والصّلاة» [1].

---

(١) «الظلال» للأستاذ/ سيد قطب – رحمه الله – .

أخي:

إن حياة النفس في السُّموّ، ونجاتها في العلوّ، بل نجاة الأمم.

هِمَمُ الأَحرارِ تُحيِي الرِّمَا نفحةُ الأبرار تُحيْي الأُمَمَا

هِمّتك احفظها بقيام اللّيْل، فإنَّ الهمَّة مقدّمة الأشياء فمن صلحت له هِمَّته وصدق فيها، صلح له ما وراء ذلك من الأعمال، ويمثل لها **الإمام ابن القيم** - رحمه الله- بمثل لطيف فيقول:

«مَثَل القلب مثل الطائر، كُلَّما عَلاَ: بَعُد عن الآفات، وَكُلَّما نزل: احْتَوَشَته الآفات» [1].

أخي:

إنّ الذَّنْبَ لا يُسْقى إلاّ بدمع، والشجاعة تُسْقى بدموع اللّيل، وما عرف الإسلام رجاله إلاّ كذلك، ولم يقل **ابْنُ القيّم** - رحمه الله - باطلاً في وصفه لهم بأنّهم:

في اللَّيل رُهْبَان وعند جهادِهم لعدوِّهم مِنْ أَشْجَع الشُّجْعَانِ[2]

من أجل هذا، وغيره، فالحديث - هنا - يدور حول

الأول: فضيلة قيام الليل.

والثاني: الأسباب التي بها يتيسّر قيام الليل.

والثالث: لقطات من حياة قوّام الليل.

أولاً: فضيلة قيام الليل:

ورد في فضل قيام الليل آيات وأحاديث وآثار كثيرة:

---

(١) «الجواب الكافي» (٧٠).

(٢) «رهبان الليل» د. سيد العفّاني (٤٠/١).

فمن الآيات:

(١) قوله تعالى: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [السّجدة: ١٦، ١٧].

قال الإمام الطبري - رحمه الله - في «تفسيره»:

«وإنّما وَصَفهم اللّهُ تعالى ذِكْرُه بِتجَافي جُنوبهم عن المضاجع لتركهم الاضطجاع للنّوم شُغلاً بالصَّلاة» ا.هـ[(١)].

(٢) وقال تعالى: ﴿ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الذاريات: ١٧، ١٨].

قال الإمام الحسن - رحمه الله -:

«لا ينامون من اللّيل إلاّ أقلّه، كابدوا قيام الليل».

وقال الإمام أبو السّعود - رحمه الله - في قوله تعالى: ﴿ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾:

«أي هم مع قلّة هجوعهم وكثرة تهجدهم يداومون على الاستغفار في الأسحار كأنهم أسلفوا ليلهم باقتراف الجرائم!» ا.هـ[(٢)].

(٣) وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴾ [الفرقان: ٦٤].

قال القاسمي - رحمه الله -:

«قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ﴾ إشارة إلى الإخلاص في أدائها وابتغاء وجهه الكريم» ا.هـ[(٣)].

---

(١) «تفسير الطبري» (٩٩/٢١).

(٢) «تفسير أبي السعود» (١٠١/٥).

(٣) «محاسن التأويل» للقاسمي (٤٥٨٩/١٢).

(٤) وقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴾ [المزمل: ١- ٨].

قال أبو عبد الرحمن السّلمي - رحمه الله - :

لمّا نزلت: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ قام رسولُ الله ﷺ وأصحابه حولاً حتى انتفخت أقدامهم وسوقهم حتى نزلت: ﴿ إِنَّ هَـٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴾ [المزمل: ١٩]. حتى بلغ ﴿ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ ﴾ [المزمل: ٢٠][(١)].

(٥) وقال تعالى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ [الزمر: ٩].

قال ابن عباس - رضي الله عنهما - :

«مَنْ أَحَبّ أن يُهوِّن اللّهُ عليه طول الوقوف يَوْم القيامة فَلْيَرَه اللّهُ في ظُلْمَة اللّيل سَاجدًا وقائمًا يَحْذَر الآخرة».

ومن السُّنة المطهّرة:

(١) عن أبي هريرة ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ :

«يَعْقِدُ الشّيطانُ على قافِية رأسِ أحدِكم إذا هو نام ثلاثَ عُقَد، يَضْرِبُ على كُلِّ عُقْدة: عليك ليلٌ طويلٌ فارْقُدْ، فإن استيقظ فذكر الله تعالى انْحَلّتْ عُقْدةٌ، فإن تَوضّأ انْحَلّتْ

---

(١) إسناد الرواية «صحيح» كما ذكر الحافظ في «الفتح» (٢٨/٣).

عُقْدَةٌ، فإن صَلّى انْحَلّتْ عُقَدَهُ كُلّها، فأصبح نَشِيطًا طَيِّب النّفْسِ، وإلاّ أصبح خَبِيثَ النَّفْسِ كَسْلان » (١).

قال الإمام النووي – رحمه الله – :

« ظاهر الحديث: أن من لم يجمع بين الأمور الثلاثة وهي: الذّكر والوضوء والصّلاة، فهو داخل فيمن يصبح خَبِيث النّفس كسلان » ا.هـ.

(٢) وعن أبي هريرة – أيضًا – قال:

قال رسولُ الله ﷺ :

« **أَفْضَل الصّلاة بعد الصّلاة المكتوبة: الصّلاة في جَوْف اللّيل، وأفضل الصِّيام بعد شَهْرِ رمضان: صيام شهر الله الْمُحَرّم** »(٢).

(٣) وعن أمّ سلمة – رضي الله عنها – أن النبيَّ ﷺ استيقظ ليلة، فقال:

« **سُبْحان الله، ماذا أُنزل اللّيلة من الفِتْنَة، ماذا أُنزل من الخَزَائن، مَنْ يُوقِظ صَوَاحِب الحُجَرات، يَا رُبَّ كاسيةٍ في الدُّنيا عَارِية في الآخرة** » (٣).

قال الحافظ ابن حَجَر – رحمه الله – :

« قال ابن بطّال: فيه فضيلة صلاة الليل، وإيقاظ النائمين من الأهل والقرابة لذلك » ا.هـ(٤).

(٤) وعن أبي مَالك الأشعري ﷺ عن النبيِّ ﷺ قال:

« **إنّ في الجنّة غُرَفًا يُرَى ظاهرُها من باطنها، وباطنُها من ظاهِرها، أعَدَّها اللّهُ لِمَنْ أطعمَ الطّعام، وأَفْشَى السَّلام، وَصَلّى باللّيْل والنّاسُ نِيام** » (٥).

---

(١) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

(٢) رواه مسلم ، وغيره.

(٣) رواه البخاري، وغيره.

(٤) « فتح الباري» (٣/١٥).

(٥) **صحيح**: رواه ابن حبان في « صحيحة » ، وانظر: « صحيح الترغيب » (٦١٤).

(٥) وعن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال:

قال رسول الله ﷺ:

« ثلاثٌ مُهْلِكاتٌ، وثلاثٌ مُنجياتٌ، وثلاث كَفّاراتٌ، وثلاث دَرَجَاتٌ:

فأمّا المهلكاتُ: فَشُحٌّ مُطَاعٌ، وَهَوىً مُتَّبَعٌ، وإعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسه.

وأمّا الْمُنْجياتُ: فالْعَدْلُ في الغَضَبِ والرِّضا، والقَصْدُ في الْفَقْرِ والغِنى، وَخَشيَةُ الله تعالى في السِّرِّ والعَلانية.

وأمّا الكَفَّارتُ: فانْتِظَارُ الصّلاة بَعْد الصلاة، وإسْبَاغُ الوضوء في السَّبَرَات[1]، ونَقْلُ الأَقْدام إلى الجَمَاعات.

وأمّا الدَّرَجَاتُ: فإطعامُ الطّعام، وإفْشَاءُ السّلام، والصّلاة باللّيل والنّاسُ نيام » [2]

قال العلاّمة المناوي - رحمه الله - :

« أي التهجّد في جوف الليل حال غفلة الناس واستغراقهم في لذّة النوم، وذلك هو وقت الصّفاء، وتنزلات غَيْث الرّحمة، وإسراف الأنوار » ا.هـ.

(٦) وعن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال:

« أحبُ الصلاة إلى الله: صلاةُ داود، و أحبّ الصّيام إلى الله ﷻ صيامُ داودَ عليه السلام كان ينام نِصْفَ اللّيل، ويقوم ثُلُثَه، وَيَنامُ سُدُسَهُ، ويصوم يَوْمًا، ويُفْطِرُ يومًا » [3].

قال الحافظ ابن حجر - رحمه الله - :

« وإنما صارت هذه الطريقة أحبّ، من أجل الأَخْذ بالرِّفْق للنّفس، التي يُخْشى منها السَّآمة » ا.هـ.

(٧) وعن جابر رضي الله عنه قال:

سمعتُ رسول الله ﷺ يقول:

---

(١) **السّبرات**: شدّة البرد.

(٢) **حسن بمجموع طرقه**: رواه الطبراني في « الأوسط »، وأبو نعيم، وانظر: « الصحيحة » (١٨٠٢).

(٣) رواه البخاري ومسلم، وغيرهما.

« **إن في اللَّيْل لسَاعة لا يُوافقها رَجلٌ مُسْلم يسأل الله خَيْرًا مِنْ أمر الدُّنْيا والآخرة إلاّ أعطاه إيّاه، وذلك في كُلّ ليلة** » [١].

قال العلامة المناوي – رحمه الله – :

« وحِكْمة إبْهامِها توفّر الدّواعي على مُراقبتها، والاجتهاد في الدّعاء في جميع ساعات الليل كما قالوه في إبهام ليلة القَدْر » ا.هـ[٢].

(٨) وعن أبي هريرة وأبي سعيد – رضي الله عنهما – قالا:

قالَ رسولُ الله ﷺ :

« **إنَّ الله تعالى يمهل حتى إذا كان ثُلث اللّيل الآخِر نزل إلى السَّماء الدُّنيا فنادى:**

هل مِنْ مُسْتَغْفر؟ هل مِنْ تَائب؟ هل من سَائِل؟ هل من دَاعٍ؟ حتى يَنْفَجِرَ الفَجْرُ » [٣].

والأحاديث في هذا المعنى كثيرة.

(٩) وعن عثمان بن أبي العاص ﷺ قال:

قالَ رسولُ الله ﷺ :

« **تُفْتح أبوابُ السّماء نِصْف اللّيل فينادى مناد: هل من داعٍ فَيُسْتجاب له؟ هل من سائلٍ فَيُعْطى هل مِن مَكْروب فَيُفَرَّج عنه فلا يبقى مسلمٌ يدعو بدعوة إلا اسْتجاب اللّهُ تعالى له إلاّ زانيةً تَسْعى بفرجها**[٤]**أو عَشّارًا**[٥] » [٦].

(١٠) وعن سهل بن سعد، قال:

قالَ رسولُ الله ﷺ :

---

(١) رواه مسلم وغيره.
(٢) « فيض القدير » (٢/٤٧٢).
(٣) رواه أحمد ومسلم.
(٤) تسعى بفرجها؛ أي: تتكسّب به.
(٥) **العشّار**: المكاس.
(٦) **صحيح**: رواه الطبراني في « الأوسط »، وانظر: « صحيح الجامع » (٢٩٦٨).

«أتاني جبريلُ، فقال: يا مُحمّد عِشْ ما شئتَ فإنّك ميِّت، واحْبب مَنْ شئتَ فإنّك مُفَارِقه، واعمل ما شئتَ فإنّك مَجْزيّ به، واعْلَم أن شَرَف المؤمن قيامه باللّيل، وعِزه استغناؤه عن الناس» (١).

قال الإمام الغزالي - رحمه الله - :

«جمعت هذه الكلمات حكم الأوّلين والآخرين، وهي كافية للمتأمّل فيها طول العمر إذ لو وقف على معانيها وغلبت على قلبه غلبة يقين استغرقته وحالت بينه وبين النّظر إلى الدّنيا بالكلية والتلذّذ بشهواهما، وقد أوتي المصطفى ﷺ جوامع الكلم، وكلّ كلمة من كلماته بَحْر من بحور علوم الحِكمة» ا.هـ.

(١١) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

جاء رجلٌ إلى النبيِّ ﷺ فقال:

إنّ فُلاَنًا يُصَلّي باللّيْل، فإذا أَصْبح سَرَق!

فقال: **«إنّهُ سَيَنْهَاه ما تقول»** (٢).

(١٢) وعن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قال:

«ثلاثةٌ يُحبّهُم اللّهُ، ويَضْحَكُ إليهم، ويَسْتَبْشِر بهم:

الذي إذا انكشفتْ فِئَةٌ قاتَلَ وَراءَها بنَفْسه للّه عز وجل ، فإمَّا أن يُقْتَلَ وإمَّا أن يَنْصُرَه اللّهُ وَيْكفيه، فيقولُ: انظروا إلى عَبْدي هذا كَيْفَ صَبَر لِي بنَفْسه؟ والّذي له امْرأةٌ حَسَنَةٌ، وَفِراشٌ لَيِّنٌ حَسَنٌ، فَيَقُوم من اللّيْل، فيقول: يَذَرُ شَهْوَتَه وَيَذْكُرُني، ولو شاءَ رَقَد.

والذي إذا كان في سَفَر، وكان معه رَكْبٌ، فَسَهِرُوا، ثم هَجَعُوا، فَقَام مِنَ السَّحَر في ضَرَّاءَ وسَرَّاءَ» (٣).

---

(١)**حسن** : وقد تقدّم قريبًا.

(٢)**صحيح** : رواه أحمد، والبيهقي، وقال الألباني: «إسناده صحيح»، انظر: «المشكاة» (١٢٣٧).

(٣)**حسن** : رواه الطبراني في «الكبير»، وانظر: «صحيح الترغيب» (٦٢٥).

(١٣) وعن عقبة بن عامر ﷺقال:

سمعتُ رسول الله ﷺ يقول:

«الرّجُل مِنْ أُمَّتي يقومُ مِنَ اللّيلُ يُعَالِج نَفْسَه إلى الطّهور، وعليه عُقَدٌ، فإذا وَضَّأ يديه انْحلّتْ عُقْدةٌ، وإذا وَضّأ وَجْهَه انْحلَّت عُقْدَةٌ، وإذا مَسَح رأسه انْحَلّتْ عُقْدةٌ، وإذا وَضَّأ رِجْلَيْه انْحَلَّت عُقْدَةٌ، فيقول اللّهُ ﷻللذين وَرَاءَ الحِجَاب:

انظروا إلى عَبْدي هذا يُعَالِج نَفْسَه، ويسألني، ما سَألني عَبْدي هَذا فَهُو لَهُ» [١].

(١٤) وعن أبي هريرة ﷺقال:

قال رسولُ الله ﷺ :

«رَحِمَ اللّهُ رَجُلاً قامَ من اللّيل فَصَلَّى ، وأيقظ امْرَأته فَصَلَّتْ، فإن أَبَتْ نَضَح[٢] في وَجْهِها الماء، وَرَحم اللّهُ امْرأةً قامَتْ من اللّيل فَصَلَّتْ، وأيقظت زَوْجَها فَصَلَّى، فإن أَبَى نَضَحَتْ في وَجْهِه الماء» [٣].

قال العلاّمة المناوي - رحمه الله - :

«نُبِّه به على ما في مَعْناه من نحو مَاء وَرْد أو زَهْر، وخُصّ الوجه بالنّضْح لِشَرفه، ولأنّه محلّ الحواس التي بها يحصل الإدْراك.

والحديث أفاد كما قال الطّيبي: أن مَنْ أصاب خيرًا ينبغي أن يُحبّ لغيره ما يحبّ لنفسه فيأخذ بالأقرب فالأقرب. فقوله: «**رحم اللّهُ رجلاً**» تنبيه للأمّة بمنزلة رَشّ الماء على الوجه لاسْتيقَاظ النّائم، وذلك لأن المصطفى ﷺ لمّا نال ما نال بالتهجّد من الكرامة أراد أن يحصل لأُمَّته حَظٌّ مِنْ ذلك، فحثّهم عليه عادِلاً عن صِيغة الأَمْر للتّلطّف» ا.هـ[٤].

---

(١) **حسن**: رواه أحمد، وابن حبان في «صحيحه» واللفظ له، وانظر: «صحيح الترغيب» (٦٢٧).

(٢) **نَضَح**: رَشّ.

(٣) **صحيح**: رواه أبو داود، والنسائي، وغيرهما، وصحّحه النووي والألباني، وحسّنه الأرناؤوط.

(٤) «فيض القدير» (٤/٢٥، ٢٦).

(١٥) وعن أبي هريرة وأبي سعيد - رضي الله عنهما - قالا:

قال رسولُ الله ﷺ :

« إذا استيقظ الرّجُلُ من اللّيل، وأيقظ أهْله وصَلّيا رَكْعَتَيْن كُتِبا من الذّاكرين الله كثيرًا والذّاكرات » [١].

(١٦) وعن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - قال:

قال رسولُ الله ﷺ :

« مَنْ قامَ بِعَشْر آيات لم يُكْتَبْ من الغَافِلين، ومن قام بمائِة آية كُتِب من القَانِتين، ومن قام بألف آية كتب من الْمُقَنْطِرين[٢] » [٣].

(١٧) وعن أنس ، قال:

قال رسولُ الله ﷺ :

« جَعَلَ اللّهُ عليكم صَلاةَ قَوْمٍ أبرار[٤]، يقومون اللّيل، ويصومون النّهار، لَيْسُوا بِأَثَمَةٍ ولا فُجَّار » [٥].

(١٨) وعن ابن مسعود ﷺ قال:

ذُكِر عند النبيِّ ﷺ رَجُلٌ نَام لَيْلَةً حتى أَصْبح[٦]، قال:

« **ذاكَ رَجُلٌ بَالَ الشيطانُ في أُذُنه** - أو قال - **في أُذُنيه** » [٧].

---

(١) صحيح : رواه أبو داود ، والنسائي، وغيرهما، وصحّحه السيوطي والألباني.

(٢) من المقنطرين ؛ أي: مِمّن كُتِب له قِنْطَارٌ مِنَ الأَجْر.

(٣) صحيح : رواه أبو داود، وابن خزيمة، وغيرهما، وانظر: « الصحيحة » (٦٤٢).

(٤) صلاة قوم : دعاء قوم.

(٥) صحيح : رواه عبد الله بن حميد، وغيره، وانظر: « الصحيحة » (١٨١٠).

(٦) يعني: حتى أذّن لصلاة الصّبح.

(٧) رواه البخاري ومسلم والنسائي.

قال الإمام الحسن – رحمه الله – «إن بوله والله لثقيل».

وقال الحافظ ابْنُ حَجَر – رحمه الله – :

«قال القرطبيّ وغيره: لا مانع من ذلك، إذ لا إحالة فيه لأنه ثبت أن الشيطان يأكل ويشرب وينكح، فلا مانع من أن يبول. وقيل: هو كناية عن سدّ الشيطان أُذُن الذي ينام عن الصّلاة حتى لا يسمع الذّكْر. وقيل: معناه: أن الشيطان ملأ سمعه بالأباطيل فَحَجَب سَمْعَه عن الذّكْر. وقيل: معناه: أن الشيطان استولى عليه، واستخفّ به حتى اتّخذه كالكنيف الْمُعدّ للبول، إذ مِنْ عَادة المستخفّ بالشّيء أن يبول عليه» ا.هـ[1]. وقيل غير ذلك.

والأحاديث في فضل قيام الليل كثيرة.

ومن الآثار:

- **قال الإمام الحسن** – رحمه الله – :
- «ما نعلم عملاً أشدّ من مكابدة الليل، ونفقة هذا المال»، فيقل له:

ما بال المتهجّدين من أحسن الناس وجوهًا؟

قال: «لأنّهم خَلَوْا بالرَّحْمَن فألْبَسَهم نورًا من نوره»[2].

- **وقال الفضيل بن عياض** – رحمه الله – :

«إذا لم تقدر على قيام الليل، وصيام النهار، فاعلم أنّك محروم، وقد كثرت خطيئتك»[3].

- **وقال مالك بن دينار** – رحمه الله – :

سهوتُ ليلةً عَنْ ورْدِي ونمتُ، فإذا أنا في المنام بِجَارِية كأحَسن ما يكون وفي يدها رُقْعة، فقالت لي:

---

(١) «فتح الباري» ج٣، باب «إذا نام و لم يصلّ بال الشيطان في أُذُنه».

(٢) «الإحياء» (١/٥٨٠).

(٣) نفس المصدر السابق.

أَتُحْسِن تَقْرأ؟

فقلتُ: نعم، فَدَفَعَتْ إليَّ الرُّقْعة، فإذا فيها:

أَأَلْهَتْكَ اللّذائذُ والأماني — عن البيضِ الأوَانسِ في الجنانِ
تعيشُ مُخَلّدًا لا مَوْتَ فيها — وتَلْهو في الجنان مع الحِسَانِ
تَنَبّه مِنَ مَنَامِك إنّ خَيْرًا — من النَّوْمِ التهجّد بالقرآنِ[1]

ثانيا: الأسبابُ التي بها يَتَيَسَّر قِيَام اللّيل:

اعلم أن قيامَ اللّيل عَسِير على الْخَلْق إلاّ على من وُفِّق القيام بشروطه الميّسرة له ظاهِرًا وباطنًا.

فأمّا الظاهرة فأربعة أمور:

الأول: أن لا يكثر الأكل فيكثر الشرب فيغلبه النوم ويثقل عليه القيام:

كان بعض الشيوخ يقف على المائدة كل ليلة ويقول:

«مَعَاشِر المريدين لا تأكلوا كثيرًا فَتَشْرَبوا كثيرًا فَتَرْقُدوا كَثيرًا فَتَتَحسَّروا عند الموت كثيرًا»

الثاني: أن لا يتعب نفسه بالنهار في الأعمال التي تعيا بها الجوارح وتضعف بها الأعصاب، فإن ذلك أيضًا مجلبة للنوم[2].

عن أبي هريرة ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«إنّ الله يبغض كُلّ جَعْظَريّ جَوّاظ، صَخّاب في الأَسْواق، جِيفة باللّيل، حِمَار بالنهار، عَالِم بأَمْر الدّنيا، جَاهِل بأَمْر الآخرة» [3].

---

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) ليس في هذا دعوة لترك التكسّب فتنبّه.

(٣) **صحيح**: رواه ابن حبان في «صحيحه»، والبيهقي في «السنن الكبرى»، وانظر: «الصحيحة» (١٩٥).

الثالث: أن لا يترك القَيْولة بالنَّهار، فإنّها سُنّة للاستعانة على قيام اللّيل.

الرابع: أن لا يحتقب الأوزار بالنّهار، فإن ذلك مما يقسي القلب ويحول بينه وبين أسباب الرحمة.

- قال رجلٌ للحسن: يا أبا سعيد إني أبيت معافى، وأحبّ قيام الليل، وأعدّ طهوري، فما بالي لا أقوم؟!

فقال: «ذنوبك قَيّدتَك».

- وكان الحسن - رحمه الله - إذا دخل السّوق فسمع لغطهم ولغوهم يقول:

«أظنّ أن ليل هؤلاء ليل سوء فإنهم لا يقيلون».

- وقال الثوريّ - رحمه الله - :

«حُرمت قيام الليل خمسة أشهر بذنب أذنبته!»، قيل:

وما ذاك الذّنب؟

قال: «رأيت رجلاً يبكي فقلتُ في نفسي: هذا مُرَاء».

- وقال بعضهم: دخلتُ على كرز بن وبرة وهو يبكي، فقلتُ:

أتاك نعيُ بعض أهلك؟

فقال: أشدّ.

فقلتُ: وجع يؤلمك؟

قال: أشدّ.

قلتُ: فما ذاك؟

قال: بابي مُغْلَق، وَسَتْري مُسْبل، و لم أقرأ حِزْبي البارحة، وما ذاك إلاّ بذنب أَحْدَثْتُه».

وهذا لأن الخير يدعو إلى الخير، والشّر يدعو إلى الشّر، والقليل من كل واحد منهما يجرّ إلى الكثير، ولذلك قال أبو سليمان الداراني:

«لا تفوت أحدًا صلاة الجماعة إلاّ بذنب!».

وقال بعضُ العلماء: «إذا صمت يا مسكين فانظر عند من تفطر، وعلى أيّ شيء تفطر، فإن العبد ليأكل أكلة فينقلب قلبه عمّا كان عليه ولا يعود إلى حالته الأولى».

فالذّنوب كلّها تورث قساوة القلب، وتمنع من قيام الليل، وأخصّها بالتأثير تناول الحرام.

وتؤثّر اللّقمة الحلال في تصفية القلب وتحريكه إلى الخير ما لا يؤثّر غيرها، ويعرف ذلك أهل المراقبة للقلوب بالتجربة بعد شهادة الشرع له.

وكما أن الصّلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، فكذلك الفحشاء تنهى عن الصلاة وسائر الخيرات.

وأمّا الميسّرات الباطنة فأربعة أمور:

الأوّل: سلامة القلب عن الحقد على المسلمين، وعن البدع، وعن فضول هموم الدنيا؛ فالمستغرق الهمّ بتدبير الدنيا لا يتيسّر له القيام، وإن قام لا يتفكر في صلاته إلاّ في مهمّاته، ولا يجول إلاّ في وساوسه.

الثاني: خوف غالب يلزم القلب مع قصر الأمل، فإنه إذا تفكّر في أهوال الآخرة، ودركات جهنم، طار نومُه، وعظم حذره كما **قال طاوس:**

«إن ذكر جهنم طيّر نوم العابدين».

وقال ذو النون المصري - رحمه الله - :

مَنع القرآنُ بوَعْده ووعيده مُقَلَ العيون بلَيْلها أن تَهْجعا
فَهِموا عن الْمَلِك الجليل كَلاَمه فِرقابهم ذَلَّت إليه تَخَضعا

وقَال ابن المبارك - رحمه الله - :

إذا ما اللّيلُ أظلم كابدوه فَيُسْفر عنهم وهم ركوعُ
أطار الخوْفُ نَوْمَهم فقاموا وأهل الأمْنِ في الدُّنيا هُجوعُ

الثالث: أن يعرف فضل قيام الليل بسماع الآيات والأخبار والآثار حتى يستحكم به رجاؤه وشوقه إلى ثوابه، فهيّجه الشوق لطلب المزيد والرغبة من درجات الجنان.

الرابع: وهو أشرف البواعث؛ الحبّ لله وقوّة الإيمان بأنه في قيامه لا يتكلّم بحرف إلا وهو مناج ربّه، وهو مطّلع عليه مع مشاهدة ما يخطر بقلبه، وأن تلك الخطرات من الله تعالى خطاب معه، فإذا أحبّ الله تعالى أحبّ لا محالة الخلوة به وتلذّذ بالمناجاة، فتحمله لذة المناجاة بالحبيب على طول القيام.

- قال عليّ بن بكّار: «منذ أربعين سنة ما أحزنني شيءٌ سوى طلوع الفجر!».
- وقال الفضيلُ بن عياض: «إذا غربت الشّمس فرحتُ بالظّلام لخلوتي بربّي، وإذا طلعت حزنت لدخول الناس عليَّ!».
- وقال أبو سليمان الداراني: «أهل الليل في ليلهم ألذّ من أهل اللّهو في لهوهم، ولولا الليل ما أحببتُ البقاء في الدنيا».
- وقال بعضُ العلماء: «ليس في الدنيا وقت يشبه نعيم أهل الجنة إلاّ ما يجده أهل التملّق في قلوبهم بالليل من حلاوة المناجاة».
- وقال ابن المنكدر: «ما بقي من لذّات الدنيا إلاّ ثلاث: قيام الليل، ولقاء الإخوان، والصّلاة في جماعة».
- وشكا بعض المريدين إلى أُستاذه طولُ سهر الليل، وطلب حيلة يجلب بها النوم، فقال أستاذه:

«يا بنيّ، إن لله نفحات في الليل والنهار تصيب القلوب المتيقّظة، وتخطئ القلوب النائمة، فتعرّض لتلك النفحات».

فقال: يا سيّدي، تركتني لا أنام بالليل ولا بالنّهار.

واعلم أن هذه النفحات بالليل أرجى لما في قيام الليل من صفاء القلب واندفاع الشواغل[1].

---

(١) «الإحياء» (١/٥٨١- ٥٨٥) باختصار، وإضافة.

ثالثًا: لقطات من حياة قوّام الليل:

لمّا علم الأنبياءُ وَمَنْ سار على نهجهم قَدْر قيام الليل وفَضْله، نَصَبوا إلى رَبِّهم أقدامهم، وافترشوا إليه وُجُوهَهم، وناجوه بِكَلامِه، وتَمَلَّقوا إليه بإنعامه، فَبَيْن صَارِخٍ وباكي، وَبَيْن مُتأوِّه وشاكي.

وهذه بعض أحوالهم، ومناجاتهم، وأقوالهم، التي فَاحَ شَذَاها:

■ **قيام النبيِّ ﷺ:**

الحديث عن قيام النبيِّ ﷺ يحتاج لمصنّف مستقل، ويكفي أن نشير - هنا - إلى لقطات، تدلّ على علوّ همّته ﷺ وشدّة عبادته، فمن ذلك:

(١) عن ابن مسعود ﷺ قال:

«صليتُ مع رسول الله ﷺ [(١)] فأطال حتى هممتُ بأَمْرِ سَوْءٍ».

قيل: وما هممت به؟

قال: «هَمَمْتُ أن أَجْلِسَ وأدَعه» [(٢)].

قال الحافظُ ابْنُ حَجَر - رحمه الله - :

«وفي الحديث دليل على اختيار النبيِّ ﷺ تطويل صلاة الليل، وقد كان ابن مسعود قويًّا محافظًا على الاقتداء بالنبيّ ﷺ وما هَمَّ بالقعود إلاّ بعد طولٍ كثير ما اعتاده» ا.هـ [(٣)].

(٢) وعن أنس ﷺ قال:

وجد رسول الله ﷺ ذات ليلة شيئًا فلمّا أصبح قيل: يا رسولَ الله، إنّ أَثَر الْوَجَع عليك لَبَيِّن . قال:

---

(١) وفي رواية: «صلّيت مع النبيِّ ﷺ ليلةً .. ».

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) «فتح الباري» (١٩/٣).

«إنّي على ما تَرَوْن بِحَمْد الله قد قرأتُ السَّبع الطوال!» [(١)].

- **قيام داود عليه السلام:**

عن عبد الله بن عمرو بن العاص، قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«أحبّ الصّيام إلى الله - عز وجل - صيامُ داودَ عليه السلام كان يصوم يَوْمًا، ويَفْطِرِ يومًا، وأحبُّ الصّلاة إلى الله، صلاةُ داود، وكان ينام نِصْفَ اللَّيل، ويقوم ثُلُثَه، وَيَنامُ سُدُسَهُ» [(٢)].

- **قيام عروة بن الزُّبَير:** «تُقْطَع رِجْلَهُ فيقوم الليل بِسُبع القرآن!!».

عن هشام بن عروة: أن أباه وقعت في رجله الآكلة، فقيل: ألا ندعو لك طبيبًا؟

قال: إن شئتم.

فقالوا: نسقيك شرابًا يزول فيه عقلك؟

فقال: امْضِ لِشَأْنك، ما كنتُ أظنّ أن خَلْقًا يشرب ما يزيل عَقْله حتى لا يعرف به. فوضع المنشار على ركبته اليسرى، فما سمعنا له حِسًّا، فلمّا قطعها جعل يقول:

«لئن أخذتَ لقد أبْقَيْتَ، ولئن ابْتَلَيْتَ فقد عَافِيت»، وما ترك جزأه بالقرآن تلك الليلة! [(٣)].

أي: صلاته بالقرآن، وإن جزأه لسبع القرآن! [(٤)].

- **قيام طَلْق بن حَبيب**[(٥)]: «كان لا يركع حتى يبلغ العنكبوت!!».

قال سفيان بن عيينة: «سمعتُ عبد الكريم يقول: كان طلق لا يركع إذا افتتح القراءة

---

(١) **صحيح**: أخرجه أبو يعلى، والحاكم، وقال: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبيّ.

(٢) رواه البخاري ومسلم، وغيرهما.

(٣) «السِّير» (٤/٤٣٠).

(٤) «صلاح الأمّة» د. سيد العفّاني (٢/٣٨٥).

(٥) من التابعين الكرام.

حتى يبلغ العنكبوت، وكان يقولُ إني أشتهي أن أقوم حتى يشتكي صُلْبي!».

وكان - رحمه الله - يقول:

«يموت المسلمُ بين حَسَنَتَيْن، حَسَنةٍ قد قضاها، وحسنةٍ ينتظرها - يعني الصّلاة -».

إخواني:

عبارات النّسيم لا يفهمها إلاّ المشتاق، وحديث البروق لا يروق إلاّ للعشاق، خلوا والله بالحبيب في دار المناجاة، فكساهم ثِيابَ المواصلة، وضَمخّهم بِطِيب المعاملة.

فيا مَنْ أَبْعَدته الذّنوبُ، وأَخْرَجَته من بينهم العيوبُ، إن لم يكن وَصْلٌ فَمُواصَلة، وإن لم يكن جميل فمجاملة، تشبّه بهم إن لم تكن منهم، فمن تشبّه بقوم فهو منهم.

■ **قيام عبد الرحمن بن الأسود**[1]: «اعتلّت رِجْلُه، فقام اللّيل على قَدَم واحدة!!».

قال ابن إسحاق: «قدم علينا عبدُ الرحمن بن الأسود حاجًّا، فاعْتلَّتْ رِجْلُه، فصلّى على قَدَم واحدة حتى أصبح!»[2].

أخي:

الصّلاة مِكْيال ، مَنْ وَفّى وُفِّي له، ومن طَفّفَ طُفِّف عليه.

فكن من قوم جدّوا في انطلاقهم إلى خَلاّقهم، وأذابهم كربُ اشتياقهم، فما الذي حَبَسَك عن لحاقهم؟!.

يا غافلاً عن مصيره، يا واقفًا مع تقصيره، سبقك أهل العزائم، وأنت في بحر الغفلة عائم، قف على الباب وقوف نادم، ونكّس رأس الذّلّ وقل: أنا ظالم، وناد في الأسحار: يا ربّ أنا مُذنب وأنت راحم، وتشبّه بالقوم وإن لم تكن منهم وزاحم وابعث بريح الزّفرات سحاب دمع ساجم[3]، وقم في الدُّجى مناديًا، وقف على الباب تائبًا، واستدرك

---

(١) من التابعين.

(٢) «السّير» (٥/١٢).

(٣) **ساجم**: سائل متصبّب.

من العمر ذاهبًا، ودع اللّهو جانبًا، وطلّق الدنيا إن كنت للآخرة طالبًا.

يا نائمًا طول الليل، سارت الرُّفقة، ورحل القوم كلهم، وما انتبهت من الرّقدة!!

مسك الختام:

قال أبو يوسف البزار: تزوّج «ريَاح القيسي[1]» امرأة فبنى بها، فلمّا كان الليل نام يختبرها فقامت رُبعَ اللّيل، ثم نَادته: قُمْ يا رياح، فقال: أقوم، فقامت الرّبع الآخر، ثم نادته، فقالت: قُمْ يا رياح، فقال: أقوم، فلم يقم فقام الربع الآخر، ثم نادته فقالت: قُمْ يا رياح، فقال: أقوم، فقالت:

«مضى الليلُ وعسكر المحسنون وأنت نائم!! لَيْتَ شِعْري مَنْ غَرّني بك يا رياح»

قال: وقامت الرّبع الباقي!!.

أخي:

كان هذا حالُ سَلَفنا مع ليلهم، فكيف عَنْ حالِنا مَعَ لَيْلنا؟

عن حالنا مع ليلنا فَلْتَبك البواكي.

اللّهم نشكو إليك قسوة القلوب، وكثرة الذنوب.

اللهم اغفِر وارْحَم، واْعُف وتَكرّم، وتجاوَز عَمّا تعلم.



٢٢- الصَّوْم

اعلم - يا أخي - أن «**الصّوم**» لِجامُ المتّقين، وَجُنَّةُ المحاربين، ورياضَةُ الأَبْرَار والمقَرَّبين، وهو لِرَبٍّ العالمين مِنْ بَيْن سائر الأعمال.

والحديث عنه يدور حول خمسة أمور:

الأول: تعريف الصوم.

والثاني: مراتبه.

والثالث: فضائله.

والرابع: حكمه.

والخامس: علو همّة الصالحين في الصّوم.

وأسال الله - تعالى - التوفيق.

أولاً: تعريف الصوم:

الصوم «**لُغةً**» مَصْدَرُ صَام يَصومُ صَوْمًا وصِيَامًا، مأخوذٌ من مادَّة (ص و م) التي تدلُّ على «إمْساكٍ وركودٍ في مكان».

و «**اصطلاحًا**»:

هو الإمساك عن الأكل والشرب والجماع وسائر المفطرات يومًا كاملاً بنيّة الصّيام من طلوع الفجر الصّادق إلى غروب الشمس.

وقيل: هو إمساكٌ مخصوص في زمن مخصوص بشرائط مخصوصة.

وقال الجُرْجانيُّ: الصّوم في الشرع عبارة عن إمساك مخصوص وهو الإمساك عن الأكل والشرب والجماع من الصّبح إلى المغرب مع النّية» ا.هـ[1]

---

(١) «التعريفات» (١٤١).

ثانيًا: مراتب الصَّوْم:

وللصّوم ثلاث مراتب: صوم العموم، وصوم الخصوص، وصوم خصوص الخصوص.

فأمّا صومُ العموم: فهو: كفُّ البطن والفرج عن قضاء الشهوة.

وأمّا صومُ الخصوص: فهو كفّ النظر، واللسان، واليد، والرّجل، والسّمع، والبصر، وسائر الجوارح عن الآثام.

وأمّا صومُ خصوص الخصوص: فهو صوم القلب عن الهمم[1] الدَّنيئة، والأفكار والْمُبْعدة عن الله تعالى، وكَفِّه عَمّا سِوَى اللهِ تعالى بالكلّية[2].

وبالجملة: فَينبغي عَلى الصّائم أن يجاهد نفسه للوصول إلى أعلى المراتب.

قال أبو ذرٍّ رضي الله عنه:

« إذا صُمْتَ فَتَحَفَّظْ ما استَطَعْتَ » [3].

ثالثًا: فضائل الصَّوْم:

قال الإمام ابن القيم – رحمه الله – :

« الصّوم: لجامُ المتقين، وجُنّة المحاربين، ورياضة الأبرار والمقربين، وهو لرب العالمين من بين سائر الأعمال، فإن الصائم لا يفعل شيئًا، وإنما يترك شهوته وطعامه وشرابه من أجل معبوده، فهو ترك محبوبات النفّس وتلذُّذاها؛ إيثارًا لمحبّة الله ومرضاته، وهو سرٌّ بين العبد وربِّه لا يطّلع عليه سواه، والعباد قد يطّلعون منه على ترك المفطرات الظّاهرة، وأمّا كونه ترك طعامه وشرابه وشهوته من أجل معبوده فهو أمر لا يطلع عليه بشر، وتلك حقيقة الصَّوم.

---

(١) الهمم: جمع همة وهي ما هم به من أمر ليفعل.

(٢) « مختصر منهاج القاصدين » (٤٤).

(٣) رواه ابن أبي شيبة في « المصنّف » (٢/٤٢١).

وللصّوم تأثير عجيبٌ في حفظ الجوارح الظّاهرة، والقوى الباطنة، وحمايتها من التخليط الجالب لها المواد الفاسدة التي إذا استولت عليها أفسدتها، واستفراغ المواد الرّديئة المانعة لها من صحّتها، فالصوم يحفظ على القلب والجوارح صحتها، ويُعيد إليها ما اسْتَلَبَتْه[١] منها أيدي الشهوات، فهو من أكبر العَوْن على التقوى، كما قال تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٣][٢].

والصوم: عبادة السادات، وعبادةُ السادات ساداتُ العبادات، وأحلى أعطيات الصّوم وأغلى معانيه: الإخلاص، والإخلاص تَجَرُّدٌ وَخَلاص.

والصّوم: هو العبادة الوحيدة التي خُصَّت بالنسبة إلى الله: «**إلاّ الصِّيام فإنّه لي**» [٣].

والغاية القصوى من الصوم: إعداد القلوب للتقوى والخشية.

والصوم: إعداد للأُمة التي فُرض عليها الجهاد في سبيل الله؛ لتقرير منهجه في الأرض، لتستعلي على ضرورات الجسد كلها، ولتحتمل مشقّات الطريق المفروش بالعقبات والأشواك؛ والذي تتناثر على جوانبه الرّغبات والشهوات، والذي تهتف بالسَّالكيه آلاف المُغريات.

والصّوم: أعظم مُرَبٍّ للإرادة، وكابح لجماح الأهواء.

وأعظم آثار الصّوم شأنًا، وأنصعها برهانًا، وأعلاها خطرًا، ما كان يتركه في نفس العبد من مراقبةٍ لمولاه.

والصّائمون هم السّائحون، فلله ما أحْلاها سياحةً.

والصّوم: لا مِثْل له، قال ﷺ :

---

(١) استلبته: أخذته قهرًا.

(٢) «زاد المعاد» (٢/٢٩).

(٣) سيأتي بتمامه بعد قليل.

«**عليك بالصومَ، فإنه لا عِدْلَ له**» [١].

وفي رواية: «**فإنه لا مثِلَ له**» [٢].

والصّوم: رفعة للدرجات ما بعدها رفعة، قال تعالى:

﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر: ١٠].

والصّابرون: الصائمون، في أكثر الأقوال.

وجميع العبادات توفى منها مظالم العباد إلاّ الصّيام، ففي «صحيح البخاري» عن النبيِّ ﷺ قال:

«**عن ربِّكم قال: لكل عَمَل كفّارة، والصّوم لي وأنا أجْزِي به**».

والصوم: كفّارة للخطيئات، ففي «الصحيحين» وغيرهما، عن النبيِّ ﷺ قال:

«**فتنة الرجل في أهله وماله ونفسه وولده وجاره يكفّرها، الصيامُ، والصلاةُ، والصدقةُ، والأمرُ بالمعروف، والنّهيُ عن المنكر**».

ويكفي الصائم تشريف الله والملائكة له بالصّلاة عليه، قال ﷺ:

«**إنّ الله وملائكته يُصَلُّون على الْمُتَسَحِّرين**» [٣].

والصّوم: جُنّة من النار، قال ﷺ:

«**من صام يومًا في سبيل الله، جعل اللّهُ بَيْنه وبَيْن النّار خَنْدَقًا كما بين السَّمَاء والأرض**» [٤].

والصوم في الصَّيف: يورث السُّقيا من العطش - يوم القيامة[٥]- ، والصوم في

---

(١) رواه النسائي، وغيره.

(٢) رواه ابن حبان، وغيره.

(٣) **حسن**: رواه ابن حبان في «صحيحه» ، وغيره، وانظر: «صحيح الجامع» (١٨٤٤).

(٤) **صحيح**: رواه الترمذي، وانظر: «الصحيحة» (٥٦٣).

(٥) سيأتي الدليل على ذلك بعد قليل.

الشتاء: الغنيمة الباردة.

وباب الرّيان لا يدخله إلاّ الصّائمون، فإذا دخل آخرهم أُغْلِق، لا يدخل فيه أحدٌ غيرهم، من دخل شرب، ومن شربَ لا يظمأ أبدًا.

والصّوم: سبيل إلى الجنات، قال تعالى:

﴿ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴾ [الحاقة: ٢٤].

قال مجاهد: نزلت في الصائمين.

وقال ﷺ :

« **من خُتِم له بِصيام يَوْمٍ دَخَل الجنّة** » (١).

والصّوم: يشفع لصاحبه يوم القيامة.

ودعوة الصّائم لا تُرد.

والصَّوم: شعار الأبرار، كما صحّ عن رسولنا ﷺ أنه كان يدعو ويقول:

« **جعلَ اللّهُ عليكم صلاةَ قَوْم أَبْرار، يقومون اللّيل ويَصوُمون النّهار، ليسوا بِأَثَمَةٍ ولا فُجّار** » (٢).

وفي « صحيح مسلم » وغيره: « **للصّائم فرحتان: فرحةٌ حين يفطر، وفرحةٌ حين يَلْقى ربّه** ».

« **وخلوف فم الصائم أطيب عند الله – تعالى – من ريح المسك** ».

والصَّوم: قطعٌ لأسباب التعبُّد لغير الله، فالهوى معبود، والدّينار والدِّرهم، والقطيفة والخميصة والطعام والشراب.

والصَّومْ: شكرٌ للمنعم عالم الخفيّات، وتحريض على المثوبات، وتكثيرٌ للصّدقات،

---

(١) **صحيح** : رواه البزار، وغيره، وانظر: « صحيح الجامع » (٦٢٢٤).

(٢) رواه عبد بن حُميد، وغيره، وصحّحه الألباني.

وإحسان إلى ذوي الحاجات.

والصَّوْمُ: رقة للقلب، وصيانة للجوارح[(١)].

وهي جُمْلة من الأحاديث في فَضْل الصيام - غير ما ذُكر - :

(١) عن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ قال:

« إن الله - تبارك وتعالى - فرض صيام رمضان عليكم، وسَنَنْتُ لكم قيامه، فَمَنْ صَامَه وَقَامَه احْتسابًا: خَرَجَ مِنْ ذُنوبه كيومِ ولدتهُ أُمُّه » [(٢)].

(٢) وعنه ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ :

« ثلاثةٌ لا تُرَدّ دَعْوَتُهم: الصّائِمُ حَتّى يُفْطِرَ، والإمامُ العَادِلُ، ودعوةُ المظلوم يَرْفَعُها اللّهُ فوق الغَمامِ، ويفتحُ لها أَبْوَابَ السَّمَاءِ ويقول الرَّبّ:

وعِزّتِي، لأنْصُرَنّك وَلَوْ بَعْد حِين » [(٣)].

(٣) وعن جرير بن عبد الله ، قال:

قال رسولُ الله ﷺ :

« صيامُ ثلاثةِ أيّام مِنْ كُلِّ شهر، صيامُ الدَّهْر، وأيّامُ الْبِيضِ صَبِيحةَ ثلاثَ عَشْرةَ، وأرْبَعَ عَشْرةَ، وَخَمْسَ عَشْرة » [(٤)].

(٤) وعن أبي قتادة ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ :

---

(١) « صلاح الأمة » د. سيد العفاني (٢/٤٤٧ - ٤٥٠) باختصار.

(٢) **صحيح**: رواه النسائي (٤/١٥٨) واللفظ له، وأحمد (١/١٩١)، وصحّحه الشيخ شاكر.

(٣) **حسن**: رواه الترمذي (٣٥٩٨)، وقال: حديث حسن.

(٤) **حسن**: رواه النسائي (٤/٢٢١)، وقال محقق جامع الأصول (٦/٣٢٩): حديث حسن.

« **صِيامُ يَوْمِ عَرَفة، إني أحْتسب على الله أن يُكفِّر السَّنَةَ التي قَبْلَهُ، والسَّنَة التي بَعْده** »[(١)].

(٥) وعن ابن عباس، قال:

قَدِمَ النبيُّ ﷺ المدينةَ فرأى اليهودَ تَصومُ يَوْمَ عاشُوراء، فقال:

« **ما هذا؟** ».

قالوا: هذا يومٌ صالحٌ، هذا يومٌ نجّى اللّهُ بني إسرائيل من عدوّهم فصامه موسى.

قال: « **فأنا أحَقُّ بموسى منكم** » ، فَصَامَهُ وأَمَر بصيامه[(٢)].

(٦) وعن أبي هريرة ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ :

« **أَفْضَلُ الصِّيَامِ بَعْد رَمضان: شَهْرُ اللهِ الْمُحَرَمِ، وأفْضَلُ الصَّلاةِ بعد الفريضة: صَلاةُ الليل** » [(٣)].

(٧) وعن ابن عباس، أن رسولَ الله ﷺ بَعَث أبا موسى[(٤)] على سَرِيَّة في البحر، فبينما هم كذلك قد رَفَعوا الشِّراع[(٥)] في ليلةٍ مُظلمة إذا هاتِفٌ فوقهم يهتف:

يا أهلَ السّفينة، قِفُوا أُخبِرْكُم بِقَضَاءٍ قَضَاه اللّهُ على نَفْسه، فقال أبو موسى: أَخبِرْنا إن كنتَ مُخْبِرًا.

قال: إنّ الله تبارك وتعالى قَضَى على نَفْسه أنَّه مَنْ أَعْطَش نَفْسَه لَهُ في يومٍ صائفٍ: سَقَاه اللّهُ يَوْمَ العَطشِ[(٦)].

---

(١) رواه الترمذي (٧٤٩)، وهو جزء من حديث طويل رواه مسلم (١١٦٢).

(٢) رواه البخاري (٢٠٠[illegible])، ومسلم (١١٣٠).

(٣) رواه مسلم (١١٦٣).

(٤) الأشعري ﷺ.

(٥) **الشِّراع**: قلع السفينة الذي يصفقة الريح فتمشي.

(٦) **حسن**: رواه البزار، وحسّنه المنذري، والألباني، انظر: « صحيح الترغيب » (٩٧٤).

قال أبو بُرْدةً: «وكان أبو موسى يَتوخَّى اليومَ الشَّديد الْحَرِّ الذي يكاد الإنسانُ يَنْسَلِخ فيه حَرًّا فَيَصُومه!» [١].

رابعًا: حُكْمُ الصوم:

صوم رمضان واجب بالكتاب والسُّنة والإجماع، أمّا الصّومُ في غير رمضان، فينقسم إلى قسمين:

الأول: صوم الكفّارات والنّذور.

الثاني: صوم التطوّع.

وحكم الأوّل: الوجوب، أمّا الثاني: فحكمه النّدب ما لم يُواصِل الصَّوم.

ولصيام التطوّع أنواع، منها:

(١) صيام ستة أيام من شوّال.

(٢) صيام تسع من ذي الحجّة، ويتأكّد صوم يوم عرفة لغير الحاج.

(٣) صيام يوم عاشوراء، ويوم قبله، أو يوم بعده.

(٤) صيام أكثر شهر شعبان.

(٥) صيام يومي الاثنين والخميس.

(٦) صيام ثلاثة أيام من كل شهر.

(٧) صيام يوم وإفطار يوم، وهو أفضل الصيام.

وقد تقدّم قريبًا فضلُ بعض هذه الأيام[٢].

---

(١) **حسن**: رواه ابن أبي الدنيا.

(٢) انظر تفصيل ذلك في كتابنا: «الفقه الميسر» ط. المكتبة التوفيقية.

خامسًا: علوّ همّة الصّالحين في الصوم:

وردت آثارٌ كثيرة عن السابقين في علوّ هممهم، وأخذهم بالعزائم في الصوم، وهم جبالٌ في الاهتداء والاقتداء بالنبيّ ﷺ، وهذه مقتطفات من مجاهداتهم:

■ **صومُ أبي طلحة الأنصاري** رضي الله عنه:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه : «أن أبا طلحة صام بعد رسول الله ﷺ أربعين سنة لا يُفطر إلاّ يوم فطرٍ أو أضحى»[(١)].

■ **صوم عبد الله بن عمر** - رضي الله عنهما - :

قال نافع: «كان ابن عمر لا يصوم في السّفر، ولا يكاد يُفْطر في الحَضَر»[(٢)].

■ **صيامُ عامرِ بْنِ عَبْد قيس:**

كان يُسمّى: «راهب هذه الأمة»، وكان - رحمه الله - من خيار التابعين.

قال عنه معاصروه: كان يبيت قائمًا، ويُصْبحُ صائمًا.

وعن قتادة: «لّما احتضر عامر بكى، فقيل: ما يبكيك؟ قال: ما أبكي جزَعًا مِنَ الموت، ولا حِرْصًا على الدنيا، ولكن أبكي على ظمأ الهواجر وقيام الليل»[(٣)].

قلت: ونحن اليوم نبكي على ترك الدّنيا، فاللّهم غفرا.

■ **صومُ الأسود بن يزيد النّخْعي:**

من سادات التابعين، قال عنه الشّعْبيُّ: «كان صوّامًا حجّاجًا»[(٤)].

قال حنس بن الحارث: «رأيتُ الأسود وقد ذهبت إحدى عينيه من الصَّوم!!»[(٥)].

---

(١) رواه الحاكم في «المستدرك» (٣/٣٥٣)، وقال: «صحيح على شرط مسلم».

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٣/٢١٥).

(٣) نفس المرجع (٤/١٩).

(٤) نفس المرجع (٤/٥١).

(٥) «حلية الأولياء» (٢/١٠٤).

م ضرَّهم ما أصابهم، جَبَر اللّهُ لهم بالجنّة كلّ مصيبة.

■ **صومُ داودِ بن أبي هند:**

الإمام، الحافظ، مفتي أهل البصرة.

قال الفلاّس: سمعت ابن عَوْن يقول:

«صام داود بن أبي هند أربعين سنة لا يعلم به أهله، كان خَزَّازًا يحمل معه غداءه فيتصدّق به في الطريق!!»[(١)].

■ **صوم إبراهيم بن هانئ النيسابوري:**

الإمام، العابد، الذي تعجّب الإمام أحمد من عبادته!

قال إسحاق بن إبراهيم بن هانئ: «كان أحمد بن حنبل مُختفيًا ها هنا عندنا في الدار، فقال لي أحمد بن حنبل:

لستُ أُطيق ما يُطيق أبوك - يعني من العبادة - !».

وكانت ثمرة هذه المجاهدة، أنْ مَاتَ صَائمًا: «وتلك عَاجِل بُشرى المؤمن».

قال أبو بكر النيسابوري: حضرتُ إبراهيم بن هانئ عند وفاته، فجعل يقول لابنه إسحاق:

يا إسحاق، ارفع السِّتْر[(٢)].

قال: يا أبت، السّتر مرفوع.

قال: أنا عطشان.

فجاءه بماء، قال:

---

(١) «السِّيَر» (٦/٣٧٨).

(٢) وكان - رحمه الله - صائمًا صوم تطوّع!!

غابت الشمسُ؟

قال: لا.

قال: فردَّه ، ثم قال: ﴿ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴾ [الصافات: ٦١]. ثم خرجت روحه!».

وفي رواية:

«فدعا ابنه إسحاق، فقال: هل غربت الشمس؟

قال: لا.

ثم قال: يا أَبَتِ، رُخِّص لك في الإفطار في الفرض وأنت متطوّع.

قال: امْهَلْ. ثم قال:

﴿ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴾ ثم خرجت نفْسه!» [1].

■ صوم السيِّدة نفيسة:

كانت السيّدة نفيسة بنت الحسن بن زيد بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب، عابدة، زاهدة، تقوم الليل، وتصوم النهار، حتى قيل لها:

ترفقي بنفسك، فقالت:

«كيف أرفق بنفسي وأمامي عقبة لا يقطعها إلا الفائزون؟!».

«تُوفِّيت - رحمها الله - وهي صائمة، فألزموها الفطر، فقالت:

واعجباه أنا منذ ثلاثين سنة أسأل الله تعالى أن ألقاه صائمة، أأفطر الآن؟!، هذا لا يكون».

(١) «صفة الصفوة» (٢/٤٠١).

وخرجت من الدنيا، وقد انتهت قراءتها إلى قوله تعالى:

﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ قُل لِّلَّهِۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَۚ﴾ [الأنعام: ١٢] (١).

وبهذه الخاتمة السعيدة، نأتي إلى ختام حديثنا عن «الصّوم» سائلين الله - تعالى - حُسْن الختام.



(١) «مرآة الزمان» (٨٢).

٢٣- الزّكاة

اعلم - يا أخي - أن الزكاة أوّل حقوق الله - تعالى - في المال، وآكد هذه الحقوق.

والحديث عنها يدور حول ثلاثة أمور:

الأول: تعريف الزكاة.

والثاني: الحث عليها من الكتاب والسّنة.

والثالث: أهدافها.

واللّهُ الموفّق لما يُحبّ ويرضى.

أوّلا: تعريف الزكاة:

الزكاة «**لُغة**»: أَصْلُ الْمَادّة يَدُلّ على الزِّيادة والنَّماء، يقول ابن فارس: الزّاي والكاف والْحَرْف الْمُعْتَلّ أصْلٌ يدلّ على نَمَاء وزيادة.

و «**اصطلاحًا**»: اسمٌ لأخذ شيءٍ مخصوصٍ مِنْ مالٍ مخصوص على أوصاف مخصوصةٍ لطائفة مخصوصةٍ[1].

ثانيًا: الحث عليها من الكتاب والسّنة:

ورد في الأمر بالزكاة والحث عليها آيات وأحاديث كثيرة:

فمن الآيات:

(١) قوله تعالى: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ [البقرة: ٤٣].

---

(١) «المجموع شرح المهذب» (٣٢٥/٥).

(٢) وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٢٧٧].

(٣) وقال تعالى: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴾ [النور: ٥٦].

ومن الأحاديث:

(١) عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

« أُمِرتُ أن أُقَاتِلَ النّاسَ حتّى يشهدوا أن لا إله إلاّ الله، وأنّ مُحَمّدًا رسول الله، ويقيموا الصّلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عَصَمْوا مِنّي دماءَهم وأموالهم، إلاّ بِحَقِّ الإسْلام وَحِسَابُهم على الله » [(١)].

(٢) وعن أبي أيّوب ﷺ أن رجلاً قال للنبيّ ﷺ:

أَخِبْرْني بِعَمَلٍ يُدْخِلُني الجنّة؟

قال: **« تَعبُد الله لا تشركُ به شيئًا، وتقيمُ الصّلاة، وتؤتى الزكاة، وتصِلُ الرَّحِم »** [(٢)].

(٣) وعن سمرة ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ قال:

« أقيموا الصّلاة، وآتُوا الزّكاة، وَحُجُّوا واْعْتَمِرُوا، واستقيموا يُسْتَقَمْ بِكمُ » [(٣)].

ثالثًا: أهدافُ الزّكاة:

للزكاة عدة أهداف عظيمة:

(١) رواه البخاري (٢٥)، ومسلم (٢٢).

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) حسن: رواه الطبراني في « الثلاثة » وجوّد المنذريّ إسناده، وانظر: « صحيح الترغيب » (٧٤٥).

منها: التطهيرُ من الشُّح:

«والشّح آفة خطرة على الفرد والمجتمع؛ إنها قد تدفع من اتصف بها إلى الدم فيسفكه، وإلى الشّرف فيدوسه، وإلى الدين فيبيعه، وإلى الوطن فيخونه، ولذا قال ﷺ:

«**إياكم والشّح؛ فإنّما هَلكِ مَنْ كان قَبْلكم بالشّح، أَمَرهم بالبخل فَبَخِلوا، وأمرهم بالقطيعة فَقَطعوا، وأمرهم بالفجور فَفَجَرُوا**» [(١)].

والزكاة كما تحقق معنى التطهير للنفس، تحقق معنى التحرير لها، تحريرها من ذلّ التعلّق بالمال والخضوع له، ومن تعاسة العبودية للدينار والدرهم، فإن الإسلام يحرص على أن يكون المسلم عبدًا لله وحده، متحرّرًا من الخضوع لأي شيء سواه» [(٢)].

ومنها: التدريب على الإنفاق والبذل:

والإنفاق: خلُقٌ كريم من أخلاق المؤمنين المتقين:

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾ [التوبة: ١١١].

وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

وقال تعالى - في الحديث القدسي - : «**إنا أنزلنا المالَ لإقامة الصّلاة وإيتاء الزكاة**» [(٣)].

ولن يصل المسلمُ إلى هذه الدرجة - درجة الإنفاق - إلاّ بقهر داء الشّح، وَتَرْوِيض نفسه على العطاء.

والمعين على ذلك: اليقين بالثواب، والثقة فيما عند الله.

---

(١) رواه أبو داود مختصرًا، والحاكم، واللّفظ له، وقال: صحيح على شرط مسلم.

(٢) «فقه الزكاة» د. يوسف القرضاوي (٢/٨٥٨) باختصار.

(٣) **صحيح**: رواه أحمد (٥/٢١٨، ٢١٩)، وغيره.

ومنها: التّخلُّق بأخلاقِ الله تعالى:

«والإنسان إذا تطهّر من الشّح والبخل، واعتاد البذل والعطاء، ارتقى من حضيض الشّح الإنساني، واقترب من أُفُق الكَمَالات «الرّبانية»، فإن من صفات الحقّ - تبارك وتعالى- إفاضة الخير والحرمة والجود والإحسان دون نفع يعود عليه تعالى.

والسَّعي في تحصيل هذه الصّفات بقدر الطاقة البشرية تخلّق بأخلاق الله، وذلك منتهى كمالات الإنسانية» (١).

ومنها: شكرُ الله تعالى على نعمه:

وشكر الله تعالى على نعمه: دليل على اعتراف الإنسان بفضل الله عليه، وشعوره بحاجته إليه.

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ [فاطر: ١٥]. والشكر: قَيْدُ النِّعم.

قال بعضُ السَّلف: «إن هذه النِّعم فَرّارة، فَقيدِّوها بالشُّكر».

وقد وعد اللّهُ - تعالى - معه المزيد:

قال تعالى: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم: ٧].

ومنها: طردُ حُبّ الدنيا من القلب:

قال الإمام الفخر - رحمه الله - :

«إيجاب الزكاة، علاج صالح متعين لإزالة مرض حُبّ الدنيا عن القلب» ا.هـ.

ولا يخفى: أن حُبّ الدنيا: سَبب كُلّ بلاء وشرّ؛ فهو:

- سبب إذلال الأمم وكسرها أمام عدوّها.
- وسبب قطيعة الأرحام.

---

(١) «فقه الزكاة» د. القرضاوي (٨٦٢).

- وسبب إثارة العداوات.
- وسبب الأنانية وحُب الذات.
- وسبب نسيان الآخرة وتأجيج نار الشهوات.

كما لا يخفى: أن طرد حُبّ الدنيا من القلب، سبب كل خَيْر وَبِرّ؛ فهو:

- سببُ تعلّق القلب بالله وحده.
- وسبب علوّ الهمّة إلى الآخرة.
- وسبب النصر على الأعداء.
- وسبب توطيد أواصر المحبّة والإخاء.
- وسبب زيادة البركة ونزول الرخاء.

ومنها: ترابط المجتمع وشيوع المحبّة:

فالزكاة تَسُدّ الفجوة بين الغنيّ والفقير، وتشيع المحبّة بين أهل الإسلام، لأن القلوب جُبِلت على حُبّ مَنْ أحسن إليها، وحرارة الأخوّة تزداد بالمعروف والإحسان.

ها هو النبيُّ ﷺ يقول في «الحديث الصحيح»:

«مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسدِ الواحد إذا اشتكى منه عضوٌ تداعتْ له سائرُ الأعضاء بالسَّهَر والْحُمّى».

ومنها: تطهير المال وتحصينه:

«فالزكاة - كما هي طهارة للنفس وتزكية لها - هي تطهير لمال الغني وتنميته؛ فإن تعلّق حق الغير بالمال يجعله ملوثًا لا يطهّر إلاّ بإخراجه منه. وفي مثل هذا المعنى يقول بعضُ السّلف:

«الحَجَرُ المغصوب في الدّار رَهنَ بخرابها».

وكذلك الدرهم الذي استحقّه الفقير في المال رهن بتلويثه كله، ولهذا يقول ﷺ :

« إذا أدّيْتَ زَكاةَ مَالِك فقد أَذْهَبْتَ عنك شَرّه » [١].

وأكثر من ذلك ما رُوِيَ عنه ﷺ أنه قال:

« **حَصِّنوا أموالكم بالزكاة** » [٢].

وما أحوج الأغنياء إلى هذا التحصين، وخاصّة في عصرنا الذي عرف المبادئ الهدّامة والثورات الحمر » [٣].

« وإذا قلنا: إن الزكاة مطهرة للمال وسبب لنمائه ولبركته، فإنما نعني بذلك المال الحلال .. أما المال الخبيث الذي جاء من طرق غير مشروعة، فإن الزكاة لا تطهّره، وما أبلغ ما قاله بعض السُّلف:

مثل الذي يطهِّر المالَ الحرام بالصّدقة كمثل الذي يَغْسل القاذورات بالْبَوْل!! » [٤].

ومنها: نماء الماء:

قال تعالى: ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ [البقرة: ٢٧٦].

والنصوص في هذا المعنى من الكتاب والسّنة كثيرة.

ومنها: تطهير الأنفس من الحسد والبغضاء:

فإن الغنيّ إذا جفّت أصابعُهُ من العطاء، وقَبَض يده عن الإنفاق، هاج الحسدُ، وثار الحقدُ في نفس الفقير والمسكين، فَدَبَّ في المجتمع داءُ الأُمَم قَبْلنا:

الحسد والبغضاء، والبغضاء تَحْلِقُ الدِّين.

قال ﷺ: « **دَبَّ إليكم داءُ الأمم قبلكم: الحسَدُ والبغضاء، والبغضاءُ هي الحالقة. أما إني لا أقول: تَحْلِقُ الشَّعْر، ولكن تَحْلِق الدِّين** » [٥].

---

(١) **حسن**: رواه ابن خزيمة في « صحيحه »، والحاكم، وانظر: « صحيح الترغيب » (٧٤٣).

(٢) **ضعيف**: رواه أبو داود في « المراسيل »، وانظر: « ضعيف الجامع » (٢٧٢٣).

(٣) « فقه الزكاة » (٨٦٧).

(٤) « فقه الزكاة » (٨٦٨) باختصار وتصرّف.

(٥) **حسن**: رواه الترمذي، وانظر: « صحيح الجامع » (١/٣٣٦١).

ومنها: بناء اقتصاد الأمّة:

فإن إخراج الزكاة دافع قويّ لتنشيط الهِمم وتحريك المال واستثماره، حتى لا تأكله الزكاة، وفي تحريك المال واستثماره من الفوائد ما لا يحصى، فهو:

أوّلاً: يعلن الحرب على كنز المال.

ثانيًا: يقضي على البطالة.

ثالثًا: سبب في التوسعة على الأغنياء قبل الفقراء.

رابعًا: يقضي على الفراغ القاتل.

خامسًا: يعين الشباب على بناء مستقبلهم، والآباء على إعفاف أنفسهم وأولادهم.

سادسًا: يصون الأمّة عن ذلّ سؤال غيرها من الأمم .. إلخ.

منها: حمايةُ مُخْرجها في قَبْره:

فعن أبي هريرة ﷺ عن النبيِّ ﷺ قال:

«إن الميّتَ إذا وُضِع في قبره، إنّه يَسْمَعُ خَفْقَ نَعَالِهم حينَ يُولُّون مُدْبرين، فإن كان مُؤمنًا كانت الصّلاةُ عند رأسِه، وكان الصِّيامُ عَنْ يمينه، وكانت الزّكاة عن شِمَاله، وكان فعلُ الخيرات من الصّدقة والصِّلة، والمعروف والإحْسَان إلى الناس عند رجْلَيْه، فَيُؤْتَى مِنْ قِبَل رَأْسِه فتقول الصّلاةُ: ما قبلي مَدخَلٌ، ثم يُؤْتى عن يمينِه فيقولُ الصِّيام: ما قِبَلي مَدْخَلٌ، ثم يُؤْتى عن يَسَارِه فتقولُ الزكاةُ: ما قِبَلي مَدْخَلٌ، ثم يُؤْتى مِن قِبَل رِجْلَيْه فيقول فعلُ الخَيْرات من الصَّدقة والصِّلة والمعروف والإحْسان إلى النَّاس: ما قِبَلي مَدْخَلٌ ...» الحديث[1].

ومنها: أنها سبيل لنيل رحمة الله تعالى، ودخول جنَّتِه:

والأحاديث الدّالة على ذلك كثيرة، منها:

---

(١) رواه الطبراني في «الأوسط» ، وابن حبان في «صحيحه».

■ عن أبي أُمامة ﷺ قال:

سمعتُ رسولَ الله ﷺ يَخْطُبُ في حَجَّة الوداع فقال:

«اتّقُوا الله رَبَّكم، وَصَلُّوا خَمْسَكُم، وَصُوموا شَهْرَكم، وأدُّوا زَكَاةَ أَمْوالِكم، وأطيعوا ذَا أَمْرِكم، تدخلوا جنَّة رَبِّكم» [١].

■ وعن بشير بن الخَصَاصيّة ﷺ قال:

أتيتُ رسولَ الله ﷺ لأُبَايِعَهُ على الإسْلام فاشْتَرَطَ عليَّ:

«تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عَبْدُهُ ورسولُهُ، وتُصَلّي الخَمْسَ، وتصومُ رَمَضَانَ، وتؤدِّي الزَّكاةَ، وتحجُّ البيت، وتجاهِدُ في سبيل الله».

قال: قلتُ: يا رسولَ الله، أمَّا اثْنَتَان فلا أُطيقُهُما، أمّا الزكاة فما لي إلاّ عَشْرُ ذَوْد [٢] هُنَّ رُسُلُ أَهْلي وَحَمُولَتُهُمُ، وأمَّا الجهادُ فَتَزْعُمونَ أنّه مَنْ وَلّى فَقد باءَ بِغَضَبٍ مِنَ الله، فأخافُ إذا حَضَرني قتالٌ كرِهتُ الموتَ وَخَشَعَتْ نَفْسِي. قال:

فَقَبض رسولُ الله ﷺ يَدَه ثمّ حرّكَها، ثم قال:

«لا صَدَقَةَ، ولا جِهَادَ، فَبِمَ تَدْخُلُ الجنّة؟».

قال: ثم قلتُ: يا رسول الله، أُبايِعُك، فبايعني عَلَيْهِنّ كُلِّهن [٣].

أخي الكريم:

هذه بعض فضائل وأهداف الزكاة، والخلاصة: «أن السّر في تكليف القادرين بهذا الإنفاق المستمرّ يرجع إلى أمرين:

---

(١) **صحيح**: رواه الترمذي (٦١٦)، وغيره.

(٢) عَشْرُ ذَوْد: القطيع من الإبل بين الثلاث إلى العشر مؤنث يقال: خمسُ ذوْدٍ أي: خمس من الذود.

(٣) **حسن**: أخرجه أحمد (٥/٢٢٤)، والحاكم (٢/٧٩، ٨٠)، واللفظ له، وصحّحه وأقرّه الذهبيّ، والبيهقي في «الشّعب» (٣/١٨٧)، وعزّاه مخرجه للطبراني في «الكبير» (٢/٤٤، ٤٥)، وقال: إسناده حسن.

أولهما: إرضاء الله - تعالى - برعاية الضعفاء من خلقه، مهما اقتضت هذه الرعاية من نفقات، ومهما تطلّبت من صدقات.

والآخر: تحصين المجتمع من سورات الضغينة والغضب التي تتبع الشّح، والكنز، وتتجاهل آلام الآخرين.

ولذلك يفهمنا الله - تعالى - أن عُقبى هذا الإنفاق: ضمان الدنيا مع ضمان الآخرة، وصيانة الثروات من ثورات الحانقين والمغتاظين» (١)

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.



(١) «هذا ديننا» للغزالي (١٠٩).

٢٤- الصَّدَقَةُ

قال إبراهيم بن موسى - رحمه الله - رأيت «فتحًا المصلي» - رحمه الله - يوم عيد، وقد رأى على النّاس الطيالس والعمائم، فقال لي:

«يا إبراهيم، إنّما تَرَى ثَوْبًا وَجَسَدًا يأكله الدودُ غَدًا، هؤلاء أنفقوا خزائنهم على بطونهم وظهورهم، ويقدمون على رَبِّهم مفاليس!!».

كلماتٌ .. كالسّياط.. تلهب ظهور قوم لم يَرَوا في الدنيا إلاّ أنفسهم، وتقرع رءوس قومٍ تمركزت عقليتُهم في بطونِهم، ودارت هِمَمُهم حول فروجهم.

قِبْلتهم النِّساء، وَدينهم الدِّرْهم والدِّينار!

كما أنها - أي كلمات «فَتْح» - تحرّك الهِمَمَ الفاترة نحو البذل والعطاء، والجود والسّخاء.

وبها نبدأ حديثنا عن «**الصّدقة**» وموقعها من دين الإسلام.

والحديث عنها يدور حول **خمسة أمور**:

الأول: تعريف الصّدقة.

والثاني: فضائلها.

والثالث: آداب المتصدّق.

والرابع: آداب القابض.

والخامس: صور ومواقف من حياة الْمُتَصَدِّقِين.

والله الموفق لما يُحب ويرضى.

أولاً: تعريف الصّدقة:

الصّدقة: «**لغة**»: اسمٌ لِما يُتَصَدَّقُ بِهِ وهو مأخوذٌ مِنْ مَادَّة (ص. د. ق).

التي تدلُّ على قوّة في الشيء قولاً أو غيره، ومن ذلك أُخذَ الصِّدْقُ لِقُوَّته فِي نفسه، ومن الصِّدق أُخذَت الصَّدَقة، لأنّها تدلّ على صدْقِ العُبودية للّه - تعالى - ، والصَّدقة: ما تصَدَّقْتَ به على الْفُقَراءِ أو المساكين، وَالْمُتَصَدِّقُ هو الذي يُعْطِي الصَّدَقة(١).

و«**اصطلاحًا**»: قال الرَّاغبُ: «الصّدقة: ما يُخْرِجُهُ الإنسانُ مِنْ مَالِه على وَجْهِ الْقُرْبَةِ كالزّكَاة، لكنَّ الصَّدَقَةَ في الأَصْلِ تُقالُ لِلْمتَطوِّعِ بِهِ، والزّكاةُ للواجب»(٢).

ثانيًا: فضائلها:

وَرَدَ في فضائل الصدقة آيات كثيرة وأحاديث:

فمن الآيات:

(١) قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ۝١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ [آل عمران: ١٣٣، ١٣٤].

(٢) وقال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ۝٢٦١ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٦١، ٢٦٢].

(٣) وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥ - ٧].

(١) «نضرة النعيم» (٦/٢٥١٧).

(٢) «المفردات» (٢٧٨).

ومن يسّره اللّهُ لليُسْرى فقد وَصَل .. وهو بَعْدُ في هذه الأرض .. وعاش في يُسْر.. يفيض اليُسْرُ من نفسه على كل ما حوله، وعلى كُلّ من حوله .. اليُسر في خَطْوه. واليُسْر في طريقه.. واليُسْر في تناوله للأمور كلّها، والتوفيق الهادئ المطمئن في كلياها وجزئياها، وهي درجة تتضمّن كل شيء في طيّاها، حيث تسلك صاحبها مع رسول الله ﷺ في وَعْدِ رَبِّه له : ﴿ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ [الأعلى: ٨][(١)].

ومن الأحاديث:

(١) عن كَعْبِ بن عُجْرة ﷺ قال:

قال لي رسولُ الله ﷺ:

«أُعِيذُكَ بالله يا كعبُ بْنُ عُجْرة من أُمَراءٍ يكونون مِنْ بَعْدي، فَمَنْ غَشِيَ أبوابَهم فَصَدَّقهم في كَذِبِهم، وأعانَهم على ظُلْمِهم، فَلَيْسَ مِنِّي ولستُ مِنهُ، ولا يَرِدُ عَلَيَّ الْحَوْض، وَمَنْ غَشِي أبوابَهم أو لَمْ يَغْشَ، فَلَمْ يُصَدِّقْهُم في كَذِبِهم ولم يُعِنْهُمْ على ظُلْمِهم فهو مِنِّي وأنا منه، وَسَيَرِدُ عَلَيّ الْحَوْض يا كَعْبُ بْنُ عُجْرةَ، الصّلاة بُرهَانٌ، والصّومُ جُنَّة حَصِينة، والصَّدقةُ تُطْفِئُ الخطِيئةَ كما يُطْفِئ الْمَاءُ النّار.

يا كعبُ بْنُ عُجْرة إنّه لا يَرْبُو لَحْمٌ نَبتَ مِنْ سُحْتٍ[(٢)] إلاّ كانت النّارُ أَوْلَى به» [(٣)].

(٢) وعن أبي هريرة ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«لا يَتَصَدَّقُ أَحَدٌ بِتَمْرَةٍ من كَسْبٍ طَيِّب، إلاّ أخَذَها اللّهُ بيمينه، فَيُرَبِّيها كما يُرَبّي

---

(١) «في ظلال القرآن» (٦/٣٩٢٢).

(٢) السُّحت: المال الحرام.

(٣) صحيح رواه الترمذي (٦١٤)، وقال: حديث حسن غريب، وصحّحه الألباني.

أحدُكم فَلُوَّهُ[١] أو قَلُوصَهُ[٢] حتى تكون مِثْلَ الْجَبَلِ أَوْ أَعْظَمَ» [٣].

(٣) وعن عائشة - رضي الله عنها - عن رسول الله ﷺ قال:

«إنّ الله لَيُرَبِّي لأحدِكُم التَّمْرَة واللُّقْمَةَ كَما يُرَبِّي أحدُكُم فَلُوَّهُ، أَوْ فَصِيلَهُ حَتّى تكونَ مِثْلَ أُحُدٍ» [٤].

أخي:

وما قَدْر كِسْرةٍ تُعْطيها، أَوَ مَا سَمِعْتَ أن الرَّبَّ يُرْبيها، فيراها صاحِبُها كَجَبل أُحُد، أَفَيَرْغَب عن مِثْلِ هذا الْخَيْر أَحَدٌ؟!.

واعَجَبًا لِلُقْمَةٍ كانت قليلة فَكَثُرَتْ، وفانيةً فَبَقِيَتْ، وَمَحْفُوفَةً[٥] فَحُفِظَتْ.

أخي:

إنّ اللُّقْمة إذا أُكِلَتْ صارتْ أَذىً وَقَبَائح في الحُشِّ[٦]،وإذا تُصُدِّق بها صارت إذًا مَدَائِح عند الْعَرش.

(٤) وعن يزيد بن أبي حبيب، قال:

كان «مَرْثَدُ بْنُ أَبي عبد الله الْيَزَنيّ» أَوَّلَ أَهْلِ مِصْر يَرُوحُ إلى الْمَسْجد، وما رأَيْتُهُ داخلاً المسجدَ قَطُّ إلا وفي كُمِّه صَدَقَةٌ: إما فُلُوسٌ، وإمّا خُبْزٌ، وإمّا قَمْحٌ. قال: حتى رُبَّمَا رأيتُ الْبَصَل يَحْمِلُهُ، قال: فأقولُ: يا أَبَا الْخَيْرِ، إنَّ هذا يُنْتِنُ ثِيَابَكَ؟! قال: فيقول: يا ابْن أَبي حَبِيب، أَمَا إنِّي لم أَجِدْ في الْبَيْت شَيْئًا أَتَصَدَّقُ به غَيْرَهُ، إنّه حَدَّثَني رَجُلٌ

---

(١) **الفلوّ**: الْمُهْر أوّل ما يُولد.

(٢) **القلوص**: الناقة الفتيّة.

(٣) رواه البخاري (١٤١٠)، ومسلم (١٠١٤) واللفظ له.

(٤) **صحيح**: رواه الطبراني وابن حبان في «صحيحه»، واللفظ له، وصحّحه الألباني.

(٥) **محفوفة**: زائلة.

(٦) المكان الذي يقضي الإنسان فيه حاجته.

مِنْ أَصْحَاب رَسُولِ الله ﷺ أن رسولَ الله ﷺ قال:

« **ظِلُّ المؤمنِ يَوْمَ القيامة صدَقَتُهُ** » (١)

(٥) وعن أبي هريرة ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ

« **سَبَق دِرْهَمٌ مائَةَ أَلْفِ درْهم!** ».

فقال رجلٌ: وكيف ذاك يا رسول الله؟

قال: « **رَجُلٌ له مَالٌ كثير أَخَذَ مِنْ عُرْضه مائةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ تَصَدَّق بها، وَرَجُلٌ لَيْس له إلاّ دِرْهَمَان فَأَخَذ أَحَدَهُما فَتَصدَّق به** » (٢)

أخي الكريم:

هذه بعض فضائل الصّدقة، وإذا أردت المزيد فانظر صفات: « الجود » و « الإيثار » و« السّخاء» و « الكرم ».

وما ذكرناه - هنا - يَجْعل صَاحب القلب « الحيّ » يطير إلى الْبَذْل طَيَرانًا.

فسارع - أيها الكريم - إلى العطاء، واعلم:

أن الصّلاة توصلك إلى نصفِ الطّريق.

والصّوم يوصلك إلى باب الْمَلك.

والصدّقة تدخلك عليه.

هذا، وتتسع دائرة الصّدقة حتى تشمل كلّ معروف.

فعن جابر ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

---

(١) صحيح رواه ابن خزيمة، وانظر: « صحيح الترغيب » (٨٦٦).

(٢) حسن رواه النسائي، وابن حبان في « صحيحه »، وغيرهما، وانظر: « صحيح الترغيب » (٨٧٥).

«كُلّ مَعْروف صَدَقة، وإن من المعروف أن تَلْقَى أَخاك وَوَجْهك إليه مُنْبَسط، وأن تَصُبّ من دَلْوك في إناءِ جَارِك» (١).

ولما كان كل معروف تهديه إلى غيرك صدقة، فهناك صدقات للقلوب بإرادة كل نفع للعباد، فإن الإرادة سبب لذلك.

وإحسان الأبدان أقسام:

أحدها: نقل الْمِلْك، بالهبات، والصَّدقات.

والثاني: إباحة المنافع والأعيان؛ كالعواري، والضيافات.

والثالث: الإسقاط؛ كالعتق، والإبراء من الديون، والقصاص، والحدود، وسائر العقوبات.

والرابع: الإعانة على الطاعات؛ بتعليمها، وتفهيمها، والمساعدة على فعلها، والنيابة فيها، كالنيابة في الحجّ وتفريق الصّدقات.

والخامس: الإعانة بكل نفع: عاجل أو آجل، فعلي أو قولي: الإعانة بالبناء، والخياطة، وتحميل الدابة، وأن تعين صانعًا، أو تصنع لأَخْرَق(٢)، وبأن تَدُلّ على الطريق، وتخدم الصّديق، وتُعين الرّفيق، وتأمر بكل معروف، وتنهى عن كل منكر، وتفك الأسارى، وترشد الحيارى.

السادس: حسن الأخلاق؛ كإظهار الْبِشر، وطلاقة الْوَجْه، والتّبسُّم في وجوه الإخوان(٣).

عن أبي ذَرٍّ ﷺ أن رسولَ الله ﷺ قال:

«ليس مِنْ نَفْس ابْن آدم، إلاّ عليها صدقة، في كلّ يَوْمٍ طَلَعتْ فيه الشّمْسُ».

قيل: يا رسولَ الله ، ومن أين لنا صدقة نتصدّق بها؟

---

(١) **حسن**: رواه أحمد، وغيره، وانظر: «صحيح الجامع» (٤٤٣٣).

(٢) **الأخرق**: الذي لا يعرف أن يعمل الشيء بيده.

(٣) «من يظلهم الله» د. سيد العفاني (٢/٢٦، ٢٧).

فقال: «إن أبوابَ الخيرِ لكثيرة: التَّسْبيح، والتَّحْميد، والتكبير، والتهليل، والأمْر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتَميط الأذَى عن الطريق، وتُسْمِعُ الأصمَّ، وتهدي الأعمى، وتدلّ المُسْتَدل على حاجته، وتَسْعى بشدّة سَاقيك مع اللَّهْفان الْمُسْتَغيث، وتحمل بشدّة ذراعيك مع الضّعيف، فهذا كُلّه صَدَقة منك على نَفْسك» (١)

ثالثًا: آداب الْمُتَصَدِّق:

للْمُتَصَدِّق عند إخراج الصَّدقة عدة آداب:

الأَدَبُ الأَوَل: فَهْمُ المراد منها: وهو ثلاثة أشياء:

الأول: ابتلاء مُدّعي محبّة الله – تعالى – بإخراج محبوبه.

والثاني: التنزه عن صفة البخل الْمُهْلِك.

والثالث: شكر نعمة المال.

كانت «أُمّ البنين» – بنت عبد العزيز بن مروان – تقول:

«أُفٍّ للْبُخْل، لو كان قَميصًا ما لَبِسْتُهُ، ولو كان طَريقًا ما سَلَكْتُهُ!».

الأدب الثاني: أن تكون من كَسْب طَيِّب:

ففي الحديث الصّحيح: «**إنّ الله – تعالى – طَيِّبٌ لا يَقْبَل إلاّ طَيِّبًا**».

الأدب الثالث: أن ينتقي من ماله أَجْوَده وَأَحَبّه إليه:

قال تعالى: ﴿ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ ﴾ [البقرة: ٢٦٧].

وروى مالك في «الموطّأ» عن هشام بن عروة عن أبيه أنه كان يقول لبنيه:

«**يا بَنِيَّ لا يَهْدِينّ أحدُكم من الْبُدْن شيئًا يَسْتحي أن يهديه لكريمه، فإن الله أكْرَمُ**

(١) إسناده صحيح على شرط مسلم: رواه ابن حبان في «صحيحه» (١٧١/٨).

الكُرماء، وأَحَقّ من اخْتير له».

الأدب الرابع: أن لا يفسد صدقته بالْمَنّ والأذى:

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

وقال الفضيل: «من المعروف أن ترى المنّة لأخيك عليك إذا أخذ منك شيئًا؛ لأنه لولا أخذه منك ما حصل لك الثواب، وأيضًا: فإنه خصّك بالسؤال ورجا فيك الخير دون غيرك».

فليكن حال الْمُعْطِي كحال مَنْ قال فيه الشاعر:

تَــراه إذا مـا جِئْـتَه مُـتَذَلِّلاً كـأنك تُعْطـيه الـذي أَنْـتَ سَـائله!

الأدب الخامس: أن يَسْتَصْغِر العَطيّة:

لأنه إن استعظمها أُعجب بها، والعُجْب من المهلكات، وهو مُحْبط للأعمال. وقد قيل:

لا يتم المعروف إلا بثلاثة أمور:

- تصغيره.
- وتعجيله.
- وستره.

الأدب السادس: تجريد النيّة «الإخلاص»:

لأن العمل الصّالح لا يطير إلى الله - تعالى - إلا بجناحين:

الأول: الإخلاص.

والثاني: موافقته للإسلام.

قال الفضيل: «إن العمل إذا كان خالصًا و لم يكن صوابًا لم يُقبل، وإذا كان صوابًا

ولم يكن خالصا لم يُقبل حتى يكون خالصًا وصوابًا». قال:

«والخالص إذا كان للّه - تعالى - ، والصّواب إذا كان على السُّنّة».

الأَدَبُ السّابع: أن يطلب بِصَدَقَته من تزكو به الصّدقة:

وهم خصوص من عموم الأصناف الثمانية[1]، ولهم صفات:

الأولى: التقوى: فَلْيَخُصّ بِصَدَقته المتقين، فإنّه يرد بها هِمَمهم إلى الله تعالى.

الثانية: العلم: فإن في إعطاء العالِم إعَانَة على الْعِلْم ونَشْرِ الدِّين، وذلك تقوية للشَّريعة.

الثالثة: أن يكونَ مِمّن يَرَى الإنعام من الله وَحْده، ولا يلتفت إلى الأسباب إلاّ بِقَدْر ما ندب إليه من شكرها، فأمّا الذي عادته المدح عند العطاء، فإنه سيذمّ عند المنع.

الرابعة: أن يكون صائنًا لِفَقْره، ساترًا لحاجته، كَاتمًا للشكوى، كما قال تعالى:

﴿ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ ﴾ [البقرة: ٢٧٣].

وهؤلاء لا يحصلون في شبكة الطالب إلاّ بعد البحث عنهم.

الخامسة: أن يكون ذا عائلة، أو مَحْبُوسًا لِمَرضٍ أوْ دَيْن ، فهذا من المحصرين، والتصدّق عليه إطلاقٌ لحصره.

السادسة: أن يكون من الأقارب وذوي الأرحام: فإن الصدّقة عليهم صدقة وَصِلَة، وكلّ من جمع من هذه الخلال خلّتين أو أكثر، كان إعطاؤه أفضل على قَدْر ما جمع[2].

رابعًا: آداب القابض:

وعلى القابض للصّدقة وظائف:

الوظيفة الأولى: أن يفهم أن الله تعالى إنّما شَرَع الصّدقة إليه ليكفيه ما أَهَمّه، ويجعل

---

(١) المذكورون في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٦٠]

(٢) «مختصر منهاج القاصدين» (٥٥، ٥٦) باختصار وإضافة.

الهموم همًّا واحدًا في طلب رضى الله تعالى.

الوظيفة الثانية: أن يشكر الْمُعْطي ويدعو له وَيُثْنِي عليه مِنْ قَلْبه.

وليكن ذلك بمقدار شكر السّبب. قال ﷺ :

«لا يشكُر الله مَنْ لا يشكر الناس» [١]

ومن تمام الشكر: أن لا يحتقر العطاء وإن قلّ، ولا يذمّه، ويغطّي ما فيه من عيب.

الوظيفة الثالثة: أن ينظر فيما يُعْطاه، فإن لم يكن مِنْ حِلٍّ لم يأخذْه أَصْلاً، لأن إخراج مال الغير ليس بزكاة[٢]، وإن كان من شبهة تورّع عنه، إلاّ أن يضيق عليه الأمر، فيأخذ على قدر الضرورة.

الوظيفة الرابعة: أن يَتوقّى مواقع الشُّبَه في قَدْر ما يأخذ، فيأخذ القدْر المباح له، ولا يأخذ أكثر من حاجته.

قال العلماء: «وليكن ما يأخذه بقدر ما يكفي سَنَته ولا يزيد على ذلك».

خامساً: مواقف من حياة الْمُتَصَدِّقين:

كان للصالحين في الصدقات مواقف أروع من الخيال - لا تكاد من عجائبها تُصدَّق - لكن إيماننا بعلوّ مكانهم، وصِدق يقينهم - يجعلنا نجزم - دون تردد - بتصديقها؛ وهاك بعضها:

- عن سفيان - رحمه الله - قال:

جاء رجلٌ من أهل الشام، فقال:

دلّوني على «صفوان بن سُليم» [٣] فإني رأيتهُ دخل الجنّة!.

فقلتُ: بأي شيء.

---

(١) صحيح: رواه أحمد (٢/٢٥٨)، وأبو داود (٤٨١١)، وغيرهما.

(٢) ولا صدقة.

(٣) من التابعين، لمّا مات رأَوْا في جَبْهَتِه حُفْرةً من أثر السّجود!!

قال: بقميص كساه إنسانًا !!.

قال بعض إخوانه: سألتُ «صفوان» عن قصّة القميص، قال:

خرجتُ من المسجد في ليلة باردة، فإذا رجلٌ عُريان، فنزعت قميصي فكسوته!!.

هذا موقف.

الموقف الثاني:

عن عليّ بن الحسن بن شقيق، قال:

سمعتُ ابن المبارك، وسأله رجلٌ: يا أبا عبد الرحمن، قُرْحةٌ خرجت في رُكْبَتِي منذ سبع سنين، وقد عَالَجْتُ بأنواع العَلاج، وسألتُ الأطباء فلم أنتفع به.

قال: اذهب فانظر موضعًا يحتاج الناسُ الماءَ فاحْفُرْ هناك بِئْرًا، فإني أرجو أن تَنْبُعَ هناك عَينٌ، وَيُمْسَكَ عَنْكَ الدَّمُ، ففعل الرجلُ، فَبَرأ!![1].

قلت: والتداوي بالصَّدَقة له أصول شرعية:

فعن أبي أُمامة ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«**داوُوا مَرْضاكم بالصَّدقة**» [2].

قال الإمام ابن القيم - رحمه الله -:

«إن للصّدق تأثيرًا عجيبًا في دفع أنواع البلاء، ولو كانت من فاجر أو ظالم أو كافر، فإن الله تعالى يدفع بها عنه أنواعًا من البلاء، وهذا أمرٌ معلوم عند الناس خاصّتهم وعامتهم، وأهل الأرض كلّهم مقرون به لأنهم جرّبوه» ا.هـ.

الموقف الثالث:

دخل فقيرٌ على «بِشْر الحافي» في مَرَض الموت، فسأله شيئًا، فنظر «بِشْر» في البيت

---

(١) رواه البيهقي.

(٢) **حسن**: رواه أبو الشيخ في «الثواب»، وانظر: «صحيح الجامع» (٣٣٥٣).

فلم يجد شيئًا، فَنزع قَمِيصَه الذي عليه وأعطاه إيّاه، واستعار قميصًا يموت فيه!!.

يا خالق هؤلاء الصّالحين سُبْحانك.

«المعروف يَجْري في عروقهم حتى آخر نَفَس!».

أخي:

هذه بعض مواقفهم، وهي غَيْضٌ مِنْ فَيْض، وقطرة في بَحْر، فَسِرْ على دَرْبهم، وَكُنْ على طريقهم، تشبّه بأخلاقهم، عسى أن يُدْخلَك رَبُّك مع القوم الصّالحين.

أخي:

لا تَحْقِر من الصّدقة شيئًا ولو حَبَّة، فكم في الحَّبة مِنْ مِثْقال ذَرّة؟!.

أخي:

لا تنهر سائلاً، فقد جاء ليحمل زادك إلى الآخرة بغير أُجرة.

اسمع إلى «**الفضيل بن عياض**» وهو يقول:

«نعم السّائلون، يحملون أزوادنا إلى الآخرة بغير أُجْرة، حتى يضعوها في الميزان بين يدي الله تعالى».

أسال الله - تعالى - أن يقينا من داء البخل، إنّه وليّ ذلك والقادر عليه.

۞۞۞۞۞

٢٥- الْحَجُّ

قال ابن عباس - رضي الله عنهما - : «ما آسَى على شيءٍ فاتَني من الدُّنْيَا إلاّ أَنّني لم أَحُجَّ مَاشِيًا حتى أدْرَكَني الكِبَرُ. اسْمَعْ قولَ اللهِ تعالى:

﴿ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ ﴾ [الحج: ٢٧](١).

بهذه الكلمات التي يشع منها نورُ الإخلاص نبدأ حديثنا عن الرّكن الخامس من أركان الإسلام، وهو: «**الحجّ**».

والحديث عن هذا الركن العظيم يدور حول ثلاثة أمور:

الأوّل: تعريف الحجّ.

والثاني: فضائله.

والثالث: علامات الحج المبرور.

ونسأل الله تعالى حجًّا مبرورًا، وسعيًا مشكورًا، وذنبًا مغفورًا.

أولاً: تعريفُ الحَجّ:

الحَجُّ «**لُغَةً**»: مَصْدَرُ قَوْلِهم: حَجَّ يَحُجُّ هو ومأخوذٌ مِنْ مادَّة (ح ج ج) التي تدلُّ على أربعةِ مَعَانٍ:

الأول: القَصْدُ، وكُلّ قَصْد حَجٌّ.

والثاني: الحِجَّة، وهي السَّنَة.

والثالث: الحَجَاج (بفتح الحاء وكَسْرها)، وهو العَظْم المستدير حَوْل العَيْن.

والرابع: الحَجْحَجَة بمعنى النُّكوص.

---

(١) «شُعب الإيمان» للبيهقي (٥٣٧/٧) ورجاله ثقات.

والحج المذكور - هنا - إنما يرجع إلى المعنى الأوّل وهو القصد أو القصد للزيارة، يُقال: ورُجلٌ محجوج أي: مقصود، وحجّه يحجُّه حجًّا: قصده. وقد حجّ بنو فلانٍ فلانًا إذا أطالوا الاختلاف إليه.

قال الْمُخَبَّلُ السَّعْدِيُّ:

وأَشْـهَدُ مِـنْ عَـوْفٍ حُلُـولاً كَثِرةً يَحُجُّـونَ سِـبَّ الزِّبْـرِقَانِ الْمُزَعْفَـرا

قال ابن السِّكِّيت: يكثرون الاختلاف إليه.

هذا الأصل، ثم تعورف استعماله في القصد إلى مكّة للنُّسُك والحجّ إلى البيت خاصّة[1].

و «**اصطلاحًا**»: قَصْدُ بَيْت الله إقامةً للنُّسُك، **وقال الْجُرْجَانِيُّ**:

قَصْدٌ لبيت الله تعالى بصفةٍ مخصوصة في وقتٍ مخصوص بشرائطَ مخصوصة[2].

وقال العَيْنِيُّ: «الحج: قصدٌ إلى زيارة البيت الحرام على وجه التعظيم بأفعال مخصوصة» ا.هـ[3].

ثانيًا، فضائل الحج:

ورد في فضائل الحج آيات وأحاديث وآثار كثيرة:

فمن الآيات:

(١) قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٥٨].

---

(١) «نضرة النعيم» (١٥٢٩/٤).

(٢) «التعريفات» (٨٢).

(٣) «عمدة القارى» (١٢١/٩).

(٢) وقال تعالى: ﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [البقرة: ١٩٧].

(٣) وقال تعالى: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران: ٩٦].

ومن الأحاديث:

(١) عن ماعز التميمي رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ: أنه سُئل:

أيّ الأعمالِ أفضل؟

قال: «**إيمانٌ بالله وَحْدَه، ثم حَجَّةٌ بَرَّةٌ تَفْضُلُ سائرَ الأَعْمَالِ، كما بَيْن مَطْلَعِ الشّمْس إلى مَغْرِبها**»[١].

(٢) وعن جابر رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قال:

«**الحَجُّ المَبْرُور ليس له جَزَاءٌ إلاّ الجنّة**».

قيل: وما برُّهُ؟

قال: «**إطعَامُ الطَّعَام وَطِيبُ الكَلاَم**»[٢].

(٣) وعن عائشة – رضي الله عنها – قالت:

قلتُ: يا رسول الله، ألا نَغْزو ونُجاهِدُ معكم؟

قال: «**لَكُنَّ أَحْسَنُ الْجِهَادِ وأَجْمَلُهُ: الحَجُّ، حَجٌّ مَبْرورٌ**».

قالت عائشة: «فلا أَدَعُ الحَجّ بعد إذ سمعتُ هذا من رسول الله ﷺ»[٣].

---

(١) إسناده جيد: رواه أحمد (٤/٣٤٢)، وقال الدمياطي في «المتجر الرابح» (٢١٨): إسناده جيد.

(٢) صحيح: رواه أحمد (٣/٣٢٥)، وفيه «إفشاء السلام» بدلاً من «طيب الكلام»، وقال الدمياطي في «المتجر الرابح» (٢١٩): صحيح الإسناد.

(٣) رواه البخاري (١٨٦١).

(٤) وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - عن النبيِّ ﷺ : لَقِيَ رَكْبًا[1] بالرَّوْحَاء[2]، فقال:

«**مَنِ الْقَوْم؟**»

قالوا: الْمُسْلِمون، فقالوا: مَنْ أَنْت؟

قال : «**رسول الله**»، فَرَفَعَتْ إليه امْرأةٌ صَبِيًّا. فقالت:

أَلِهَذا حَجٌّ؟

قال: «**نَعَمْ، وَلَكِ أَجْرٌ**» [3].

(٥) وعن جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - قال:

قال رسولُ الله ﷺ :

«**مَا أَمْعَرَ حَاجٌّ قَطُّ**».

قيل لجابر: ما الإمْعَارُ؟

قال: «ما افْتَقَرَ» [4].

(٦) وعن زَيْد بن خالد الجُهَنيِّ ؓ قال:

قال رسولُ الله ﷺ :

«**مَنْ جَهَّز غازيًا، أو حاجًّا، أو خَلَفَه في أَهْل أو فَطَّر صَائِمًا كان له مِثْلُ أجورهم من غير أن يُنْقَصَ مِنْ أجورِهم شيءٌ**» [5].

---

(١) **الرّكب**: أصحاب الإبل خاصة، وأصله أن يُستعمل في عشرة فما دونها.

(٢) **الرَّوحاء**: مكان على ستة وثلاثين ميلاً من المدينة.

(٣) رواه البخاري (٣٠٠٦)، ومسلم (١٣٣٦).

(٤) **إسناده جيّد**: رواه الطبراني في «الأوسط» والبزّار، وجوّد إسناده الحافظ الدمياطي في «المتجر الرابح» (٢٢٥).

(٥) **صحيح**: رواه ابن خزيمة في «صحيحه» (٣/٢٠٦٤)، وغيره.

(٧) وعَن بُرَيْدَةَ الأسلميّ ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ :

«**النَّفقةُ في الحَجِّ كالنفقةِ في سَبِيل الله بِسَبْعِمائَة ضِعْفٍ**»[١].

ومن الآثار:

(١) عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال:

«لَوْ يعلمُ المقيمون ما لِلْحُجَّاج عليهم من الحقِّ لأَتَوْهُم حين يَقْدِمُون حتى يُقبِّلوا رَوَاحِلَهُم، لأنَّهم وَفْدُ اللهِ مِنْ جَمِيعِ النَّاس»[٢].

(٢) وعن مجاهد - رحمه الله - في قوله تعالى:

﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ ﴾ [الحج: ٢٧]، قال:

«لَمّا فرغ إبراهيمُ عليه السلام من بناء الْبَيْت فقيل له: نادِ في النَّاس بالحَجِّ. قال: كيف أقولُ يا ربِّ؟ قال: قُلْ : «يا أيها النّاسُ استَجِيبوا لربِّكم» . فقالها، فَوَقَرَتْ في قَلْبِ كُلِّ مُؤْمن»[٣].

(٣) وعن عطاء، قال:

«النّظَرُ إلى البيت عِبَادةٌ»[٤].

(٤) وعن خيثمة بن عبد الرحمن - رحمه الله تعالى - قال:

«إذا قضَيْتَ حَجَّك فَسَل اللهَ الجَنّة»[٥].

---

(١) **حسن** : رواه أحمد، وغيره.

(٢) «الدرُّ المنثور» للسيوطي (١/٥٠٧).

(٣) رواه البيهقي في «الشُّعَب» (٧/٥٦٦)، ورجاله ثقات.

(٤) نفس المرجع، ورجاله ثقات - أيضًا - .

(٥) رواه البيهقي في «الشُّعب» (٨/٧٥).

ثالثًا: علاماتُ الحَجِّ الْمَبْرور:

اعلم - يا أخي - أن الحجّ المبرور: ما اجتمع فيه فعلُ أعمال البرّ مع اجتناب أعمال الإثم، فما دعا الحاجُّ لنفسه ولا دعا له غيرُهُ بأحسنَ من الدّعاء بأن يكون حَجُّه مَبْرورًا. ولهذا يُشْرَعُ للحاجّ إذا فَرَغَ من أعمال حَجِّه، وَشَرع في التحلُّل من إحرامه بِرَمْي جَمْرَةِ العَقَبة يَوْمَ النَّحْر أن يقول:

«اللّهم اجْعَلَهُ حَجًّا مَبْرورًا، وسَعْيًا مَشْكُورًا، وذَنْبًا مغفورا».

رُوي ذلك عن ابن مسعود وابن عمر من قولهما.

وعن أنس، قال:

حَجَّ النبيُّ ﷺ على رَحْلٍ رَثٍّ، وقطيفةٍ تُسَاوي أرْبَعةَ دَرَاهم أو لا تساوي، ثم قال: «**اللّهُمّ حِجَّةٌ لا رِياءَ فيها ولا سُمْعةَ**»[1].

وكذلك يُدعَى لِلْقادم من الحَجّ بأن يَجْعَل اللّهُ حَجَّه مَبْرورًا.

فقد كان السَّلَف يدعون لمن رجع من حجّه.

لمّا حَجّ «خالدُ الحَذَّاء»[2] ورَجَع، قال له أبو قِلابة[3]:

«بَرَّ الْعَمَلُ!».

معناه: جعل اللّهُ عَمَلك مبرورًا.

وللحجّ المبرور علاماتٌ لا تخفى:

قيل للحسن: الحجُّ المبرورُ جزاؤه الجنة. قال: «آيةُ ذلك أن يرجع زاهدًا في الدنيا، راغبًا في الآخرة».

---

(١) **صحيح**: «صحيح سنن ابن ماجة» (٢٢٣٧).

(٢) كان - رحمه الله - رجلاً مهيبًا ثقة. تُوفّي سنة ١٤١ هـ.

(٣) تابعي، ثقة، تُوفي بالشام سنة ١٠٥ هـ.

وقيل له: جزاءُ الحجّ المبرور المغفرة. قال: «آية ذلك أن يدع سيئ ما كان عليه من العمل».

الحجّ المبرور: مثلُ حجّ «إبراهيم بن أدهم» [١] مع رفيقه الرّجل الصّالح الذي صحبه من «بَلْخ» [٢]، فرجع من حجِّه زاهدًا في الدنيا، راغبًا في الآخرة، وخرج عن ملكه وماله وأهله وعشيرته وبلاده، واختار بلاد الغُربة، وقنع بالأكل من عمل يده، إمّا من الحصاد، أو من نظارة البساتين[٣].

حجّ مرةً مع جماعة من أصحابه، فَشَرط عليهم في ابتداء السَّفر ألاّ يتكلّم أحدُهم إلاّ لله تعالى، ولا ينظر إلاّ له[٤].

قال بعضُ السَّلف: استلام الحجر الأسود هو ألاّ يعود إلى معصية.

يشير إلى ما قاله ابْنُ عباس: «أنّ الحَجَر الأسْود يمينُ الله في الأرض، فمن استلمه وصافَحه فكأنّما صَافَح اللهَ وقَبَّل يَمِينَهُ».

وقال عكرمةُ: «الحَجَرُ الأسودُ يمينُ الله في الأرض، فَمَن لَمْ يُدْرِكْ بيعةَ رسولِ الله ﷺ فَمَسَح الرُّكْنَ فَقَدْ بَايَع اللهَ ورسوله».

يا مُعَاهِدينا على التَّوْبة! بَيْننا وبينكم عُهودٌ أَكِيدة؛

أوّلُها: يوم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢]. والمقصود الأعظم من هذا العهد ألاّ تعبدوا إلاّ إيّاه. وتمامُ العمل بِمُقتضاه أن اتّقوا اللهَ حقَّ تقواه.

وثانيها: يوم أرسل إليكم رسوله وأنزل عليه في كتابه:

---

(١) زاهد مشهور، كان أبوه كثير المال والخدم، فتركه إبراهيم ورحل إلى بغداد وغيرها، وكان يعيش من العمل بالحصاد وحفظ البساتين، والحمل والطحن، كما يشترك مع الغزاة في قتال الروم. مات سنة ١٦١هـ.

(٢) بلخ: مدينة مشهورة بخراسان.

(٣) أمّا من حجّ وعاد من حجّه وجراثيم المعصية تجري في دمه، فحجُّه ليس مبرورًا، كحجّ أَكَلة الحرام المُصرّين، وكحج الراقصات ونحوهم من أرباب المعاصي.

(٤) تحوّل الحجّ في هذا الزمان إلى موسم لمجالس الغيبة ومخالطة النساء!!.

﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾ [البقرة: ٤٠].

قال سَهْلُ بْنُ عَبْد الله التُّسْتَريّ - رحمه الله - :

«مَنْ قال: لا إله إلاّ الله، فقد بايعَ اللهَ، فَحَرام عليه إذْ بَايَعه أَنْ يَعْصِيَهُ في شيء من أمْرِه في السِّر والعلانية، أو يُوالي عَدوَّه، أَوْ يُعَادِي وَلِيَّهُ».

وثالثها: لمن حَجّ إذا اسْتَلم الحَجَر فإنه يُجدِّد البيعة، ويلتزمُ الوفَاءَ بالعهد المتقدِّم، ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

الْحُرُّ الكريم لا يَنْقُضُ الْعَهْدَ القديم.

إذا دعتك نفسُك إلى نَقْض عَهْد مَوْلاك فقل لها:

﴿ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ [يوسف: ٢٣].

من تكرر من نقضُ العهد لم يُوثق بمعاهدته.

حكاية:

«دخل بعضُ السَّلف على مريضٍ مكْروب فقال له: عَاهِد الله على التوبة لَعَلَّه أن يُقيلَك صَرْعَتَك[١]. فقال:

كنتُ كلّما مرضتُ عاهدتُ الله على التوبة فيُقيلني، فلمَّا كان هذه المَّرة ذهبتُ أُعَاهِدُ كما كنتُ أُعَاهِد، فَهَتَف بي هَاتِفٌ من ناحية البيت:

«قد أَقَلْنَاك مِرارًا فَوَجَدْنَاك كَذَّابًا»، ثم مات عَنْ قَرِيب»[٢].

مَنْ رجع من الحَجّ فليحافظ على ما عاهد الله عليه عند استلاَم الحَجَر.

عَلاَمةُ قَبُول الطّاعة أن تُوصَل بطاعةٍ بَعْدها، وعلامة رَدِّها أن تُوصَل بمعصيةٍ.

ما أحسن الحسنةَ بَعْد الحسَنة، وأَقْبَح السَّيِّئة بعد الحَسَنة!!.

---

(١) **يقيلك صرعتك**: شفاك وصفح عنك. يقال: أقال الله عثرته: صفح عنه وتجاوز.

(٢) «لطائف المعارف» لابن رجب (١٢٧، ١٢٨).

ذنبٌ بعد التوبة أقبح من سبعين قبلها.

ما أَوْحش ذُلَّ المعصية بعد عِزّ الطاعة!.

ارحموا عَزِيزَ قومٍ بالمعاصي ذَلّ، وغَنِيَّ قوم بالذّنوب افْتَقر.

سَلُوا الله الثّباتَ إلى الممات، وتعوّذوا مِنَ الحَوْر بعد الكَوْر.

كان **الإمامُ أحمد** يدعو ويقول:

« اللّهمَّ أعزَّني بطاعتك ولا تذلّني بِمَعْصِيتك ».

خرج إذا كان حجّه مبرورًا غُفِرَ له وَلِمنَ اسْتَغْفَر له، وَشُفِّع فيمن شُفِّعَ فيه.

فلذلك يُسْتحب تلقّيه والسلام عليه وطلب الاستغفار منه، وتلقّي الحاجّ مَسْنُونٌ.

وكذلك السَّلام على الحاج إذا قَدِم وَمُصَافَحته، وطلبُ الدّعاء منه.

قال الحسن: « إذا خرج الحاجّ فشيِّعوهم وزوِّدوهم الدعاء، وإذا قفلوا[1] فالتقوهم وصافحوهم قبل أن يخالطوا الذّنوب؛ فإن البركة في أيديهم ».

أخي:

ما يؤهل للإكثار من التردد إلى تلك الآثار إلاّ محبوب مختار.

حكاية:

« حجّ « عليّ بن الموفَّق »[2] سِتّين حَجّة، قال: فلمّا كان بَعْد ذلك جَلَسْتُ في « الحِجْر » أفكّر في حالي وكثرة تِرْدادي إلى ذلك المكان، ولا أدري هل قُبل مني حَجّي أم رُدّ. ثم نمتُ فرأيتُ في منامي قائلاً يقول لي:

« هل تدعو إلى بيتك إلاّ مَنْ تُحب؟ ». قال:

---

(١) **قفلوا**: رجعوا.

فاستيقظتُ وقد سُرِّي عَنّي»[(١)].

أخي:

ما كُلُّ من حَجّ قُبل، ولا كُلّ من صَلّى وُصل.

قيل لابن عمر: ما أكثر الحاجَّ! قال: ما أقَلَّهُم! وقال: الرَّكْبُ كثيرٌ، والحاجُّ قَليلٌ.

قصّة عجيبة:

«حجّ بعضُ المتقدمين فَتُوفِّي في الطّريق في رجوعه، فَدَفنه أصحابُهُ وَنَسُوا الفأسَ في قبره، فنبشوه، ليأخذوا الفأس، فإذا عُنقُه ويداه قد جُمعت في حَلْقَة الفأس، فَردّوا عليه التّراب، ثم رجعوا إلى أهله فسألوهم عن حَالِه، فقالوا: صحب رجلاً فأخذ ماله، فكان يحجُّ منه!»[(٢)].

إذا حَجَجْتَ بمالٍ أَصْلهُ سُحْتٌ فما حَجَجْتَ ولكنْ حَجَّت العيرُ
لا يقبلُ اللّهُ إلاّ كُلَّ صَالحةٍ ما كُلُّ مَنْ حَجَّ بَيْتَ اللهِ مَبْرورُ

مَن حجُّه مبرورٌ قليل، ولكن قد يُوهب المسيءُ للمحسن. وقد رُوي أن الله - تعالى - يقول عشيَّة عَرَفة:

«**قد وَهَبْتُ مُسيئكم لمحسنِكم**».

وكان بعضُ السَّلف يقول في دعائه: «**اللَّهمّ إن لم تَقْبَلْني فَهَبْني لمن شئتَ مِن خَلْقك**».

وقال الأصْمَعيُّ: دَعَا أعرابيٌّ بمكّة، فقال:

«اللّهمّ لا تَمْنَعْني خَيْرَ ما عِندك بِسُوءِ ما عِنْدي، وإن كُنْتَ لم تَقْبَلْ تَعَبي وَنَصَبي فلا تَحْرِمْني أجْرَ الْمُصَاب على مُصِيبَته»[(٣)].

---

(١) «لطائف المعارف» (١٣٣).

(٢) نفس المرجع (١٣٤).

(٣) رواه البيهقي في «الشُّعب» (١٢٣/٨) ورجاله ثقات.

والخلاصة: فقد قال **الإمام الغزالي** - رحمه الله - :

«إن الحجّ من بين أركان الإسلام ومبانيه عِبادةُ العُمْر وختامُ الأَمْر وتمامُ الإسلام وكمالُ الدّين. فعلى كُلّ حاجٍّ ومُعتمر أن يَبْدأ بالتوبة، وَرَدّ المظالم، وقضاءِ الدّيون، وإعداد النّفَقة لكلّ مَنْ تَلْزَمُه نَفقتُهُ إلى وقت الرُّجُوع، وَيَرُدُّ ما عِنْده من الودائع، وَيَستَصْحِبُ من المال الحلال الطَّيب ما يكفيه لذهابه وإيَابه، كما ينبغي أن يلتمس رفيقًا صالحًا مُحبًّا للخير مُعينًا عليه، إذا ذكر الله أعَانه، وإن جَبُنَ شَجَّعه، وإن عَجَز قوّاه، وإن ضاق صَدْرهُ صَبَّره» ا.هـ[(١)].

اللهم ارزقنا حَجًّا مبرورًا، وسَعْيًا مشكورًا، وذَنْبًا مغفورًا.



(١) «الإحياء» (١/٢٤٧).

٢٦- العُمْرَة

ذَكَرَ الإمامُ مجاهد - رحمه الله - عبادة عبد الله بن الزُّبير - رضي الله عنهما - فقال:

«ما كان بابٌ من العبادة يعجز عنه الناس إلاّ تكلّفه ابنُ الزبير، ولقد جاء سَيْلٌ طَبّق البيتَ فَطَاف سِبَاحَةً!!» [1].

سبحان الله.. لا يشغله عن الطواف ماءٌ!! إنّها أعاجيب، وهِمَمٌ طالت السّماء فلامستها، وانْحَنَتِ السّماءُ عليها فَتَوَّجَتْها!.

إنها أحاديث أطْيب من نفح المِسْك، وأحلى مَذَاقًا من العَسَل!

أخي:

لا تَعْجَب، إنّه الشّوق. إنّه حُبُّ الله - تعالى - الذي يجعل الْمُحِبّ يَسْتَعْذِب العَذَاب!.

وبهذا الفعل الجليل، والعمل الجميل، نبدأ حديثنا عن مَنْسَك «**العُمْرة**».

والحديث عن «**العمرة**» يدور حول ثلاثة أمور:

الأوّل: تعريف العمرة.

والثاني: فضائلها.

والثالث: عُلوّ همّة الصّالحين في الاعتمار.

أمّا الحديث عن مَنَاسِكها فَيُطْلب في كُتب «الفِقه».

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٣/٣٧٠).

أولًا: تعريف العمرة:

العمرة «لغة»: العُمْرةُ والاعتمار: الزّيارة التي فيها عمارة البيت.

وقال ابْنُ فارس:: «إن العُمرة بمعنى الزّيارة إنما هي مأخوذة من مادّة (ع م ر) التي تدلُّ على الصِّياح والْجَلَبة، يقال اعْتَمَر الرَّجُلُ إذا أَهَلَّ بِعُمْرَتِه، وذلك رَفْعُه صَوْتَه لِلتّلْبِية لِلْعُمْرة، وقولُ ابْن أَحْمَر:

يُهِلُّ بالْفَرْقَدِ رُكْبَانُها كما يُهِلُّ الرَّاكِبُ الْمُعْتَمِر

فقال قومٌ: هو الذي ذكرناه مِنْ رَفْع الصَّوْت عند التلبية بالعُمرة، وقال قومٌ: هو المعتمرُ وأيّ ذلك كان فهو من الْعُلُوّ والارتفاع[1].

والعُمْرة مأخوذة من الاعتمار، وهو الزيارة، ومعنى اعتمر في «قصد البيت» أنه إنما خُصَّ بهذا لأنه قصد بعملٍ في موضعٍ عامر، ولذلك قيل لِلْمُحْرِم بالعمُرة مُعْتَمِرٌ، وقال كُراعٌ: الاعْتِمار: العُمْرة، سمَّاها بالمصدر وهو الزّيارةُ والقَصْد[2].

و «**اصطلاحًا**»: زيارةُ البيت الحرام على وَجهٍ مَخْصوصٍ وبشروط مخصوصة.

ثانيًا: فضائل العمرة:

ورد في فضائل العمرة آيات وأحاديث:

فمن الآيات:

(١) قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٥٨].

---

(١) «نضرة النعيم» (١٥٣٠/٤) باختصار.

(٢) «نفس المرجع».

قال العلاّمة/ السَّعْديّ - رحمه الله - :

«قوله تعالى: ﴿ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ ﴾ هذا دفع لوهم من توهّم وتحرّج من المسلمين عن الطواف بينهما، لكونهما في الجاهلية تُعْبد عندهما الأصنام، فنفى الله - تعالى - الجناح لِدَفْع هذا الوْهَمِ، لا لأنّه غير لازم.

وقوله: ﴿ وَمَن تَطَوَّعَ ﴾ أي: فعل طاعة مُخلصًا بها للّه تعالى: ﴿ خَيْرًا ﴾ من حجّ، وعمرة، وطواف، وصلاة، وصوم وغير ذلك ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ الشّاكر والشكور من أسماء الله تعالى، الذي يقبل من عباده اليسير من العمل، ويجازيهم عليه العظيم من الأجر.

ومع أنه «**شاكر**» فهو «**عليم**» بمن يستحق الثواب الكامل، بحسب نيّته وإيمانه وتقواه، ممّن ليس كذلك، عليم بأعمال العباد فلا يضيعها، بل يجدونها أوفر ما كانت، على حسب نيّاتهم التي اطّلع عليها العليم الحكيم» ا.هـ[1].

(٢) وقال تعالى: ﴿ وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِۚ ﴾ [البقرة: ١٩٦].

قال العلامة السّعديّ: - رحمه الله - : «يستدلّ بقوله تعالى: ﴿ وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ ﴾ على أمور:

أحدها: وجوب الحجّ والعمرة، وفرضيتهما

الثاني: وجوب إتمامهما بأركانهما وواجباتهما التي قد دلّ عليها فعلُ النبيِّ ﷺ وقوله: «**خُذوا عَنّي مَناسككم**».

الثالث: أن فيه حُجّة لمن قال بوجوب العُمرة.

الرابع: أن الحجّ والعمرة يجب إتمامهما بالشروع فيهما ولو كانا نفلاً.

الخامس: الأمر بإتقانهما وإحسانهما، وهذا قدْر زائد على فعل ما يلزم لهما.

---

(١) «تفسير السّعدي» (٧٦) باختصار.

السادس: وفيه الأمر بإخلاصهما لله تعالى.

السابع: أنه لا يخرج الْمُحْرِم بهما بشيء من الأشياء حتى يكملهما، إلاّ بما استثناه الله وهو الحَصْر» ا.هـ[1].

ومن الأحاديث:

(١) عن عمر بن الخطاب ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«**تَابِعُوا بَيْنَ الحَجِّ والعُمْرةِ، فإنَّ الْمُتابَعةَ بَيْنهما تَنْفِي الفَقْرَ والذُّنُوبَ كَمَا يَنْفِي الكِيرُ خَبَثَ الحَدِيد**»[2].

(٢) وعن أبي هريرة ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«**العُمْرَةُ إلى العُمرة كَفَّارةٌ لِمَا بَيْنَهُما[3]، والحَجُّ المبرور[4] ليس له جزاءٌ إلاّ الجَنّة**»[5].

(٣) وعن عمرو بن عبسة ﷺ قال:

قال رجلٌ: يا رسول الله، ما الإسلام؟

قال: «**أن يَسْلَمَ لِلّهِ قَلْبُك، وأن يسْلَمَ المسلمون من لِسَانِك وَيَدِك**».

قال: فأيّ الإسلام أفضل؟

قال: «**الإيمان**».

قال: وما الإيمان؟

---

(١) «تفسير السّعدي» (٩٠).

(٢) حسن: رواه الترمذي، وابن ماجة، وغيرهما، وانظر: «الصحيحة» (١٢٠٠).

(٣) أي: من الذنوب غير الكبائر.

(٤) المبرور: الذي لا يخالطه إثم.

(٥) رواه البخاري (١٧٧٣)، ومسلم (١٣٤٩).

قال: «**أن تؤمنَ بالله وملائكته وَكُتبه وَرُسُله والبعث بَعْد الموت**».

قال: فأي الإيمان أفضل.

قال: «**الهجرة**».

قال: وما الهجرة؟

قال: «**أن تَهْجُرَ السُّوء**».

قال: فأيّ الهجرة أفضل.

قال: «**الجهادُ**».

قال: وما الجهاد.

قال: «**أن تقاتِل الكُفَّار إذا لَقِيتَهُم**».

قال: فأيّ الجهاد أفضل.

قال: «**مَنْ عُقِر جَوَادهُ وأُهْرِيق دَمُهُ**».

قال رسولُ الله ﷺ:

«**ثُمّ عَمَلان هُمَا أفْضَلُ الأعْمَال إلاّ مَنْ عَمِل بِمثْلِهما: حَجَّةٌ مَبْرُورةٌ، أَوْ عُمْرَةٌ مَبْرورةٌ**» [(١)].

(٤) وعن ابن عمر - رضي الله عنهما- عن النبيِّ ﷺ قال:

«**الغازي في سبيل الله، والحاجُّ والمعتمرُ، وَفْدُ الله، دَعَاهم فَأَجَابُوه، وسألُوه فأعْطَاهم**» [(٢)].

(٥) وعن أبي هريرة ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

---

(١) **صحيح**: قال المنذريّ في «الترغيب» (١٥٩٠): «رواه أحمد بإسناد صحيح».

(٢) **صحيح**: رواه ابن ماجة، وانظر: «صحيح الجامع» (٤١٧١).

«مَنْ خَرَج حَاجًّا فمات كُتِبَ له أَجْرُ الحَاجّ إلى يوم القيامة، وَمَنْ خَرَج مُعْتَمِرًا فمات كُتب له أَجْرُ المعتمِر إلى يَوْم القيامة، ومن خَرَج غازيًا فمات كُتب له أَجْرُ الغازي إلى يوم القيامة» [١].

(٦) وقال رسولُ الله ﷺ لامرأةٍ من الأنصار، يقال لها«أُمّ سِنَان»:

«ما مَنَعَك أن تَحُجِّي مَعَنا؟».

قالت: لم يكن لنا إلاّ نَاضِحَان[٢]، فَحَجّ أبو وَلَدِها وابْنها على نَاضح، وترك لنا ناضحًا نَنْضَحُ عليه.

قال: «**فإذا جاء رمضان فاعْتَمري، فإن عمرةً في رَمَضانَ تَعْدِلُ حَجَّةً**[٣]» [٤].

(٧) وعن أبي سعيد الخُدْريّ ﷺ :

أن رسول الله ﷺ قال:

«يقول اللّهُ ﷻ: إن عَبْدًا صَحَّحْتُ له جِسْمَه، وَوَسَّعْتُ عليه في الْمعيشة تَمْضِي عليه خَمْسَةُ أَعْوامٍ لا يَفد إليّ لَمَحْرُومٌ» [٥].

قال المنذريّ: «قال عليّ بن المنذر: أخبرني بعضُ أصحابنا، قال: كان حسن بن حيي يعجبه هذا الحديث وبه يأخذ. وَيُحِبُّ للرَّجل الْمُوسِرِ الصّحيح أن لا يتركَ الحَجَّ خَمْسَ سِنين[٦]» ا.هـ[٧].

قلت: في هذا الحديث، وحديث: «**تابعوا بين الحج والعمرة**» [٨] فيها حثٌّ ظاهر

---

(١) قال المنذري في «الترغيب» (١٦١٣): رواه أبو يعلى من رواية محمد بن إسحاق، وبقية رواته ثقات.

(٢) **الناضح**: البعير. وكانوا يحملون عليه الماء.

(٣) في ثوابها، لكن لا تسقط الفريضة.

(٤) رواه مسلم.

(٥) **صحيح**: رواه ابن حبان في «صحيحه» والبيهقي، وانظر: «الصحيحة» (١٦٦٢).

(٦) أو العُمرة، فالعمّار والحجاج وفد الله.

(٧) «الترغيب» (٢/٤٨٦).

(٨) مرّ قريبًا.

على تكرار الحجّ والعمرة، وبيان فضل ذلك، فإن قيل: كيف يُجمع بين هذه الأحاديث الصحيحة، وبين قول ابن مسعود ﷺ:

«في آخر الزمان يَكْثُر الحاجّ بلا سبب، يُهَوّن عليهم السَّفر، ويبسط لهم في الرّزق ويرجعون محرومين مَسْلوبين، يَهْوِي بأحدِهم بعيره بين الرّمال والقفار، وجارُه مَأْسُور[1] إلى جَنْبه لا يُواسيه».

وكذلك ما جاء عن أبي نَضْر التمّار: أن رجلاً جاء يودّع «بِشْر بن الحارث» - رحمه الله - ، وقال:

قد عزَمتُ على الحجّ[2] فتأمرني بشيء؟

فقال له: كم أعددت للنّفقة؟

فقال: ألفي درهم.

قال بِشْر: فأيّ شيء تبتغي بحجّك؟ تزهُّدًا أو اشتياقًا إلى البيت أو ابتغَاء مرضاة الله؟

قال: ابتغاء مرضاة الله.

قال: فإن أصبت مرضاة الله تعالى وأنت في منزلك وتنفق ألفي درهم وتكون على يقين من مرضاة الله تعالى أتفعل ذلك؟

قال: نعم.

قال: فاذهب فأعطها عشرة أنفس: مدين يقضي دينه، وفقير يرمّ شعثه، ومعيل يغني عياله، وَمُرَبّي يَتيم يُفرّحه، وإن قوى قَلْبُك تعطيها واحدًا فافعل فإن إدخالك السّرور على قلب المسلم، وإغاثة اللّهْفان، وكشف الضّرّ، وإعانة الضعيف أفضل من مائة حجّة بعد حجّة الإسلام، قُمْ فأَخْرجها كما أَمَرْنَاك وإلاّ فَقُلْ لنا ما في قَلْبك؟

فقال: يا أبا نصر، سفري أقوى في قلبي، فتبسّم بِشْر - رحمه الله - وأقبل عليه وقال له:

---

(١) المأسور: المديون.

(٢) أي: حج التطوّع.

«المال إذا جُمع من وسخ التجارات والشّبهات اقتضت النّفسُ أن تقضي به وطرًا فأظهرت الأعمال الصّالحات، وقد آلى الله على نفسه أن لا يقبل إلاّ عمل المتقين» [١].

قلتُ: الجمع بين ما مضى من أحاديث وبين هذه الآثار - والله أعلم - :

أن المذموم - في تكرار الحج والعمرة - هو التكرار لشهوة خفيّة - كالرّياء، وحُبّ ثناء الناس - أو بمال خبيث.

أو تكرار الحج والاعتمار مع إهمال الفقير والمحتاج.

أو الانشغال بنافلة مع إهمال فريضة، لأن الله لا يقبل نافلة حتى تُؤَدّى الفريضة كما قال أبو بكر لعمر - رضي الله عنهما - .

أمّا إذا صاحب تكرار الحجّ والاعتمار الإحسان إلى الفقير والمحتاج، وقضاء دين المديون وغير ذلك من أعمال الخير والبرّ، فتكرار الحج والاعتمار حينئذٍ من القُربات والباقيات الصالحات، والله أعلم.

ثالثًا: علوّ همّة الصّالحين في الحج والاعتمار:

عرف الصّالحون فضل تكرار الحجّ والاعتمار، فشدُّوا إلى بيت الله الحرام رحالهم، وتركوا أوطانهم، وفارقوا ديارهم، وأنفقوا من أموالهم، وهذه بعضُ أخبارهم:

- قال نافع: «سافرتُ مع ابن عمر بضعًا وثلاثين حِجّةً وَعُمرة!» [٢].
- وعن أبي إسحاق، قال:

«حجّ الأسود بن يزيد ثمانين، من بين حجّة وعمرة!» [٣].

- وعن عبد القاهر بن السَّرِّي عن أبيه عن جدّه، قال:

---

(١) «الإحياء» (٣/٤٠٩).
(٢) «السّير» (٥/٩٧).
(٣) نفس المرجع (٤/٥١).

كان «أبو عثمان النّهدي» من قضاعة، وسكن الكوفة، فلمّا قُتل الحُسين ﷺ تحوَّل إلى البصرة، وقال:

«لا أسكن بلدًا قُتل فيها ابن بنت رسول الله ﷺ» . قال:

«وحجّ ستين مرّة، ما بين حِجّة وَعُمرة!» [١].

- وقال عبد الرحمن بن حَرْمَلة:

سمعتُ ابن الْمُسَيَّب[٢] يقول:

«حججتُ أربعين حجّة!» [٣].

- وعن هلال بن خبّاب، قال:

«كان «سعيد بن جُبير» [٤] يُحْرِم في كلّ سنة مرَّتين؛ مرة للحجّ، ومرة للعُمرة» [٥].

- وعن ابن شوذب، قال:

شهدتُ جنازة طاووس - اليماني - بمكّة سنة خمسٍ ومائة، فجعلوا يقولون:

«رحم اللهُ أبا عبد الرحمن، حجّ أربعين حجّة!» [٦].

- وعن سُحْنون الفقيه، قال:

كان ابْنُ وهب[٧] قد قسَّم دَهْرَه أثلاثًا، ثلثًا في الرِّباط، وثُلثًا يُعلِّم الناس بمصر، وثُلثًا في الحجّ، وذكر أنّه حج سِتًّا وثلاثين حجّة! [٨].

---

(١) نفس المرجع (١٧٧/٤).

(٢) سيِّد التابعين.

(٣) «السّير» (٢٢٢/٤).

(٤) من خيار التابعين، قتله «الحجّاج الثقفي».

(٥) «السّير» (٣٢٥/٤).

(٦) نفس المرجع (٤٥/٥).

(٧) هو: عبد الله بن وهب، إمام أهل مصر.

(٨) «السّير» (٢٢٦/٩).

- وقال أبو طاهر بن سلمة: سمعت ابن المقرئ - الحافظ - يقول:

«استلمتُ الحَجَر في ليلةٍ مائةً وخمسين مرّة!»[(١)].

- وكان الحافظ البرزالي - صاحب التاريخ والمعجم الكبير - إذا قرأ الحديث، ومرّ به حديثُ ابن عباس في قصّة الرّجل الذي كان مع النبيِّ ﷺ فوَقَصَتْه ناقتُه وهو مُحْرِم فمات.. الحديث، وفيه: «**فإنّه يُبْعث يَوْمَ القِيامة مُلَبيًا**»[(٢)]، فكان إذا قرأه يبكي، ويَرِقُّ قَلْبُه، فمات مُحْرِمًا!!.

رُوحٌ دَعَاهــا لِلْوِصَــالِ حبيــبُها فَسَــعَتْ إلــيه تُطِــيعُهُ وَتُجِيــبُهُ

يــا مُدَّعــي صِــدْق الْمَحَــبّة هكــذا فِعْــلُ الْحَبِيــب إذَا دَعَــاهُ حَبِيــبُهُ

قولوا لِمَنْ لم يكن صَادِقًا: لا يَتَعنَّى ... وهذا خِتامُ الْمِسْكِ - هنا.

وعلى الله قصد السبيل.

۞۞۞۞۞

---

(١) نفس المرجع (١٦/٤٠١).

(٢) نصّ الحديث: عن ابن عباس، قال: بَيْنَا رجلٌ واقفٌ مع رسول الله ﷺ بعرفة إذ وقع عن راحلته فأَقْعَصَته، فقال رسولُ الله ﷺ: «**اغسلوه بماءٍ وَسِدْرٍ، وكفّنوه بثَوْبَيْه، ولا تُخَمِّروا رَأْسَه، ولا تُحَنِّطوه، فإنّه يُبْعَثُ يَوْم القيامة مُلَبِّيًا**» رواه البخاري ومسلم. ومعنى: «أقعصته»: رَمَتْه فكَسَرت عُنُقَهُ.

٢٧- الإيثار

اعلم - أخي المسلم - أن «الإيثار» ينشأ عن قوّة اليقين، وتوكيد المحبّة، والصّبر على المشقّة.

وهو: أعلى درجات السّخاء[1].

ولمكانته وأهمّيته، فالحديث عنه يدور حول خمسة أمور:

الأول: تعريفه.

والثاني: فضله.

والثالث: درجاته.

والرابع: الأسباب التي تُعين عليه.

والخامس: صور من حياة أهل الإيثار.

والله الموفّق، لا إله غيره، ولا ربّ سواه.

أوّلاً: تعريف الإيثار:

الإيثار «**لُغَةً**»: مَصْدَرُ قَوْلِهِم آثَرَه عليه يُؤْثِرُهُ إيثارًا بمعنى فَضَّلَه وَقَدَّمه وهو مأخوذ من مادة (أ ث ر) التي تدّل على تقديم الشّيء.

و «**اصطلاحًا**»: قال الإمام القرطبيُّ - رحمه الله - :

«الإيثار: هو تقديم الغير على النّفْس في حظوظها الدّنيوية رغبة في الحظوظ الدِّينية، وذلك ينشأ عن قوّة اليقين، وتوكيد المحبّة، والصَّبْر على المشقة» ا.هـ[2].

---

(١) قال الإمام الغزاليّ في «الإحياء» (٣/٢٥٨): «والإيثار: أعلى درجات السّخاء». ا.هـ.

(٢) «تفسير القرطبيّ» (١٨/٢٥).

ثانيًا: فضل الإيثار:

ورد في فضل «الإيثار» آيات وأحاديث؛ منها:

(١) قال تعالى – في معرض الثناء على الأنصار – : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر: ٩].

قال الإمامُ القرطبيُّ – رحمه الله تعالى – في تفسيره لهذه الآية:

«أي: يُؤْثِرونهم على أَنْفسهم بأموالهم ومنازلهم، لا عن غِنىً بل مع احتياجهم إليها. وفي «موطأ» مالك: أنه بلغه عن عائشة – رضي الله عنها – زوج النبيِّ ﷺ ، أن مسكينًا سألها وهي صائمة وليس في بيتها إلاّ رغيف؛ فقالت لمولاة لها: أعطيه إيّاه؛ فقالت: ليس لك ما تفطرينْ عليه؟ فقالت: أعطيه إيّاه. قالت: فَفَعَلْتُ. قالت: فَلَمَّا أَمْسَيْنا أَهْدَى لنا أهلُ بَيْتٍ أو إنسان ما كان يُهْدى لنا: شاةً وكَفَنَها[1]. فَدعَتْني عائشةُ فقالت: كُلي مِنْ هذا، فهذا خَيرٌ مِن قُرْصك».

قال علماؤنا: هذا من المال الرابح، والفعل الزّاكي عند الله تعالى يعجّل منه ما يشاء، ولا ينقص ذلك ممّا يدّخر عنه. وَمَنْ تَرَك شيئًا للّه لم يَجدْ فَقْدَه. وعائشة – رضي الله عنها – في فعلها هذا من الذين أثنى الله عليهم بأنهم يؤثرون على أنفسهم مع ما هم فيه من الخصاصة، وأنّ مَنْ فَعَل ذلك فقد وَقَى شُحّ نَفْسه وأَفْلَح فلاحًا لا خَسَارة بَعْده.

وذكر ابْنُ المبارك – رحمه الله – عن مالك الدّار: أن «عمر بن الخطاب» رضي الله عنه أخذ أربعمائة دينار، فجعلها في صرّة ثم قال للغلام:

اذهب بها إلى عُبيدة بن الجرّاح، ثُمَّ تَلَكَّأ ساعة في البيت حتى تَنْظر ماذا يصنع بها. فذهب بها الغلامُ إليه فقال:

يقول لك أمِيرُ المؤمنين: اجعل هذه في بعض حاجتك؛ فقال: وَصَلَه اللّهُ وَرَحِمَه،

---

(١) كان بَعْضُ الْعَرب، يأتون إلى الشّاة أو الخروف إذا سَلَخوه غَطَّوْه كلّه بعجين الْبُرّ وكفّنوه به ثم عَلّقوه في التّنّور، فلا يخرج من وَدَكه شيءٌ إلاّ في ذلك الكَفَن؛ وذلك من طيّب الطعام عندهم.

ثم قال:

تعالي يا جارية، اذهبي بهذه السّبعة إلى فلان، وبهذه الخمسة إلى فلان؛ حتى أنفذها.

فرجع الغلام إلى عمر، فأخبره، فوجده قد أعدّ مثلها لمعاذ بن جبل؛ وقال:

اذهب بهذا إلى معاذ بن جبل؛ وتَلَكَّأ في البيت ساعة حتى تنظر ماذا يصنع، فذهب بها إليه، فقال:

يقول لك أمير المؤمنين اجعل هذه في بعض حاجتك، فقال: رَحِمَه اللّهُ وَوَصَله، وقال:

يا جارية، اذْهبي إلى بيت فلان بكذا، وبيت فلان بكذا، فاطَّلعت امرأةُ معاذ، فقالت: ونحن والله مَسَاكين فأَعْطِنا. ولم يبق في الخرقة إلاّ ديناران قد جاء بهما إليها.

فرجع الغلامُ إلى عمر فأخبره فَسُرّ بذلك عمر، وقال:

«إنهم إخوة! بعضهم من بعض».

فإن قيل: وردت أخبارٌ صحيحة في النّهي عن التَّصدُّق بجميع ما يملكه المرء، قيل له: إنّما كره ذلك في حَقّ مَنْ لا يوثق منه الصَّبْر على الفقر، وخاف أن يتعرّض للمسالة إذا فَقَد ما ينفقه. فأمّا الأنصار الذين أثنى الله عليهم بالإيثار على أنفسهم، فلم يكونوا بهذه الصّفة، بل كانوا كما قال الله تعالى: ﴿ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ﴾ [البقرة: ١٧٧]. وكان الإيثار فيهم أفضل من الإمساك. والإمساك لِمَنْ لا يَصْبر ويتعرّض للمسألة أَوْلى من الإيثار.

والإيثار بالنّفس فوق الإيثار بالمال وإن عاد إلى النّفس. ومن الأمثال السائرة:

يجودُ بالنَّفْس إذْ ضَنّ الْبخيلُ بِها   والْجُودُ بالنَّفْس أَقْصَى غاية الْجُودِ

وأفضل الجود بالنَّفس: الجودُ على حِمَاية رسول الله ﷺ، ففي «الصحيح»: أن أبا طلحة ﷺ ترس على النبيِّ ﷺ يوم أُحد، وكان النبيُّ ﷺ يتطلّع ليرى القوم. فيقول له أبو طلحة: «لا تُشْرف يا رسول الله! لا يصيبونك! نَحْري دون نَحْرك!» ، وَوَقَى بِيَدِه

رسول الله ﷺ فَشُلَّت.

وقال حُذيفةُ العدوِيّ: «انطلقتُ يوم «اليرموك» [١] أطلب ابن عمّ لي - ومعي شيء من الماء - وأنا أقول: إن كان به رَمَقٌ سَقَيْتُه، فإذا أنا به، فقلتُ له: أسْقِيك؟ فأشار برَأسه أنْ نَعَم، فإذا أنا برَجُل يقول: آه! آه! فأشار إليّ ابْنُ عَمِّي أَن انطلق إليه، فإذا هو هشام بن العاص، فقلتُ: أسقيك؟ فأشار أنْ نَعَم. فَسَمِع آخر يقول: آه! آه! فأشار هشام أن انْطَلق إليه، فجئتهُ فإذا هو قد مات. فرجعتُ إلى هشام فإذا هو قد مات. فرجعتُ إلى ابْن عَمِّي فإذا هو قد مات!» [٢].

وسُئِل **ذو النُّون الْمَصْري:** ما حدّ الزاهد المنشرح صدره؟ قال: ثلاث:

تفريق المجموع، وترك طلب المفقود، والإيثار عند القوت.

قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر: ٩] الخَصَاصَة: الحاجة التي تَخْتَلّ بها الحال.

وأصلها من الاختصاص وهو انفراد بالأمر. فالخصاصة الانفراد بالحاجة؛ أي ولو كان بهم فاقة وحاجة.

قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر: ٩] الشُّح والبخل سواء. وجعل بعضُ أهل اللّغة الشّح أشدّ من البخل. والمراد بالآية: الشّح بالزّكاة وما ليس بفَرْض من صِلة ذَوِي الأَرْحام والضيّافة، وما شاكل ذلك. فليس بشحيح ولا بخيل من أنفق في ذلك وإن أمسك عن نفسه ومن وسع على نفسه و لم ينفق فيما ذكرناه من الزكوات والطاعات فلم يوق شُحَّ نفسه. قال ابن زيد: من لم يأخذ شيئًا لشيءٍ نهى اللّهُ عنه، و لم يَدَعْه الشُّح على أن يمنع شيئًا من شيءٍ أَمَرَه اللّهُ به، فقد وَقَاه اللّهُ شُحّ نَفْسِه» ا.هـ [٣].

(١) موقعة دارت رحاها بين المسلمين والروم في عهد «أبي بكر» وكان قائدها «خالد بن الوليد» رضي الله عنه.

(٢) مات الثلاثة، وبقيت شربة الماء!!.

(٣) «تفسير القرطبي» (١٨/٢٥- ٢٨) باختصار.

(٢) وعن أبي هريرة ﷺ أن رَجُلاً أتى النبيَّ ﷺ فبعث إلى نسائه فَقُلْنَ: ما مَعَنا إلاّ الماء.
فقال رسولُ الله ﷺ :
«**مَنْ يَضُمُّ – أو يُضيفُ – هذا؟**»[١].
فقال رَجلٌ من الأنصار: أنا. فانْطَلَق به إلى امْرأته، فقال:
أكْرمي ضَيْفَ رسَولِ الله ﷺ فقالت:
ما عندنا إلاّ قوتُ صِبْياني.
فقال: هَيِّئي طعامَكِ، وأصْبِحِي سِرَاجَكِ[٢]، وَنَوِّمي صِبْيَانَكِ[٣] إذا أرادوا عشاء، فَهيَّأت طعامَها وأصْبَحتْ سِرَاجَها، ونَوَّمَتْ صِبْيَاهَا، ثم قامت كأنّها تُصْلح سِرَاجها فأطفأته فَجَعلا يُرِيَانه أنّهما يأكلان فباتا طَاوِيَيْن، فلمَّا أَصْبَح غدا إلى رسول الله ﷺ فقال:
«**ضَحِكَ اللّهُ اللّيلة**[٤] – أو : **عَجِبَ**[٥] **مِنْ فِعَالكما**»، فأنزل الله:
﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[الحشر: ٩][٦].

---

(١) أي: من يؤوى هذا فيضيفه. و «أو» شَكّ الرَّاوي.
(٢) أصبحي سراجك: أوقديه.
(٣) نوِّمي صبيانك: عَلليهم بشيء.
(٤) قال الشيخ/ ابن عثيمين – رحمه الله –: «في هذا إثْبات الضَّحك للّه –ﷻ– وهو ضحك حقيقي، لكنّه لا يُمَاثِل ضَحِك المخلوقين، ضَحِكٌ يليق بِجَلاَله وعَظَمَته، ولا يمكن أن نمثّله» ا.هـ. انظر: «شرح العقيدة الواسطية» لسماحته (٢/٢٤).
(٥) قال الشيخ/ ابن عثيمين– أيضًا – في نفس المرجع السابق (٢/٢٧): «العجب: هو استغراب الشيء، ويكون ذلك لسَبَبَيْن : الأوّل: خفاء الأسباب على هذا المستغرب للشيء، وهذا مستحيل على الله تعالى، لأن الله عليم بكل شيء، ولا يخفى عليه شيء. والثاني: أن يكون السبب فيه خروج هذا الشيء عن نظائره وعمّا ينبغي أن يكون عليه، بدون قصور من المتعجِّب؛ بحيث يعمل عملاً مستغربًا لا ينبغي أن يقع من مثله. وهذا ثابت لله تعالى؛ لأنه ليس عن نقص من المتعجِّب، ولكنه عجب بالنظر إلى حال المتعجَّب منه» ا.هـ.
(٦) رواه البخاري (٣٧٩٨)، ومسلم (٢٠٥٤).

قال **الإمام النووي** - رحمه الله تعالى - :

«هذا الحديث مشتمل على فوائد كثيرة، منها: ما كان عليه النبيُّ ﷺ وأهل بيته من الزّهد في الدنيا والصّبر على الجوع وضيق حال الدنيا، ومنها: أنه ينبغي لكبير القوم أن يبدأ في مواساة الضّيف ومن يطرقهم بنفسه فيواسيه من ماله أوّلاً بما يتيسّر إن أمكنه، ثم يطلب له على سبيل التعاون على البرّ والتقوى من أصحابه. ومنها: المواساة في حال الشدائد. ومنها فضيلة إكرام الضيف وإيثاره. ومنها منقبة لهذا الأنصاري وامرأته - رضي الله عنهما - ومنها: الاحتيال في إكرام الضّيف إذا كان يمتنع منه رفقًا بأهل المنزل» ا.هـ.

(٣) وعن عائشةَ - رضي الله عنها - أنها قالت:

جاءتني مِسْكِينةٌ تَحْمِلُ ابْنَتَيْن لها فأطْعَمْتُها ثَلاَثَ تَمَرات، فأعْطَتْ كُلَّ واحدةٍ منهما تَمْرَةً وَرَفَعَتْ إلى فِيهَا تَمْرَةً لتأْكُلَها فاسْتَطْعَمَتْها ابْنَتَاها فَشَقَّتِ التَّمْرَةَ التي كانت تُريد أن تأكلها بَيْنَهمُا، فأَعْجَبَني شَأْنُها، فَذَكَرْتُ الذي صَنَعَتْ لِرَسُول الله ﷺ فقال:

«إنّ الله قد أوْجَب لها بِهَا الجَنّة أو أَعْتَقَها بها مِنَ النّار» [١].

ثالثًا: درجات الإيثار:

قال **الإمام ابن القيم** - رحمه الله تعالى - :

الإيثار على درجات:

الأولى: أن تؤثر الْخَلْقَ على نَفْسك فيما لا يَخْرُمُ عليك دينًا، ولا يَقْطَعُ عَلَيْكَ طريقًا، ولا يُفْسِدُ عليك وَقْتًا. يعني أن تُقَدِّمَهُمْ على نَفْسك في مَصَالحهم، مثل أن تُطْعِمَهم وَتَجُوعَ ، وَتكْسُوَهُمْ وَتَعْرى، وَتَسْقِيَهُم وَتظْمَأَ، بحيثُ لا يُؤَدِّي ذلك إلى ارْتِكاب إتْلاف لا يجوز في الدِّين.

وَكُلّ سبب يعود عليك بصلاح قلبك ووقتك وحالك مع الله فلا تُؤْثِر به أحدًا، فإن

---

(١) رواه مسلم (٢٦٣٠).

آثرت به فإنّما تُؤْثر الشيطان على الله وأنت لا تعلم[١].

الثانية: إيثارُ رضا اللّه على رضا غيره وإن عَظُمَتْ فيه المِحَنُ وثَقُلَتْ فيه الْمُؤَنُ وَضَعُفَ عنه الطَّوْل والبَدَنُ.

وإيثارُ رضا اللهِ - تعالى - على غيره: هو أن يريد ويفعل ما فيه مَرْضاته، ولو أَغْضَبَ الخَلْق، وهي درجةُ الأنبياء. وأعلاها للرّسل - عليهم صلواتُ الله وسلامُه - وأعلاها لأُولي الْعَزْم مِنهم، وأعلاها لِنبيِّنا ﷺ وعليهم؛ فإنّه قاوم العالم كلّه، وتجرَّد للدّعوة إلى الله، واحتمل عداوة البعيد والقريب في الله تعالى، وآثر رضي الله على رضى الخلق من كلّ وجه، ولم يأخذه في إيثار رضاه لومة لائم بل كان همه وعزمه وسعيه كله مقصورًا على إيثار مرضاة الله وتبليغ رسالاته، وإعلاء كلماته وجهاد أعدائه؛ حتى ظهر دينُ الله على كُلّ دِين، وقامت حُجّتُهُ على العالمين، وتمّت نعمته على المؤمنين، فبلّغ الرسالة، وأدّى الأمانة، ونصح الأُمّة، وجاهد في الله حق جهاده، وعَبَدَ الله حتى أتاه اليقينُ من ربِّه فلم ينل أحدٌ من درجة هذا الإيثار ما نال - صلوات ربّي وسلامه عليه - .

هذا، وقد جرت سُنةُ الله - التي لا تَبْديل لها - أن من آثَر مَرْضَاة الخَلْق على مرضاته: أن يُسْخط عليه من آثر رضاه، وَيَخْذُلَهُ من جهته، ويجعل محْنتَه على يَدَيْه، فيعود حَامِدُه ذَامًّا، ومن آثر مرضاته ساخطًا[٢]، فلا على مَقْصُوده منهم حَصَلَ، ولا إلى ثَواب مَرْضَاة رَبِّه وَصَل. وهذا أعْجَز الْخَلْق وأحْمَقُهُم.

قال الشافعيُّ - رحمه الله - : «رِضَا النَّاسِ غَايةٌ لا تُدْرَكُ، فعليك بما فيه صلاحُ

---

(١) لمّا نَدَب النبيُّ ﷺ الناس إلى غزوة «بدر» قال خيثمةُ بن الحارث لولده «سعد بن خيثمة»: «إنه لابدّ لأحدنا أن يُقيم، فآثرني بالخروج وأَقِم مع نسائك»، فَأَبَى سَعْد، وقال: «لو كان غير الجنة آثرتُك به»، فاستَهَما - اقْتَرَعا - فخرج سَهْمُ «سعد» فخرج فَقُتِل بـ «بَدْر»، ولَمّا حضرت «أُحُد»، قال خيثمةُ للنبيّ ﷺ: لقد رأيتُ البارحة ابْني في النّوم في أَحْسَن صورة، يقول: الْحَق بنَا تُرافقنا في الجنّة، ثم قال: وقد أصحبتُ مشتاقًا إلى مرافقته، وقد كَبُرت سنّي، وَرَقَّ عَظْمي، وأحببتُ لقاءَ رَبِّي، فادع الله يا رسولَ الله أن يَرْزُقَني الشّهادة، فدعا له الرسولُ ﷺ ، فَقُتِل شهيدًا في «أُحُد».

(٢) وَمَنْ آثَر: معطوف على «حامِدُه» والمعنى: يعودُ الذي آثره من الْخَلْق سَاخِطًا عليه.

نَفْسك فالْزَمْه».

ومعلومٌ أن لا صلاح للنَّفْس إلاّ بإيثار رضا رَبِّها ومولاها على غيره.

الثالثة: أن تَنْسُبَ إيثارَك إلى الله دون نَفْسك، وأنه هو الذي تَفَرَّد بالإيثار لا أنت، فكأنّك سَلَّمْتَ الإيثار إليه، فإذا آثَرْتَ غَيْركَ بشيءٍ، فإنّ الذي آثَرَهُ هو الحَقُّ لا أنْت فهو الْمُؤْثِرُ على الحقيقة، إذ هو الْمُعْطِي حَقيقةً» ا.هـ [١].

رابعًا، الأسباب التي تُعين على الإيثار،

من الأسباب التي تعين على الإيثار:

(١) **تعظيمُ الحقوق:** فإن عَظُمت الحقوقُ عنده، قام بواجبها وَرَعاها حَقّ رعايتها، واستعظم إضاعتها، وَعَلِم أنّه إن لم يبلغ دَرَجَة الإيثار لم يؤدِّها كما ينبغي فيجعل إيثارَهُ احْتياطًا لأدائها.

(٢) **مَقْتُ الشُّحّ:** فإنّه إذا مَقَته وأَبْغَضه الْتَزَم الإيثار؛ فإنّه يَرَى أنه لا خلاص له من هذا الْمَقْت البغيض إلاّ بالإيثار [٢].

قلت: والشُّحّ داءٌ مهلك، إذا تمكّن من أُمَّة أبادها، واجْتثّ جذورها.

قال ﷺ في الحديث «الصّحيح»:

«اتقوا الظّلم، فإن الظّلمَ ظُلمات يَوْم القيامة، واتقوا الشُّحّ، فإنّ الشُّحَّ أَهْلك مَنْ كان قبلكم، حَمَلهم على أن سَفكوا دماءَهم، واسْتحلّوا مَحَارمهم».

إن أمّة تقودها الأنانيةُ، وَيُسَيْطِر عليها البخلُ، وَيْغلب على أَهلها حُبُّ الذّات؛ أمّة لا تستحق البقاء.

---

(١) «تهذيب مدارج السالكين» (٣٦٣، ٣٦٤) باختصار وتصرّف.

(٢) كان الحسن يقول: «عَجَبًا لك يا ابْنَ آدم، تُنْفِق في شهواتك إسْرافًا وَبِدَارًا، وتبخل في مرضاة ربِّك بدِرْهم، ستعلم يا لُكع مقامك عنده غدًا».

(٣) **الرغبة في مكارم الأخلاق:** وَبِحَسَب رغبته فيها يكون إيثاره؛ لأن الإيثار أفضلُ درجات مكارم الأخلاق.

خامساً: صُوَرٌ من حَيَاة أهْل الإيثار:

وبعد أن تحدّثنا عن: تعريف الإيثار، وفضله، ودرجاته، والأسباب التي تعين عليه، نقتطف من حدائق أهل الإيثار، بعض الأزهار:

- عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال:

«أُهْدِى لِرَجُلٍ من أصحاب رَسُول الله ﷺ رأْسُ شَاة، فقال:

إن أخي فلانًا وعيالَهُ أَحْوَجُ إلى هذا منّا. فبعث به إليهم، فَلَمْ يَزَلْ يَبْعثُ به واحدٌ إلى آخَرَ حتى تَدَاولها أَهْلُ سَبْعَةِ أَبْيات حَتّى رَجَعَتْ إلى الأوَّل!!» [(١)].

- وَحُكِي عن أبي الحسن الأَنْطاكي: أنه اجتمع عنده نَيِّفٌ وثلاثون رَجُلاً بقرية من قرى الرَّيِّ، ومعهم أرْغِفَةٌ معدودة لا تُشْبِعُ جميعهم، فكَسَروا الرُّغْفانَ، وأطفؤوا السِّراج، وجلسوا للطّعام؛ فَلمَّا رُفِعَ، فإذا الطّعَام بِحَالِه لم يأكل منه أَحَدٌ شَيْئًا؛ إيثارًا لِصَاحِبه على نَفْسه!! [(٢)].

- وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال:

قدم عبدُ الرحمن بن عوف فآخى النبيُّ ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع الأنصاري، وعند الأنصاريّ امرأتان فعرض عليه أن يُنَاصِفَه أهْلَه[(٣)] وماله!، فقال:

بارك اللّهُ لك في أَهْلك وَمالك، دُلُّوني على السُّوق، فأتى السوقَ فَرَبِحَ شيئًا من أَقِطٍ[(٤)] وشيئًا من سَمْنٍ، فرآه النبيُّ ﷺ بعد أيام وعليه وَضَرٌ مِنْ صُفْرَة[(٥)]، فقال:

---

(١) «الدرّ المنثور» للسيوطي (١٠٧/٨).

(٢) «تفسير القرطبي» (٢٧/١٨).

(٣) بأن يطلّق إحداهنّ!!.

(٤) الأقط: قطع الجُبْن.

(٥) أي: أثر من زعفران.

«**مَهْيَمْ يا عَبْدَ الرَّحمن؟**[١]».

فقال: تزوّجتُ أنصاريّة.

قال: «**فما سُقْتَ؟**[٢]».

قال: وَزْنَ نَوَاةٍ من ذَهَب.

قال: «**أَوْلِمْ وَلَوْ بِشَاةٍ**»[٣].

من أين تعلموا:

ولئن سألتَ من أين تعلّموا هذا الإيثار؟ قُلْنا: من دينهم، وأفعال نبيِّهم ﷺ ، فلقد كان نبيُّنا ﷺ يُعطي عطاء مَنْ لا يَخْشى الفَقْر، وَقَدْ ذَكَرْنا طرفًا من ذلك في غير هذا الموضع.

وإذا أردت معرفة المزيد فانْظُرْ صِفات: «الكَرَم»، «السَّخاء»، «الصَّدقة»، «الإنفاق في سبيل الله»، «الجود».

وعلى الله قَصْدُ السَّبيل.

✡✡✡✡✡

---

(١) مَهْيَم: كلمة يُسْتفهم بها، معناه: ما حالك؟

(٢) يعني: من مَهْرٍ.

(٣) رواه البخاري (٥٠٧٢)، ومسلم (١٤٢٧).

٢٨- الإنْفاق

قال الإمامُ جَعْفر الصّادق - رحمه الله - : « إن الله تعالى خَلَق خَلْقًا من رَحْمته برَحْمَته لِرَحْمَتِه، وهم الذين يَقْضون حوائِجَ النّاس، فَمَنِ اسْتَطاع منكم أن يكون مِنْهم فَلْيَكُن».

بهذه الكلمات التي تُكْتَب بِمَاءِ الذَّهَب، نبدأ حديثنا عن « الإنفاق » ....

والحديث عن هذا الْخُلُق الكَريم ، يدور حول:

الأوّل: معنى الإنفاق.

والثاني: فضله.

والثالث: مظاهره.

واللّهُ الموفّق لما يُحبّ ويرضى.

أوّلاً: معنى الإنفاق:

الإنفاق « **لُغَةً** »: مَصْدَرُ أَنْفَق، يُقَال: أَنْفَقَ يُنْفِقُ إنْفَاقًا فهو مُنْفِقٌ، وتدور هذه المادة حول معنيين:

أحدُهما: يدلّ على انقطاع شيءٍ وذهابه.

والآخرُ: على إخْفاء شيءٍ وإغْماضه.

وصفة الإنفاق إنّما هي من المعنى الأوّل، يُقال نَفَق الشّيءُ: فَنِيَ، وأَنْفَق الرّجلُ افْتَقَر أي: ذَهب ما عِنْدَه.

وقال ابْنُ عَلاّن: النفقةُ مِن الإنْفاق وهو الإخراج. والنَّفَقُة: الدَّرَاهم ونحوها من الأموال وَتُجْمَعُ على نفقاتٍ وعلى نِفاقٍ « بالكسر » [١].

---

(١) « دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين » (٢/٢١٦).

• اصطلاحًا:

قال ابنُ عَلاَّن: «الإنفاق: إخراجُ المال الطَّيِّب في الطَّاعات والْمُبَاحَات» ا.هـ[1].

ثانيًا: فَضْلُ الإنفاق:

للإنفاق فضائل كثيرة، يَصْعُب حَصْرُها، منها:

أولاً: تزدادُ به البركة:

- قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ [سبأ: ٣٩].

قال العلاّمة السَّعْدي - رحمه الله - في تفسيره لهذه الآية:

«قوله: ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ ﴾ نفقة واجبة أو مستحبّة، على قريب، أوجار، أو مسكين، أو يتيم، وغير ذلك»، ﴿ فَهُوَ ﴾ تعالى ﴿ يُخْلِفُهُۥ ﴾ فلا تتوهّموا أن الإنفاق ممّا ينقص الرزق، بل وعد بالخلف للمنفق، الذي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر. ﴿ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ فاطلبوا الرزق منه، واسعوا في الأسباب التي أمركم بها» ا.هـ[2].

- وقال تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٦١].

ثانيًا: يَستَظِلّ الإنسان بِسَبَبِه في ظلِّ الله تعالى:

فعن أبي هريرة ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«سَبْعَةٌ يُظلّهم اللّهُ تعالى في ظلّه يَوْمَ لا ظِلّ إلاّ ظلُّه: إمامٌ عَدْلٌ، وشَابٌّ نَشَأَ في عبادة الله، وَرَجُلٌ قَلْبُه مُعَلّقٌ في المساجد، ورجلان تَحابّا في الله اجْتَمَعا عليه وتَفرّقا عليه، ورجلٌ

(١) «دليل الفالحين» (٢/٥١٤).

(٢) «تفسير السّعدي» (٦٨١).

دَعَتْه امرأةٌ ذاتُ مَنْصب وَجَمَالٍ فقال: إني أخافُ الله، ورجلٌ تَصَدّق بِصَدَقةٍ، فأَخْفَاها حتى لا تَعْلَمَ شِمَالُهُ ما تُنْفق يَمينه، وَرَجُلٌ ذَكَر الله خاليًا فَفَاضَتْ عَيْنَاه» [1].

ثالثًا: ينال الإنسانُ به الْبِرّ:

قال تعالى: ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران: ٩٢].

قال الإمام الفخر - رحمه الله - في تفسير هذه الآية:

«كان السَّلف إذا أحبّوا شيئًا جعلوه لِلّه، ثَبَت أنّه لمّا نزلت هذه الآية، قال أبو طلحة: يا رسول الله، لي حائط[2] بالمدينة وهو أحبّ أموالي إليّ أفأتصدق به؟

فقال ﷺ: «**بَخٍ بَخٍ**[3] **ذَاك مَالٌ رَابِحٌ، وإني أرى أن تجعلها في الأَقْرَبين**».

فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله، فقسمها في أقاربه[4].

وللمفسِّرين في تفسير «**الْبِرّ**» قَوْلان:

أحدهما: ما به يصيرون أبرارًا حتى يدخلوا في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴾ [الانفطار: ١٣].

فيكون المراد بالبرّ ما يحصل منهم من الأعمال المقبولة.

وثانيهما: الثواب والجنة، فكأنه قال: لن تنالوا هذه المنزلة إلاّ بالإنفاق على هذا الوجه.

أمّا القائلون بالقول الأوّل: فمنهم من قال: «**البرّ**» هو التقوى، واحتجّ بقوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ..... ﴾ إلى قوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٧]. وقال أبو ذرّ: «البر هو الخير»، وهو قريب ممّا تقدّم.

---

(١) رواه البخاري (١٤٢٣)، واللّفظ له، ومسلم (١٠٣١).

(٢) الحائط: البستان، وهو: «بَيْرُحَاء» كما في روايات.

(٣) بخ: كلمة تقال عند الرّضا والإعجاب بالشّيء أو الْمَدْح أو الْفَخْر.

(٤) رواه البخاري (١٤٦١)، ومسلم (٩٩٨).

وأمّا الذين قالوا: «البرّ» هو الجنة، فمنهم من قال: ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ ﴾ أي: لن تنالوا ثواب البرّ.

ومنهم من قال: المراد: برّ الله أولياءه، وإكرامه وتفضّله عليهم، وهو من قول الناس: بَرَّني فُلان بكذا، وبِرُّ فلانٍ لا ينقطع عني، وقال تعالى:

﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ... ﴾ إلى قوله: ﴿ أَن تَبَرُّوهُمْ ﴾ [الممتحنة: ٨].

واختلف المفسّرون في قوله تعالى: ﴿ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ فمنهم من قال: إنه نفس المال قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ [العاديات: ٨].

ومنهم من قال: أن تكون الهبة رفيعة جيّدة، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ ﴾ [البقرة: ٢٦٧].

ومنهم من قال: ما يكون محتاجًا إليه، قال تعالى: ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا ﴾ [الإنسان: ٨]. أحد تفاسير الحبّ في هذه الآية: على حاجتهم إليه.

والأَوْلَى أن يقال: كل ذلك مُعْتَبر في باب الفَضْل وكثرة الثواب.

واختلف المفسّرون، في أن هذا الإنفاق، هل هو الزكاة أو غيرها؟

قال ابن عباس: أراد به الزكاة، يعني حتى تخرجوا زكاة أموالكم.

وقال الحسن: كلّ شيء أنفق المسلم من ماله طلب به وَجْه الله، فإنه من الذين عَنَي اللّهُ - سبحانه - بقوله: ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ حتى التَمْرةَ.

والقاضي اختار القول الأوّل: واحتجّ عليه بأن هذا الإنفاق، وقف الله عليه كَوْن المكلّف من الأبرار، والفوز بالجنّة، بحيث لو لم يوجد هذا الإنفاق، لم يَصِر العبدُ بهذه المنزلة، وما ذاك إلاّ الإنفاق الواجب.

وأقول[1]: لو خَصَّصْنا الآية بغير الزكاة لكان أَوْلى، لأن الآية مخصوصة بإيتاء

---

(١) الكلام للإمام الفخر.

الأَحَبّ، والزكاة الواجبة ليس فيها إيتاء الأحب، فإنه لا يجب على المزكّي أن يُخْرِج أشرف أمواله وأكرمها، بل الصّحيح: أن هذه الآية مخصوصة بإيتاء المال على سبيل النَّدْب[١]» ا.هـ[٢].

رابعًا: يتَّقي به من مَصَارع السوء:

فعن أنس ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ :

« **صَنَائِعُ المعروف: تقي مَصَارِع السُّوء والآفات والْهَلَكات، وأَهْل المعروف في الدنيا، هم أَهْل المعروف في الآخرة** » [٣].

خامسًا: يَنَالُ به دَعْوَةَ الْمَلَك:

فعن أبي هريرة ﷺ قال:

قال رسول الله ﷺ :

« **مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبح العبادُ فيه، إلاّ مَلَكَان ينزلان، فيقول أَحدُهما: اللّهُمّ أعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا، ويقول الآخر: اللّهم أعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا** » [٤].

سادسًا: لا ينقطع به الثَّواب بعد الموت:

إذا كان في صدقة جارية:

عن أبي هريرة ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ :

---

(١) وإلى هذا، مال الإمام القرطبيّ، فقد قال: «وقيل: المعنى: حتى تنفقوا ممّا تحبون في سبيل الخير من صدقة أو غيرها من الطاعات، وهذا جامع». «تفسير القرطبي» (١٢٦/٤).

(٢) «مفاتيح الغيب» (٣٢٩/٧، ٣٣٠) باختصار.

(٣)**صحيح** : رواه الحاكم، وصحّحه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٦٨٩).

(٤) رواه البخاري (١٤٤٢)، ومسلم (١٠١٠).

« إنّ ممّا يَلْحَقُ المؤمنَ مِنْ عَمَلِه وحَسَنَاته بَعْد مَوْته: عِلْمًا عَلَّمَهُ ونَشَره، وَوَلدًا صالحًا تَرَكَه. أَوْ مُصْحَفًا وَرَّثَهُ، أَوْ مَسْجِدًا بناه، أو بَيْتًا لابْن السّبيل بناه، أو نَهَرًا أَجْراه، أو صَدقةً أَخْرَجها من ماله في صِحَّته وحياته تَلْحَقُهُ مِنْ بَعْد مَوْته »[1].

سابعًا: ينال به الإنسان أعْلَى المنازل:

فعن أبي كَبْشة الأَنْمَاريّ ﷺ قال:

سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول:

« ثلاثٌ أُقْسِمُ عليهنّ. وأحدّثكُم حَديثًا فاحْفَظوه » قال:

« فأمّا الثلاثُ الذي أُقْسِم عليهنّ: فإنّه ما نَقَص مَالَ عَبْدٍ صَدَقَةٌ، ولا ظُلِمَ عَبْدٌ بمَظْلَمةٍ فَيَصْبِرُ عليها إلاّ زادَه اللّهُ ﷻ بها عِزًّا، ولا يَفْتَحُ عَبْدٌ بَابَ مسألة إلاّ فَتَح اللّهُ له بَابَ فَقْر ».

وأمّا الذي أُحدّثكم حديثًا فاحْفظوه فإنه قال:

« إنّما الدّنيا لأربعة نَفَر:

عَبْدٌ رَزَقه اللّهُ ﷻ مالاً وعِلمًا، فهو يَتّقي فيه رَبَّهُ، وَيَصِلُ فيه رَحِمَهُ، وَيَعْلَمُ لِلّه - ﷻ - فيه حَقَّه. قال: فهذا بأفْضَلِ المنازل.

قال: وَعَبْدٌ رَزَقه اللّهُ ﷻ عِلْمًا ولم يرزُقه مَالاً، فهو يقول: لو كان لِي مَالٌ عَمِلتُ بِعَمَل فلان. قال: فأجْرُهما سَوَاء.قال: وَعَبْدٌ رَزَقه اللّهُ مالاً ولم يرزقه عِلْمًا، وهو يَخْبِطُ في مَاله بغير عِلْمٍ، لا يَتَّقي فيه رَبّه ﷻ ولا يَصِلُ فيه رَحِمه، ولا يعلم لِلّه فيه حقَّهُ، فهذا بأخْبَث المنازل.

قال: وعَبْدٌ لم يَرْزُقْه اللّهُ مالاً ولا عِلمًا فهو يقول: لو كان لِي مَالٌ لَعَمِلتُ بِعَمَلِ فلانٍ. قال: هي نِيَّتُهُ، فَوِزْرُهُما سَوَاءٌ»[2].

---

(١) **حسن**: رواه ابن ماجة، وحسّنه المنذريّ والألباني.

(٢) **صحيح**: رواه الترمذي (٢٣٢٥)، وغيره، وانظر: «صحيح الجامع» (٣٠٢١).

ثامنًا: يَتَّقِي الإنسانُ به النَّار:

فعن عدي بن حاتم - رضي الله عنه - قال:

قال رسولُ الله ﷺ :

« **مَنِ اسْتَطاع منكم أن يَسْتَتِرَ مِنَ النّار وَلَوْ بِشقِّ تَمْرَة فَلْيَفْعَلْ** » [١].

هذه بعض فضائل الإنفاق، وللمزيد راجع صفة: « الصّدقة ».

هذا، ولن يكون الإنفاق من الأعمال المقبولة إلاّ إذا استوفى شروطًا ثلاثة:

أوّلها: أن يكون من طِيب مَالِه، لا مِنْ رديئه وخبيثه: لقوله ﷺ :

« **إن الله طَيِّبٌ لا يَقْبل إلاّ طَيِّبًا** » [٢].

قال الحافظُ ابن رجب - رحمه الله - في شرحه لهذا الحديث:

« المراد في هذا الحديث: أن الله تعالى لا يقبل من الأعمال إلاّ ما كان طيّبًا طاهرًا من المفسدات كلّها كالرّياء والعُجب، ولا من الأموال إلاّ ما كان طيّبًا حلالاً، فإن الطّيب يوصف به الأعمال والأقوال والاعتقادات » ا.هـ[٣].

ثانيها: أن يُخْرِجَهُ طيِّبة به نَفْسُهُ، ثابتةً عند بَذْله، ابتغاءَ مَرْضاة الله؛ لقوله تعالى:

﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢٦٥].

قال الإمامُ الحسن - رحمه الله - في قوله تعالى: ﴿ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾: « كان الرّجلُ إذا هَمّ بصدقة تَثبَّت، فإن كان ذلك لِلّه أَمْضاه، وإن خالطه شَكٌّ أَمْسك!! » [٤].

---

(١) رواه مسلم (١٠١٦).

(٢) رواه مسلم (١٠١٥/٦٥).

(٣) « جامع العلوم » (١٠٨).

(٤) « تفسير القرطبي » (٣/٢٨٦).

قلت: فليسمع أولئك الذين يَودُّون - عند إخراج صدقاتهم - لو أُذيعت عَبْر الأقمار الصناعية، والقنوات الفضائية!!.

ثالثها: **أن لا يَمُنَّ به ولا يُؤْذى**؛ لقوله تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

والْمَنّ: مثل أن يقول: قد أحسنتُ إليك. وقال بعضهم: المنّ: التحدّث بما أعطى حتى يبلغ ذلك الْمُعطَى فيؤذيه. والمنّ من الكبائر. قال ﷺ:

« **ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم** »

قال أبو ذرّ: خابوا وخسروا، مَنْ هُم يا رسول الله؟

قال: « **الْمُسْبِلُ**[(١)]**،والْمَنّانُ، والْمُنْفِقُ سِلْعَته بالْحَلِف الكَاذب** » [(٢)].

والأذى: السَّبُّ والتَّشَكّي، وهو أعَمّ من الْمَنّ.

ثالثًا: مظاهر الإنفاق:

للإنفاق صوره المتعددة، فمن ذلك:

(١) الإنفاق على النفس.

(٢) الإنفاق على الأولاد.

(٣) الإنفاق على الزوجة.

(٤) الإنفاق على الوالدين.

---

(١) يعني: إزاره.

(٢) رواه مسلم (١٠٦).

(٥) الإنفاق على الدّابة في سبيل الله.

(٦) الإنفاق على المساكين.

(٧) الإنفاق على الإخوان في سبيل الله.

وقد ورد في هذه الصّور من الإنفاق أحاديث، منها:

- عن كَعْب بن عُجْرة ﷺ قال:

مَرّ على النبيِّ ﷺ رَجُلٌ، فرأى أصْحابُ رسولِ الله ﷺ من جَلَدِه ونَشَاطه، فقالوا: يا رسولَ الله، لو كان هذا في سبيل الله، فقال رسولُ الله ﷺ :

«إن كان خَرَج يَسْعى على وَلَده صِغارًا، فهو في سبيل الله، وإن كان خَرَج يَسْعى على أَبَويْن شَيْخَيْن كبيرين، فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يَسْعى على نَفْسه يُعِفُّها فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يَسْعى رِياءً وَمُفَاخَرة فهو في سَبيل الشَّيْطان» [١].

- وعن ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال:

قال رسول الله ﷺ :

«أفْضلُ دِينار يُنْفقُه الرَّجُلُ: دِينَارٌ يُنْفقُه على عياله، ودينارٌ يُنْفِقُه الرَّجُل على دابَّتهِ في سبيل الله[٢]، ودينارٌ يُنفقُه على أصْحَابه في سبيل الله» [٣].

- وعن أبي هريرة ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ :

«دينارٌ أنفقتهُ في سبيل الله ، ودينارٌ أنفقتَهُ في رَقَبةٍ، ودينار تَصَدَّقْتَ به على مِسكين، ودينارٌ أنفقتَه على أَهْلك؛ أَعْظَمُها أجْرًا الذي أنفقتَه على أهلك» [٤].

(١) **صحيح** : رواه الطبراني، وانظر: «صحيح الجامع» (١٤٢٨).

(٢) ويدخل في ذلك: تجهيز الغزاة في سبيل الله كما ذكرنا في صفة: «الجهاد في سبيل الله».

(٣) رواه مسلم (٩٩٤).

(٤) رواه مسلم (٩٩٥).

- وعن أبي مسعود البدريّ ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ :

«**إنَّ الْمُسْلِم إذا أنفق على أَهْلِه نَفَقَةً وهو يَحْتَسِبُها كانت له صَدَقَةً**» (١).

- وعن أُمّ سَلمة - رضي الله عنها - أنها قالت:

قلتُ: يا رسولَ الله، هل لي أَجْرٌ في بني أبي سَلَمة؟ أُنْفِقُ عليهم، ولَسْتُ بتاركَتِهم هكذا وهكذا، إنّما هُم بَنيَّ، فقال:

«**نعم لكِ فيهم أجْرُ ما أنفقتِ عَلَيْهم**» (٢).

أخي المسلم:

هذه بعضُ صُور الإنفاق، فَحَرِّك هِمَّتك إليها، وأيقن بالثواب عليها، وتشبّه بِسَلَفِك الصَّالح في جودهم، وسخائهم، وعطائهم، وإخلاصهم:

- كان «إبراهيم بن يوسف» - رحمه الله - يجمع الأموال ويقول:

«إنما أجمعُ ذلك لبطونٍ جائعة، وظهور عارية، و لم أجمعه للماء والطين!!».

أرأيت - يا أخي - سبب جمعهم للأموال، وحرصهم على تحصيلها؟

لبطون جائعة!.

وظهور عارية!.

فمن للأرامل اليوم؟

وَمَنْ للأَيْتام؟

ومَنْ للفقراء والمساكين؟

---

(١) رواه البخاري (٤٠٠٦)، ومسلم (١٠٠٢) واللفظ له.

(٢) رواه مسلم (١٠٠١).

ألا تعلم - يا أخي - أن بيننا فقراء لا يجدون ثَمَنَ علبة دَوَاء، بينما نرى أغنياء يمرضون من كثرة الأكل؟!!

فأين الرحمة؟

وأين ذهب الخير؟

وأين التعاون؟

ألا يعلم هؤلاء أن النبيَّ ﷺ قال:

« ليس المؤمنُ الّذي يَشْبَعُ وَجَارُه جائِعٌ » [١].

وقال: **« مَنْ لا يَرْحَم لا يُرْحم »** [٢].

« اللّهم إنّا نَسألك السّلامة من كُلّ إثْم، والغَنيمةَ من كُلّ بِرّ، والفوزَ بالجنّة، والنجاةَ من النّار ».

۞۞۞۞۞

---

(١) **صحيح**: رواه الطبراني، وأبو يعلى، ورواته ثقات، وصحّحه الألباني.

(٢) **صحيح**: تقدّم أكثر من مرّة.

٢٩- القَرْضُ

قال يَحْيى بن مُعاذ الرّازي - رحمه الله - : «عجبتُ مِنْ رَجُلٍ يُرائي بِعَمَله النّاس وهم خَلْقٌ مِثْله، وَمِنْ رَجُل بَقِي له مَال وَرَبُّ العِزّة يَسْتَقْرِضه، وَرَجُلٍ رَغِب في محبَّة مَخْلوق واللّهُ يدعو إلى مَحبَّته» ثم تلا:

﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ ﴾ [يونس: ٢٥].

كلامٌ رَقيق، يُحرِّك الهمم، ويهيّج الشَّوْق، ويضرب على أوتار القلوب، ويدعو إلى البَذْل والعطاء.

وبه نبدأ الحديث عن مكانة «**القَرْض**» في الإسلام.

- ما هو القرض؟
- وما هي أحكامه؟
- وما فضائله؟

هذا ما سوف يُبيّنه لنا - الإمامُ القرطبيّ - رحمه الله - في تفسيره للآية التالية:

قال تعالى: ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [البقرة: ٢٤٥].

قال الإمامُ القرطبيُّ - رحمه الله تعالى - في تفسيره لهذه الآية ما مختصره:

«فيه إحدى عشرة مسألة:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ لمّا أمر الله - تعالى - بالجهاد والقتال على الحق - إذ ليس شيء من الشريعة إلاّ ويجوز القتال عليه وعنه، وأعظمها دين الإسلام كما قال مالك - حرّض على الإنفاق في ذلك. فدخل في هذا الخبر المقاتل في سبيل الله، فإنه يقرض به رجاء الثواب كما فعل عثمان ﷺ في

جيش العُسْرة[١]. و ﴿ مَّن ﴾ رفع بالابتداء، و ﴿ ذَا ﴾ خَبَره، و ﴿ ٱلَّذِى ﴾ نعت لذا، وإن شئت بدل.

ولمّا نزلت هذه الآية: بادَر «أبو الدَّحْدَاح» ﷺ إلى التصدّق بماله ابتغاءَ ثَوَاب رَبِّه.

- فعن ابن مسعود ﷺ قال:

لمّا نزلت: ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ قال أبو الدحداح:

يا رسول الله: أَوَ إنّ الله - تعالى - يريد منا القَرْض؟!

قال: «**نعم يا أبا الدَّحْدَاح**».

قال: أَرِني يَدَك.

قال: فناوَله.

قال: فإني أقرضت الله حائطًا[٢] فيه ستمائة نخلة. ثم جاء يمشي حتى أتى الحائط وأمّ الدّحداح فيه وعياله؛ فناداها:

يا أُمّ الدحداح.

قالت: لبيك.

قال: اخرجي، قد أقرضتُ رَبِّي - ﷻ - حائطًا فيه ستمائة نَخْلَة.

- وقال زيدُ بْنُ أسلم: لمّا نزل: ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ قال أبو الدحداح:

فداك أبي وأُمّي يا رسولَ الله! إن الله يستقرضنا وهو غنيٌّ عن القرض؟

قال: «**نعم، يريد أن يُدْخِلَكم الجنّة به**».

---

(١) جيش العسرة: إنما كان في «غزوة تبوك» وكان في عُسْرة وشدّة، فقال رسول الله ﷺ: «**مَنْ جَهَز جَيْشَ العسْرة فله الجنّة**» فجهزه عثمان. ذكره البخاري تعليقًا في «فضائل الصحابة» (٧) مناقب عثمان بن عفان.

(٢) **الحائط**: البستان.

قال: فإنّي إن أقرضتُ ربِّي قرضًا يضمن لي به ولصِبْيَتِي الدَّحداحة معي الجنة؟

قال: «**نعم**».

قال: فناولني يدك.

فناوله رسولُ الله ﷺ يده. فقال:

إن لي حديقتين إحداهما بالسّافلة، والأخرى بالعالية، والله لا أملك غيرهما، قد جعلتُهما قرضًا لله تعالى.

قال رسولُ الله ﷺ: «**اجْعَلْ إحَداهما لِلّه والأخْرى دَعها مَعِيشة لكَ ولِعِيالك**».

قال: فأشْهدُك يا رسول الله أني قد جعلتُ خيرهما لِلّه تعالى، وهو حائط فيه ستمائة نخلة!.

قال: «**إذًا يجزيك اللّهُ به الجنّة**».

فانطلق أبو الدحداح حتى جاء أمّ الدحداح وهي مع صبيانها في الحديقة تدور تحت النّخل، فأنشأ يقول:

هَـــدَاكِ رَبِّـــي سُـــبُلَ الرَّشَـــادِ ... إلى ســـبيلِ الْخَـــيْر والسَّـــدادِ
بيـــني مـــن الحـــائط بـــالودَاد ... فقـــد مَضَـــى قَرْضًـــا إلى التّـــنَادِ
أَقْرضَـــتُه الله عـــلى اعْـــتَمادي ... بـــالطَّوْع لا مَـــنٍّ ولا ارْتِـــدادِ
إلا رجـــاءَ الضِّـــعْفِ في المعـــادِ ... فارْتحِـــلي بالـــنَّفْسِ والأوْلاَدِ
والـــبرّ لا شَـــكّ فَخَـــيْرُ زَادِ ... قَدّمَـــه المـــرءِ إلى الْمَعـــادِ

قالت أمُّ الدحداح: رَبِح بَيْعُك! بارَكَ اللّهُ لك فيما اشْتَرَيْت، ثم أجابته أمُّ الدّحْدَاح، وأنشأتَ تقول:

بَشَّـــركَ اللّـــهُ بِخَـــيْرٍ وَفَـــرَحْ ... مِـــثْلُك أدَّى مـــا لَدَيْـــه وَنَصَـــحْ
قـــد مَـــتَّع اللّـــهُ عِـــيالي ومَـــنَحْ ... بـــالْعَجْوَة السَّـــوْداءِ والـــزَّهْو الْـــبَلَحْ
والعـــبدُ يَسْـــعَى وله ما قد كَـــدَحْ ... طـــولَ اللّـــيالي وعلـــيه مـــا اْجـــتَرَحْ

ثم أقبلت أمُّ الدحداح على صِبْيانها تُخرِج ما في أفواههم وتنفض ما في أكمامهم حتى أفضت إلى الحائط الآخر؛ فقال النبيُّ ﷺ:

«كم عِذْقٍ رَدَاحٍ[1]، وادارٍ فَياح[2] لأبي الدَّحْدَاح» [3].

الثانية: قال الإمامُ ابن العربي: «انقسم الخلق بحكم الخالق وحكمته وقدرته ومشيئته وقضائه وقدره حين سمعوا هذه الآية أقسامًا، فتفرَّقوا فرقًا ثلاثة:

الفرقة الأولى: الرَّذْلَى، قالوا: إن رَبّ محمّد مُحْتَاج فقير إلينا ونحن أغنياء، فهذه جهالة لا تَخْفى على ذي لُبٍّ[4]، فَرَدَّ اللَّهُ عليهم بقوله:

﴿ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ﴾ [آل عمران: ١٨١].

الفرقة الثانية: لمّا سَمِعَتْ هذا القول، آثرت الشُّحّ والبخل وقَدّمت الرغبة في المال، فما أنفقت في سبيل الله ولا فَكّت أسيرًا ولا أعانت أَحَدًا، تكاسلاً عن الطاعة وركونًا إلى هذه الدّار.

الفرقة الثالثة: لمّا سَمِعت بادَرت إلى امتثاله وآثر المجيبُ منهم بسرعة بماله كأبي الدّحداح ﷺ وغيره. والله أعلم».

الثالثة: قوله تعالى: ﴿ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ «**القرض**»: اسم لكلّ ما يلتمس عليه الجزاء. وأقرض فلان فلانًا أي: أعطاه ما يتجازاه.

والقِرض - بالكسر - لغة فيه حكاها الكسائي. واستقرضتُ من فلان أي: طلبتُ منه القرض فأقرضني. واقترضت منه أي أخذت القرض.

---

(١) **العذق**: الغصن من النخلة. وفي رواية: «**رُبَّ عِذْق مُدَلَّلٍ لابْنِ الدَّحْدَاحة في الجنَّة**» رواه ابن سعد، وصحّحه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٤٨٣).

(٢) **الفياح**: الواسعة.

(٣) هذه القصة لها شواهد «صحيحة» في «صحيح مسلم» وأبي داود والترمذي والحاكم وغيرهم.

(٤) **اللّب**: العقل.

وقال الزّجاج: القرض في «اللغة» الْبَلاَءُ الحَسَن والبلاء السَّيئ، قال أُميّة:

كُـلّ امْرئ سوف يُجْزَى قَرْضَه حسنًا ... أو سـيِّئًا ومَديـنًا مـثَل مـا دَانـا

وقال الكسائي: القَرْض: ما أسلفت من عمل صالح أو سيّئ. وأصل الكلمة القطع؛ ومنه المقراض. وأقرضتهُ أي قطعتُ له من مالي قطعةً يجازِي عليها. وانقرض القوم: انقطع أثرهم وهلكوا.

والقرض ههنا: اسم، ولولاه لقال ههنا إقراضًا.

واستدعاء القرض في هذه الآية إنّما هو تأنيس وتقريب للناس بما يفهمونه، واللّهُ هو الغنيّ الحميد؛ لكنه - تعالى - شَبّه عطاء المؤمن في الدنيا بما يرجو به ثوابه في الآخرة بالقرض، كما شبّه إعطاء النفوس والأموال في أخذ الجنة بالبيع والشراء[١].

وقيل المراد بالآية: الحثّ على الصّدقة وإنفاق المال على الفقراء والمحتاجين والتّوسعة عليهم، وفي سبيل الله بنُصْرة الدِّين. وَكَنَى اللّهُ - سبحانه - عن الفقير بنَفْسه العَلِيَّة الْمُنزهَة عن الحاجات ترغيبًا في الصّدقة، كما كَنَى عن المريض والجائع والعطشان بنَفْسه الْمُقَدَّسَة عن النّقائص والآلام.

ففي «صحيح الحديث» إخبارًا عن الله تعالى:

«**يا ابْن آدم، مَرِضتُ فلم تَعُدْني، واسْتَطْعَمْتُك فلم تُطْعِمْني، واستَسْقَيتُك فلم تسقني، قال: يا ربّ، كيف أسقيك وأنت رَبّ العالمين، قال: استَسْقَاك عبدي فلانٌ لم تسقه، أما إنّك لو سقيته وَجَدتَ ذلك عندي**»[٢]. وكذا فيما قَبْلُ وهذا كلّه خَرَج مَخْرج التَّشْريف لمن

---

(١) وذلك في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾ [التوبة: ١١١].

(٢) نَصُّ الحديث: عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنّ الله ﷻ يقول يومَ القيامة: ياابْنَ آدم، مَرِضتُ فلم تَعُدْني. قال: يا ربِّ كيف أعودُك وأنتَ رَبُّ العالمين؟ قال: أما علمت أن عبدي فُلانًا مَرِضَ فَلَم تَعُدْه؟ أَمَا علمتَ أنّك لو عُدْتَه لوجدتَني عنْده؟ يا ابْن آدم، اسْتَطْعَمتُك فلم تُطْعِمْني. قال: يا رَبّ وكيف أُطْعمكُ وأنت رَبُّ العالمين؟ قال: أَمَا عَلِمْتَ أنه اسْتَطْعَمَك عَبْدي فلانٌ فَلَمْ تُطْعِمْهُ، أما عَلمْتَ أنّك لو أطْعَمْتَهُ لَوجَدتَ ذلك عِنْدي؟ يا ابْن آدم استَسْقَيتُك فلم تُسْقِني، قال: يا ربّ، كيف أسْقِيك**

كَنَى عنه تَرْغيبًا لِمَنْ خُوطب به.

الرابعة: يجب على الْمُسْتَقْرض رَدّ القَرْض؛ لأن الله تعالى بَيّن أن مَنْ أَنفْق في سبيل الله لا يضيع عند الله تعالى بل يردّ الثّواب قَطْعًا وأبْهَم الجزاء. وفي الخبر:

« **النّفقةُ في سَبِيل الله تُضاعف إلى سبعمائة ضِعْف وأكثر** » [١]. وقال ههنا:

﴿ فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾ وهذا لا نهاية له ولا حَدّ.

الخامسة: ثواب القَرْض عظيم، لأن فيه تَوْسِعة على الْمُسْلم وَتَفْريجًا عنه.

السادسة: قرض الآدميّ للواحد واحد، أي يردّ عليه مثل ما أقرضه. وأجمع أهل العلم على أن استقراض الدنانير والدّراهم والحِنْطة والشعير والتّمْر والزّبيب وكُلّ ماله مثْل من سائر الأطعمة جائز.

وأجمع المسلمون نقلاً عن نَبيِّهم ﷺ أن اشتراط الزّيادة في السّلف رِبا ولو كان قَبْضَة من عَلَفٍ - كما قال ابْنُ مسعود - أو حَبَّة واحدة.

ويجوز أن يردّ أفضل مِمّا يستلف إذا لم يشترط ذلك عليه؛ لأن ذلك من باب المعروف؛ استدلالاً بحديث أبي هريرة في البِكْر: « **إن خِيارَكم أحسنكم قَضَاء** » [٢].

فأثنى ﷺ على من أحسن القضاء، وأطلق ذلك و لم يُقَيِّده بصفة. وكذلك قضى هو ﷺ في البِكْر وهو الفَتِيّ المختار من الإبل جملاً خيارًا رَبَاعِيًا ، والخِيار: المختار، والرَّباعِي هو الذي دخل في السّنة الرّابعة؛ لأنه يُلْقِي فيها رباعيته وهي التي تلي الثَنايا وهي أربع رباعيات - مخففة الباء - وهذا الحديث دليل على جواز قرض الحيوان، وهو مذهب الجمهور، ومنع ذلك أبو حنيفة.

= **وأنت رَبّ العالمين، قال: اسْتَسْقَاكَ عبدي فلانٌ فلم تَسْقه، أما إنّك لو سَقَيْتَهُ وَجَدتَ ذلك عندي»** رواه مسلم (٢٥٦٩). قال العلماء: إنما أضاف المرض إليه - سبحانه وتعالى - والمراد العبد تشريفًا للعبد وتقريبًا له. « صحيح مسلم بشرح النووي » (١٦/٩٨).

(١) أخرجه الترمذي (١٦٢٦)، وقال: حديث حسن.

(٢) رواه ابن ماجة (٢٤٢٣)، ومسلم (١٦٠٠) (١٦٠١).

السابعة: ولا يجوز أن يَهْدِي من اسْتقرض هدية لِلْمُقْرض، ولا يَحِل لِلْمُقْرض قبولها إلاّ أن يكون عادهما ذلك؛ بهذا جاءت السُّنَّة: خرّج ابن مَاجَة[1]، عن يحيى بن أبي إسحاق الهُنَائي، قال: سألت أنس بن مالك عن الرّجل مِنّا يقرض أخاه المال فيهدِي إليه؟ قال:

قال رسولُ الله ﷺ: «**إذا أَقْرَض أحدُكم أخَاه قَرْضًا فأَهْدى له أو حَمَله على دابّته فلا يَقْبلها ولا يَرْكَبها إلاّ أن يكون جَرَى بَيْنه وبَيْنه قبل ذلك**».

الثامنة: القرض يكون من المال – وقد بيّنا حُكمه – ويكون من العرض. قال ابن عمر: «أَقْرِض من عِرْضك لِيوم فَقْرِك»؛ يعني: من سَبَّك فلا تأخذ منه حقًا ولا تُقِم عليه حَدًّا حتى تأتي يَوْمَ القيامة مُوفر الأجْر.

التاسعة: قوله تعالى: ﴿حَسَنًا﴾ قال الواقديّ: محتسبًا طيبة به نفسه. وقال عمرو ابن عثمان الصّدفيّ: لا يُمنّ به ولا يؤذِي. وقال سهل بن عبد الله: لا يعتقد في قرضه عوضًا[2].

العاشرة: قوله تعالى: ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ قال الحسن: لا نعلم هذا التضعيف إلاّ لله وحده، لقوله تعالى: ﴿وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠].

قال أبو هريرة: هذا في نفقة الجهاد، وكنا نحسب والنبيّ ﷺ بين أظهرنا نفقة الرّجل على نَفْسه ورفقائه وظَهْره بأَلْفَي أَلْف!

الحادية عشرة: قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ﴾ هذا عام في كل شيء فهو القابض الباسط. ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وَعِيدٌ، فيُجَازِي كُلاًّ بعمله» ا.هـ[3].

---

(١) قال الهيثمي في «المجمع»: في إسناده عقبة بن حميد الضّبي، ضعفه أحمد وأبو حاتم وذكره ابن حبان في «الثقات».

(٢) **قال الإمام الفخر** – رحمه الله –: «كون القرض» «**حسنًا**» يحتمل وجوهًا. **أحدها**: أراد به حلالاً خالصًا لا يختلط به الحرام، لأن مع الشبهة يقع الاختلاط ومع الاختلاط ربّما قبح الفعل. **وثانيها**: أن لا يُتْبِع ذلك الإنفاق مَنًّا ولا أذى. **وثالثها**: أن يفعله على نيّة التقرّب إلى الله تعالى، لأن ما يفعل رياء وسمعة لا يستحق به الثواب» ا.هـ. «مفاتيح الغيب» (٦/٤٨١).

(٣) «تفسير القرطبي» (٣/٢١٦ – ٢٢١) باختصار.

وقال الإمامُ الفخر - رحمه الله - في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ﴾: ففي بيان أن هذا كيف يناسب ما تقدّم **وجوه:**

أحدها: أن المعنى أنه تعالى لما كان هو القابض الباسط، فإن كان تقدير هذا الذي أمر بإنفاق المال الفقر، فلينفق المال في سبيل الله، فإنه سواء أنفق أو لم ينفق فليس له إلاّ الفقر، وإن كان تقديره الغنى، فلينفق فإنه سواء أنفق أو لم ينفق فليس له إلاّ الغنى والسّعة وبسط اليد، فعلى كلا التقديرين يكون إنفاق المال في سبيل الله أَوْلى.

ثانيها: أن الإنسان إذا علم أن القبض والبسط بالله انقطع نظره عن مال الدنيا، وبقى اعتماده على الله، فحينئذٍ يسهل عليه إنفاق المال في سبيل مرضاة الله تعالى.

ثالثها: أنه تعالى يوسّع عن عباده ويقتر، فلا تبخلوا عليه بما وسّع عليكم، لئلا يبدّل السّعة الحاصلة لكم بالضيق.

رابعها: أنه تعالى لمّا أمرهم بالصّدقة وحثّهم عليها أخبر أنه لا يمكنهم ذلك إلاّ بتوفيقه وإعانته، فقال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ ﴾ يعني: يقبض بعض القلوب حتى لا تقدم على هذه الطاعة، ويبسط بعضها حتى تقدم على هذه الطاعة» ا.هـ[1].

فَحرِّك همّتك - **أخي الكريم** - وأخلص نيّتك، وأقرض الله قَرْضًا حَسَنًا، واعلم أن الْمُسْتَقْرِض مَلِيءٌ وَفِيٌّ مُحْسِنٌ، ألا تسمع إليه وهو يقول: ﴿ فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗۚ ﴾.

وقال ﷺ: «**مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُقْرِضُ مُسْلِمًا قَرْضًا مَرَّةً إلا كان كَصَدَقَتِها مَرَّتَيْن**»[2].

أخي:

مَنْ بَذَل مَالَه أَدْرك آمَالَه.

وَرِث «عبدُ الرحمن بن الحارث» خمسين ألفًا، فبعث بها «سِرًّا» إلى إخوانه، وقال:

---

(١) «مفاتيح الغيب» (٦/٤٨٢).

(٢) **صحيح**: رواه ابن ماجة، وغيره، وانظر: «صحيح الترغيب» (٨٩١).

«قد كنتُ أسأل لهم الجنة في صلاتي، أفأبخل عليهم بالدّنيا؟!».

لله ما أَحْلى هذه الكلمة وأعمقها!

وأَحْلى منها ما قاله الإمام الرّباني: «أبو حفص النيسابوري»:

«ما استحق اسْم السَّخاء من ذَكَر العطاء ولا لَمَحَهُ بِقَلْبه!!»[1].

فالزم - يا أخي - فعل الخير مكانك، وأطعم الْبُرّ إمكانَك، وأَقْرِض رَبَّك فقد رَبَّك، وعامِل مَوْلاك بما أَوْلاك، ولا تَرُدَنّ سَائلا بِلاَ، فإنّه موت عنده بَلْ بِلَى، ولا تكن من البخلاء، وقانا اللّهُ وإيّاك أدوى داء.

قال ﷺ في الحديث «الصحيح»: «**وأيُّ داءٍ أَدْوى من الْبُخْل**».

واسمع إلى صوت «يحيى بن معاذ الرازي»: - ذلكم الواعظ المؤثّر - وهو ينادي:

«بَشِّرْ مال البخيل: بِحَادِث أَوْ وَارِث!».

نعم يا سيّدي:

يُغْنى البخيل بجمع المالُ مُدّته ... وللحوادثِ والوُرَّاث ما يَدَعُ
كدودةِ القَزّ ما تَبْنيه يهدمها ... وغيرها بالذي تَبْنيه ينتفعُ

نسأل الله - تعالى - العافية من كل داء.

۞۞۞۞۞

(١) «صلاح الأمة» (٢/٦١٥).

٣٠- قَضَاءُ الحوَائِجِ

قال ابْنُ شَبْرمة - رحمه الله - : «إذا طَلَبْتَ من أخيك حَاجَةً فلم يجهد نَفْسَه في قضائها، فتوضّأ وضوءَك للصّلاة، وكَبّر عليه أَرْبَع تكبيرات، وعدّه في الْمَوْتى!!».

كلمات سريعة الإيقاع، قويّة التأثير، تلهب ظُهورَ المتقاعسين عَنْ خِدْمَة الناس، وتقرع رؤوس قوم لا يتحركون لقضاء حاجة غيرهم إلاّ بطرق التسهيل الحديثة، أقصد «الرّشْوة» أو «الإكرامية» كما يحب بعضُهم أن يسمّيها، لتكون خفيفة على النفوس!.

ألا ما أكثر الموتى اليوم - في نظر ابن شبرمة - لكنهم في نظرنا: موتى القلوب، لا موتى الأبدان.

فميّت الْبَدن لا يكسب بعد مَوْته سَيِّئةً، أمَّا هؤلاء الذين انتفخت جيوبُهم وبطونُهم من أكل أموال الناس بالباطل، فكُلّما طالت أعمارُهم، ازدادت ذنوبُهم، وكَثُرت آثامُهم، وشرّ الناس: من طال عُمرُهُ، وساء عَمَلُهُ.

ألا ما أشْبَه هؤلاء بِمَنْ قال عنهم أبو الدرداء:

«وَيْلٌ لكلِّ جَمَّاع فاغرٍ فَاه[1] كأنه مجنون، يرى ما عند الناس، ولا يرى ما عند الله ﷻ، لو يستطيع لَوَصَل اللّيلَ بالنّهار، وَيْلَه من حسابٍ غليظ، وعذاب شديد».

لقد اقتلع حُبُّ الذّات شجرةَ الخير من قلوبهم!

وجَفّفَ الطّمعُ منابعَ الرّحمة في صدورهم.

ثم ماذا كانت العاقبة؟

كانت عاقبتهم: الحرمان، ودوام الحسرات.

- **قال أبو بكر الوَرّاق:** «لو قيل لِلطّمع مَنْ أبوك؟ قال: الشّكّ في المقدور، ولو قيل: ما

---

(١) أي: فاتح فمه.

حرْفتك؟ قال: اكتساب الذُّل، ولو قيل: ما غايتك؟ قال: الحرمان» [(١)].

وقال بعض السَّلف: «إن من أعظم الحسرات يوم القيامة: حسرة رجل كسب مالاً في غير طاعة الله، فورثه رجلٌ فأنفقه في طاعة الله - سبحانه - ، فدخل به الجنّة، ودخل الأوّلُ به النّار!».

وفي المناجات: أن الله تعالى قال لموسى عليه السلام:

ستة في ناري وغضبي:

أوّلهم: مَنْ طال عمره، وساءَ خُلُقُه.

وغَنِيٌّ سارق.

وعالِمٌ فاسِق.

ومَنْ أتاني مِنْ غَيْر تَوْبة.

ومن لَقِيَني بِدَم مؤمن متعمّدًا.

وَمَنْ منَع حَقّ امرئ مُسْلِم وأَكَله غَصْبًا[(٢)].

وعن الزُّهري: إن عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - كان إذا أصبح أمسك بلحيته، ثم قرأ:

﴿ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَـٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٠٥ - ٢٠٧].

ثمّ يبكي، ويقول:

نَهارُكَ يا مَغْرورُ سَهْوٌ وَغَفْلَةٌ ... وَلَيْلُكِ نَوْمٌ والرَّدَى لَكَ لازمُ

فَلا أنْتَ في الأَيْقَاظ يَقْظانُ حازِمُ ... ولا أنْتَ في النُوَّام ناجٍ فَسَالِمُ

---

(١) «الرسالة القشيرية» (ص ٢٤).

(٢) «بحر الدموع» لابن الجوزي (١٨٢).

تُسَرُّ بما يَفْنَى وَتَفْرَحُ بالْمُنَى ... كما سُرَّ باللّذات في النَّوم حَالِمُ
وتَسْعَى إلى ما سوف تَكْره غبَّهُ ... كذلك في الدنيا تعيشُ الْبَهَائِمُ[١]

فاحذر - أخي الكريم - أن تكون من هذا الصِّنف التّعيس، والنوع الخبيث، واعلم أن «**قضاء الحوائج**» للناس في سبيل الله - تعالى - من أفضل الأعمال والطاعات، وأجلّ القربات، وهو: باب عظيم من أبواب الخير، وسعة الرزق، وَنَيْل الرَّحَمات، كما أنه سبَبٌ عظيم من أسباب حفظ النّعم، وفاعله كالقائم الذي لا يَفْتر، والصّائم الذي لا يُفْطِر:

وهذه بعضُ الأحاديثِ والآثارِ الدّالة على ذلك:

عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«**أَحَبُّ النّاس إلى الله: أَنْفَعُهُم، وأحبّ الأَعْمَال إلى الله ﷻ: سرورٌ تُدْخله على مُسْلم، أو تكشف عنه كُرْبَة، أو تَقْضِي عنه دَيْنًا، أَوْ تَطْرِد عنه جُوعا، ولأن أَمْشِي مع أخي الْمُسْلم في حَاجَة، أحبُّ إليَّ مِنْ أن أعْتَكف في المسجد شَهْرًا، ومن كَفَّ غَضَبهُ، سَتَر اللّهُ عَوْرَته، ومَنْ كَظَم غَيْظًا ولو شاء أن يُمْضيهُ أمْضَاه، ملأ اللّهُ قَلْبَه رِضًا يَوْمَ القيامة، ومَنْ مشى مع أخيه المسلم في حاجته حتى يثبتها له، أثْبت اللّهُ تعالى قَدَمَه يَوْمَ تَزِلُّ الأَقْدام، وإن سُوء الْخُلُق لَيُفْسِدَ الْعَمَلَ، كما يُفسِد الخَلُّ الْعَسَلَ**» [٢].

وعن أبي هريرة ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«**السَّاعِي على الأَرْمَلة والمسكين، كالمجاهِد في سَبِيل الله، أو القائِم اللّيل الصَّائِم النّهار**» [٣].

---

(١) «تفسير القرطبي» (١٣/١٣٠).
(٢) **حسن**: رواه ابن أبي الدنيا في «قضاء الحوائج» (٣٦)، وانظر: «صحيح الجامع» (١٧٦).
(٣) رواه أحمد والبخاري ومسلم وغيرهم.

وعن أبي سعيد الخدريّ ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

« أيُّما مُسْلم كَسَا مُسْلمًا ثوبًا على عُرْى، كساه اللّهُ تعالى من خُضْر الجنّة، وأيّما مُسْلم أطعم مُسْلمًا على جُوع، أطعمه اللّهُ تعالى يَوْمَ القيامة من ثمار الجنّة، وأيُّما مُسْلم سَقى مُسْلمًا على ظَمأٍ، سَقَاه اللّهُ تعالى يَوْمَ القيامة من الرَّحيق الْمَخْتوم » (١).

وعن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

« إنَّ لِلّه تعالى: أقوامًا يَخْتَصُّهُم بِالنِّعم لمنافعِ الْعِباد، وَيقُرّها فيهم ما بَذَلُوها؛ فإذا مَنَعوها، نزعها مِنْهم، فَحَوَّلَها إلى غَيْرهم » (٢).

وعن أبي موسى ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال:

« على كُلّ مُسْلم صَدَقة »

قيل: أرأيت إن لم يجد؟

قال: **« يَعْتَمِلُ بِيَدَيه، فَيَنْفَعُ نَفْسَه ويَتَصَدّق »**.

قال: أرأيت إن لم يستطع؟

قال: **« يُعِينُ ذَا الْحَاجَة الْمَلْهُوف »**.

قال: قيل له: أرأيت إن لم يستطع؟

قال: **« يأمُرُ بالمعروف أو الخير »**.

قال: أرأيت إن لم يفعل؟

قال: **« يُمْسِكُ عَن الشَّرِّ، فإنّها صَدَقة »** (٣).

---

(١) رواه أحمد وأبو داود، وغيرهما، وحسّنه المنذريّ في « الترغيب ».

(٢) **حسن**: رواه ابن أبي الدنيا في « قضاء الحوائج » (٥)، وانظر: « صحيح الجامع » (٢١٦٤).

(٣) رواه البخاري ومسلم.

وعن أبي هريرة ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ :

«مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُسْلِم كُرْبَةً من كُرَب الدُّنْيا، نَفَّسَ اللّهُ عَنْه كُرْبَةً من كُرَب يَوْمِ القيامة، ومن يَسَّر على مُعْسِرٍ في الدُّنيا يَسَّر اللّهُ عَلَيْه في الدُّنيا والآخرة، ومن سَتَر على مُسْلمٍ في الدُّنْيا، سَترَ اللّهُ عليه في الدنيا والآخرة، واللّهُ في عَوْن الْعَبْد ما كان الْعَبْدُ في عَوْن أَخيه» [١].

- وعن عثمان بن واقد العمري، قال:

قيل لمحمد بن المنكدر[٢]: أيّ الدّنيا أعجب إليك؟

قال: «إدخال السّرور على المؤمن» [٣].

- وعن طاوس - رحمه الله تعالى - قال:

«إذا أنعم اللّهُ على عَبْدٍ نعمة ثم جعل حوائجَ النّاس إليه فإن احْتَمل وصَبَر وإلاّ عَرَّض تلْك النِّعمة للزَّوال» [٤].

أخي الكريم:

ولّما علم الصّالحون هذا الفضل الكبير، والثواب العظيم، بذلوا أموالهم، وأجهدوا أنفسهم، في تفريج كُربات المكروبين، ومسح آلام المحزونين، وقضاء حوائج المحتاجين.

فَجَدّد اللّهُ بهم الأمل.

وأزل بهم الألم.

وهذه مواقف من حياتهم:

---

(١) رواه مسلم، وغيره.

(٢) من التابعين، انظر: ترجمته في كتابنا «صور ومواقف من حياة التابعين» ط. المكتبة التوفيقية.

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في «قضاء الحوائج» (٣٣).

(٤) «قضاء الحوائج» لابن أبي الدنيا (٥٠).

الموقف الأول:

□ أَتَى رجلٌ «عُبَيْدَ الله بن العباس بن عبد المطلب» وهو بفناء داره، فقام بين يديه، فقال:

يا ابن عباس، إن لي عندك يَدًا، وقد احتجتُ إليها. فَصَعَّد فيه بَصَره وَصَوَّبه، فلم يعرفْه، ثم قال له:

ما يدك عندنا؟

قال: رأيتُك واقفًا بزمزم، وغلامك يَمْتحُ[1] لك من مائها، والشمس قد صَهرتْك، فظللتُك بطرف كسائي حتى شربت.

قال: إني لأذكر ذلك، وإنه يتردّد بين خاطري وفكري، ثم قال لقيّمه:

ما عندك؟

قال: مائتا دينار وعشرة آلاف درهم.

قال: فادفعها إليه، وما أُراها تفي بحقّ يده عندنا.

فقال له الرجلُ: والله لو لم يكن لإسماعيل ولدٌ غيرك لكان فيه ما كفاه، فكيف وقد ولد سَيّد الأوّلين والآخرين محمّدًا ﷺ ثم شفعه بك وبأبيك[2].

الموقف الثاني:

كان «عبد الرحمن بن خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان» رجلاً فقيهًا فاضلاً موسرًا، كثير الغزو والحجّ، أَعْطى حتى بلغت عطاياه قواعد المسجد.

قال: فبينما هو يومًا يتغدى حيث فرغ من غدائه، إذ استأذن عليه رجل مكفوف من بني فهر، تقوده أَمَةٌ سَوْداء، فقال:

---

(١) المتح: الاستسقاء.

(٢) «صلاح الأمّة» (٢/٥٢٢).

يا شيخ، طعامك. فأقبل يأكلُ معه كأنه لم يأكل شيئًا، ثم قال:

حاجتك؟

قال: حفظك الله، شيخٌ من بني فِهر، لي أربع بنات، ليس لي ولا لهنّ إلاّ الأَمَة السَّوْداء، فإن خدمَتْني أضرَّ ذلك بهنّ؛ وإن خَدَمَتْهُنَّ أَضَرَّ ذلك بي، ووالله ما أصبحتُ أَمْلِك شيئًا، فانْظُر في حاجتي، وصَلَك الله. فأقبل يَعْتذر إليه، ويذكر مسيره وَمَنْ يأتيه من قومه وما يتكلّف، فقلنا:

يُعطيه خمسة دنانير، فإن أعطاه عشرة فذلك كثير! فقال:

يا غلام، أعطه مائة دينار، وأخدم كل ابنة له خادمًا، وأَعْطِه قائدًا، وأَجْرِ عليه من مالنا بالسُّقيا كذا وكذا وسقًا من تمر. فلمّا نهض الشيخُ قيل له:

يرحمك الله، اعتذرت إليه، فقلنا: يعطيه خمسة دنانير، فإن زاده أعطاه عشرة دنانير! فقال:

إي والله، لأن يكون فعلي أحسن من قولي، أحبُّ إليَّ من أن يكون قولي أحسن مِنْ فِعْلي[1].

الموقف الثالث:

بَلَغ ابْنَ المقفّع - رحمه الله - : أن جاره عزم على بيع داره لديون عليه، فأرسل له ثمنَ الدّار، وقال له:

لا تبعها فإن نفعنا بها أكثر من نفعك أنت بها طالما جلسنا في ظلها![2].

الموقف الرابع:

قال رجل مرّة لأوس بن خارجة - رحمه الله تعالى - :

إني جئتكُ في حاجة صغيرة، فقال له:

(١) «صلاح الأمة» (٢/٥٦٨).

(٢) «تنبيه المغترين» (٢٢٥).

اطلب لها رجلاً صغيرًا[١].

الموقف الخامس:

دخل سائلٌ على مَعْروف الكَرْخي فلم يَرَ عنده ما يُعطيه غير نَعْله، فأعطاه إيّاه، ثم بلغ معروفًا بعد ذلك أنّه باع النّعل واشْتَرى بثمنها فاكهة، فقال معروف: الحمد لله، لَعَلّه كان يشتهي الفاكهة فواسيناه بثمنها![٢].

الموقف السادس:

كان «مطرّف بن عبد الله» - رحمه الله تعالى - يقول:

«من كان له عندي حاجة فليكتبها في قرطاس ويرسلها إليّ؛ فإنِّي أَكْره أن أرى ذُلّ المسألة في وَجْه مسلمٍ، فإن السؤال أَرْجح من النَّوَال، وإنْ جَلّ[٣]».

الموقف السابع:

جاء سائلٌ إلى «شُعْبة بن الحجّاج» وليس عنده شيء؛ فنزع خشبة من سقف بيته ثم اعتذر إليه![٤].

أخي:

كان هذا حالَ سَلَفِنا الصّالح، ضَيّقوا على أنفسهم في سبيل التَّوْسِعة على إخوانهم، وحملوا أنفسهم على التقشّف في سبيل إشباع الجائع، وكسوة العريان!

فَللّه دَرّهُم، وأين الْيَوْم أَمْثَالهم؟!.

كان المعروف يَجري في عروقهم، وفعل الخير شعارهم، تَغمر أَحدهم السّعادة حين يُفرّج اللّهُ به كُرْبة عن مكروب، أو يمسح به أَلَمَ مَكْلوم.

---

(١) نفس المرجع (٢٢٨).

(٢) «صلاح الأمة» (٦٢٠/٢).

(٣) «تنبيه المغترين» (٢٢٨).

(٤) «الإحياء» (٢٧٣/٣).

- فها هو «محمد بن واسع» - رحمه الله - يقول:

«ما رددتُ أَحَدًا عن حَاجَة أَقْدر على قضائها، ولو كان فيها ذِهَاب مالي!».

- وذكر أبو عمر المديني عن حسين بن عبد الله بن عبيد الله بن عباس أنه قال لابن أخيه:

«لأن يُرى ثَوْبُك على صاحبك أحسن من أن يُرى عليك، ولأن ترى دابّتك تحت صاحبك أَحْسَن من أن ترى تَحْتك!»[1].

وكان السَّعْي في مصالح الناس أفضل عندهم من الاعتكاف وصلاة التطوع:

- عن الحسن - رحمه الله - قال:

«لأن أَقْضي لِمُسْلمٍ حاجة أحَبّ إليّ من أن أُصَلّي أَلْفَ رَكْعة!!»[2].

- وعن أبي محصن، قال:

جاء رجلٌ إلى الحسين بن عليّ بن أبي طالب - رضي الله عنهما - فسأله أن يذهب معه في حاجة، فقال:

«إني معتكف»،

فأتى الحسنَ فأخبره، فقال الحسنُ:

«لو مشى معك في حاجتك أحبّ إليّ من اعتكاف شهر!»[3].

فماذا عن حالنا؟

على حالنا فَلْتَبْكِ البواكي!

قَلَّ العاملون لِلّه.

---

(١) «قضاء الحوائج» لابن أبي الدنيا (٢١).

(٢) نفس المرجع (٣٧).

(٣) نفس المرجع (٦٣).

أمّا أكثر النّاس، فلا يتحركون إلاّ لمصالحهم وذواقمم، وإن تحرّك أحدٌ لغيره، فلا يتحرّك إلاّ لشيئين:

الأول: لردّ جَميل سابق، أو انتظار جميل قادم.

والثاني: لرشوة مدفوعة مسبقًا!!

وترتب على هذا التعامل «الخبيث» مفاسد كثيرة:

تعطلت المصالح.

تعسّرت الحياة.

انْتُزعت البركة.

ازدادت رقعةُ الأنانية.

انتشر الفساد.

تَفكّك المجتمع.

انتشرت الأمراض.

انقلبت الموازين.

قُدِّمت النفايات.

أُخِّرت الكفاءات.

انتشرت البطالة إلخ.

فمتى تصحو الضمائر؟

ومتى تستيقظ المروءة؟

ومتى يظهر التعامل «لله» وحده؟

ولَيْتَ شعْري، ماذا جَنَى أصحابُ الضّمائر الميّتة من وراء ذلك؟ جَنَوْا:

النّدم.

الحسرة.

انتزاع البركة.

فشل الأولاد.

تفكك الأسرة.

قال الفُضَيْل: «إنّي لأَعْصِي الله، فأرى شُؤم ذلك، في سوء خُلق دابّتي وَزَوْجَتي!!».

هذا بالإضافة إلى سوء المصير وعذاب السَّعير.

قال الصّادِقُ المصدوق ﷺ: «**الرّاشِي والْمُرتَشي في النّار**»[1]

فأيُّ خِزْيٍ بعد هذا؟ نسأل الله تعالى العافية.



(١) قال المنذري في «الترغيب» (٣١٧١): رواه الطبراني، ورواته ثقات معروفون.

٣١- المُسَارَعَةُ إلى الخيرات

قال الإمامُ الْجُنَيْد - رحمه الله - : «ما رأيتُ أَعْبَدَ لِلّه تعالى من «سَرِّي السَّقَطي»، أتت عليه ثمان وسبعون سَنَة ما رُؤِي مُضجعًا إلاّ في عِلّته التي مات فيها!!» [(١)].

بهذه الهمّة «العالية» - التي لا تَعْرِفُ كَلَلاً ولا مَلَلاً - نبدأ حديثنا - هنا - عن صفةٍ كريمة تحلّى بها الأنبياء والصّلحاء. ألا وهي:

«المسارعة إلى الخيرات»؟

وحديثنا عنها يدور حول أربعة أمور:

الأول: معنى المسارعة إلى الخيرات.

والثاني: علامات المسارعين إلى الخيرات.

والثالث: ثمرات المسارعة في الخيرات.

والرابع: لقطات من حياة المسارعين في الخيرات.

ونسأل الله - تعالى - أن يجعلنا منهم.

أوّلاً: معنى المسارعة في الخيرات:

المسارعة في الخيرات: هي المبادرةُ إلى الطّاعات، والسَّبْقُ إليها، والاستعجالُ في أدَائها، وعَدَمُ الإبطاء فيها أو تأخيرها[(٢)].

لـــيس في كُـــلّ حَـــالٍ وَأَوَان ... تتهـــيَّأُ صَـــنائِع الإحْسَـــان

فـــإذا أمكنـــت فـــبادِرْ إلـــيها ... حـــذارًا مـــن تعـــذّر الإمْكـــان

---

(١) «بحر الدموع» لابن الجوزي (٣٩).

(٢) «نضرة النعيم» (٣٣٨٨/٨).

ثانيًا: علامات المسارعين إلى الخيرات:

وصف تعالى «المسارعين في الخيرات» في القرآن الكريم في سورة «المؤمنون» بصفات جليلة، وأعمال جميلة:

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥٧- ٦١].

قال الإمامُ الفخر الرّازي - رحمه الله تعالى - في تفسيره لهذه الآيات الكريمات:

«بيّن - تعالى - في هذه الآيات صفات من يسارع في الخيرات، وهي أربعة:

الصّفة الأولى: قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴾ والإشفاق يتضمّن الخشية مع زيادة رقّة وضعف، فمنهم من قال: جمع بينهما للتأكيد، ومنهم من حمل الخشية على العذاب.

والمعنى: الذين هم من عذاب ربّهم مشفقون، وهو قول الكلْبي ومقاتل. ومنهم من حمل الإشفاق على أثره وهو الدوام في الطاعة، والمعنى: الذين هم من خشية ربّهم دائمون في طاعته، جادّون في طلب مرضاته.

والتحقيق: أن من بلغ في الخشية إلى حدّ الإشفاق وهو كمال الخشية، كان في نهاية الخوف من سخط الله عاجلاً، ومن عقابه آجلاً، فكان في نهاية الاحتراز عن المعاصي.

الصّفة الثانية: قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴾.

واعلم أن آيات الله تعالى هي المخلوقات الدّالة على وجوده، والإيمان بها هو التصديق بها، والتصديق بها إن كان بوجودها فذلك معلوم بالضرورة، وصاحب هذا التصديق لا يستحق المدح، وإن كان بكونها آيات ودلائل على وجود الصّانع فذلك ممّا لا يتوصّل إليه إلاّ بالنَّظَر والفِكر، وصاحبه لابد وأن يصير عارفًا بوجود الصانع وصفاته.

وإذا حصلت المعرفة بالقلب حصل الإقرار باللسان ظاهرًا وذلك هو الإيمان.

الصّفة الثالثة: قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴾ وليس المراد منه الإيمان بالتوحيد وَنَفْي الشّريك للّه تعالى لأن دلك داخل في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ بل المراد منه نَفْي الشّرك الخَفيّ، وهو أن يكون مُخْلَصًا في العبادة لا يقدم عليها إلاّ لوَجْه الله تعالى وطلب رضوانه - والله أعلم.

الصّفة الرابعة: قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ معناه: يُعطون ما أعطوا فدخل فيه كل حق يلزم إيتاؤه سواء كان ذلك من حق الله تعالى: كالزكاة والكفّارة وغيرهما، أو من حقوق الآدميين: كالودائع والدّيون وأصناف الإنصاف والعدل، وَبَيّن أن ذلك إنما ينفع إذا فعلوه وقلوبهم وَجِلَة، لأن من يقْدم على العبادة وهو وَجلٌ من تقصيره وإخلاله بنقصان أو غيره، فإنه يكون لأجل ذلك الوجل مجتهدًا في أن يوفيها حقّها في الأداء.

وسألت عائشةُ - رضي الله عنها - رسولَ الله ﷺ فقالت:

﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ أَهَم الذين يَشْربون الخَمْرَ ويسرقون؟

قال: « **لا، بِنْت الصِّدّيق ولكنّهم الّذين يصومون ويصلون ويتصدّقون وهم يخافون أن لا تُقْبَلَ منهم؛ أولئك الذين يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون** » [(١)].

واعلم أن ترتيب هذه الصّفات في نهاية الْحُسْن، لأن الصَّفة الأولى دلَّت على حصول الخوف الشديد الموجب للاحتراز عمّا لا ينبغي.

والصّفة الثانية: دلّت على ترك الرّياء في الطاعات.

والصفة الثالثة: دلّت على أن المستجمع لتلك الصّفات الثلاثة يأتي بالطاعات مع الوجل والخوف من التقصير، وذلك هو نهاية مقامات الصِّدّيقين رزقنا اللّهُ - سبحانه - الوصول إليها.

---

(١) **صحيح** : رواه الترمذي (٣٤٠١)، وابن ماجة (٤١٩٨)، وصحّحه الألباني.

فإن قيل: أفتقولون إن قوله تعالى: ﴿ وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ يرجع إلى يؤتون، أو يرجع إلى كل ما تقدم من الخصال؟

قلنا: بل الأَوْلى أن يرجع إلى الكلّ لأن العطية ليست بذلك أولى من سائر الأعمال، إذا المراد أن يؤدّي ذلك على وَجَل من تقصيره، فيكون مبالغًا في تَوْفيته حقّه.

فأمّا إذا قرئ ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ ﴾ فالقول فيه أظهر، إذ المراد بذلك أي شيء أتوه وفعلوه من تحرّز عن معصية وإقْدام على إيمان وعمل، فإنهم يقدمون عليه مع الْوَجَل.

ثمّ إنه - سبحانه - بَيّن علّة ذلك الْوَجَل وهي علمهم بأنهم إلى رَبِّهم راجعون، أي للمجازاة والمساءلة ونشر الصّحف وتتبّع الأعمال، وأن هناك لا تنفع الندامة، فليس إلاّ الحكم القاطع من جهة مَالِك الْمُلْك.

ثمّ إنه - سبحانه - لمّا ذكر هذه الصّفات للمؤمنين المخلصين قال بعده ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ ﴾.

وفيه وجهان:

أحدهما: أن المراد يرغبون في الطاعات أشدّ الرّغبة فيبادروها لئلاّ تفوت عن وقتها، ولكيلا تفوتهم دون الاحترام.

الثاني: أنهم يتعجّلون في الدنيا أنواع النفع ووجوه الإكرام، كما قال تعالى:

﴿ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ ﴾ [آل عمران: ١٤٨]، ﴿ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [العنكبوت: ٢٧]، لأنهم إذا سورع لهم بها فقد سارعوا في نيلها وتعجّلوها، وهذا الوجه أحسن طباقًا للآية المتقدّمة، لأن فيه إثبات ما نفى عن الكفّار للمؤمنين وقرئ يسرعون في الخيرات.

أمّا قوله تعالى: ﴿ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴾ فالمعنى فاعلون السَّبق لأجلها أو سابقون الناس لأجلها أو «**وهم لها سابقون**» أي ينالونها قبل الآخرة حيث عجّلت لهم في الدنيا، ويجوز أن يكون خبرًا بعد خبر. والمعنى وهم لها كما يُقال:

أنت لها وهي لك، ثم قال: «سابقون» أي: وهم سابقون» ا.هـ[1]

وعن ابن عباس في معنى ﴿ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴾ سبقت لهم من الله السعادة؛ فلذلك سارعوا في الخيرات[2].

فكن – أخا الإسلام – متّصفًا بهذه الصّفات، شعارك كما قال الشاعر:

لأَسْتَسْهِلَنّ الصَّعْبَ أو أدرك الْمُنَى
فمـا انْقَـادَتِ الآمـالُ إلاّ لِصَـابِر

واعلم أن «الدَّهْر ثلاثة: يومٍ مضى لا يعود أبدًا، ويوم أنت فيه لا يدوم عليك، ويوم مُسْتَقْبِله لا تدري ما يكون منه، ولا تعرف ما حاله، فاغتنم لأَمْسِكَ الماضي بغير فائدة، واعمل ليومك الفاني ولِغَدِك الآتي، كلّ يسوق إلى غده، وكلّ امرئ مأخوذ بخبايا لسانه ويَده، خير عَمَلك ما أصلحتَ به يومك، وشرّه ما أفسدت به حال قومك، من تمسَّك بالدِّين عز نَصْرُه، واسْتَظْهر بالحقّ قهره.

لا تَبِتْ على غير وصيّة، وإن كنت من جسمك في صحّة، ومن عمرك في فسحة، فإن الدّهر قد قَدّر ما هو كائن، لا تخل نفسك من فكرة تزيدك حِكمة، وعبرة تفيدك عصمة.

من لزم العزلة سَلِم، ومن قَبِل النّصيحة غَنِم.

أجمل اللّباس العافية، وأفضل الدّارين الآخرة.

القناعة عزّ، والعلم كنز، والصَّمْت فوز.

الثّقة بالله مال المؤمن، والرّحمة من الله حَظّ المحسن.

من وَثَق بالله أغناه، ومن أحْسَن إلى خَلقه نَجَّاه.

الْحِرصُ رأس الفقر وأساس الشرّ.

---

(١) «مفاتيح الغيب» (٢٢/٣٨٦- ٣٨٨).

(٢) «تفسير القرطبي» (١٢/١٢٤).

الدّنيا تُقْبل إقبال الطالب، وتُدْبِرُ إدبار الهارب، وتَصِل وصال الملول، وتفارق فراق العَجُول، فخيرها يَسير، وعيشها قصير، وإقبالها خديعة، وقُرْبُها فجيعة، ولذّاتها فانية، وتبعاتها باقية، فاغتنم غفلة الزّمان، وانتهز فرصة الإمكان، وَخُذْ من نفسك لنفسك، وتزوّد من يومك لِغَدك، قبل حلول رمسك» [(١)].

ثالثًا: ثمرات المسارعة في الخيرات:

للمسارعة في الخيرات فوائد وثمرات، من هذه الثمرات:

(١) نَيلُ صفة الصَّلاح:

قال تعالى:

﴿ لَيْسُواْ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ۝ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُوْلَـٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ [آل عمران: ١١٣، ١١٤]

(٢) استجابة الدّعاء:

قال تعالى:

﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُواْ لَنَا خَـٰشِعِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٩، ٩٠].

(٣) نيل المغفرة:

فعن سعيد بن جبير - رحمه الله - في قوله تعالى: ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، قال: «سارعوا بالأعمال الصالحة إلى مغفرة من ربكم» [(٢)].

---

(١) «العقد النفيس ونزهة الجليس» لأبي منصور الثعالبي (٣٢، ٣٣).

(٢) «الدر المنثور» للسيوطي (١٢٨/٢).

(٤) نَيْل درجة القُرْب:

فعن قتادة في قوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ [فاطر: ٣٢].

قال: «هذا الْمُقَربّ»[1].

وعن ابن عباس – رضي الله عنهما – في قوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ ﴾، قال: «السَّابقُ بالخيرات يدخل الجنّة بغير حساب»[2].

(٥) الفوز بالجنّة:

دلّ على ذلك، قوله تعالى:

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [فاطر: ٣٢ – ٣٤].

«فالْبَدَار البدار يا أرباب الفُهُوم، فإنَّ الدُّنيا مَعْبَرٌ إلى دار إقامة، وسَفَرٌ إلى المستقرّ، والقُرب من السُّلْطان ومجاورته، فتيهيَّأوا للمجالسة، واستعدّوا للمخاطبة، وبالغوا في استعمال الأدب، لتصلُحُوا للقُرب من الحَضْرة. ولا يَشْغَلنّكُم عن تَضْمير الخَيْل تَكَاسُلٌ، ولْيَحْملكَم على الجدّ في ذلك تذكّركُم يَوْمَ السِّباق ..... فليتذكّر السّاعي حلاوة التَّسْليم إلى الأمين، ولْيَتذكّر في لَذاذَة الْمَدْح يَوْم السِّبَاق، ولْيَحْذَرِ الْمُسَابِقُ مِنَ تَقْصيرٍ لا يُمْكن اسْتدْرَاكُهُ»[3].

رابعًا: لقطات من حياة المسارعين في الخيرات:

قال العلاّمة السَّعْدي – رحمه الله – :

«مَنْ سَبَق في الدنيا إلى الخيرات، فهو السّابق في الآخرة إلى الجَنّات، فالسّابقون أعْلى

---

(١) «الدر المنثور» (٥/٤٧٣).

(٢) نفس المرجع والصفحة.

(٣) «صيد الخاطر» لابن الجوزي (٣٧٢).

الْخَلْق دَرَجة» ا.هـ[١].

علم سَلَفُنا ذلك فكانوا يحبّون الخيَر وأهله، وإذا قدروا على شيء منه سارعوا إليه وأيقنوا بثوابه، وإذا فاتهم منه شيء حزنوا عليه وحنّوا إليه.

وهذه لقطات من أحوالهم:

□ **ففي الصّلاة:**

يحكى لنا الفضيلُ بْنُ عِياض - التّابعي - رحمه الله - ما رآه من أصحاب رسول الله ﷺ فيقول:

«أدركتُ أقوامًا يستحيون من الله في سَوَاد الليل من طول الهجعة، إنّما هو على الجَنْب فإذا تحرَّك قال: ليس هذا لك، قومي خُذي حَظّك من الآخرة»[٢].

وهذا الإحساس لا يصدر إلاّ من نفوس كبيرة، تَعلّقت بِربِّها، وَرَغِبَتْ فيما عنده.

وسار الفقهاء على الدَّرب، فقد ذكر ابْنُ عماد الحنبلي - رحمه الله - أن **الإمام ابن قدامة** - رحمه الله - :

«كان لا يكاد يسمع دعاءً إلاّ حفظه ودعا به، ولا يسمع ذكر صلاة إلاّ صلاّها، ولا يسمع حديثًا إلاّ عمل به، وكان لا يترك قيام الليل من وقت شيبوبته، وقلّل الأكل في مرضه قبل موته حتى عاد كالعود، ومات وهو عَاقِدٌ على أَصَابعه يُسَبِّح!!»[٣]

فانظر - أخي الكريم - إلى همّة السّلف، وقارن بينها وبين همم المسلمين اليوم.

لقد عَلَتْ هِمَمُنا في أكل ما لذّ من الطّعام، وشرب ما طاب من الشّراب، واتّباع «الموضة» في الملابس، والمسارعة إلى حضور المباريات - المحلّية والعالمية - والتبكير لمشاهدة «مسرحية هزلية»، بينما هَبطت هِمّتُنا - إن لم تكن ماتت - عند سماع الأذان،

---

(١) «تفسير السّعدي» (١/١٦٨).

(٢) «صفة الصفوة» (٢/٢٤١).

(٣) «شذرات الذهب» (٥/٢٨).

وعند تلاوة القرآن!!.

- **وفي الصّدقات:**

كان لهم القدح المعلّى، وهذه بعضُ أحوالهم التي تبهر الألباب:

قال عمر بن الخطاب ﷺ: «أمرنا رسولُ الله ﷺ أن نتصدّق، ووافق ذلك منّي مالاً فقلتُ: اليوم أسْبق أبا بكر - إن سبقته - .

قال: فجئتُ بنصْفِ مالي، فقال رسولُ الله ﷺ :

«**ما أبقيتَ لأهْلِك؟**».

فقلتُ: مثله.

وأتى أبو بكر ﷺ بِكلِّ ما عِنْدَه، فقال:

«**يا أبا بكر، ما أبقيتَ لأهْلِك؟**»

قال: أبقيتُ لهم الله ورسوله.

قلت: «لا أسبقه إلى شيءٍ أَبَدًا» [١].

إنّها الثّقة المطلقة في الله، والرغبة الكاملة فيما عنده، والمسارعة الكريمة في مرضاته[٢].

- **وفي الذّكر:**

كانوا كما وصفهم الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ [آل عمران: ١٩١].

وهذه بعض أحوالهم:

قال الإمام ابن كثير - رحمه الله - :

«كان «محمد بن سيرين» [٣] - رحمه الله - يدخل السّوق نصف النهار فيكبّر الله،

(١) رواه أبو داود (١٦٧٨)، والترمذي (٣٦٧٦)، وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) انظر: «صفة الصدقات» فهناك المزيد.

(٣) من التابعين.

ويُسبِّحه ويذكره ويقول:

«إنّها ساعة غَفْلَة النّاس» [(١)].

وهذا نموذج آخر، أشدّ عجبًا:

عن سلمة بن شبيب، قال:

«كان «خالد بن مَعْدان» [(٢)] يُسبّح في اليوم أربعين ألف تسبيحة سوى ما يقرأ من القرآن، فلمّا مات فوُضع على سريره لِيُغَسّل، جعل بأصبعه كذا يُحرّكُها - يعني: بالتّسْبيح!!» [(٣)].

- **وفي التلاوة:**

كان لهم النّصيب الأَوْفى، وهذه بعض مجاهداتهم:

قال الإمام ابن الجوزيّ - رحمه الله - :

«كان الجنيدُ يقرأ - القرآن - وقت خروجُ روحِه، فَيُقال له: في هذا الوقت؟! فيقول: أُبَادرُ طَيَّ صَحِيفَتِي» [(٤)].

إنه الحرص على الثّواب حتى آخر نَفَس!

- **وفي الصّيام:**

عطّروا بمجاهداتهم صفحات التاريخ، بعد صفحات أعمالهم:

اقرأ:

قال أحدُ أصحاب الإمام: «**أبي إسحاق النيسابوري**»:

حضرتُ وفاة «أبي إسحاق النيسابوري» فجعل يقول لابنه إسحاق:

---

(١) «البداية والنهاية» (٩/٤٧).

(٢) من التابعين.

(٣) «حلية الأولياء» (٥/٢١٠)، و «سير أعلام النبلاء» (٤/٥٤٠).

(٤) «صيد الخاطر» (٣٧٢).

يا إسحاق، ارفع السّتر.

قال: يا أبت السّتر مرفوع.

قال: أنا عطشان، فجاءه بماء.

قال: غابت الشمس؟

قال: لا.

قال: فردّه. ثم قال:

﴿ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴾ [الصافات: ٦١]، ثم خرجت روحه!! [١].

أخي:

هذه أنْفُس وثّابة، دائمة التّرقّي والصّعود، لا تعرف الهبوط.

قلتُ للصَّقْر وهو في الجو عال	**اهْبط الأرض فالهواء جذيبُ**
قال لي الصَّقُر: في جناحي وَعَزْمي	**وعنان السّماء مَرْعى خَصِيب**

فَكُنْ على هُداهم، وَسِرْ على خطاهم.

والله الموفّق لمرضاته.



(١) «تاريخ بغداد» للبغدادي (٦/٢٠٦).

٣٢- الجُود

كان «**يحيى بن معاذ**» - رحمه الله تعالى - يقول: عجبتُ مِمَّن يَبْقى معه مالٌ وهو يسمع قَوْلَه تعالى:

﴿ إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ ﴾ [التغابن ١٧][1].

بهذه الكلمات المباركات، نبدأ - بإذن الله تعالى - حديثنا عن خُلُقٍ كريم، تحلَّى به الأنبياءُ، وَتَزَيَّا به الصُّلَحَاءُ، ألا وهو خُلُق «**الجود**» .

فما معنى الجود.

وما هي فضائله؟

وما هي مراتبه؟

هذا ما سوف يَدُور عليه حَدِيثُنا - هنا - واللّهُ الموفّق لِما يُحب ويرضى.

أولاً: معنى الجود:

الجود «**لُغَةً**» مَصْدَرُ قَوْلِهم: جادَ الرَّجُلُ بِمَاله يَجُودُ جُودًا، وهو مأخوذٌ من مادّة (ج و د) التي تدلُّ على التَّسَمُّحِ بالشّيء وكثرةِ العَطاء.

و «**اصطلاحًا**»:

قال التَّهَانَوِيُّ: «إفادَةُ مَا يَنبَغي لا لِعَوضٍ ولا لِغَرض» ا.هـ.

وقال الزَّبيديُّ: «الجواد، هو الذي يُعطى بلا مَسْأَلة صِيَانة للآخذِ مِنْ ذُلّ السؤال» ا.هـ[2].

---

(١) «تنبيه المغترين» للشعراني (٢٢٢).

(٢) «تاج العروس» للزّبيدي (٤/٤٠٣).

ثانيًا فَضَائِلُ الْجُود:

الجود له فضائل كثيرة، ويكفي أنه: صِفَةٌ من صفات الله تعالى، وَخُلُقٌ من أَخْلاق رَسولِ الله ﷺ:

- عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«**إنّ الله كريمٌ يُحبُّ الكُرَماء، جَوَادٌ يُحِبُّ الْجَوْدَةَ، يُحِبُّ مَعَالِي الأخْلاق، ويكْرهُ سِفْسَافَهَا**»[1].

- وعن أنس رضي الله عنه قال:

كان رسولُ الله ﷺ أَحْسَنَ النّاسِ، وكان أَجْوَدَ النّاس، وكان أشْجَعَ النّاس، ولقد فَزِع أَهْلُ المدينة ذَاتَ لَيْلَة، فانْطَلَقَ نَاسٌ قِبَل الصَّوْت، فَتَلقَّاهم رسولُ الله ﷺ راجعًا، وقد سَبَقهم إلى الصَّوْت، وهو على فَرَس لأبي طلحة عُرْيٍ، وفي عُنُقِه السَّيْفُ، وهو يقول:

«**لَمْ تُرَاعُوا، لَمْ تُراعُوا**[2]»[3].

- وعن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال:

«كان رسول الله ﷺ أَجْودَ النّاس، وكان أَجْوَدَ ما يكونُ في رمضانَ حين يَلْقاهُ جبْريلُ، وكان يَلْقَاه في كُلِّ لَيْلَة مِنْ رَمَضان فَيُدَارِسُهُ القرآن، فَلَرَسُولُ الله ﷺ أَجْوَدُ بالْخَيْر من الرِّيح الْمُرْسَلَة»[4].

وكَفَى بالْجُود حَمْدًا أن اسْمَه - مُطلقًا - لا يقع إلاّ في حَمْد، وكفى بالبخل ذمًّا أن اسمه - مُطلقًا - لا يقع إلاّ في ذمٍّ.

---

(١) **صحيح**: رواه ابن عساكر، والضّياء المقدسي، وانظر: «صحيح الجامع» (١٨٠٠).

(٢) **لم تراعوا**: أي روعًا مستقرًّا أو روعًا يضرّكم.

(٣) رواه البخاري (٢٨٢٠)، ومسلم (٢٣٠٧) واللّفظ له.

(٤) رواه البخاري (٥) واللّفظ له، ومسلم (٢٣٠٨).

ومن شرفه الله ﷻ قَرَن ذِكْرَه بالإيمان، ووصف أَهْلَه بالفلاح، والفلاحُ أجْمع اسْمٍ لسعادة الدَّارَيْن، فقال:

﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [البقرة: ٣ - ٥].

وقال تعالى: ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر: ٩].

وَحَقٌّ لِلْجودِ أن يَقْترن بالإيمان، فلا شيء أخصّ به وأشدّ مجانسة له منه، فمن صفة المؤمن: انشراحُ الصّدر: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا .... ﴾ (الآية) [الأنعام: ١٢٥].

وهما من صفات الجَوَاد والبخيل؛ لأن الجَوَاد يوصفُ بِسَعَةِ الصَّدْر للإنفاق، والبخيل يوصف بضيق الصَّدْر للإمْسَاك:

فبادروا وجوِّدوا هِممكم، واعْلوا بها لمصَامِ الأجواد والكرماء، يرفعكم الْجُودُ إلى عَنان السّماء.

فيا أخا الإسلام:

لِكُلِّ نَفْس وإن كانت على وَجَلٍ	من المنيَّة آمَال تُقَوِّيها
الْمَرْءُ يَبسُطها والدّهر يَقْبضها	والنَّفْس تَنْشُرها والموت يطويها
إنّ المكارمَ أخلاقٌ مَطْهرة	الدِّين أوَّلها، والعَقْل ثانيها
والْعِلْم ثالثها، والحِلْم رابعها	والجود خامسها، والفَضْل سادسها
والبرّ سابعها، والشكر ثامنها	والصَّبْر تاسعها، واللّين باقيها
والنّفس تعلم أنّي لا أُصَادقها	ولستُ أُرْشَد إلاّ حين أعْصيها
لا تركننَّ إلى الدّنيا وما فيها	فالموت لا شك يفنينا ويفنيها
واعمل لدار غدًا، رِضْوان خازنها	والجار أَحْمد، والرّحمنُ ناشيها
قصورها ذَهَب، والمِسْك طينتها	والزّعفران حَشِيش نابتٌ فيها

ثالثاً: مَرَاتبُ الْجُود:

اعلم: أن الجود عشر مراتب:

أحدها: الجودُ بالنَّفس:

وهو أعلى مراتبه، كما قال الشاعر:

يجـودُ بالـنَّفْس إذْ ضَـنّ الجـوادُ بها   والجـود بالـنَّفْس أَقْصَـى غاية الْجُود

عن عِمْران بن حُصَيْن ﷺ: أن امرأةً من جُهَيْنَة أُتَتِ نبيَّ الله ﷺ، وهي حُبْلَى من زِنًى. فقالت:

يا نبيَّ الله، أصَبْتُ حَدًّا فأَقِمْه عليَّ، فدعا نبيُّ الله ﷺ وَلِيَّها، فقال:

«**أَحْسِنْ إِلَيْهَا، فإذا وَضَعَتْ فأْتِني بها**».

ففعل، فأَمَر بها نبيُّ الله ﷺ فَشَكَّت[1] عليها ثيابها[2]، ثم أَمَر بها فَرُجِمْت، ثم صَلَّى عليها، فقال له عمر:

تُصَلِّي عليها يا نبيَّ الله، وقد زَنَت؟!

فقال: «**لقد تابت تَوْبَةً لو قُسِمَتْ بَيْن سَبْعِين مِنْ أَهْل المدينة لَوَسِعَتْهُم، وهل وَجَدْتَ تَوْبَةً أفْضَلَ مِنْ أن جَادَتْ بِنَفْسِها لِلّه تعالى**»[3].

الثانية: الجودُ بالرِّياسة:

وهو ثاني مراتب الجود، فيحمل الجود جوده على امتهان رياسته، والجود بها، والإيثار في قضاء حاجات الملتمس.

وهذا كجود الحسن بن عليّ – رضي الله عنهما – ... جاد بالخلافة على «معاوية» ﷺ

---

(١) وفي رواية: «فشدّت»، ومعناهما واحد.

(٢) حتى لا تنكشف عورتها.

(٣) رواه مسلم (١٦٩٦).

لِيُصْلح بين طائفَتيْن من المسلمين... فهو سيِّد من سادات المسلمين الأجواد.

قال يحيى بن معاذ - رحمه الله - :

«آخر ما يخرج من رأس الصِّديقين: حُبُّ الرياسة».

فلا يتحرَّرُ مِنْ حُبِّها بعد نَيْلها إلاّ من كَمُلَتْ نَفْسُه.

الثالثة: الجود بَرَاحَته ورفاهيته، وإجْمام نفسه:

فيجود بها تعبًا وكدًّا في مَصْلحة غيره، ومن هذا جُود الإنْسانِ بِنَوْمِهِ ولذّتِه لِمُسَامِره.

الرابعة: الْجُوُد بالْعِلْم وَبَذْله:

وهو من أعلى مراتب الجود، والجود به أفضل من الجود بالمال؛ لأن العلم أشرف من المال. وأفضل الجود ما يقرِّبك من مولاك خطوة، ويُدنيك من الجنة، أو يُعينك بالعلم على طلبها، ويدلُّك على طريقها، لا من يُطعمك الدنيا.

ومن الجود بالعلم:

أن السّائل إذا سألك عن مسألة، استقصيت له جوابها جوابًا شافيًا، لا يكون جوابُك له بقدر ما تدفع به الضرورة، كما كان بعضهم يكتب في جواب الفتيا «نعم» أو «لا» مقتصرًا عليها.

ولقد كان **شيخ الإسلام ابن تيمية** - رحمه الله- إذا سُئل عن مسالة حُكميّة، ذَكَر في جَوابها مَذَاهب الأئمّة الأَرْبَعة، إذا قدر، وَمَأْخَذ الخلاف، وترجيح القَوْل الرّاجِح، وذكر متعلّقات المسألة التي ربّما تكون أنفع للسّائل من مسألته، فيكون فرحه بتلك المتعلّقات واللّوازم، أعظم من فرحه بمسألته.

فمن جود الإنسان بالعلم: أنه لا يقتصر على مسألة السائل، بل يذكر له نظائرها، ومتعلّقها وَمَأْخَذَها، بحيث يشفيه ويكفيه.

وقد سأل الصّحابةُ ﷺ النبيَّ ﷺ عن المتوضِّئ بماء البحر؟ فقال:

«**هو الطّهور ماؤه، الْحِلُّ مَيْتَتُهُ**»[(١)].

فأجابهم عن سؤالهم، وجاء عليهم بما لعلّهم - في بعض الأحيان - إليه أحوج مّما سألوه عنه.

الخامسة: الجود بالنَّفْع بالْجَاه:

كالشّفاعة، والمشي مع الرّجل إلى ذي سُلطان، ونحوه .. وكذلك زكاة الجاه الْمُطَالب بها الْعَبْد، كما أن التعليم وبذل العلم زكاته.

السادسة: الجودُ بِنَفْعِ الْبَدَن على اختلاف أنواعه:

كما قال ﷺ: «**يُصبح على كُلّ سُلامى من أَحَدِكم صَدَقة كل يوم تطلُع فيه الشّمس، يَعْدل بين اثْنَيْن: صَدَقة، ويُعين الرجل في دابَّته؛ فيحملُه عليها، أو يرفع له عليها متاعه: صدقةٌ، والكلمة الطيِّبة: صدقةٌ، وبكلّ خُطوة يَمْشيها الرّجل إلى الصَّلاة: صدقةٌ، ويُميط الأذى عن الطّريق: صَدَقةٌ**»[(٢)].

السابعة: الجودُ بالْعِرْض:

كَجُود «عُلْبَة بن زَيْد الأنصاري»[(٣)] - المتصدِّق بِعرْضه.

لمّا حضَّ النبيُّ ﷺ أصحابه على النَّفَقة لتجهيز جيش «العُسْرة»[(٤)]، سارع الصّحابةُ ﷺ فأنفقوا من أموالهم وجهّزوا أنفسهم وغيرهم، سوى «سبعة» من فقراء الصّحابة انتهت النَّفقة عِنْدهم، من بينهم «عُلْبة بن زيد» فقام «عُلبة» فصلّى بالليل وبكى، وقال:

---

(١) **صحيح**: رواه أبو داود (٨٣)، والترمذي (٦٩)، وغيرهما.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) من البكّائين الذين نزل فيهم قولُه تعالى: ﴿ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴾ [التوبة: ٩٢].

(٤) الجيش القاصد «تبوك».

«اللّهم إنك قد أمرت بالجهاد، ورغبت فيه، ثم لم تجعل عندي ما أتقوّى به مع رسولك، ولم تجعل في يد رسولك ما يحملني عليه، وإني أتصدق على كل مسلم بكل مظلمة أصابني فيها من مال، أو جسد، أو عرض، ثم أصبح مع الناس، فقال النبيُّ ﷺ:

«أين الْمُتَصَدِّق هذه اللّيلة؟» [1].

فلم يقم أحدٌ، ثم قال:

«أين الْمُتَصَدِّق، فَلْيَقُم».

فقام إليه فأخبره، فقال النبيُّ ﷺ:

«أَبْشِرْ فوالّذي نفس مُحمّد بِيَده لقد كُتِبَتْ في الزّكاة الْمُتَقَبَّلة» [2].

وفي هذا الجود من سلامة الصَّدْر، وراحة القلب، والتّخلُّص من مُعَادَاة الخَلْق ما فيه.

الثامنة: الجودُ بالصَّبْر، والاحْتِمال، والإغْضَاء:

وهذه مرتبة شريفة من مراتبه، وهي أنفع لصاحبها من الجود بالمال، وأعز له وأنصر، وأملك لنفسه، وأشرف لها. ولا يقدر عليها إلاّ النفوس الكبار.

فمن صعب عليه الجود بماله فعليه بهذا الجود. فإنّه يجتني ثمرة عواقبه الحميدة في الدنيا قبل الآخرة. وهذا جود الفتوّة.

قال تعالى: ﴿ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ﴾ [المائدة: ٤٥]، وفي هذا الجود.

وقال تعالى: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الشورى: ٤٠].

---

(١) وفي رواية: «**أين الْمُتَصَدِّق بِعِرْضِه البارحة؟**».

(٢) **صحيح**: ذكره ابن إسحاق بدون إسناد، وله طريق موصول، وصحّحه الألباني في «فقه السيرة» (٤٥١).

فذكر المقامات الثلاثة في هذه الآية: مَقَام العَدْل، وأَذِنَ فيه. ومقام الفَضْل، ونَدَب إليه. ومقام الظُّلْم، وحَرَّمه.

قلت: وهذا النوع من الجود له ثواب عظيم، وأجر كبير: فقد قال ﷺ:

«**مَنْ كَظَم غَيْظًا، وهو قادر على أن يُنْفِذَهُ؛ دَعَاه اللّهُ - عَجَّلَ - على رؤوس الخلائق يَوْم القيامة، حتى يُخَيِّره اللّهُ مِنَ الْحُور ما شاء**»[1].

التاسعة: الجود بالخُلُق والْبِشْر والْبَسْطَة:

وهو فوق الجود بالصَّبر، والاحتمال والعفو. وهو الذي بلغ بصاحبه درجة الصّائم القائم، وهو أثقل ما يوضع في الميزان.

قال النبيُّ ﷺ: «**لا تَحْقِرنّ من المعروف شيئًا، ولو أن تَلْقَى أَخَاك وَوَجْهُك مُنْبَسِطٌ إليه**»[2].

وفي هذا الجود من المنافع والمسارّ، وأنواع المصالح، ما فيه، والعبد يمكنه أن يَسَعهم بخُلُقه واحْتماله.

العاشرة: الجودُ بتركه ما في أَيْدي النَّاس عليهم:

فلا يلتفت إليه ولا يستشرف له بقلبه، ولا يتعرّض له بحاله، ولا لسانه.

وهذا الذي قاله **عبد الله بن المبارك** فيه:

«سخاء النّفس عَمّا في أيدي النّاس أَفْضَل من سَخَاء النَّفْس بالْبَذْل».

فلسانُ حَالِ القَدَر يقول للفقير الجواد:

«وإن لم أُعطِك ما تجود به على الناس، فَجُدْ عليهم بزُهْدك في أَمْوالهم وما في أيديهم، تَفَضّل عليهم، وتُزاحمهم في الجود، وتَنْفَرِد عنهم بالرّاحة».

---

(١) **حسن:** رواه أبو داود، وغيره، وانظر: «صحيح سنن أبي داود» (٣٩٩٧).

(٢) رواه مسلم (٢٦٢٦).

ولكلّ مَرْتبة من مَرَاتب الجود، مزيد وتأثير خاصّ في القلب والحال.

واللّهُ سبحانه قد ضَمِن المزيد للجواد، والإتْلاف للْمُمْسِك. والله المستعان»ا.هـ[١].

أخي المسلم:

عرف الصّالحون ثوابَ الْجُود وفَضْل السَّخَاء، وأيقنوا بالثّواب يوم اللّقاء، فتحرّكت أيديهم بالإنفاق والعطاء:

- فهذا «**مُوَرِّق العجْليّ**»[٢]، يَحْكى عن جُوده بَعْض أصحابه، فيقول:

«كان «مُورِّق» يَتَّجر فيصيبُ المال، فلا يأتي عليه جُمُعة وعنده منه شيءٌ. وكان يأتي الأخ فيعطيه الأربعمائة والخمسائة ويقول:

ضَعْهَا لنا عندك، ثم يَلْقاه بَعْدُ، فيقول: شأنك بها، لا حَاجَة لي فيها!!»[٣].

- وهذه أمُّ المؤمنين «**عائشة**» - رضي الله عنها - :

بعث إليها «معاوية» ﷺ يومًا بمائة أَلْفِ دِرْهم، ففَرّقتها في وقتها، ولم تبق لها عشاء ليلة!![٤].

- وهذا «عبد الله بن أبي بكرة» ﷺ:

كان ينفق على جيرانه أربعين دارًا من كُلّ جانب، ويفطر على الكسرة، وكان يبعث إليهم بالأضاحي والكسوة في الأعياد، وكان يعتق كلّ سَنة في عيد الفطْر مائة مملوك!![٥].

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/٢٩٣- ٢٩٦) باختصار وتصرّف.

(٢) قال عنه ابْنُ سعد: «كان ثقة، عابدًا، تُوفي في ولاية «**عمر بن هُبيرة**» على العراق».

(٣) «سير أعلام النبلاء» (٤/٣٥٤).

(٤) «تنبيه المغترين» للشعراني (٢٢٣).

(٥) نفس المرجع.

- وجاء رجلٌ إلى «سعيد بن العاص» ﷺ يسأله شيئًا، فأَمَرَ له بخمسائة دينار!! فجلس الرّجلُ يبكي، فقال له سعيد:

ما يبكيك؟

فقال: «أبكي على مِثْلِك ينزل تَحْتَ الأَرْض، ويأكله التُّراب!» [1].

- وكان «**سعد بن عُبَادة**» ﷺ يقول:

اللّهم ارْزُقني مالاً أَجُود به، فإنه لا يصلح الفِعال إلاّ المال، ثم ينشد قوله:

أَرَى نَفْسِي تَتُوق إلى فعال فيقْصُر دون مَبلغهنّ مَالِي
فلا نَفْسِي تُطاوعني بِبُخْلٍ ولا مالي يُبَلّغني فِعالي

فاعلم ذلك - يا أخي - وإيَّاك أن تَتَظاهر بالصَّلاح وأنت على خِلاف أخلاق القوم في الكَرَم والسَّخَاء والجود والمواساة، فقد كانوا يعطون المال الجزيل ولا يَرَوْن لهم فضلاً على أَحَدٍ، وكان أحدُهم يشقّ إزاره نِصْفَيْن ويُعطي أخاه نصفه!!

وقد سُئل **ابن عمر** - رضي الله عنهما -: ما حقّ المسلم على المسلم؟ قال:

«أن لا يشبع ويترك أخاه جائعًا، ولا يَلْبَس ويترك أخاه عاريًا، ولا يبخل عليه بالبيضاء والصَّفراء».

وكان أبو **الدرداء** ﷺ يقول:

«كيف يبخل أحدُكم بديناره، وَدِرْهَمه على أخيه، وإذا مات بكى عليه أشدّ البكاء!».

أخي:

إن الجود دليل على حُسْن الظّن بالله تعالى.

---

(١) نفس المرجع.

قال محمود الورّاق:

مَــنْ ظَــنّ بــالله خــيرًا جــادَ مُبْتَدئًا والــبخل مــن سُــوء ظَــنّ الْمَرْء بالله

فانْظُر كَيْف ظَنّك بِرَبِّك؟

«اللّهم إنا نسألك حُسْن الظّن بك، وجميل التوكلّ عليك».

۞۞۞۞۞

٣٣- الكَرَمُ

أشْرَفُ مَلاَبس الدُّنْيا، وَأَزْيَنُ حُلَلِها، وَأَجْلَبُها لِحَمْدٍ، وأدْفَعُهَا لِذَمٍّ، وأسْتَرُها لِعَيْبٍ: كَرَمُ طبيعةٍ يَتَحلَّى بها السَّمْحُ السّريّ، والجَواد السَّخي.

وَلَوْ لَمْ يكن في الكَرَمِ إلاّ أنّه صِفَة من صفات الله - تعالى - تَسمَّى بها، فهو «الكريم» ﷻ وَمَنْ كان كريمًا مِنْ خَلْقه فقد تسمَّى باسْمِه، واحْتذَى على صِفَته[1].

ولمكانة «**الكرم**» ، فحديثي إليك - أخي الكريم - على السطور التالية، يدور حول الأمور الآتية:

الأول: تعريف الكرم.

والثاني: فضله.

والثالث: مظاهره.

والرابع: مواقف «رائعة» من حياة أهل الكرم.

والله أسأل التوفيق لمرضاته.

أولاً: تعريف الكرم:

الكَرَمُ «**لُغَةً**» : مَصْدَرُ قَوْلِهم (كَرُمَ) فُلاَنٌ يَكْرُمُ، وهو مأخوذٌ من مادَّة (ك ر م) التي تدلُّ على شَرَفٍ في الشَّيء في نَفْسِه أو شَرَفٍ في خُلُقٍ من الأخلاق، يُقال رَجُلٌ كريمٌ، وفرسٌ كريم، ونباتٌ كريم.

أمّا الكرم في الْخُلُق: فهو الصَّفْحُ عَنْ ذَنْبِ الْمُذْنب.

---

(١) «العقد الفريد» لابن عبد ربّه (١/٢٢٥).

قال ابْنُ قُتَيْبة: الكريم: الصَّفوح، واللَّهُ تعالى هو الكريم الصَّفُوح عن ذُنوب عِبَادِه المؤمنين.

و «**اصْطلاحًا**»:

قال ابْنُ مِسْكَويه: «الكَرَم: إنْفاقُ المال الكثير بسهولة من النَّفس في الأمور الجليلة القَدْر، الكثيرة النَّفْع» ا.هـ[١]

وقيل: هو التَّبرُّعُ بالمعروف قبل السُّؤَال، والإطعام في الْمَحَلّ، والرَّأْفَةُ بالسَّائل مع بَذْل النَّائِل.

وقيل: «الكَرَمُ: هو إفَادةُ ما يَنْبغي لا لغرضٍ فَمَن يَهَب الْمَال لغَرَضٍ جَلْبًا للنَّفْع، أَوْ خَلاصًا عن الذَّمّ، فَلَيْس بِكَرِيم، فالكريم مَنْ يُوصِلُ النَّفْع بلا عِوَضٍ»[٢].

قال الإمامُ الغزاليُّ - رحمه الله تعالى -:

«والكريمُ من أسْماء الله تعالى؛ هو الذي إذا قَدَر عَفَا، وإذا وَعَدَ وفَّى، وإذا أَعْطى زَادَ على مُنْتَهى الرَّجَاء، ولا يُبَالي كَمْ أَعْطَى وَلِمنَ أَعْطى، وإن رُفِعَتْ حاجةٌ إلى غَيْره لا يَرْضَى، وإذا خُفِيَ عَاتَب، ولا يُضَيعُ مَنْ لاذَ به والْتَجَأَ. ويُغْنيه عن الْوسَائط والشُّفَعَاء، فَمَن اجتَمع لَهُ جميعُ ذلك لا بالتَّكَلُّف، فهو الكريمُ الْمُطْلَقُ وذلك لِلّه - سُبْحَانه وتعالى - فقط.

وقيل: الكريم: هو الكثير الْخَيْر، الجوادُ الْمُعْطِي الذي لا يَنْفَدُ عَطَاؤه، وهو الكريمُ الْمُطْلَقُ.

والكريمُ: الجامِعُ لأَنْوَاع الْخَيْر والشَّرَف والْفَضَائل.

والكريم: اسمٌ جامعٌ لكلّ ما يُحْمدُ، فالله - ﷻ - كريمٌ حَميدُ الفِعال، وَرَبُّ الْعَرْش الكريم العظيم» ا.هـ[٣].

---

(١) «تهذيب الأخلاق» لابن مسكويه (٣٠).

(٢) «نضرة النعيم» (٨/٣٢١٥).

(٣) «لسان العرب» (٧/٣٨٦١).

ثانيًا: فَضْلُ الكَرَم:

للكرم فضائل كثيرة، فهو:

(١) صِفَةٌ من صِفات الله تعالى:

عن سلمان الفارسيّ ﷺ عن النبيّ ﷺ قال:

«إنَّ الله حَيِيٌّ كَرِيمٌ، يَسْتَحْيِي إذا رَفَع الرَّجُلُ إليه يَدَيْه أن يَردَّهُما صِفْرًا خائِبَتَيْن» [١].

وعن سهل بن سعد ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«إنَّ الله كَرِيمٌ يُحِبّ الكَرَم، ويُحبّ معالي الأخلاق، ويَكْرهُ سَفْسَافَها» [٢].

والسَّفَسافُ: الأمْر الحقير والرَّديء من كُلّ شيء، وهو ضدّ المعالي والمكارم، وأصْله ما يطير من غُبار الدّقيق إذا نُخل، والتّراب إذا أُثير.

(٢) صِفَة الملائكةِ والنّبيِّين:

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴾ [الدخان: ١٧].

قال الإمام القرطبيُّ - رحمه الله - في تفسيره لهذه الآية:

«ومعنى ﴿ كَرِيمٌ ﴾ أي: كريم في قومه. وقيل: كريم الأخلاق بالتجاوز والصّفح. وقال الفرّاء: كريم على ربِّه إذا اختصّه بالنبوّة وإسماع الكلام»ا.هـ[٣].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ [التكوير: ١٩].

قال الحافظ ابن كثير - رحمه الله تعالى - في تفسيره لهذه الآية:

---

(١) **صحيح**: رواه الترمذي (٣٥٥٦)، وغيره، وصحّحه الألباني.

(٢) **صحيح**: رواه الحاكم (٤٨/١)، وقال: صحيح الإسناد، وصحّحه العراقي والألباني.

(٣) «تفسير القرطبيّ» (١٢٥/٢٦).

«قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ يعني: إن هذا القرآن لتبليغ رسول كريم أي: ملك شريف، حسن الخلق، بهي المنظر، وهو جبريل عليه الصلاة والسلام، قاله ابن عباس والشّعبيّ وميمون بن مِهْران، والحسن وقتادة والربيع بن أنس والضّحّاك وغيرهم» ا.هـ[1].

(٣) عاقبة المؤمنين في الجنة:

قال تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١].

قال الإمامُ الفخر - رحمه الله - في تفسيره لهذه الآية الكريمة:

« قوله: ﴿وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ أي: ويدخلكم إدْخالاً كريمًا، وصف الإدخال بالكرم بمعنى أن ذلك الإدخال يكون مقرونًا بالكرم على خلاف من قال الله - تعالى - فيهم:

﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ [الفرقان: ٣٤].

ومجرّد الاجتناب عن الكبائر لا يوجب دخول الجنة، بل لابدّ معه من الطاعات، فالتقدير: إن أتيتم بجميع الواجبات، واجتنبتم جميع الكبائر كفّرنا عنكم بقيّة السّيئات وأدخلناكم الجنة، فهذا أحد ما يوجب الدخول في الجنة.

ومن المعلوم أن عدم السبب الواحد لا يوجب عدم المسبّب، بل ههنا سبب آخر هو السبب الأصلي القويّ، وهو فضل الله وكرمه ورحمته، كما قال تعالى:

﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ [يونس: ٥٨].

والله أعلم» ا.هـ[2].

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٧٥٤/٤).

(٢) «مفاتيح الغيبُ» (١٨٦/٥).

(٤) صفةٌ يُحبُّها الله تعالى:

وقد تقدّم حديث: «**إن الله كَرِيمٍ يُحِبُّ الكَرَم** ....» (الحديث).

قال العلاّمة المناويّ - رحمه الله - في شرحه لهذا الحديث:

« قوله ﷺ «**إن الله تعالى كريم**» أي: جواد لا ينفد عَطَاؤه، «**يُحب الكرم**» لأنّه من صفاته، وهو يُحبّ مَنْ تَخَلَّقَ بِشيءٍ منها» ا.هـ[١].

(٥) خُلُق من أخلاق المؤمنين:

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«**الْمُؤْمِنُ غِرٌّ كَرِيمٌ، والفاجِر خِبٌّ لَئِيم**»[٢].

قال الإمام الخطّابي - رحمه الله - في «المعالم»:

«معنى هذا الكلام أن المؤمن المحمود هو مَنْ كان طَبْعه وشيمته الغرارة وقِلَّة الفطنة للشَّرّ وَتَرْك الْبَحْث عنه، وأن ذلك ليس منه جَهْلاً، لكنه كَرَمٌ وحُسْن خُلق، وأن الفاجر هو من كانت عادته الخِبّ[٣] والدّهاء والوغول في معرفة الشّر وليس ذلك منه عقلاً ولكنه خِبّ ولؤم»ا.هـ[٤].

وقال ابْنُ الأثير: «المؤمن غرّ كريم» أي: ليس بذي مَكْر فهو ينخدع لانقياده ولينه وهو ضد الخِبّ، يقال: فتى غِرّ، وفتاة غرّ» ا.هـ[٥].

---

(١) «فيض القدير» (٣١٨/٢).

(٢) **حسن**: رواه أبو داود (٤٧٩٠)، وغيره، وصحّحه الألباني في «الصحيحة» (٩٣٥)، وقال محقق «جامع الأصول» (٧٠١/١١): حديث حسن.

(٣) **الخبّ**: الرجل الخدّاع. الذي يسعى بين الناس بالفساد.

(٤) «عون المعبود» (١٠١/١٣).

(٥) نفس المرجع والصفحة.

وَيَصِفُ **الإمامُ مالك بن دينار** - رحمه الله - المؤمن فيقول:

«المؤمن كريم في كُلّ حالةٍ، لا يُحِبُّ أن يُؤْذي جارَه، ولا يفتقر أَحَدٌ من أقربائه ويبكي وهو يقول:

وهو والله مع ذلك غنيُّ القلب، لا يَمْلِك من الدُّنْيا شيئًا، إن أَزَلَّتْهُ عن دِينه لم يَزِلّ، وإن خَدَعْتَه عن ماله انْخَدع، لا يرى الدّنيا من الآخرة عوضًا، ولا يرى البُخْل من الجود حَظًّا، مُنكَسِر القلب ذو هموم قد تفرّد بها، مكتئبٌ محزونٌ ليس له في فَرَحِ الدنيا نصيبٌ، إن أتاه منها شيءٌ فرَّقه، وإن زُوِيَ عنه كُلُّ شيءٍ فيها لم يَطْلُبْه - وهو يبكي ويقول:

هذاَ والله الكَرَمُ، هذا والله الكَرَم» [1].

(٦) يُقَرِّب من الرّحمن يوم القيامة:

قال أبو سليمان الدّارانيّ - رحمه الله - :

«جُلسَاءُ الرَّحْمَن يَوْمَ القيامة: مَنْ جَعَل في قَلْبه خِصَالاً : الكَرَمَ والسَّخاءَ والحِلْمَ والرَّأْفَة والشّكْرَ والْبِرَّ والصَّبْر» [2].

أخي:

هذه بعض فضائل خُلُق «الكَرَم»، فالْزَمْ فِعْل الخير مَكَانَك، وأطعم الْبُرَّ إمكانك، وأَقْرِض رَبَّك فقد رَبَّك، وعامل مَوْلاك بما أَوْلاك.

واعلم: أن خير المال ما قَضَى اللّوازم، وبَنَى المكارم، وأُخِذ من حَلالٍ، وصُرِف في صالح الأعمال.

أخي:

ما أحسن الجود عند الاقْتار، وما أحسن العفو عند الاقتدار.

---

(١) «مكارم الأخلاق» لابن أبي الدنيا (١٠٨).

(٢) «عدة الصّابرين» لابن القيمّ (١٤٤).

ما أقبح البخل مع اليسار، وما أقبح العقوبة مع الاعتذار.

ما أقبح منع الإحسان مع حُسن الإمكان.

أخي:

إن الذي دعاهم إلى البخل والشُّح هو الشيطان.

﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

دَلاَّهـم بغـرُورٍ ثم أَوْرَدهـمْ ... إن الخبيـث لمـن وَالاه غَـرَّارُ

أخي:

ألا كُـلّ حَـيٍّ هَـالِكٌ وابْـنُ هَالِك ... وَذِي نَسَـب في الهـالكين عَـرِيق

إذا امْـتَحن الدنـيا لَبِيـبٌ تكَشَّـفَتْ ... لـه عـن عَـدوٌ في ثـياب صَـدِيقِ

فـلا تَحْسَـب الدُّنْـيا إذا ما سَكَنْتَها ... قـرارًا فمـا دُنـياك غـير طَـريق

علـيك بـدارٍ لا يـزول ظِلالُهـا ... ولا يـتأذّى أهْلُهـا بِمَضـيق

أخي:

أَتُرِيد أَنْ تَدْخُلَها؟

إن كنت تريد، فالكرم دليلك إليها:

اقرأ:

قال ﷺ : «**اعْبُدوا الرَّحْمَن، وأطْعِموا الطَّعام، وأَفْشُوا السَّلام، تَدْخُلوا الجَنَّة بِسَلام**» (١).

---

(١) **حسن**: رواه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح، وحسّنه الألباني.

ثالثًا: مظاهر الكَرم:

وللكرم مظاهره المتعدّدة ، منها:

(١) إكرام الضّيف:

قال ﷺ في الحديث الصّحيح:

«**مَنْ كان يُؤْمن بالله واليوم الآخر: فَلْيُكْرِمْ ضَيْفه**».

وقال عبد الله بن الحارث - رحمه الله - :

«من لم يكرم ضيفه فليس من محمّد ﷺ ولا من إبراهيم عليه السلام »[١].

(٢) إكرام أصدقاء الوالدين:

قال السُّلَميُّ - رحمه الله تعالى - :

«آداب الصُّحبة على أوْجه - ذَكَر منها - : صُحبةَ الوالدين، فقال: تكون بِبرِّهما بالخِدْمة بالنّفس والمال في حياتهما، وإنجاز وعَدْهِما بعد وفاتِهما، والدّعاء لَهُما في كلّ الأوقات، وإكْرام أَصْدقَائِهما»[٢].

(٣) إكرام اليتيم:

بإطعامه، والقيام على حاله، وإصلاح ماله، فلقد لاَمَ اللّهُ - تعالى - أقوامًا أهملوا اليتيم، وأهانوه، فقال تعالى:

﴿ كَلَّآ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴾ [الفجر: ١٧].

(٤) إكرام ذي الشيبة المسلم.

(٥) إكرام حامل القرآن.

---

(١) «جامع العلوم» لابن رجب (١٣٢).

(٢) «آداب العشرة» للغزى (٤٤).

(٦) **إكرام ذي السُّلْطان الْمُقْسِط.**

فعن أبي موسى الأشعري ﷺ قال:

قال رسول الله ﷺ:

« **إنّ مِنْ إجْلال الله: إكْرامَ ذِي الشَّيْبَة الْمُسلم، وحاملِ القرآن غَيْرِ الغالِي فيه والْجَافي عَنْه، وإكْرامِ ذِي السُّلْطَان الْمُقْسِط** » [١].

قال العلاّمة/ أبو الطيِّب محمد شَمْس الحق العظيم آبادي - رحمه الله - في شرحه لهذا الحديث:

قوله ﷺ: « **إن من إجْلال الله** » أي: تبجيله وتعظيمه « **إكرام ذي الشيبة المسلم** » أي: تعظيم الشيخ الكبير في الإسلام بتوقيره في المجالس، والرّفق به، والشّفقة عليه ونحو ذلك[٢]، كلّ هذا من كمال تعظيم الله لِحُرْمَتِه عند الله « **وحامل القرآن** » أي: وإكرام حافظه. وقال **القاري:** أي وإكَرامَ قارئه وحافظه ومفسّره « **غير الغالي فيه** » أي: في القرآن. والغلوّ: التشديد ومجاوزة الحدّ، يعني: غير المتجاوز الحدّ في العمل به وتتبعّ ما خفي منه، واشْتبه عليه مِنْ مَعَانيه وفي حدود قراءته ومخارج حُروفه. « **والجافي عنه** » أي: وغير المتباعد عنه الْمُعرض عن تلاوته وإحكام قراءته وإتقان معانيه والعمل بما فيه. وحاصله: أن كُلاً من طرفي الإفراط والتفريط مذموم، والمحمود هو الوسط العدل المطابق لحاله ﷺ في جميع الأقوال والأفعال، كذا في « المرقاة شرح المشكاة » ، « **وإكرام ذي السلطانِ الْمُقْسط** » - بضم الميم - أي: « العادل » ا.هـ[٣].

هذا، وتمتد صور الكرم لتشمل:

- الزوجة.
- الإخوان.

---

(١) **حسن:** رواه أبو داود (٤٨٣٣)، وانظر: « صحيح الجامع » (٢١٩٩).

(٢) ومن إكرامه: استضافته وإطعامه.

(٣) « عون المعبود » (١٣٢/١٣).

- الأقارب.

حتى الحيوان الأعجم يناله من هذا الكلام نصيب!!.

قال أهلُ السِّير: مات لأبي الدَّرْداء بَعيرٌ، فوقف أبو الدَّرْدَاء على رأسه، وقال: «أيّهُا البعير، لقد عاشَرْتُك بالمعروف، فلا تُخَاصِمْني عند رَبِّك يوم القيامة!!».

رابعًا: مواقف «رائعة» من حياة أهل الكرم:

الحديث عن كرم النبيّ ﷺ يطول استقصاؤه، ويكفي أن نشير هنا إلى موقف واحد:

عن جُبير بن مطعم رضي الله عنه قال:

بينما أَسيرُ مع رسولِ الله ﷺ ومعه النَّاسُ مَقْفَلَهُ[١] من حُنَيْن، فَعَلِقَتِ[٢] الناسُ يسألونه حتى اضْطَرُّوه إلى سَمُرَةٍ[٣]، فَخَطِفَتْ رِدَاءَهُ فَوَقَف النبيُّ ﷺ فقال:

«أَعْطُونِي رِدَائي، لو كان لي عَدَدَ هذه العِضَاه[٤] نَعَمًا لَقَسَمْتُه بينكم، ثم لا تَجِدُونِي بَخِيلاً ولا كَذُوبًا ولا جَبَانًا»[٥].

ثانيًا: كَرَمُ إبْرَاهيم عليه السلام:

قال تعالى: ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ۝٢٤ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ۝٢٥ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ۝٢٦ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٤- ٢٧].

قال الإمام الفخر - رحمه الله - في تفسيره لهذه الآيات:

«أُكْرموا إذْ دَخلوا، وهذا مِنْ شَأْن الكريم أن يُكْرِم ضَيْفَهُ وَقْتَ الدُّخول» ا.هـ.

---

(١) **مقفله**: زمان رجوعه.

(٢) **فعلقت**: أي: طفقت وأخذت.

(٣) **سمرة**: شجرة.

(٤) **العضاه**: شجر ذو شوك.

(٥) رواه البخاري (٢٨٢١).

ثالثًا: كَرم يُوسُف عليه السلام:

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال:

قال رسولُ الله ﷺ: «**أكْرَم النّاس: يُوسُفُ بْنُ يعقوبَ بن إسحاق بن إبراهيم**»[١].

قال العلاّمة المناويّ - رحمه الله - :

«وأيّ كَرِيم أكْرم مِمّن حَاز - مع كَوْنه ابْن ثَلاثة أنبياء مُتَرَاسِلِين - شَرَفَ النُّبوَّة، وَحُسْنَ الصّورة، وَعِلْمَ الرُّؤْيا، ورئاسةَ الدُّنْيا، وَحِيَاطة الرَّعَايا في القَحْطِ والبلاء!» ا.هـ[٢].

رابعًا: كَرَمُ عبد الله بن جَعْفر بن أبي طالب:

كان رضي الله عنه شعاره:

«أُمْطِرُ المعروفَ مَطَرًا، فإن أصابَ الكِرام، كانوا له أَهْلا، وإن أصَاب اللّئام كنتُ له أَهْلاً»[٣].

والروايات التي تَحَدَّثت عن جُوده أكثر من أن تُحْصى، منها:

قال الحميدي: سمعت القدّاح يذكر أن رجلاً عرض لعبد الله وقد خرج من باب بني شيبة[٤] فقال:

يا ابن الطيَّار في الجنّة، صِلْني بنفقة أَتبلّغُ بها إلى أهلي، كَرّم اللّهُ وَجْهَك؟

قال: فَرَمى إليه بِرُمّانة من ذَهَبٍ كانت في يده، فوزها الرّجلُ فإذا فيها:

«ثلاثمائة مثقال!!».

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) «فيض القدير» (٢/٩٠).

(٣) «الإحياء» (٣/٢٤٧).

(٤) أحد أبواب المسجد الحرام.

خامسًا: كَرمُ قَيْس بن سعد بن عبادة:

قيل: مَرِضَ «قَيْسُ بْنُ سَعْد بن عبادة» - رضي الله عنهما - فاسْتَبْطَأ إخوانه، فسأل عنهم، فقيل له:

إنّهم يَسْتَحيون مِمّا لك عليهم من الدَّيْن، فقال:

أخزى اللّهُ - تعالى - مالاً يَمْنع الإخوان من الزّيارة، ثم أَمَر مَنْ يُنادي:

«من كان لِقَيْس عليه دَيْن، فهو منه في حِلٍّ».

فكسرت عَتَبَته بالعَشيّ لكثرة من عَادَهُ!![1].

سادسًا: كَرَمُ عبد الله بن عامر:

قيل: أضاف «عَبدُ الله بن عامر بن كريز» رجلاً فأَحْسَن قِراه[2]، فلمّا أراد الرجل أن يرتحل عنه لم يُعنْه غلمانه، فقيل له في ذلك، فقَال عبد الله:

إنّهم لا يعينون منَ يَرْتَحِلُ عَنّا!

وأنشد «المتنبيّ» في هذا المعنى:

إذا ترحَّلْتَ عن قوم وقد قدروا ... أن لا تُفَارقهم فالرَّاحِلون هم[3]

سابعًا: كَرَمُ مُطَرِّف بن عبد الله[4]:

كان «مطرّف» - رحمه الله تعالى - كريمًا سخيًّا، وكان من كرمه يقول:

«إذا أراد أحَدُكم مِنّي حَاجَةً فَلْيَرْفَعها في رُقْعة، فإني أَكْرَه أن أرى في وَجْهِه ذُلّ الحاجة!»[5].

---

(١) «الرسالة القشيرية» (٢٥٠).

(٢) أي: ضيافته.

(٣) نفس المرجع (٢٥٤).

(٤) من التابعين.

(٥) نفس المرجع (٢٥١).

لِلّهِ دَرُّهم، فأين اليوم أَمْثالهم؟!

ذَهَبَ الذين يُعَاشُ في أَكْنَافِهِم وبقيتُ في خَلْفٍ كَجِلدِ الأَجْرَبِ

فيا أخا الإسلام:

اجعل «الكرَمَ» شعارك، و «الجود» دِثارك، واعلم: أن الْبِرَّ لا يَبْلى.

وإذا الكريمُ مَضَى وولَّى عُمْرُهُ كَفَلَ الثَّناءُ له بِعُمرٍ ثانِ



٣٤- السَّخَاءُ

«قد يسبق الظّن إلى أن السَّخَاء ينقص الثّروة، ويقرّب من الفقر، ويسلب الرّجل نعمة الطمأنينة في ظلِّ ماله الْمَمْدود، وَخَيْره المشهود.

وهذا الظّنّ من وَسَاوسِ الشَّيْطان التي يُلْقيها في نفوس الكازِّين الأَدْنياء.

والحقّ أن الكَرم طريق السَّعَة، وأن السّخاء سَبَب النَّمَاء»[(١)].

ولمكانة هذا الخُلُق وأهميّته، فالحديث - هنا - يدور حول **خمسة أمور**:

الأوّل: تعريف السّخاء.

والثاني: فَضْله.

والثالث: أنواعه.

والرابع: درجاته.

والخامس: أمثلة رائعة في «السّخاء».

وعلى الله قَصْد السَّبيل.

أولاً: تعريفُ السَّخاء:

السّخاء: «**لُغَةً**»: مَصْدَرُ قَوْلِهم: سَخَا يَسْخُو وَيَسْخَى، وهو مأخوذٌ من مادّة (س خ ي/ و) التي تدلُّ كما يقول **ابْنُ فَارِس** على اتِّساع في الشَّيء وانْفِرَاج فيه، والأَصْل في ذلك قَوْلهم: سَخَيْتُ القِدْرَ وسَخَوتُها إذا جَعَلْتَ للنَّار تحتَها مَذْهَبًا.

و «**اصطلاحًا**»: **قال الماورديُّ** - رحمه الله - :

«حَدُّ السَّخَاء: بَذْلُ ما يُحْتَاجُ إِلَيْه عند الحاجة، وأن يُوصَلَ إلى مُسْتَحِقِّه بِقَدْر

(١) «خلق المسلم» للغزالي (١٢٥).

الطَّاقة »ا.هـ[1].

وقال الجاحظُ:

« السّخاءُ: بذلُ المال من غير مسألة ولا استحقاق، وهذا الفعل مُسْتَحْسَن ما لم يَنْتَهِ إلى السَّرَف والتَّبْذير؛ فإنّ مَنْ بَذَل جميعَ ما يَمْلِكه لِمَنْ لا يَسْتَحِقُّه لم يُسَمَّ سَخيًّا بل يُسَمَّى مُبَذِّرًا مُضَيِّعًا »ا.هـ[2].

ثانيًا: فَضْلُ السَّخاء:

اعلم: أن المؤمن « السَّخِيّ »: يحبّه اللّهُ تعالى، ويحفظه، ويَنال دُعَاء الأَرْض والملائكة له:

- عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

« **تَجاوَزوا عَنْ ذَنْب السَّخِيِّ؛ فإنّ الله آخِذٌ بيَدِه كُلّما عَثَر** » [3].

- وعن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

« **أحَبُّ النّاس إلى الله أنفعُهُم، وأحبّ الأعمال إلى الله ﷻ سرورٌ تُدْخله على مسلم، أو تكشف عنه كُرْبَةً، أو تَقْضي عنه دَيْنًا، أو تَطْرد عنه جوعًا، ولأن أَمْشي مع أخي المسلم في حاجة، أحبُّ إليَّ مِنْ أن أعتكف في الْمَسْجد شَهْرًا، ومن كَفّ غَضَبه، سَتَر اللّهُ عَوْرَته، ومن كَظَمَ غَيْظًا ولو شاء أن يُمْضِيَه أَمْضَاه، مَلأَ اللّهُ قَلْبَه رضًا يومَ القيامة، وَمَنْ مَشى مع أخيه المسلم في حاجته حتى يُثْبتها له، أَثْبَتَ اللّهُ تعالى قَدَمه يوم تَزِلُّ الأقدام، وإن سُوء الْخُلُقَ لَيُفْسِد العَمَل، كما يُفْسد الخَلُّ العَسَل** » [4].

---

(١) « أدب الدنيا والدين » (٢٢٦).

(٢) « تهذيب الأخلاق » (٢٦).

(٣) **حسن**: رواه الدارقطني، في « الْمُسْتَجَاد من فعل الأجواد ».

(٤) **حسن**: رواه ابن أبي الدنيا، والطبراني في « الكبير » ، وانظر: « صحيح الجامع » (١٧٦).

□ وقال سلمان الفارسيُّ ﷺ:

« إذا مات السَّخيُّ، قالت الأرضُ والحَفَظَةُ: رَبِّ تَجَاوَزْ عن عَبْدِكَ في الدُّنْيا بسَخَائه، وإذا مات الْبَخيلُ قالتْ: اللَّهُمّ احْجُبْ هَذَا الْعَبد عن الجَنَّة كما حَجَبَ عِبَادَك عمَّا جَعَلْتَ في يَدَيْه مِنَ الدُّنيا » ا.هـ[١].

والمؤمنُ « السَّخِيّ » : قريب من الله ومن الناس، وقريب من الجنة وبعيد من النّار:

وقال الإمامُ ابن القيِّم - رحمه الله - :

« والسَّخيّ: قريب من الله تعالى ومن خَلْقه ومن أهله، وقريب من الجنّة وبعيد من النّار، والبخيل بعيد من خَلْقه بعيد من الجنّة قريب من النار، فَجُود الرّجل يُحبِّبه إلى أضداده، وَبُخْله يبغِّضه إلى أوْلاده:

وَيُظْهِر عَيْبَ الْمَرءِ في الناس بُخْلهُ	**ويستره عنهم جميعًا سخاؤه**
تَغَطّ بأثواب السَّخَاء فإنّني	**أرى كُلَّ عَيْب فالسَّخاء غطاؤه**
وقارن[٢] إذا قَارَنْت حُرًّا فإنّما	**يَزين ويزري بالفتى قُرناؤه**
وأقْلل إذا ما اسطعت قَوْلاً فإنّه	**إذا قلّ قَوْلُ المرء قلّ خطاؤه[٣]**
إذا قَلّ مَالُ الْمَرْء قَلّ صَديقُهُ	**وضاقت عليه أرَضُه وسَمَاؤه**
وأصْبح لا يَدْري وإن كان حَازمًا	**أَقُدَّامه خَيْر له أم وَرَاؤه**
إذا المرء لم يَخْتَرْ صَديقًا لِنَفْسه	**فَنَاد به في النّاسِ هذا جَزَاؤه**

وحدّ السّخاء: بذل ما يُحتاج إليه عند الحاجة، وأن يوصل ذلك إلى مستحقّه بقدر الطّاقة، وليس - كما قال بعضُ من نَقَص علْمُه - : حَدّ الجود بَذْل الموجود. ولو كان كما قال هذا القائل لارتفع اسم السَّرَف والتبذير، وقد وَرَدَ الكتاب بذمّهما، وجاءت السُّنّة بالنَّهْي عنهما » ا.هـ[٤].

---

(١) « مختصر منهاج القاصدين » (٢٠٤).
(٢) **قارن** : أي: صادق وصاحب.
(٣) **خطاؤه** : أي غلطه وخطؤه.
(٤) « الوابل الصّيب » (٣٥، ٣٦).

ثالثًا: أنواعُ السَّخاء:

قال الإمام ابن القيم - رحمه الله - :

«إذا كان «السّخاء» محمودًا فمن وقف على حَدِّه سُمِّي كريمًا وكان لِلْحَمْد مستوجبًا، ومن قَصُر عنه كان بخيلاً وكان للذّم مُسْتَوْجبًا، وقد رُوي في أَثَر:

«**إنّ الله ﷻ أَقْسَم بعزّته ألا يُجَاوِره بخيلٌ**».

والسّخاء نوعان:

فأشرفهما: سخاؤك عمّا بيدِ غيرك.

والثاني: سخاؤك بِبَذْل ما في يَدِك. فقد يكون الرَّجُل من أَسْخَى النّاس وهو لا يعطيهم شيئًا، لأنه سخا عَمّا في أيديهم. وهذا معنى قول بعضهم:

«السَّخاء: أن تكون بمالِك مُتَبرِّعًا، وعن مال غَيْرك مُتورِّعًا».

وسمعتُ شيخَ الإسلام ابن تيمية - قدّس الله رُوحه - يقول:

أَوْحَى اللّهُ إلى إبراهيم ﷺ:

«أَتَدْرِي لِمَ اتخذتُك خليلاً؟»

قال: لا.

قال: «لأني رأيتُ العَطَاء أَحَبّ إليكَ من الأَخْذ».

وهذه صفة من صفات الرَّبّ جَلّ جلالُه فإنّه يُعطي ولا يأخذ، ويُطْعِم ولا يُطْعَم، وهو أَجْود الأجودين وأكْرم الأكرمين، وأحبّ الخَلْق إليه من اتّصَف بمقتضيات صفاته، فإنّه كريم يحب الكريم من عباده، وعَالِمٌ يُحبّ العلماء، وقادر يُحبُّ الشُّجْعَان، وجميلٌ يُحِبّ الجمال» ا.هـ[1].

---

(١) نفس المرجع (٣٦).

رابعًا: درجاتُ السَّخاء:

قال الإمام ابن قدامة - رحمه الله تعالى - :

«اعلم: أن السّخاء والبخل درجاتٌ:

فأرفع درجات السَّخاء: الإيثار، وهو أن تَجود بالمال مع الحاجة إليه.

وأشدّ درجات البخل: أن يَبْخل الإنسانُ على نفسه مع الحاجة، فكم من بخيل يمسك المال، ويمْرض فلا يتداوى، ويشتهي الشّهوة فيمنعه منها البخل».

فكم بَيْن مَنْ يَبْخلُ على نَفْسه مع الحاجة، وبين من يُؤثِرُ على نفسه مع الحاجة.

فالأخلاق عطايا يَضَعُها اللّهُ - ﷻ - حيث يشاء.

وليس بعد الإيثار درجة في السّخاء. وقد أثنى اللّهُ تعالى على أصحاب رسول الله ﷺ بالإيثار، فقال:

﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر: ٩].

وكان سبب نزول هذه الآية قصّة أبي طلحة، لمّا آثَر ذلك الرَّجل المجهود بِقُوتِه وَقُوتِ صِبْيَانه[١]» ا.هـ[٢].

خامسًا: صورٌ رائعة في السَّخاء:

وهذه صورٌ «رائعة» في السّخاء، الْتَقَطْنَاها من كُتُب «السُّنّة» و «التاريخ»، تبيّن قيمة السّخاء في حياة الأنبياء والصّلحاء:

الصُّورَةُ الأُولى: سَخَاءُ النَّبيِّ ﷺ:

اعلم: أنه قد صحّ عن النبيّ ﷺ أنه كان أجود بالخير من الريح الْمُرْسَلة[٣].

---

(١) انظر: صفة «الإيثار» فهناك مزيد بيان.

(٢) «مختصر منهاج القاصدين» (٢٦٨).

(٣) رواه أحمد (١/٢٨١)، والبخاري (٣٢٢٠)، ومسلم (٢٣٠٨)، وغيرهم.

وأنه ما سُئِل شَيْئًا قَطُّ، فقال: لا[١].

وأنّ رَجُلاً سَأَلَه ، فأَعْطاه غَنَمًا بين جَبَلَيْن، فأتى الرجلُ قَوْمَه، فقال:

« يا قوم: أَسْلِموا، فإن محمّدًا يُعطي عطاءَ مَنْ لا يَخْشَى الفقر » [٢].

وكان يقول لبلال:

« أنْفِق يا بلالُ، لا تَخْشَ مِنْ ذِي الْعَرشِ إقْلاَلاً » [٣].

فَصَلَوَاتُ رَبِّي وسَلاَمُه عليه:

تَعَــوَّدَ بَسْــطَ الكَــفِّ حــتّى لــو أنَّه ... ثَــنَاها لِقَــبْضٍ لَــمْ تُجِــبْهُ أَنَامِلُــهْ

تَــــرَاهُ إذا مــــا جِئْــــتَهُ مُـــتَهَلِّلاً ... كــأَنَّك تُعْطــيه الّــذي أَنْــتَ سَــائِلُهْ

هــو الْــبَحْرُ مِــنْ أيِّ الــنّواحي أَتَيْتَهُ ... فَلُجَّــتُهُ المعــروفُ والجُــودُ سَــاحِلُهْ

وَلَــوْ لم يكــن في كَفِّــه غَــيْرُ رُوحِــه ... لَجَــــاد بهـــا فَلْيَـــتَّقِ اللهَ ســـائِلُهْ

الصّورة الثاني: سخاء عليّ بن الحسين: «زين العابدين»:

دخل «عليّ بن الحسين» على «محمد بن أُسامة بن زيد» في مرضه، فجعل يبكي، فقال:

ما شأنك؟

قال: عليّ دَيْن.

قال: كَمْ هو؟

قال: خَمْسَة عَشر أَلْفَ دينار، أو بضعة عَشَر أَلْفَ دينار.

قال: فهي عَليَّ[٤].

---

(١) رواه البخاري (٦٠٣٤)، ومسلم (٢٣١١)، وغيرهما.

(٢) رواه مسلم (٢٣١٢)، وغيره.

(٣) **صحيح**: رواه البزار، والطبراني في «الكبير» ، وانظر: «صحيح الجامع» (١٥٠٨).

(٤) «مختصر منهاج القاصدين» (٢٦٤).

الصَورة الثالثة: سَخَاءُ «عَبْد الله بن عَامِر»:

اشْتَرى «عبدُ الله بن عامر» من «خالد بن عقبة» داره التي في السّوق بتسعين أَلْف دِرْهم، فلمّا كان الليل، سَمِع بكاء أَهْل خالد، فقال لأهله:

ما هؤلاء؟

قالوا: يبكون على دارهم.

قال: يا غلام: ائتهم، فأعْلِمْهم أن الدَّار والمال لهم جميعًا!» [١].

إنه سَخَاء أَغْرب مِنَ الخيال!.

الصورة الرابعة: سَخاء «عبد الله بن جعفر بن أبي طالب»:

قيل: خرج «عبد الله بن جعفر» إلى ضيعة له فنزل على نخيل قوم، وفيها غلامٌ أَسْود يَعْمَلُ فيها إذ أُتيَ الغلامُ بِقُوته، فدخل كلبٌ الحائط، وَدَنا من الغلام، فَرَمى إليه الغلامُ بِقُرْصٍ فأكَلَه، ثمَ رَمَى إليه بالثاني والثالث فأكلها، وعبدُ الله يَنْظُر، فقال:

يا غلام كم قُوتك كُلّ يوم؟

قال: ما رأيت.

قال: فلم آثرتَ هذا الكَلْب؟

قال: ما هي بأرض كلاب، إنّه جاء من مَسَافة بعيدة جائعًا فَكَرِهْتُ رَدَّه!

قال: فما أنت صانع اليوم؟

قال:أَطْوِي يَوْمي هذا!!

فقال عبد الله بن جعفر: «أُلاَم على السَّخَاء[٢]، إن هذا لأَسْخَى مِنّي».

---

(١) نفس المرجع والصفحة.

(٢) كان ﷺ كما قال عنه الذهبيّ: «كبير الشأن، جوادًا، يصلح للإمامة».

فاشترى الحائط والغلام، وما فيها من الآلات، فَأَعتَق الغلام ووَهَبها له![1].

فأين هذه الأخلاق في دنيا الناس اليوم؟

الصورة الخامسة: سَخاء «عبد الله بن المبارك»:

قال حبّان بن موسى: عُوتب ابْنُ المبارك فيما يُفرّق من المال في البلدان دون بلده، قال:

«إني أعرف مكان قوم لهم فَضْلٌ وَصِدْقٌ، طلبوا الحديث، فأحسنوا طَلَبه لحاجة النّاس إليهم، احتاجوا، فإن تركناهم ضاع عِلْمُهم، وإن أَعَنَّاهم بَثُّوا الْعِلْم لأمّة مُحمّد ﷺ ، لا أَعْلم بعد النُبوة أفْضَل من بَثّ العِلْم».

وقال أبو إسحاق الطّالقاني: رأيتُ بعيرين مُحَمَّلين دَجَاجًا مَشْوِيًا لِسُفْرة ابن المبارك[2].

الصورة السادسة: سخاءُ «طلحة بن عُبيد الله»:

جاء أعرابيٌّ إلى «طلحة بن عبيد الله» ﷺ ، فسأله، وتعرَّف إليه بِرَحِم، فقال: «إن هذه الرَّحِم، ما سألني بها أحَدٌ قَبْلك» فَأَعْطَاه ثلاثمائة ألف دِرْهم![3].

الصّورة السابعة: رَجُل صالح يَتَسَخَّي ميتًا!!:

قال محمد بن محمد الحافظ: سمعتُ الشافعيّ المجاور بمكّة يقول:

كان بمصر رجلٌ عُرف بأنه يجمع للفقراء شيئًا، فَوُلِد لبعضهم مَوْلودٌ، قال:

فجئتُ إليه، وقلتُ له:

---

(١) «الرسالة القشيرية» (٢٥٠).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٨/٤١٠).

(٣) «مختصر منهاج القاصدين» (٢٦٤).

وُلِدَ لي مولود وليس معي شيءٌ، فقام معي ودخل على جماعة، فلم يُفْتح بشيءٍ، فجاء إلى قبر رجل وجلس عنده، وقال:

رحمك الله، كنت تفعل وتصنع، وإني دُرْتُ اليوم على جَمَاعة فَكَلَّفْتُهم دَفْع شيء للمولود، فلم يَتَّفِقْ لي شيءٌ![1].

قال: ثم قام وأخرج دينارًا وقسمه نصفين وناولني نصفه، وقال:

هذا دَيْنٌ عليك إلى أن يفتح اللّهُ عليك بشيء.

قال: فأخذتهُ وانصرفتُ فأصلحتُ ما اتَّفق لي به، قال:

فرأى ذلك المحتسب تلك الليلة ذلك الشخص في منامه، فقال:

«احضر منزلي، وَقُل لأولادي يحفروا مكان الكانون، وَيُخرجوا قِرَابةً فيها خمسمائة دينار، فاحْمِلْها إلى هذا الرّجل!».

فلمّا كان من الغد تقدّم إلى منزل الميّت وَقَصّ عليهم القِصّة، فقالوا له:

اجلس، وحفروا الموضع وأخرجوا الدنانير، وجاءوا بها فوضعوها بين يديه، فقال:

هذا مالكم، وليس لرؤياي حُكْمٌ، فقالوا:

هو يَتَسخَّى مَيّتًا ولا نَتَسَخَّى نحن أحياء؟!

فلمّا ألَحُّوا عليه حمل الدنانير إلى الرّجل صاحب المولود، وذكر له القصة، قال: فأخذ منها دينارًا فكَسَره نِصْفَين، فأعطاه النّصف الذي أقرضه، وحمل النّصف الآخر، وقال:

يكفيني هذا، وتصدّق به على الفقراء!.

فقال أبو سعيد: «فلا أدري أيّ هؤلاء أسْخى؟!» [2].

---

(١) هذا من باب: ذِكْر الفضائل، لا من باب دعاء الموتى، فَتَنَبَّه.

(٢) «الإحياء» (٣/٢٦٥).

فانظر - أخي الكريم - إلى الْمَعْدَن النّفيس - من بني آدم - رَجُلٌ يموت بَدَنُهُ، ولا يموت سخاؤه!! يا الله.

إنّه الإخلاص الذي يصنع العجائب.

فكن - أيّها الكريم - على طريقهم، واسمع إلى الإمام **جَعْفر الصّادق** وهو يقول:

«إنّ الله - تعالى - خَلَق خَلْقًا من رحمته بِرَحْمته لِرَحْمَته، وهم الذين يَقْضُون حَوَائِج النّاس، فمن استطاع منكم أن يكون منهم فليكن».



٣٥- التقرُّب إلى الله تعالى بالمال

اعلم - أخي المسلم - أن الإنسان جُبل على حُبِّ المال، وَحُبُّه ليس مَعْصيةً ولا مكروهًا، ما دام أُخِذَ مِنْ حِلِّه، وأُنْفِق في حَقِّه، واتُّقي الله فيه، وقد سمّاه القرآن خيرًا:

- قال تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ١٨٠].

قال الإمام القرطبيّ - رحمه الله - في تفسيره لهذه الآية:

«قوله تعالى: ﴿ خَيْرًا ﴾ الخير هنا المال من غير خلاف» ا.هـ[(١)].

- وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ [العاديات: ٨].

قال الإمام القرطبيّ - رحمه الله -:

«قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ ﴾ أي الإنسان من غير خلاف. ﴿ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ ﴾ أي المال: ﴿ لَشَدِيدٌ ﴾ أي: لقويّ في حبه للمال. قال ابن زيد: سمّى الله المال خيرًا؛ وعسى أن يكون شرًّا وحرامًا؛ ولكن الناس يعدونه خيرًا، فسمّاه الله خيرًا لذلك» ا.هـ[(٢)].

وامتدحه النبيُّ ﷺ في أحاديث، منها:

(١) عن حكيم بن حزام ﷺ قال:

سألتُ رسولَ الله ﷺ فأعطاني، ثم سألتُهُ فأعطاني، ثم سألتُهُ فأَعْطَاني، ثم قال:

«يا حَكِيمُ، هذا المالُ خَضِرٌ حُلْوٌ، فَمَنْ أَخَذَه بِسَخَاوَة نَفْسٍ بُورِك له فيه، وَمَنْ أَخَذَه بإشْرافِ نَفْسٍ[(٣)] لم يبارِكْ لَهُ فِيه، وكان كالّذي يأكلُ ولا يَشْبَعُ، واليَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيد

---

(١) «تفسير القرطبي» (٢/٢٤٢).

(٢) «تفسير القرطبي» (٢٠/١٤٤).

(٣) «إشراف النفس»: تطلعها وطمعها وشرهها، و «سخاوة النّفس»: ضد ذلك.

السُّفْلَى» [(١)].

(٢) وعن **أبي كَبْشَةَ الأَنْمَاريِّ** ﷺ أنه سَمِعَ رسولَ الله ﷺ يقول:

«ثلاثٌ أُقْسِمُ عليهنّ، وأحدّثكُم حَديثًا فاْحفَظُوه، قال: ما نَقَصَ مالُ عَبْدٍ من صَدَقة، ولا ظُلِمَ عَبْدٌ مَظْلَمةً صَبَرَ عليها إلاّ زادَه اللّهُ عِزًّا، ولا فَتَح عَبْدٌ بَابَ مَسْألة إلاّ فَتَح اللّهُ عليه بابَ فَقْرٍ - أو كلمة نحوها - ، **وأحدّثكُم حَديثًا فاْحَفظُوه.** قال: **إنّما الدُّنْيا لأربعة نَفَر:**

عَبْدٌ رَزَقه اللّهُ مَالاً وَعِلْمًا فهو يتَّقِي فيه رَبَّه، وَيَصِلُ فيه رَحِمَهُ، وَيَعْلَمُ لِلّه فيه حَقًّا، فهذا بأفضل الْمَنَازل.

وَعَبْدٌ رَزَقه اللّهُ عِلمًا ولم يرزقْه مالاً فهو صَادِقُ النِّيّة يقول: لو أن لي مالاً لَعَمِلْت بعمل فُلانٍ فهو بنيَّتِه فأجْرُهُما سَوَاء [(٢)].

وعَبْدٌ رزقه اللّهُ مالاً ولم يرزقْه عِلمًا يَخبْطُ في مَالِه بِغَيْر عِلْمٍ، ولا يتّقي فيه رَبَّه، ولا يَصلُ فيه رَحِمَهُ، ولا يَعْلَم لِلّه فيه حَقًّا فهذا بأخبثِ المنازل.

وعَبْدٌ لم يرزقْه اللّهُ مالاً ولا عِلْمًا فهو يقول: لو أن لي مالاً لَعَمِلْتُ فيه بعملِ فلان فهو بنيّته، فَوِزرُهُما سَوَاءٌ» [(٣)].

وسيأتي بعد قليل المزيد.

وعَدَّ نبيُّ اللهِ أيّوب عليه السلام المالَ بركة!

فعن أبي هريرة ﷺ عن النبيّ ﷺ قال:

«بَيْنَما أيّوبُ يَغْتَسلُ عُرْيَانًا [(٤)] **خرّ عليه** [(٥)] **رِجْلُ جَرَادٍ** [(٦)] **من ذَهَب، فَجَعلَ يَحْثِي في ثَوْبه**

---

(١) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

(٢) ويزيد عليه في فضل العلم. قاله المباركفوري في «تحفة الأحوذي».

(٣) **صحيح**: رواه الترمذي، وابن ماجة، وانظر: «صحيح الترغيب» (٨٦٣).

(٤) وفي رواية لأحمد وغيره: «**لمّا عافى اللّهُ أيّوبَ أمْطَر عليه جَرَادًا مِنْ ذَهَب**

(٥) **خرّ عليه**: سقط عليه.

(٦) رجل جراد: أي: جماعة جراد، والجراد: اسم جمع واحده (جرادة)، كتمر وتمرة.

فَنَاداه رَبُّهُ:

يا أيوب ألم أكن أغنيتُك عمّا ترى؟

قال: بَلَى يا رَبّ، ولكن لا غِنى لي عن بَرَكتك» [1].

قال الحافظ ابن حجر - رحمه الله تعالى - :

«وفي الحديث: جواز الحرص على الاستكثار من الحلال في حق من وثق من نفسه بالشكر عليه، وفيه تسمية المال الذي يكون من هذه الجهة بركة، وفيه فضل الغنيّ الشاكر» ا.هـ[2].

وَبيَّن اللَّهُ تعالى الغايةَ من إنزال المال في الحديث التالي:

- عن أبي واقد اللّيثي ﷺ قال:

كنا نأتي النبيّ ﷺ إذا نزل عليه الوحي، فيحدّثنا، فقال لنا ذات يوم:

«إنّ الله ﷻ قال: إنا أنزلنا المالَ لإقامِ الصّلاة، وإيتاءِ الزكاة، ولو كان لابْنِ آدم وادٍ لأحبّ أن يكون إليه ثان، ولو كان له واديان لأحبّ أن يكون إليهما ثالث، ولا يملأ جَوْفَ ابْن آدم إلاّ التّرابُ، ثم يتوب اللّهُ على من تاب» [3].

ونعم المال إذا صاحبه الصّلاح، ولازمته التقوى:

- قال ﷺ :

«نِعَم المالُ الصّالح، للمرءِ الصّالح» [4].

- وعن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال:

سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول:

---

(١) رواه البخاري (٣٣٩١).

(٢) «فتح الباري» (٦/٤٨٥).

(٣) **صحيح**: رواه أحمد (٥/٢١٨، ٢١٩)، وغيره.

(٤) رواه أحمد (٤/١٩٧).

« إن اللّهَ يُحبّ الغَنيّ، الخَفيّ، التَقيّ » (١).

إنما المذموم: حُبُّ المال لإشباع النزوات، وإرْضَاء الشهوات، وَمُعاندة رَبّ الأرض والسموات:

- قال تعالى: ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴾ [التوبة: ٥٥].
- وقال تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦].
- وعن كعب بن عياض ﷺ قال:

سمعتُ رسول الله ﷺ يقول:

« إنّ لِكُلّ أُمَّة فِتْنَةً، وَفِتْنَةُ أُمّتي المال » (٢).

- وعن كعب بن مالك ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ :

« ما ذئبانِ جَائِعَان أُرْسِلا في غَنَمٍ بأَفْسَدَ لَهَا مِنْ حَرْصِ الْمَرْءِ على الْمَالِ والشَّرَفِ لدِينه » (٣).

وقد ذكر القرآنُ الكريم قصصًا لأقوام صرعهم حُبُّ المال، وأطغاهم غناهم ومن هؤلاء:

(١) قارون:

قال تعالى: ﴿ إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ

(١) **حسن**: أخرجه أحمد (١/١٧٧)، وقال الأرناؤوط: « حسن ». انظر: « السِّير » (١/١١٩).

(٢) **صحيح**: رواه الترمذي، وغيره، وانظر: « صحيح الجامع » (٢١٤٨).

(٣) **صحيح**: رواه الترمذي: وقال: حديث حسن صحيح، وابن حبان في « صحيحه ».

ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص: ٧٦- ٨٣].

فمن هو قارون؟

هو: قارون بن يصهر بن قاهث، كان ابن عمّ موسى عليه السلام كما قال أكثر أهل العلم.

قال قتادة: «وكان يسمى النّور لحُسْن صَوْته بالتوراة، ولكن عدوّ الله نافق كما نافق السّامري فأهلكه البغيُّ لكثرة ماله!».

وكان – لعنه الله – أَحَدُ عُبَّاد المال، الذين قادتهم شهواتُهم، وأرداهم غناهم.

وحُبّ المال له سَكْرة، إذا دخل الإنسان فيها لم يَفِقْ إلا في عَسْكَر الموتى نادمًا مع النادمين.

وعن قصته، قال تعالى:

﴿ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ قال قتادة: بغيه: استخفافه

بهم بكثرة ماله وولده.

﴿ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ ﴾ والعصبة: الفئام من الناس.

﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ ﴾ أي المؤمنون من بني إسرائيل. ﴿ لَا تَفْرَحْ ﴾ أي: لا تبطر بما أنت فيه من المال. ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴾.

والفرح نوعان:

الأول: فرح محمود: هو الفرح بالهدى ودين الحق. قال تعالى: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس: ٥٨].

قال ابن عباس: «فضل الله القرآن، ورحمته الإسلام».

وعنه أيضًا: «فَضْلُ الله القرآن، ورحمته أن جعلكم من أهله».

والثاني: فرح مذموم: وهو فرح الأشر والبطر.. وهو المذكور في قول تعالى:

﴿ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴾ قال مجاهد: يعني الأشرين البطرين الذين لا يشكرون الله على ما أعطاهم.

ثم توالت مواعظ لقارون:

﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴾ أي اطلب فيما أعطاك الله من الدنيا الدار الآخرة وهي الجنة. ﴿ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ﴾ قال قتادة: «ولا تنس نصيبك الحلال، فهو نصيبك من الدنيا». ﴿ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ قال ابن العربي: فيه - أي في الإحسان - أقوال كثيرة جماعُها: استعمال نعم الله في طاعة الله.

﴿ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي: لا تعمل بالمعاصي. ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾.

فردّ قارون: ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ قال ابن زيد: أي: إنما أوتيتهُ

لعلمه بِفَضْلي وَرِضاه عَنّي.

قال القشيريّ: «ما لاحَظَ أَحَدٌ نَفْسَه إلاّ هَلَك بإعْجَابه».

قلت: هذا قول يكتب بماء الذهب.

﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ ﴾ أي: بالعذاب ﴿ مِنَ ٱلْقُرُونِ ﴾ أي: الأمم الخالية الكافرة. ﴿ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ﴾ أي للمال، ولو كان المال يدل على فضل لما أهلكهم. ﴿ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ أي: لا يسألون سؤال استعتاب؛ كما قال: ﴿ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ [الجاثية: ٣٥]. وإنما يسألون سؤال تقريع وتوبيخ لقوله تعالى: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الحجر: ٩٢].

لم تؤثّر مواعظُ قومه فيه ... فوعظ من حُرم القبول كمثل البذر في الأرض السَّبِخَة؛ لذا لم ينفعه نُصحُهم إيّاه، ولم يكن للقبول فيه مساغ.

﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ﴾ أي: في تجمّل عظيم من ملابس ومراكب وخدم وحشم، فلمّا رآه من يعظّم زهرة الحياة الدنيا تمنّوا أن لو كانوا مثله، وغبطوه بما عليه وله.

﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ فلمّا سمع مقالتهم العلماءُ أصحاب الفهم الصحيح الزُّهّادُ الألباء قالوا لهم: ﴿ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ أي: ثواب الله في الدار الآخرة خير وأبقى وأجلّ وأعلى: ﴿ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ ﴾ أي: هذه الكلمة التي تكلّم بها الأحبار، وقيل الضمير يعود إلى الأعمال الصالحة؛ وقيل إلى الجنة ﴿ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴾ على طاعة الله وعن المعاصي.

المصرع المهين:

فلما انتهت بقارون حالة الْبَغْي والفخر، وازَّيَّنت الدُّنيا عنده، وَكَثُر بها إعجابه، بَغَتَه العذابُ. قال تعالى:

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ ﴾ جزاء من جنس عمله، فكما رفع نفسه على عباد الله، أنزله الله أسفل سافلين، هو وما اغترَّ به، من دَاره وأثاثه ومتاعه.

﴿ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴾

مَنَّ اللّهُ علينا فلم ننجرف في نَهْجه، ولم ننخرط في سِلْكه، وإذًا لوقع بنا الهلاك.

أمّا المُتَمَنُّون مكانه فقد نَدِموا، وأمّا الرّاضون بقسمته - تعالى - فقد سَلِموا؛ سَلِموا في العاجل إلى أن تظهر سعادتُهم في الآجل.

أخي:

هذا تحذير لكل من غَرق في دنياه، واتّبع هواه، والسّعيد من وُعِظَ بغيره.

(٢) بلعام بن باعوراء:

قال بعض السّلف: «قل لِمَن طَلَب الدّنيا تَهيَّأ للذُّل».

والقصّة التي معنا تحكي قصَّة «عالم» من علماء بني إسرائيل ﴿ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً ﴾ [الجاثية: ٢٣].

ذكر القرطبي في «تفسيره» أنه - أوّلاً - كان مجابَ الدّعوة، وكان في مجلسه اثنتا عشرة ألف مِحْبرة للمتعلّمين الذين يكتبون عنه، وكان بحيث إذا نَظَر رأى العرش!!.

ثم انسلخ من آيات الله، فأصبح وليًّا للشيطان، فأبْعَده اللّهُ وأَخْزاه، وجعل النّارَ مثواه. نعوذ بالله من سوء المصير وعذاب السّعير.

وتتلخّص قصته فيما يلي:

أرسله موسى عليه السلام إلى «مَدْيَن» يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ونبذ عبادة ما سواه.

فلمّا ذهب إليهم، أغراه مَلِكُ مَدْين بالْمُلْك والمال والنساء «وفكّر العالِمُ كثيرًا وتردّى في صراع عنيف حتى وصل إلى مجال انعدام الوزن عندما سأل نفسه:

موسى أم المال؟

الله أم الشيطان؟

الدنيا أم الآخرة؟

وأخيرًا هداه هواه إلى اختيار المال والشيطان والدنيا فزَلَّت قَدَمُهُ بعد ثبوتها، وأصبح في الأرض حيران استهوته الشياطين، فهَوى بعد أن اتّبعَ الْهَوَى، تمرّغ في الطين بعدما تربّع على قُبّة الْفُلْك، وكان من شأنه ما ذَكَر اللّهُ - تعالى - في قوله:

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَـٰهُ بِهَا وَلَـٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٥- ١٧٧].

فتأمّل معي ما احتوى هذا المشهد القرآني من أسرار وعجائب، إنه «نبأ» ولا يستعمل القرآنُ لفظ «النبأ» إلاّ إذا كان المقام خطيرًا والخبر عظيمًا جليلاً، فما بالك برجل آتاه الله آياته، فماذا حدث؟ هل تركها؟ هل ابتعد عنها؟ كلا لو كان الأمر كذلك لجاز أن يعود إليها بعد زمان طال أو قصر، لكن القرآن أعطى معنى يدل على أن الْعَوْد بالنسبة إليه مُحَال قال تعالى:

﴿ فَٱنسَلَخَ مِنْهَا ﴾ .

فما معنى الانسلاخ؟

إن السّلخ في الأصل: كشط الجلْد عن اللّحم، وهو يعطينا أنه لا عودة، فكما أن عودة الجلد إلى اللّحم بعد سَلْخه أمْرٌ مُحال، كذلك عودة هذا الذي أظْلمَ قَلْبهُ بحبّ الدنيا، عودته إلى آياتِ الله أَمْرٌ مُحَال، لقد كانت الآيات بالنسبة إليه وقاية وعناية له من غضب الله، كما أن الجلد وقاية وعناية باللّحم، فلمّا انسلخ من الآيات أصبح عُرضة

لغضب الله.

لقد كانت الآيات تُزَيِّنه وتُجَمِّله، فلمّا انسلخ منها أصبح مشوّهًا دميم المنظر قميئًا، فماذا كانت النهاية؟

كانت النهاية: ﴿ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴾.

لماذا لم يكن من الْمُغْرِين إنما كان من الغاوين؟ لأنه أصبح أستاذًا في الغواية، دليل ذلك قوله تعالى:

﴿ فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ﴾ ولم يقل: فَتَبِع الشيطان، أي أنه أصبح بعد الضلال والانسلاخ من الآيات متبوعًا فصَار الشيطان له تابعًا.

وهذا يذّكرنا بقول القائل:

وكنــــتُ امْــرءًا من جُنْد إبليس فارْتَقى

بي الحـــالُ حَــتّى صَار إبْليس مِنْ جُنْدي!

ثم ماذا؟

قال تعالى: ﴿ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا ﴾ فمشيئة الله لا يعجزها شيء. ﴿ وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ ﴾ وما حال الذي أخلد إلى الأرض واتبع هواه؟ ما حاله في الدنيا؟ أنّه في تَعَبٍ دائم وعَذَاب نَفْس مُسْتَمر. قال تعالى:

﴿ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ﴾.

إنه تشبيه لحاله بالكلب في أخسّ حالاته، لا في أمانته وحراسته، إنما في تعبه وشقائه فهو دائمًا يلهث أن يخرج لسانه ويتنفّس بصعوبة في كل حالاته، سواء زَجَرْته وَقَسَوْتَ عليه أم أَرَحْتَه وَعَطَفْتَ عَلَيْه، كذلك هؤلاء الذين اتبعوا الهوى وأخلدوا إلى الأرض إذا لم تعطهم الدنيا طلبوها وخطبوا وُدّها، وإذا أعطتهم طلبوا المزيد منها.

وهذا مثل ضربه الله لكل من كذّب بآيات الله وأخلد إلى الأرض واتبع هواه ﴿ سَآءَ مَثَلًا ٱلۡقَوۡمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمۡ كَانُواْ يَظۡلِمُونَ ﴾.

أي أن حال هؤلاء القوم بئس الحال، ومثلهم بئس المثل، وما ظلمهم الله، لأن الله بيّن وأرشد فكان من الإيجاد والإمداد والإرشاد، ولكنهم قابلوا ذلك كله بالجحود والإنكار والنفور والعناد» [1]. نعوذ بالله من السّلب بعد العطاء.

وعلى النّقيض، فهناك مَنِ ازداد بغناه تقرّبًا من مولاه، ونال به ما تمنّاه، ومن هذا الصِّنف الكريم:

(١) أبو بكر الصِّديق:

قال تعالى - في وصفه - :

﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾ [الليل: ١٧- ٢١].

قال الإمام ابن الجوزي - رحمه الله - :

«أجمعوا على أنّها نزلَتْ في أبي بكر» ا.هـ.

فأي وسام أعلى من هذا الوسام؟

(٢) عثمان بن عفان:

عن عثمان ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ :

«**مَنْ حَفَر رُومَة**[2] **فَلَه الجنّة**» ، فحفرتُها. وقال:

«**مَنْ جَهّز جَيْشَ العُسْرة فله الجنّة**» فجهزتُهُ[3].

وبالجملة: فالإسلام لا يرفض جمع المال، ولا اكتنازه وادّخاره، ما دام الإنسان يؤدّي فيه حق ربّه، ومن ادّعى غير ذلك فقد أخطأ.

---

(١) «الصراع بين النفس والمال» للشيخ/ عبد الحميد كشك (٩- ١١) باختصار.

(٢) **رومة**: بئر.

(٣) **صحيح لشواهده**: رواه البخاري – تعليقًا – وانظر: «روضة المحبين» للعدوي (٢٠).

قال الإمام القرطبيُّ – رحمه الله تعالى – عند تفسيره لآية الدَّيْن والتي تليها[١]:

«لمّا أمر الله تعالى بالكَتْب والإشهاد وأخذ الرّهان كان ذلك نصًّا قاطعًا على مراعاة حفظ الأموال وتنميتها، وردًّا على الجهلة المتصوّفة ورِعَاعِها الذين لا يَرَوْن ذلك، فيخرجون عن جميع أموالهم ولا يتركون كفاية لأنفسهم وعيالهم؛ ثم إذا احتاج وافتقر عيالُه فهو إمّا أن يَتعرّض لِمِنَنِ الإخوان أو لصدقاتهم، أو أن يأخذ من أرباب الدنيا وَظَلَمتهم، وهذا الفعل مَذمومَ منهيٌّ عنه.

قال أبو الفرج ابن الجَوْزيّ:

ولستُ أعَجب من المتزهّدين الذين فعلوا هذا مع قلّة علمهم، إنما أتعجّب من أقوام لهم علم وعقل كيف حَثّوا على هذا، وأمروا به مع مضادته للشرع والعقل. فذكر الْمُحَاسَبِيّ[٢] في هذا كلامًا كثيرًا، وشيّده أبو حامد الطُّوسِيّ[٣] ونصره. والحارث عندي أعذر من أبي حامد؛ لأن أبا حامد كان أفقه، غير أن دخوله في التصوّف أوجب عليه نُصرة ما دخل فيه.

قال المحاسبيّ – في كلام طويل له – :

وقد بلغني أنه لمّا توفي عبد الرحمن بن عوف قال ناسٌ من أصحاب رسول الله ﷺ: إنما نخاف على عبد الرحمن فيما ترك. فقال كعب[٤]: سبحان الله! وما تخافون على عبد الرحمن؟ كَسَب طَيِّبًا، وأنفق طَيِّبًا، وترك طيِّبًا.

فبلغ ذلك أبا ذرّ، فخرج مُغْضَبًا يريد كَعْبًا، فَمَرّ بِلَحْي[٥] بعير فأخذه بيده، ثم انطلق يطلب كعبًا؛ فقيل لكعب:

---

(١) الآيتان رقم (٢٨٢، ٢٨٣) من سورة البقرة.

(٢) هو: أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبيّ، وسمّى المحاسبي لكثرة محاسبته لنفسه.

(٣) هو: الإمام أبو حامد الغزالي، صاحب «الإحياء».

(٤) هو: كعب الأحبار، كان أحد أحبار اليهود، ثم أسلم وحسن إسلامه.

(٥) **اللّحي**: عظم الحنك وهو الذي عليه الأسنان.

إن أبا ذرّ يطلبك. فخرج هاربًا حتى دخل على عثمان[١] يستغيث به وأخبره الخبر.

فأقبل أبو ذرّ يقصّ الأَثَر[٢] في طلب كعب حتى انتهى إلى دار عثمان.

فلمّا دخل قام كعب فجلس خلف عثمان هاربًا من أبي ذرّ، فقال له أبو ذرّ:

يا ابن اليهودية[٣]، تزعم ألاّ بأس بما تركه عبد الرحمن! لقد خرج رسولُ الله ﷺ يومًا فقال:

« الأكثرون هم الأقلّون يَوْمَ القيامة إلا مَنْ قال هَكَذا وَهَكَذا » [٤].

قال المحاسبيّ: فهذا عبد الرحمن مع فضله يوقف في عَرْصَة يوم القيامة بسبب ما كَسَبَه من حلال؛ للتّعفف وصنائع المعروف فَيُمنع السّعي إلى الجنة مع الفقراء وصار يَحْبُو في آثارهم حَبْوًا، إلى غير ذلك من كلامه. ذكره أبو حامد وشيّده وقوّاه، وقال:

فمن راقب أحوال الأنبياء والأولياء وأقوالهم لم يشك في أن فقد المال أفضل من وجوده، وإن صُرف إلى الخيرات؛ إذ أقل ما فيه اشتغال الهمّة بإصلاحه عن ذكر الله. فينبغي للمريد أن يخرج عن ماله حتى لا يبقى له إلاّ قدر ضرورته، فما بقى له درهمٌ يلتفت إليه قلبه فهو محجوب عن الله تعالى!!.

قال الإمام ابن الجوزيّ – مُعلّقًا – :

وهذا كلّه خلاف الشرع والعقل، وسوءُ فهم المراد بالمال، وقد شرّفه الله وعظّم قدْره وأمر بحفظه، إذْ جعله قوامًا للآدميّ، وما جُعل قَوَامًا للآدَميّ الشريف فهو شريف؛ فقال تعالى:

﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا ﴾ [النساء: ٥].

---

(١) أي: عثمان بن عفان رضي الله عنه.

(٢) يقص الأثر: يتتبعه.

(٣) هذه القصّة مكذوبة، وسيأتي كلام ابن الجوزي عليها بعد قليل.

(٤) رواه البخاري، وتمامه: «**عن يمينه، وعن شماله، ومن خَلْفه**»، «**وقليل ما هم**».

ونهى جلّ وعزّ أن يسلّم المال إلى غير رشيد فقال:

﴿ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ﴾ [النساء: ٦].

ونهى النبيُّ ﷺ عن إضاعة المال، قال لسَعْد:

« **إنّك إن تذر ورثتك أغنياء خَيْرٌ من أن تَذَرْهم عَالةً يتكفّفون الناس** »[١].

ودعا لأنس، وكان في آخر دعائه:

« **اللهم أكثر ماله وولده وبارك له فيه** »[٢].

وقال كعب[٣]: يا رسول الله، إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله. فقال:

« **أمْسِكْ عليك بَعْض مَالِك فهو خَيْرٌ لك** »[٤].

قال ابن الجوزي: هذه الأحاديث مُخرّجة في « الصّحاح »، وهي على خلاف ما تعتقده المتصوِّفة من أن إكثار المال حِجاب وعقوبة، وأن حَبْسَه ينافي التوكّل، ولا يُنكر أنه يخاف من فِتنته، وأن خَلْقًا كثيرًا اجتنبوه لخوف ذلك، وأن جمعه من وجهه ليعزّ، وأن سلامة القلب من الافتتان به تقلّ، واشتغال القلب مع وجوده بِذكْر الآخرة يَنْدُر؛ فلهذا خيف فتنته.

فأمّا كسب المال: فإن اقتصر على كسب الْبُلْغَة من حلّها فذلك أمْرٌ لابدّ منه، وأمّا من قَصَد جَمْعه والاستكثار منه من الحلال نُظِر في مَقْصوده فإن قصد نفس المفاخرة والمباهاة فبئس المقصود، وإن قَصد إعفاف نفسه وعائلته، وادّخر لحوادث زمانه وزمانهم، وقصد التوسعة على الإخوان وإغناء الفقراء؛ وفعل المصالح أُثيب على قصده، وكان جمعه بهذه النّية أفضل من كثير من الطاعات. وقد كانت نيّات خلق كثير من الصحابة في جمع

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) رواه البخاري (٦٣٧٨) و (٦٣٧٩).

(٣) هو: كعب بن مالك، وقد ذكرنا قصّته بتمامها في خُلُق « الصِّدق » فانظرها.

(٤) رواه البخاري (٢٧٥٧).

المال سليمة لِحُسْن مَقَاصِدهم بجمعه؛ فحرصوا عليه وسألوا زيادته.

ولّما أقطع النبيُّ ﷺ الزُّبير حُضْر فَرَسِه[1] أجرى الفرس حتى قام ثم رمى سوطه، فقال:

« **أعْطوه حيث بَلَغ سَوْطُه** »[2].

وكان سعد بن عبادة ﷺ يقول: « اللّهم وسّع عليّ ».

وإن أيّوب لمّا عُوفِي نُثِرَ عليه رِجْلٌ[3] من جَرَاد الذَّهَب؛ فأخذ يَحْثِي في ثَوْبه وَيَسْتَكْثِر منه، فقيل له:

أما شَبِعْتَ؟

فقال: يا ربّ فَقيرٌ يَشْبَع مِنْ فَضْلك[4]؟[5].

وهذا أمر مركوز في الطباع.

وأمّا كلام المحاسبيّ فخطأ، وما ذكره من حديث كعب وأبي ذرّ فمحال، من وضع الجُهّال[6] وخفيت عدم صحته عنه للحوقه بالقوم[7]. وقد روى بعض هذا وإن كان طريقه لا يثبت؛ لأن في سنده ابن لهيعة وهو مطعون فيه. قال يحيى: لا يحتجّ بحديثه.

والصّحيح في التاريخ أن أبا ذرّ تُوفيّ سنة خمس وعشرين، وعبد الرحمن بن عوف تُوفيّ سنة اثنتين وثلاثين، فقد عاش بعد أبي ذرّ سبع سنين.

ثمّ لفظ ما ذكروه من حديثهم يدلُّ على أن حَديثهم موضوع، ثم كيف تقول الصّحابة:

---

(١) الحُضْر (بضمّ فسكون) والإحضار: ارتفاع الفرس في عدْوه.

(٢) رواه أبو داود في «الخراج» (٣٠٧٢) بلفظ: « **أعطوه من حيث بلغ السَّوْط** ».

(٣) **الرِّجل**: القطعة العظيمة من الجراد.

(٤) أي: هل هناك فقير إليك يشبع من احتياجه إليك.

(٥) رواه أحمد في المسند (٩/٢٤٨٩٦)، وقد تقدّم قريبًا بلفظ آخر.

(٦) يقصد القصّة، أما الحديث الوارد في نهايتها فصحيح كما تقدّم.

(٧) يقصد المتصوّفة لقلّة بضاعتهم في علم الحديث.

إنا نخاف على عبد الرحمن! أو لَيْسِ الإجماع مُنْعقدًا على إباحة جَمْع المال من حِلّه، فَمَا وَجْه الخوف مع الإباحة؟ أوَيأْذَن الشَّرعُ في شيء ثم يُعاقب عليه؟

هذا قلّة فَهْم وفقه.

ثم أَيُنكر أبو ذرٍّ على عَبْد الرحمن، وعبد الرحمن خَيْرٌ من أبي ذَرٍّ بما لا يتقارب؟

ثمّ تعلّقه بعبد الرحمن وحده دليل على أنه لم يَسْبُرْ سَيْرَ الصّحابة؛ فإنه قد خلّف طلحةُ[1] ثلاثمائة بُهَار في كلّ بُهَار ثلاثة قناطير. والبُهار الحِمْل.

وكان مال الزّبير خمسين ألفًا ومائتي ألف. وخلّف ابنَ مسعود تسعين ألفًا. وأكثر الصّحابة كسبوا الأموال وخلّفوا و لم يُنكر أَحَدٌ منهم على أحَد.

وأمّا قوله: «**إن عبد الرحمن يَحْبُو حَبْوًا يَوْمَ القيامة**»[2] فهذا دليل على أنه ما عرف الحديث، وأعوذ بالله أن يَحْبو عبدُ الرحمن في القيامة؛ أَفَترى مَنْ سَبَق وهو أحد العشرة المشهود لهم بالجنّة، ومن أهل بَدْر والشّورى يَحْبو؟ ثم الحديث يرويه عُمارة بن زاذان؛ وقال البخاريّ: ربّما اضطرب حديثه. وقال أحمد: يروى عن أنس أحاديث مناكير، وقال أبو حاتم الرازي: لا يحتج به وقال الدارقطني: ضعيف.

وقوله: «تَرْكُ المالِ الحلال أَفْضلُ من جَمْعِهِ» ليس كذلك، ومتى صَحّ القصد فَجَمْعُه أفضل بلا خلاف عند العلماء.

وكان سعيد بن المسَيّب يقول: «لا خير فيمن لا يطلب المال، يقضي به دينه، ويصون به عِرْضه؛ فإن مات تركه ميراثًا لمن بعده».

وخلّف ابنُ المسيب أربعمائة دينار، وخلّف سفيان الثوريّ مائتين، وكان يقول: المال في هذا الزّمان سلاح.

وما زال السّلف يمدحون المال ويجمعونه للنوائب وإعانة الفقراء؛ وإنما تحاماه قوم

---

(١) هو: طلحة بن عبيد الله ﷺ أحد العشرة المبشّرين بالجنّة

(٢) رواه أحمد (٢/٥١١) ولا يصح.

منهم إيثارًا للتشاغل بالعبادات، وجمع الهمّ فقنعوا باليسير.

فلو قال هذا القائل: إن التقليل منه أولى قرب الأمر ولكنَّه زاحم به مرتبة الإثم.

قلت[١]: ومما يدل على حفظ الأموال ومراعاتها: إباحة القتال دونها وعليها؛ قال ﷺ:

« **مَنْ قُتل دون مَالِه فهو شهيد** »[٢]. ا.هـ[٣].

أخي الكريم:

مِمّا سبق يتبيّن أن الدعوة إلى كراهية المال وكَبْح جِماح النّفس عن جمعه وتحصيله دعوة لإذلال النفس وتأخر الأمّة.

فانهض - أخي الكريم - من سُباتك، وانشط من رُقادك، واجتهد في جمع المال من حِلّه، وأنفقه في حَقّه، ولكن احذر من:

إهمال الواجبات، وإسقاطِ الطاعات، والعلوِّ على جبّار الأرض والسموات، وليكن شعارى وإيّاك:

« اللّهم اكْفِنَا بِحَلاَلِك عن حَرَامك، وأغْنِنا بِفَضْلِك عَمَّن سِواك ».



(١) الكلام للإمام القرطبيّ - رحمه الله - .

(٢) رواه البخاري (٢٤٨٠)، ومسلم (١٤١)، وغيرهما.

(٣) « تفسير القرطبيّ » (٣/٣٨٠ - ٣٨٢) باختصار.

٣٦ - السَّعْيُ على الرِّزْقِ

اعلم - أخي المسلم - أن حبّ المال ليس مذمومًا في ذاته، ومن الخطأ أن نعيب على من اجتهد في جمعه، وإليك ما يدلّ على ذلك:

(١) عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ:

«بَيْنَما أيّوبُ يَغْتَسلُ عُرْيَانًا[١] خرّ عليه[٢] رِجْلُ جَرَادٍ[٣] من ذَهَبٍ، فَجَعلَ يَحْثِي في ثَوْبه فَنَاداه رَبُّهُ:

يا أيّوب ألم أكن أغنيتُك عمّا ترىَ؟

قال: بَلَى يا رَبّ ، ولكن لا غِنى لي عن بَرَكتك» [٤].

قال الحافظ ابن حجر - رحمه الله تعالى - :

«وفي الحديث: جواز الحرص على الاستكثار من الحلال في حق من وثق من نفسه بالشكر عليه، وفيه تسمية المال الذي يكون من هذه الجهة بركة، وفيه فضل الغنيّ الشاكر» ا.هـ[٥].

(٢) وعن سعد بن أبي وقاص ﷺ أنّه مَرِضَ مَرَضًا - وفي رواية: بمكّة - أَشْفَى فيه، فعاده رسولُ الله ﷺ ، فقال:

يا رسول الله، إن لي مالاً كثيرًا، وليس يَرِثُني إلاّ ابنتي، أَفَأَتَصَدَّقُ بالثُّلُثَيْن؟

قال: «**لا**».

---

(١) وفي رواية لأحمد وغيره: «**لَمَّا عافى اللَّهُ أيّوبَ أمْطَر عليه جَرَادًا مِنْ ذَهَب**».

(٢) **خرّ عليه**: سقط عليه.

(٣) **رجل جراد**: أي: جماعة جراد، والجراد: اسم جمع واحده (جرادة)، كتمر وتمرة.

(٤) رواه البخاري (٣٣٩١) وغيره.

(٥) «فتح الباري» (٦/٤٨٥).

قال: فبالشَّطْر؟

قال: «**لا**».

قال: فبالثُّلُث؟

قال: «**الثُّلُثُ، والثُّلُثُ كَثيرٌ، إنّك أنْ تَتْرُكَ وَرَثَتكَ أَغْنِيَاء، خَيْرٌ مِنَ أَنْ تَدَعَهُمْ عَالَة يَتَكَفَّفون النّاس، وإنّك لَنْ تُنْفِق نَفَقَة إلاّ أُجِرْتَ بِها حَتى اللُّقْمَة تَرْفَعُهَا إلى فِيِّ امْرأتِك**» [(١)].

والشاهد من الحديث قولُ سعد: «إن لي مالاً كثيرًا»، وإقرار النبيِّ ﷺ له في قوله: «**إنّك أَنْ تَتْرُكَ وَرَثَتكَ أَغْنِيَاء، خَيْرٌ مِنَ أَنْ تَدَعَهُم عَالَة يَتَكَفَّفون النّاس**».

(٣) وعنه ﷺ قال:

سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول:

«**إنّ الله يُحِبّ الغَنِيَّ الخَفِيَّ التَّقِيَّ**» [(٢)].

والأحاديث في فضل الغني، وصيانة الوجه عن ذلّ السؤال كثيرة.

وكذلك الآثار عن السّلف أكثر من أن تحصى، ومنها:

(١) **قال سعيدُ بن المسيِّب** - رحمه الله - :

«لا خَيْرَ فِيمن لا يُريد جَمْع المال مِنْ حِلِّه، يُعْطِي منه حَقَّهُ، وَيَكُفُّ به وَجْهَهُ عن النّاس» [(٣)].

(٢) **وقال سفيانُ الثّوريُّ** - رحمه الله - :

«كان المالُ فيما مضى يُكْره، فأمّا اليوم، فهو تِرْسُ المؤمن».

وقال - رحمه الله -: «لأن أُخَلِّف عَشْرَةَ آلاَف دِرْهَم، يُحاسبني اللّهُ عليها، أَحَبُّ

---

(١) رواه البخاري ومسلم وأبو داود.

(٢) **حسن**: أخرجه أحمد (١/١٧٧)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/٩٤)، وحسنه الأرناؤوط.

(٣) «سير أعلام النبلاء» (٤/٢٣٨).

إليّ مِنْ أن أحْتاج إلى الناس! » [١].

ونظر إليه رجلٌ، وفي يده دنانير، فقال: يا أبا عبد الله، تمْسِكُ هذه الدَّنانير؟!

قال: « اسْكُتْ، فلولاها لَتَمَنْدَلَ بِنَا الْملوكُ » [٢].

وقال - رحمه الله - : « ما وَضَعَ رَجُلٌ يَدَه في قَصْعَةِ رَجُلٍ إلاّ ذَلَّ له » [٣].

(٣) وعن عليّ بن الفضيل، قال:

سمعتُ أبي يقول لابْنِ المبارك: أنْتَ تأمُرنا بالزّهد والتَّقَلُّل، والبُلغة، ونَرَاك تأتي بالبضائع، كيف ذا؟!

قال: « يا أبا عليّ، إنّما أفعلُ ذَا لأَصُونَ وَجْهي، وأُكْرِم عِرْضي، وأستعينُ به على طاعة رَبِّي ».

قال: « يا ابن المبارك ما أحسن ذا إن تم ذا » [٤].

وعن ابن المبارك - أيضًا - قال:

« لا يقع موقع الكسب على العيال شيء، ولا الجهاد في سبيل الله » [٥].

(٤) وقال « قيس بن عاصم » لبنيه عند موته:

« يا بنيّ عليكم بالمال فإنّه مَنْبَهَةٌ للكريم، وَيُسْتَغْنَى به عن اللّئيم ».

(٥) **وقال أيّوبُ السِّخْتياني** - رحمه الله - :

« الزم السّوق فإن الغنى من العافية » [٦].

---

(١) نفس المرجع (٧/٢٤١).

(٢) نفس المرجع.

(٣) نفس المرجع.

(٤) نفس المرجع (٨/٣٨٧).

(٥) نفس المرجع (٨/٣٩٩).

(٦) « الحلية » (٣/١٠).

ما سَبَق يدلّ على أن حبّ المال ليس مذمومًا في ذاته طالما يؤدّي الغاية التي مِنْ أجلها نزل، وهي: التقرب إلى الله تعالى به، كما قال الله - سبحانه - في الحديث القدسي:

«إنا أنزلنا المال لإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ....» (١).

إنما المذموم: جَمْعُه من غير حِلّه، وإنفاقُه في غير حَقّه، والاستعانة به على معصية الله، والانكباب على تحصيله انكبابًا يسيطر على القلب، ويشغل عن الرّب - تبارك وتعالى - :

- عن عَمْرة بنت الحارث - رضي الله عنها - قالت:

قال رسولُ الله ﷺ :

«الدُّنيا حُلْوَةٌ خضِرةٌ، فَمَنْ أَخَذَها بِحَقِّها بارك اللّهُ له فيها، وَرُبَّ مُتَخَوِّضٍ في مَالِ الله ورسولهِ له النّارُ يَوْمَ القيامة» (٢).

- وعن كعب بن عياض رضي الله عنه قال:

سمعتُ رسول الله ﷺ يقول:

«إنّ لِكلّ أُمَّة فتِنَةً، وفِتْنَةُ أُمَّتي المال» (٣).

- وعن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قال:

قال رسولُ الله ﷺ :

«قال الشيطانُ لَعَنه الله: لَنْ يَسْلَمَ مِنّي صاحِبُ المال مِنْ إحْدى ثلاث أَغْدو عليه بِهنّ وأَرُوحُ: أَخْذه مِنْ غَيْرِ حِلّه، وإنْفَاقِه في غَيْرِ حَقّه، وَأُحَبِّبُهُ إلَيْهِ فَيمْنَعُهُ مِنْ حَقّه» (٤).

- وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال:

سمعتُ رسول الله ﷺ يقول:

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) **صحيح** : رواه الطبراني بإسناد حسن، وصحّحه الألباني.

(٣) **صحيح** : رواه الترمذي، وغيره، وانظر: «صحيح الجامع» (٢١٤٨).

(٤) رواه الطبراني بإسناد حسن. انظر: «الترغيب والترهيب» (٤٦١٥).

« **إنّما أَهْلَكَ مَنْ كان قَبْلكم الدِّينار والدِّرهم، وهما مُهْلِكاكُم** » [(١)].

والأحاديث في هذا المعنى كثيرة:

ومن الآثار:

▫ **قال الحسن:**

« والله، ما أعزَّ أَحَدٌ الدِّرهم إلاّ أَذَلَّة الله » [(٢)].

وقال: « بئس الرَّفِيقَان؛ الدِّينار والدِّرْهم ، لا ينفعانِكَ حَتّى يُفَارِقَاك » .

▫ **وقال وَهْبُ بْنُ مُنَبِّه:**

« لّما ضُربت الدّراهم والدنانيرَ حَمَلَهما إبليسُ فَقبَّلهما، وقال:

سلاحي، وَقُرّة عَيْني، وثَمرة قَلْبي، بِكُمَا أُغْرى، وبكما أطْغِي، وبكما أكفّر ابن آدم، وبكما تستوجب النّار ابن آدم » [(٣)].

والآثار في هذا المعنى - أيضًا - كثيرة.

وصفوة القول: أن المال ليس مذمومًا - على طول الخطّ - كما يعتقد البعض، كما أنه ليس محمودًا أيضًا - على طول الخط - فَمَن وظَّفَه في طاعة مَوْلاه قادَه إلى الجنّة، ومن وظّفه في المعصية قاده إلى النار.

▫ **مفاتيح الرّزق:**

وقد يسأل بعضُ الناس: إذا كان جمع المال - بشروطه الشرعية - محمودًا، فكيف السبيل إلى تحصيله؟

وما هي الوسائل « الشرعية » التي يفتح اللّهُ - تعالى - بها أبواب الرزق؟

---

(١) رواه البزار بإسناد جيد. انظر: « الترغيب والترهيب » (٤٦١٦).

(٢) « سير أعلام النبلاء » .

(٣) « المنتظم » لابن الجوزي (٢١/١).

والجواب: هناك مفاتيح كثيرة، يُدِرُّ اللّهُ بها الرّزق، ويبارك بها في السّعي، ومنها:

المفتاح الأوّل: تقوى الله تعالى:

- قال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

والتقوى: امتثال الأوامر، واجتناب النواهي.

- وقال رجلٌ من العُبَّاد لرجلٍ يَوْمًا: «حَسْبُك من التّوسّل إليه أن يَعْلم مِنْ قِبَلك حُسْن توكّلك عليه، فكم مِنْ عَبْدٍ من عباده قد فَوّض أَمْره إليه، فكفاه منه ما أهمه، ثم قرأ: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ ا.هـ»[1].

ومن مواعظ **الإمام ابن الجوزي** - رحمه الله - :

«يا مفتحًا أبواب المعاش بغير مفتاح التُّقى، كيف توسّع طريقَ الخطايا وتشكو ضيق الرّزق. لو اتَّقيْتَ ما عسر عليك مطلوب، مفتاح التقوى يقع على كل باب، ما دام الْمُتّقِي على صفاءِ التُّقَى يَلْقى إذْن أَذَى، فإن انحرف عن التُّقَى الْتَقى بالكَدَر، فلَما تولّيتم عَلَينا تولّينا .. لا تزال بحارُ النّعم على الْخَلْق في الزيادة. ﴿ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد: ١١]. ا.هـ»[2].

المفتاح الثاني: التوكل على الله:

قال الإمام الغزالي: «التوكّل عبارة عن اعتماد القلب على الوكيل وحده».

- قال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ [الطلاق: ٣]. أي: كافيه.

- ر ب عمر بن الخطاب ﷺ قال:

قال رسول الله ﷺ: «**لَوْ أنّكم تَوَكّلُون على الله حَقّ تَوكّله لرُزِقْتُم كما تُرْزَق الطَّيْرِ**

---

(١) «التوكل على الله» لابن أبي الدنيا (٣٦).

(٢) «اللطائف في الوعظ» لابن الجوزي (١١٩).

تَغْدو[١] خِمَاصًا[٢] وتَرَوحُ[٣] بِطانًا[٤] » [٥].

□ وذكر ابن أبي الدنيا: أن رجلاً قرأ هذه الآية: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴾ [الفرقان: ٥٨].

فأقبل على « سليمان الخوّاص »، فقال:

« يا أبا قُدامة، ما ينبغي لعبد بعد هذه الآية أن يلجأ إلى أحد غير الله في أمره »، ثمّ قال:

« والله يا أبا قُدامة لو عامل عبدٌ الله بحسن التوكل عليه، وصدق النيّة له بطاعته، لاحتاجت إليه الأمراء فمن دونهم، وكيف يكون هذا يحتاج، ومؤمله، وملجأه إلى الغنيّ الحميد!! » [٦].

المفتاح الثالث: الصلاة:

□ فعن أبي أمامة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:

« ثلاثةٌ كُلُّهم ضَامِنٌ على الله، إن عاشَ رُزِقَ وَكُفِي، وإنْ مَاتَ أَدْخَلَهُ اللّهُ الْجَنَّةَ:

مَنْ دَخل بَيْتَهُ فَسَلَّم فَهُو ضَامِنٌ على الله.

وَمَنْ خَرَج إلى الْمَسْجِد فَهُو ضامِنٌ على الله.

ومن خَرَج في سبيل الله فهو ضامِنٌ على الله » [٧].

---

(١) تغدو : تذهب أوّل النهار.
(٢) خماصًا : جياعًا.
(٣) تروح : ترجع آخر النهار.
(٤) بطانًا : شباعًا.
(٥) صحيح : أخرجه أحمد (٣٧٠)، والترمذي (٢٤٤٧)، واللفظ له.
(٦) « التوكل على الله » لابن أبي الدنيا (٣٧).
(٧) صحيح : رواه أبو داود، وغيره، وانظر: « صحيح الترغيب » (٣١٩).

□ **وقال ميمونُ بْنُ مِهْران** - رحمه الله - [1]:

« إذا أتى رجلٌ باب سلطان فاحتجب عنه فليأت بيوت الرحمن فإنّها مفتحة، فَلْيُصَلِّ ركعتين، وليسل حاجته » [2].

المفتاح الرابع: تحريكُ سلسلة الأسباب:

والمقصود به - هنا - السّعي في طلب الرزق.

قال تعالى: ﴿ فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ﴾ [الملك: ١٥].

وهذا السَّعي لا ينافي التوكل، لأن السّعْي عمل الجوارح، والتوكّل عَمَل القلب.

فترك الأسباب تواكل، والاعتماد عليها شرك!

قال بُنَانُ الحَمَّال[3] - رحمه الله - :

« رؤيةُ الأسباب على الدّوام قاطعةٌ عن مُشَاهَدة الْمُسَبِّب، والإعراضُ عن الأَسْباب جُمْلَةً يُؤَدِّي بِصَاحِبه إلى ركوبِ الْبَاطل » [4].

قلتُ: هذا كلام يُكْتَب بِمَاءِ الذّهب، لا يخرج إلاّ من رأس فقيه عارف، فأين ضُلاّل المتصوفة من هذا الكلام؟!.

فيا أخا الإسلام:

حرّك سلسلة الأسباب وتحرّك:

وَكُـنْ بـالّذي خُـطَّ بـاللَّوْحِ رَاضِيًا   فـلا مَهْـربٌ مِمّـا قَضَـاه وَخَطَّـهُ

---

(١) من التابعين، تُوفي سنة ١١٧هـ.

(٢) « القناعة والتعفّف » لابن أبي الدنيا (١٧٧).

(٣) هو: الإمام المحدّث الزّاهد، شيخ الإسلام، أبو الحسن، بُنان بن محمد بن حمدان بن سعيد الواسطي، نزيل مصر، ومن يُضرب بعبادته المثل، صحب الجنيد، وكان كبير القدر، لا يقبل من الدولة شيئًا، وله جلالة عجيبة عند الخاصّ والعام. توفي سنة (٣١٦هـ) . انظر: « السّير » (٤٩٠/١٤).

(٤) « سير أعلام النبلاء » (٤٨٩/١٤).

وإنّ مع الرّزق اشتراطُ الْتماسه | وقد يتعدّى إن تعدّيتَ شرْطه
ولو شاء ألْقى في فمِ الطّير قُوتَهُ | ولكنّه أوْحى إلى الطّيْر لَقْطه

المفتاح الخامس: الاستغفار والتوبة:

- قال تعالى: ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴾ [نوح: ١٠- ١٢].

قال الإمام القرطبيُّ - رحمه الله - :

«في هذه الآية والتي في «هود» [(١)] دليلٌ أن الاسْتغفار يُسْتَنزل به الرّزق والأَمْطار» ا.هـ [(٢)].

- وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال:

قال رسولُ الله ﷺ :

«من أكثر من الاستغفار جعل اللّهُ له من كُلّ هَمٍّ فَرَجًا، ومن كُلّ ضِيق مَخْرَجًا، وَرزَقَه مِنْ حَيْث لا يحْتسب» [(٣)].

المفْتاح السّادس: الثّقة في الله تعالى:

- قيل لأبي أسيد الفزاري: من أين تعيش؟ فَكَبَّر الله وَحَمده، وقال:

يَرْزق اللّهُ - تعالى - القِرْدَ والخنزير، ولا يَرْزُق أبا أسيد؟!:

إنّ المقادير لا تناولها الأوهام | لُطفًا ولا تراها العيون
سيجري عليك ما قدّر الله | ويأتيك رِزْقُك المضمون [(٤)]

---

(١) يشير إلى قوله تعالى: ﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ﴾ (الآية) [هود: ٥٢].

(٢) «تفسير القرطبي» (٨/٣٠٢).

(٣) رواه أحمد في «المسند» (٢٢٣٤)، وغيره، وقال الشيخ/ أحمد شاكر: «إسناده صحيح»، انظر: «هامش المسند» (٤/٥٥).

(٤) «القناعة والتعفف» (١١٤).

حكاية:

حُكِيَ أن قومًا من الأعراب زرعوا زرعًا، فلمّا بلغ أصابته آفة فذهبت به فاشتدّ ذلك عليهم، حتى رُؤى فيهم، فخرجت أعرابية منهم، فقالت:

ما لي أراكم متغيّرة ألوانكُم، ميّتة قلوبُكم، هو رَبّنا فليفعل بنا ما يشاء، ورِزْقُنا عليه، يأتي به من حيث يشاء، ثم أنشدت تقول:

لو كان في صَخْرة في البحر راسية ... صمّاء مَلس نواحيها
رِزْقُ نَفْسٍ بَرَاها اللّهُ لانْفَلَقَتْ ... حتى تُؤَدّى إليه كُلّ مَا فيها
أو كان بَيْن طِباق السَّبْع مَسْلكها ... لسَهّل اللّهُ في الْمَرْقى مراقيها
حتى تنال الذي في اللّوْح يخط لها ... فإن أتته وإلاّ سَوْف يأتيها![1]

المِفْتاح السابع: البكور في طَلَب الرّزق:

فعن صخر بن وداعة الغامدي - الصّحابيّ - ﷺ : أن رسول الله ﷺ قال:

«**اللّهم بارِكْ لأُمَّتي في بكورها**».

وكان إذا بَعَثَ سريّة أو جيشًا بعثهم مِنْ أَوَّل النّهار، وكان صَخْرٌ تاجرًا فكان يبعث تجارته مِنْ أَوَّل النهار فأثْرَى وَكَثُر مَالُهُ[2].

المفتاح الثامن: الشُّكر:

□ قال تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم: ٧].

قال الإمام الفخر - رحمه الله - في تفسيره لهذه الآية:

«اعلم أن المقصود من الآية بيان أن من اشتغل بشكر نعم الله زاده الله من نعمه،

(١) نفس المرجع (١٠٤).

(٢) صحيح: أخرجه الترمذي (١٢١٦)، وصحّحه الألباني.

ولابد ههنا من معرفة حقيقة الشكر، ومن البحث عن تلك النعم الزّائدة الحاصلة عند الاشتغال بالشكر».

أمّا الشكر:

فهو عبارة عن الاعتراف بنعمة المنعم مع تعظيمه وتوطين النفس على هذه الطريقة.

وأمّا الزيادة في النّعم فهي أَقْسَام:

منها النّعم الرّوحانية، ومنها النّعم الْجُسْمانية.

أما النّعم الرّوحانية:

فهي أن الشاكر يكون أبدًا في مطالعة أقسام نعم الله تعالى وأنواع فضله وكرمه، ومن كَثُر إحْسَانه إلى الرّجل أحبه الرجلُ لا محالة، فشغل النفس بمطالعة أنواع فضل الله وإحسانه يوجب تأكد مَحبّة العبد لِله تعالى، ومقام المحبة أعلى مقامات الصّديقين.

ثم قد يترقّى العبد من تلك الحالة إلى أن يصير حُبُّهُ للمنعم شاغلاً له عن الالتفات إلى النعمة.

ولا شكّ أن منبع السعادات وعنوان كل الخيرات محبّة الله ومعرفته.

فثبت أن الاشتغال بالشكر يوجب مزيد النعم الروحانية.

وأما مزيد النّعم الجسمانية:

فلأن الاستقراء دلّ على أن مَنْ كان اشتغاله بشكر نعم الله أكثر، كان وصول نعم الله إليه أكثر.

وبالجملة:

فالشكر إنما حسن موقعه لأنه اشتغال بمعرفة المعبود، وكل مقام حرّك العبد من عالم الغرور إلى عالم القُدْس، فهو المقام الشريف العالي الذي يوجب السعادة في الدين والدنيا.

أمّا قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴾ فالمراد منه الكُفْران[1]، لا الكفر، لأن الكفر المذكور في مقابلة الشكر ليس إلاّ الكفران، والسب فيه أن كفران النعمة لا يحصل إلاّ عند الجهل بكون تلك النعمة نعمة من الله، والجاهل بها جاهل بالله ، والجهل بالله من أعظم أنواع العقاب والعذاب» ا.هـ[2].

المفتاح التاسع: التّفرغ لعبادةِ الله ﷻ:

والمراد بالتفرغ للعبادة: حضور القلب أثناء العبادة، لا ترك الكسب كما يظن بعض الناس!:

عن أبي هريرة ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ :

«**إنّ الله تعالى يقول: يا ابْنَ آدم تَفَرَّغْ لعبادتي أمْلأ صَدْرَك غِنى، وأَسُدّ فقرك، وإن لا تفعل ملأتُ يَدَكَ شُغْلاً، ولم أَسُدّ فقرك**»[3].

قال الْمُلاّ علي القاري - رحمه الله - :

«قوله ﷺ يعني عن ربّه: «**تَفَرّغْ لِعِبَادتِي**» : أيْ: بالغ في فراغِك قَلْبك لعبادةِ ربِّك»ا.هـ[4].

المفتاح العاشر: الدُّعَاءُ بالْغِنِي:

فعن خالد بن الوليد ﷺ:

أنه شكا إلى رسول الله ﷺ الضِّيق في مسكنه، فقال:

«**ارْفَعْ يَدَيْك إلى السّماء وَسَلِ الله السّعة**» [5].

---

(١) أي: كفران النعمة.

(٢) «مفاتيح الغيب» (٩/٢٩٠، ٢٩١).

(٣) صحيح: رواه أحمد في «المسند» (٨٦٨١)، وغيره، وصحّحه الألباني.

(٤) «مرقاة المفاتيح» (٩/٢٦).

(٥) رواه الطبراني بإسنادين، أحدهما حسن.

المفتاح الحادي عشر: الاستعاذة بالله من الفقر:

فقد كان النبيُّ ﷺ يقول إذا أَصْبحَ وإذا أَمْسَى - ثلاثَ مَرَّات - :

«**اللّهم عَافِني في بَدَني، اللّهم عَافِني في سَمْعي، اللّهم عَافِني في بَصَري، لا إله إلا أنت، اللّهُمّ إنّي أعوذُ بك مِنَ الكُفْر، والْفَقْر، وأعوذُ بِكَ مِنْ عَذَاب الْقَبْر، لا إله إلا أنت**» [1].

وكان ﷺ يقول بعد السلام من صلاة الفجر:

«**اللَّهُمّ إنِي أسألُك عِلْمًا نافعًا، وَرزْقًا طَيِّبًا، وَعَملاً مُتَقَبَّلاً**» [2].

المِفْتاح الثاني عشر: المتابعة بيْن الحَجّ والعُمْرة:

فعن ابن مسعود ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ :

«**تَابِعوا بَيْن الحَجّ والْعُمْرة فإنّهما يَنْفيان الْفَقْرَ والذّنوبَ كما يَنْفِي الكِيرُ**[3]**خَبَثَ الحديد**[4] **والذَّهب والفِضّة، وليس للحَجّة الْمَبْرورة ثَوابٌ إلاّ الجنّة**» [5].

قال الإمَامُ السِّنْدي - رحمه الله - :

«قوله ﷺ : «**تابعوا بين الحج والعمرة**» أي: اجعلوا أحدهما تابعًا للآخر واقعًا على عقبه، أي: إذا حَجَجْتم فاعتمروا، وإذا اعْتمرتم فَحُجُّوا فإنهما مُتَعَاقِبان»اهـ[6].

---

(١) **حسن**: رواه أبو داود (٤/٣٢٤)، وأحمد (٥/٤٢)،وقال الشيخ ابن باز في «تحفة الأخيار» (٦٩): إسناده حسن.

(٢) **صحيح**: انظر: «صحيح سنن ابن ماجة» (١/١٥٢).

(٣) **الكير**: النار.

(٤) **خبث الحديد**: وَسَخه.

(٥) **صحيح**: أخرجه أحمد في «المسند» (٣٦٦٩)، والترمذي (٨٠٧)، وغيرهما.

(٦) «فيض القدير» (٣/٢٢٥).

المفتاح الثالث عشر: الإكثار من قول «سُبْحان اللهِ وَبِحَمْدِه»:

فعن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - قال:

كنا عند رسول الله ﷺ فجاء رجلٌ من أهل البادية، عليه جُبّة سِيجان[1]، مزرورة بالدِّيباج، فقال:

ألا إن صاحبكم هذا[2] قد وَضَع كُلَّ فَارسٍ بْنِ فارس، ورَفع كلَّ رَاعٍ بْنِ رَاع!؛ قال: فأخذَ رسولُ الله ﷺ بِمَجَامِع جُبَّته، وقال:

«ألا أَرَى عليك لباس من لا يَعْقل». ثم قال: **«إنّ نَبِيَّ اللهِ نوحًا ﷺ لمّا حَضَرته الوفاةُ قال لابْنِه:**

إنّي قَاصٌّ عليك الْوصيّة؛ آمُرُكَ باثْنَتَيْن وأنْهَاكَ عَنِ اثْنَتَين:

آمُرُك بلا إله إلاّ الله ، فإنّ السّموات السَّبْعِ والأَرْضِينَ السَّبْع لَوْ وُضِعَتْ في كِفَّة، وَوُضِعَتْ لا إله إلا الله في كِفّة رَجَحَتْ بِهِنَّ لا إله إلا الله، ولو أن السّموات السَّبْع والأرْضِينَ السَّبْع كُنَّ حَلَقَةً مُبْهَمَةً قَصَمَتْهُنَّ لا إله إلا الله.

وَسُبْحان الله وَبِحَمْدِه فإنّ بها صِلاتِ كُلِّ شيءٍ، وبها يُرْزَقُ الْخَلْق.

وأنْهاكَ عَنِ الشِّرْكَ والكِبر».

قال: قلتُ «أو» قيل: يا رسولَ الله هذا الشّرك قَدْ عرفناه، فما الكِبْرُ؟ أن يكون لأحدِنا نَعْلان حَسَنان لهما شِرَاكَان حَسَنَان؟

قال: «**لا**».

قال: هو أن يكون لأحدِنا حُلَّةٌ يَلْبَسُها؟

قال: «**لا**».

---

(١) **سيجان**: جمع ساج وهو الطيلسان الأخضر.

(٢) يقصد النبيّ ﷺ .

قال: هو أن يكون لأحدنا دَابَّةٌ يَرْكَبُها؟

قال: «**لا**».

قال: هو أن يكون لأحدنا أصحابٌ يَجْلسون إليه؟

قال: «**لا**».

قلت: أو قيل: يا رسول الله، فما الكِبْرُ؟

قال: «**سَفَهُ الْحَقِّ، وَغَمْطُ النّاس**»[١].

المفتاح الرابع عشر: صلة الرّحم:

فعن أبي هريرة رضي الله قال:

سمعتُ رسول الله ﷺ يقول:

«**مَنْ سَرّه أن يُبْسَط له في رِزْقه، وأن يُنْسأ له في أَثَرِه[٢]، فَلْيَصِلْ رَحِمَه**»[٣].

المفتاح الخامس عشر: مساعدة طالب العلم:

فعن أنس بن مالك ﷺ قال:

كان أَخَوَانِ على عَهْدِ النَّبيِّ ﷺ ، فكان أحدُهما يأتي النبيَّ ﷺ - وفي رواية: يَحْضُر حَدِيثَ النَّبيِّ ﷺ ومَجْلِسَهُ-، والآخر يَحْتِرفُ، فشكا المحترفُ أخاه إلى النبيّ ﷺ؛ فقال:

يا رسولَ الله، إن هذا أخي لا يُعينني بشيء!! فقال ﷺ:

«**لَعَلّك تُرْزَقُ به**»[٤].

---

(١) صحيح: أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٦٥٩٤)، وقال الإمام ابن كثير في «البداية» (١٨٩/١): هذا إسناد صحيح ولم يخرجوه.

(٢) الأثر: الأجل.

(٣) رواه البخاريّ (٥٩٨٥).

(٤) صحيح: أخرجه الترمذي (٢٣٤٦)، والحاكم (٩٣/١)، وقال : «صحيح على شرط مسلم»، ووافقه الذهبي والألباني. انظر: «الصحيحة» (٢٧٦٩).

قال الْمُلاَّ علي القاري - رحمه الله - في شرحه لهذا الحديث:

«قوله ﷺ: «**لعَلّك تُرْزق به**» - بصيغة المجهول - أي: أرجو أو أخاف أنك مرزوق ببركته لا أنه مرزوق بحرفتك فلا تمنن عليك بصنعتك» ا.هـ(١).

المفتاح السادس عشر: إتقان العمل:

وهذا من أهم أسباب اسْتِدْرار الرّزق، فالواقع يشهد أن قلوب الناس تَهْفو، وأعينهم تَرْنو إلى من يُتقن صِنعته، ويقدّمونه على غيره.

المفتاح السابع عشر: الأمانة:

فالأمين في عمله، وبيعه، تتعلّق به الأفئدة، ويتسابق الناس إلى معاملته، ويفضلونه على مَنْ سواه.

وهذه بنتُ الرّجل الصّالح «شعيب» لمّا رأت من قوّة وأمانة موسى عليه السلام قالت لأبيها:

﴿ يَـٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴾ [القصص: ٢٦].

المفتاح الثامن عشر: حُسْنُ الْخُلُق:

وهذا أمْرٌ ظاهر لا يَخْفى، فالناس تهوي أفئدتُهم إلى مَنْ حَسُن خُلُقُه، أمّا الفاحش البذيء فَيَهْربون منه، اتّقاءَ فُحْشِه.

المفتاح التاسع عشر: الإحسان إلى الضُعفاء:

فعن مصعب بن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال:

رأى سعد رضي الله عنه أن له فضلاً على من دونه، فقال رسول الله ﷺ:

«**هل تُنْصَرون وَتُرْزَقُون إلاّ بِضُعَفَائكم**» (٢).

---

(١) «مرقاة المفاتيح» (١٧١/٩).

(٢) رواه البخاري.

المفتاح العشرون: المهاجرة في سبيل الله تعالى:

قال تعالى: ﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ﴾ [النساء: ١٠٠].

وقال العلامة السّعديّ - رحمه الله - في تفسيره لهذه الآية:

«هذا في بيان الحثّ على الهجرة، والترغيب فيها، وبيان ما فيها من المصالح، فوعد الصّادقُ في وعده: أن من هاجر في سبيله، ابتغاء مرضاته، أنه يجد مراغمًا في الأرض وسعة[١].

فالمراغم مشتمل على مصالح الدّين، والسّعة على مصالح الدنيا.

ذلك أن كثيرًا من الناس يتوهّم أن في الهجرة شتاتًا بعد الألفة، وفقرًا بعد الغنى، وذّلاً بعد العزّ، وشدّة بعد الرّخاء.

والأمر ليس كذلك» ا.هـ[٢].

والمهاجرة: الخروج من دار الكفر إلى دار الإيمان كمن هاجر من مكة إلى المدينة[٣].

المفتاح الحادي والعشرون: الإنفاق في سبيل الله:

قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ [سبأ: ٣٩].

قال الإمامُ ابْنُ عاشور - رحمه الله - في تفسيره لهذه الآية:

«والمراد بالإنفاق: الإنفاق المرغب فيه في الدين كالإنفاق على الفقراء والإنفاق في سبيل الله لنصر الدّين» ا.هـ[٤].

---

(١) أي يجد مكانًا يُرْغَم فيه من أَرْغَمه، أي يغلب فيه قومه باستقلاله عنهم كما أرغموه بإكراهه على الخروج والكفر.

(٢) «تفسير السّعدي» (١٩٦).

(٣) وللمزيد: راجع الحديث عن «الهجرة» في هذا الكتاب.

(٤) «تفسير التحرير والتنوير» (٢٢/٢٢١).

والآيات في هذا المعنى كثيرة.

أخي المسلم:

هذه بعض المفاتيح التي جعلها الله - تعالى - أسبابًا لاستدرار الرّزق، فعضّ عليها بالنواجذ، واعلم أن أحبّ عباد الله إلى الله: «**الغَنِيّ، التَّقِيّ، الخَفِيّ**».

«اللّهم اكْفِنا بِحَلالِك عن حَرَامك، واَغْنِنا بِفَضْلِكَ عَمَّن سواك».



٣٧- طَلَبُ الْحَلال

اعلم - أخي المسلم - أن أكل الحرام، يترتب عليه عِدّة أضْرار وأخطار، منها:

(١) متابعة الشيطان:

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَـٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [البقرة: ١٦٨].

قال العلاَّمة/ **عبد الرحمن بن ناصر السّعدي** - رحمه الله - في تفسيره لهذه الآية:

«قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَـٰلًا ﴾ أي: مُحلّلاً لكم تناوله، ليس بغصب ولا سرقة، ولا محصلاً بمعاملة محرَّمة أو على وجه محرَّم، أو معينًا على محرّم. ﴿ طَيِّبًا ﴾ أي: ليس بخبيث كالميتة والدّم ولحم الخنزير، والخبائث كلها، ففي هذه الآية دليل على أن الأصل في الأعيان الإباحة، أكلاً وانتفاعًا، وأن الْمحَرّم **نوعان:**

إمّا مُحَرَّم لذاته، وهو الخبيث الذي هو ضد الطّيب. **وإمّا محرّم لما عرض له،** وهو المحرّم لتعلّق حَقّ الله، أو حق عباده به، وهو ضِدّ الْحَلال.

وفيه دليل على أن الأكل بِقَدْر ما يقيم الْبِنْيَة واجب، يأثم تاركه لظاهر الأمر. ولّما أمرهم باتباع ما أمَرهم به - إذ هو عين صلاحهم- نهاهم عن اتباع ﴿ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ ﴾ أي: طرقه التي يأمر بها، وهي جميع المعاصي من كفر وفسوق وظلم، ويدخل في ذلك تحريم السّوائب والحام، ونحو ذلك، ويدخل فيه - أيضًا - تناول المأكولات المحرّمة، ﴿ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ أي: ظاهر العداوة، فلا يريد بأمركم إلاّ غشكم، وأن تكونوا من أصحاب السعير»ا.هـ[١].

(٢) عَدَم قبول الدعاء:

وهذا خطر آخر يسببه أكل الحرام:

(١) «تفسير السّعدي» (٨٠).

□ عن أبي هريرة ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«**إنّ الله طَيِّبٌ لا يَقْبَلُ إلاّ طَيِّبًا، وإنّ الله أَمَرَ المؤمنين بما أَمَر به الْمُرْسَلِين، فقال:** ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾[المؤمنون: ٥١]. **وقال** ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ﴾ [البقرة: ١٧٢]. **ثم ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَر أَشْعَثَ أَغْبَر يَمُدُّ يَدَيْه إلى السّماء يا رَبِّ، يَا رَبّ، وَمَطعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِّي بالْحَرام، فأنّى[1]يُسْتَجابُ لِذَلك؟!**» [2].

قال الحافظ ابْنُ رجب - رحمه الله - في شرحه لهذا الحديث:

«في هذا الحديث إشارة إلى أنه لا يقبل العمل ولا يزكو إلاّ بأكل الحلال، وإن أكل الحرام يفسد العمل ويمنع قبوله»ا.هـ[3].

□ **وقال أبو عبد الله الساجي** - الزّاهد - رحمه الله:

«خمس خصال بها تمام العمل: الإيمان بالله ﷻ، ومعرفة الحق، وإخلاص العمل لله، والعمل على السُّنة، وأكل الحلال، فإذا فقدت واحدة لم يرتفع العمل، وذلك إذا عرفت الله ﷻ ولم تعرف الحق لم تنتفع، وإذا عرفت الحق ولم تعرف الله لم تنتفع، وإن عرفت الله وعرفت الحق ولم تخلص العمل لم تنتفع، وإن عرفت الله وعرفت الحق وأخلصت العمل ولم يكن على السُّنّة لم تنتفع، وإن تمت الأربع ولم يكن الأكل من حلال لم تنتفع»ا.هـ[4].

□ **وقال وهَيْب بن الْوَرْد** - رحمه الله -:

«لو قُمْتَ مقامَ هذه السّارية[5] لم ينفعْكَ شيءٌ حتى تَنْظر ما يدخل في بطنك حَلال

---

(١) فأنى: فكيف.

(٢) رواه مسلم (١٠١٥/ ٦٥).

(٣) «جامع العلوم والحكم» (١٠٩).

(٤) نفس المرجع السابق (١١٠).

(٥) يعني في العبادة. والسّارية: العمود.

أو حرام»ا.هـ[١].

(٣) أن الصّدقة بالمال الحرام لا تُقْبل:

- فعن أبي هريرة ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«**مَنْ كَسَب مالاً حَرَامًا فَتَصدّق به لم يكن له فيه أَجْرٌ، وكان إصْرُه[٢] عليه**» [٣].

- وروى عن أبي الدرداء ويزيد بن ميسرة أهما جعلاً مَثَل مَنْ أصاب مالاً من غير حِلّه فتصدّق به مثل من أخذ مال يتيم وكَسَابه أرملة!!

- وسُئل ابن عباس - رضي الله عنهما - عمَّن كان على عمل فكان يظلم ويأخذ الحرام ثم تاب فهو يحج ويعتق ويتصدق منه، فقال:

«إن الخبيث لا يُكفّر الخبيث».

- **وقال الحسن:** «أيّها المتَصَدّق على المسكين تَرْحَمه، ارْحَم مَنْ قَدْ ظَلَمْتَ».

قال الحافظ ابن رجب - رحمه الله - ما مختصره:

«واعلم أن الصدّقة بالمال الحرام تقع على وجهين:

أحدهما: أن يتصدّق به الخائن أو الغاصب ونحوهما على نفسه فهذا لا يتقبل منه: يعني أنه لا يؤجر عليه، بل يأثم بتصرّفه في مال غيره بغير إذنه، ولا يحصل للمالك بذلك أجر لعدم قصده ونيته، كذا قاله جماعة من العلماء منهم ابن عقيل.

الوجه الثاني: أن يتصدّق به عن صاحبه إذا عَجَزَ عَنْ رَدِّه إليه وإلى ورثته، فهذا جائز عند أكثر العلماء: منهم مالك وأبو حنيفة وأحمد وغيرهم»ا.هـ[٤].

---

(١) نفس المرجع (١١١).

(٢) الإصر: العبء الثقيل.

(٣) **صحيح:** أخرجه ابن حبان (٣٣٥٦ - إحسان).

(٤) «جامع العلوم والحكم» (١١١- ١١٣) باختصار شديد.

(٤) قعود الأعضاء عن العبادة:

فالأعضاء إذا غُذّيت بالحرام، تمردت على طاعة الله تعالى.

قال إبراهيم بن أدهم - رحمه الله - :

«رأيت عابدًا يقوم إلى الصلاة بثقل، فنظرتُ فإذا هو من عدم صفاء مأكله، ولو أنه أكل حلالاً لم يحصل له ثقل» ا.هـ[1].

(٥) الابتلاء بالوسواس:

قال الشيخ/ عبد الوهاب الشّعْراني: «حصول أصل الوسوسة إنما هو من ظُلْمة القلب، وظلمة القلب من ظلمة الأعمال، وظُلْمة الأعمال من أكل الحرام، والشبهات، فمن أَحْكَم أكل الحلال فليس لإبليس عليه سبيل مُطلقًا» ا.هـ[2].

(٦) سوء الخاتمة:

- **قال مالك بن دينار** - رحمه الله تعالى - :

«دخلتُ على جَارٍ لي، وقد نزل به الموتُ، وهو يقول: جَبَلَيْن مِنْ نَار، جَبَلَيْن مِنْ نار!!» ، قلتُ ما تقول؟ قال: يا أبا يحيى، كان لي مكيالان أَكِيل بأحدِهما وأكْتَال بالآخر.

قال مالك: فقمتُ، فجعلتُ أَضْرب أَحَدهما بالآخر، فقال:

يا أبا يحيى، كُلَّما ضَرَبْتَ أحَدَهما بالآخر ازداد الأمْرُ عِظَمًا وشِدَّة، فمات في مرضه!» [3].

هذا ثمرة أكل الحرام.

---

(١) «تنبيه المغترين» (١٤٥).

(٢) نفس المرجع السابق (٢١٤).

(٣) «الكبائر» للذهبي (٢٦٣).

(٧) **الإضْلالُ عَنِ الحُجَّة في القبر:**

قال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

قال الإمام القرطبيّ – رحمه الله – في تفسيره لهذه الآية:

«قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ قال ابن عباس: هو لا إله إلا الله.

وروى النسائي[١] عن البراء قال: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ نزلت في عذاب القبر؛ يقال: من ربك؟ فيقول: ربي الله، وديني دين محمّد، فذلك قوله: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾.

﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ أي: عن حجّتهم في قبورهم كما ضلّوا في الدنيا بكفرهم[٢] فلا يُلقّنهم كلمة الحق، فإذا سئلوا في قبورهم قالوا: لا ندري. ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ من عذاب قوم وإضلال قوم»ا.هـ[٣].

(٨) **عذابُ النّار:**

فعن كعب بن عُجْرة ﷺ قال:

قال لي رسولُ الله ﷺ:

«يا كعبُ بْن عُجْرة إنّه لا يَرْبو[٤] لَحْمٌ نَبتَ من سُحْتٍ[٥] إلا كانت النّارُ أَوْلَى بِهِ» [٦].

---

(١) **إسناده صحيح**: رواه النسائي (٤/١٠١)، وقد صحّ مرفوعًا أيضًا.

(٢) ثبت في أحاديث أخرى إضلال الفجّار والمنافقين أيضًا.

(٣) «تفسير القرطبي» (٩/٣١٥، ٣١٦) باختصار.

(٤) **يربو**: ينمو ويزيد.

(٥) **السّحت**: الحرام، وقيل: المكسب الخبيث.

(٦) **صحيح**: رواه الترمذي (٦١٤)، وصحّحه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

أخي المسلم:

هذه بعض الآثار والأضرار المترتبة على تناول الحرام فكن منها على حذر، واعلم أن رزقك سيأتيك لن يمنعه حِرْصُ حَرِيصٍ، ولا كُرْهُ كاره.

وكان بعض السّلف يتعجب من أكل الناس للحرام ويقول:

«ابن آدم، إنما بَطْنُك شِبْر في شِبرٍ فَلِمَ تُدْخلك النّار!».

فكن حارسًا - أخي المسلم - على فمك، يقظًا في تعامُلك، مُراقبًا لِرَبِّك، متذكّرًا لوقوفك غدًا بين يديه:

ولله دَرُّ القائلِ:

المــــالُ يَذْهَـــبُ حلُّـــهُ وَحَـــرامُهُ يَوْمًـــا وَتَـــبْقى في غَـــد آثَامُـــهُ

لَـــيْس الـــتَّقِيُّ بِمُـــتَّقٍ لإلَهِـــهِ حَـــتّى يَطِيـــبَ شَـــرَابُهُ وطَعَامُـــهُ

وَيَطِيـــبَ مـــا يَحْـــوِي ويَكْســـبُ كَفُّهُ ويكـــونَ في حُسْـــنِ الحديـــثِ كلاَمُـــهُ

نَطَـــقَ الـــنَّبيُّ لـــنا بِـــهِ عَـــنْ رَبِّـــهِ فَعَلَـــى الـــنَّبِيِّ صَـــلاتُه وَسَـــلامُهُ

▫ خوف الصالحين من الحرام:

علم الصالحون ضرر الحرام، فجعلوا بينهم وبينه سدًّا من حديد، وإليك بعض أقوالهم وأحوالهم:

(١) أبو بكر وطعام الكهانة:

عن عائشة - رضي الله عنهما - قالت:

«كان لأبي بكر الصّديق ﷺ غلامٌ يُخْرِجُ له الخَرَاج[١]، وكان أبو بكر يأكلُ من خَرَاجه، فجاء يَوْمًا بشيءٍ فأكَلَ مِنْه أبو بكر، فقال له الغلامُ:

أتدري ما هذا؟

---

(١) الخراج: شيء يفرضه المالك عل عبده يُؤدِّيه إليه كُلَّ يوم مِمّا يكتسبه، وباقي كَسْبه يأخذه لنفسه.

فقال أبو بكر: وما هو؟

قال: كنتُ تكهَّنْت لإنسان[١] في الجاهلية، وما أُحْسِنُ الكَهَانة إلاّ أنّي خَدَعْتُهُ، فَلَقِيَنِي فَأَعْطاني لذلك هذا الذي أَكَلْتَ منه! فَأَدْخَل أبو بكر يَدَه فَقَاءَ كُلَّ شيءٍ في بَطْنِه »[٢].

(٢) كرامة للحارث المحاسبيّ:

قال أبو علي الدّقّاق - رحمه الله - :

« كان الحارث المحاسبيّ إذا مَدّ يَدَه إلى طعام فيه شُبهة تَحَرّك على إصْبعه عِرْقٌ فكان يَمْتنع منه! »[٣].

(٣) ورع والد الإمام البخاري:

عن أحمد بن حفص، قال:

دخلتُ على أبي الحسن - يعني: إسماعيل والد الإمام محمد بن إسماعيل البخاري - عند موته، فقال:

« لا أعلمُ من مالي دِرْهَمًا مِنْ حَرَام، ولا دِرْهَمًا من شُبْهة! ».

قال أحمد: فَتَصَاغَرتْ إليَّ نَفْسي عند ذلك[٤].

قلت: وصلاح الآباء ينفع الأبناء كما قال تعالى:

﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَـٰلِحًا ﴾ [الكهف: ٨٢].

(٤) مجمع بن سمعان : « أمانة فوق الخيال »:

قال **الإمام ابن الجوزي** - رحمه الله - :

---

(١) **الكهانة**: ادّعاء علم الغيب، وقد ثبت في « الصحيحين » نهي النبيّ ﷺ عن حُلْوانِ الكاهن، وحلوان الكاهن: ما يتقاضاه مقابل تكَهّنه.

(٢) رواه البخاري.

(٣) « الرسالة القشيرية » (٤٢٩).

(٤) « سير أعلام النبلاء » (١٢/٤٤٧).

«جاء مجمع بن سمعان إلى السّوق بشاة يبيعها، فقال: - لمن أراد شراءها - : يُخيِّل إليَّ أن في لَبَنها مُلوحة!!» (١).

قارن - أخي المسلم - بين تعامل السّلف، وبين تعاملنا، واسكب على أحوالنا العَبَرات.

(٥) يونس بن عبيد: «أنموذج للضّمير الحيّ»:

قال **الإمام ابن الجوزي** - رحمه الله - :

«كان يونس بن عبيد خزازًا، فجاء رجل يطلب ثوبًا، فقال لغلامه: انشر الرزمة، وضرب بيده الرزمة، وقال: صلى اللّهُ على مُحَمّد، فقال: ارْفعه، وأبى أن يبيعه مخافة أن يكون مَدَحه!!» (٢).

ما هذه الضّمائر يا رجال؟!

وأين هذه الأخلاق في دنيا الناس اليوم؟!

كم من أيمان مُغَلّظة تَصْدُر من تجّار «اليوم» ، تُرَوِّج لبضاعاتٍ فاسدة!

ولا أدْري متى سَيُنادِي المنادي مُعْلنًا عن وفاة الضّمير الإنساني!

ثمراتُ أكْلِ الْحَلالِ

وإذا كان أكل الحرام يترتب عليه ما سَبَق ذِكْرُه فأكل الحلال يترتب عليه ثمرات مباركة، منها:

(١) دخولُ الجَنّة:

- عن أبي سعيد الخدْريّ ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ :

---

(١) «المنتظم» (١٩٨/٧).

(٢) «المنتظم» (٢٥/٨). والخزاز: هو الذي يبيع الخزّ.

«مَنْ أكَل طَيِّبًا، وَعَمِل في سُنَّةٍ، وَأَمِنَ النّاسُ بوائِقَه، دَخَل الجنّة».

قالوا: يا رسول الله، إنّ هذا في أُمَّتك الْيَوْم كثيرٌ؟

قال: **«وسيكونُ في قُرون بَعْدي»** (١).

- وعن عبد الله بن عمرو؛ أن رسول الله ﷺ قال:

«أرْبَعٌ إذا كنّ فيك فلا عَلَيك ما فَاتَك من الدنيا: حِفْظُ أَمَانةٍ، وصدقُ حديثٍ، وَحُسْنُ خَلِيقَةٍ، وعِفّةٌ في طُعْمَة» (٢).

(٢) الاستشفاء به من الأمراض!:

قال يونس بن عبيد - رحمه الله - :

«ما ثَمّ اليوم أقَلّ من درْهم طَيِّب، ولو وجدناه لاسْتَشْفَينا به مَرْضانا» (٣).

قلت: قال هذا في زَمَنه، فكيف لو رأى حَالَ أَهْلِ زماننا؟!

(٣) إطلاق البصيرة:

- قال **شاه الكرماني** - رحمه الله - :

«من غضّ بصره عن المحارم، وأمسك نفسه عن الشهوات، وعمّر باطنه بدوام المراقبة، وظاهره باتّباع السُّنّة، وعَوَّد نَفْسَه أَكْلَ الحلال، لم تُخْطئ له فِراسة» (٤).

قالوا: وكان شاه لا تخطئ له فراسة!

- **وقال سفيانُ بْنُ عُيَينة**(٥) - رحمه الله - :

---

(١) رواه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح غريب، والحاكم، وقال: صحيح الإسناد، «الترغيب» (٢٤٨٠).

(٢) صحيح: رواه أحمد والطبراني، وحسنه المنذريّ، وصحّحه الألباني. انظر: «صحيح الجامع» (٨٧٣).

(٣) «تنبيه المغترين» (١٤٤).

(٤) «الرسالة القشيرية» (٤٢٨).

(٥) مُحدّث الحرم المكي، قال الشافعيّ: «لولا مالك وسفيان لَذَهَب عِلْمُ الحِجَاز».

«كنتُ أقرأ الآية فيفتح لي فيها سبعون بابًا من العلم، فلمّا أكلتُ مال هؤلاء الأُمراء صرتُ أقرأ الآية فلا يفتح لي فيها بابٌ واحد!!».

فالحرام من القوت نارٌ تذيب شَحْمة الفكر، وتُذْهب لذّة حلاوة الذِّكْر، وتحرق ثياب إخلاص النيّة، ومن الحرام يتولّد عَمَى البصيرة وظلام السّريرة[1].

نسأل الله - تعالى - السّلامة من كلّ إثم.

(٤) صيانة النّعمة:

قال بعض السّلف: «الحَجَرُ المغصوب في البناء أساس الخراب!».

موعظة:

قال الإمام ابن الجوزيّ - رحمه الله تعالى - :

«كان لَبَّانٌ يَخْلط اللّبن بالْمَاء، فجاء سَيْلٌ فَأَهْلَك الغَنَم، فَجَعَل يَبكي ويقول: اجتمعتْ تلك القَطرات[2] فَصَارت سَيْلاً! ولسان الجزاء يناديه: يداك أَوْكَتا[3] وَفُوك نَفَخ» ا.هـ[4].

(٥) استجابة الدعاء:

قال أبو حفص: «أَحْسَنُ ما يتوسّل به العبدُ إلى مَوْلاه: الافْتِقارُ إليه، وملازمةُ السُّنّة، وطَلَبُ القُوت مِنْ حِلّه».

فاحرص - أخي المسلم - على طلب الحلال، واستعن بالله ولا تعجز، وارفع يديك لمولاك، وقل:

«اللّهم اكْفِنا بِحَلالِك عَنْ حَرَامك، واغْننا بِفَضْلِك عَمّن سواك».

«اللّهم اغننا بالافْتِقَار إليك، ولا تُفْقِرْنا بالاسْتِغناء عنك».

---

(١) «بحر الدموع» لابن الجوزي (١٨٠).

(٢) أي: التي خلط بها اللبن.

(٣) الْوَكْت: الأثر اليسير في الشيء كالنقطة.

(٤) «اللطائف في الوعظ» لابن الجوزي (٣٩).

٣٨- العِفَّة

العِفّة: شعارُ الصّالحين، وتاجُ المتقين، وحِلْيَةُ العارفين...

والمجتمع الذي يتحلّى أبناؤه بهذا الْخُلُق الكريم، مجتمعٌ مُحْتَرَم، له كَلِمته، وَمَهابته. يرفض الخضوع لغير الله، ويأبى أن يعيش على هامش الحياة.

ولأهمية هذا الخلق، فحديثنا - هنا - يدور حول **أربعة أمور**:

الأول: تعريفُ العِفّة.

والثاني: مظاهرها.

والثالث: ثمارها.

والرابع: لقطاتٌ مِنْ حياة أهل العِفّة.

والله الموفّق، لا إله غيره، ولا ربّ سواه.

أولاً: تعريف العِفّة:

العِفّة: «**لُغَةً**»: مَصْدرُ قَوْلِهم عَفَّ عن الشيء يَعِفُّ عِفَّة، وهذا مأخوذ من مادة (ع ف ف) التي تدلّ على «الكَفّ عَنِ القبيح».

وقال ابْنُ منظور: العِفَّةُ: الكَفُّ عَمّا لا يَحِلُّ وَيَجْمُلُ، والعِفَّةُ أيضًا: النزاهَةُ.

و «**اصْطِلاحًا**» **قال الراغبُ**: العِفّة: حصولُ حالة للنفس تمتنع بها عن غلبة الشّهْوة، والْمُتَعَفِّفُ هو الْمُتَعاطِي لذلك بِضَرْبٍ من الْمُمَارسَةِ والْقَهْرِ[١].

ثانيًا: مَظَاهِرُ العِفّة:

للعِفّة مظاهر كثيرة، منها:

---

(١) «المفردات» (٣٣٩).

(١) عِفَّةُ الْفَرْج:

والمقصود: صيانته عمًّا لا يَحِلّ.

- قال تعالى - في وصف المؤمنين - :

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾ [المؤمنون: ٥، ٦].

- وقال تعالى:

﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ [النور: ٣٣].

وعِفَّةُ الْفَرْجِ إنما تتحقق بالبعد عن دواعي الزّنا وأسبابه، ومن هذه الدّواعي والأسباب:

أ - إطلاق البصر:

فالنظرة سهم مسموم من سهام إبليس، وهي كما يقول بعضُ السّلف: «بَرِيدُ الزنا» ؛ لذا أمر اللّهُ - تعالى - بغضّه:

قال تعالى: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾ [النور: ٣٠، ٣١].

ب- مصافَحَة المرأة الأجنبية:

ولا يَخْفى ما تُحْدثه هذه المصافحة في النفس من أماني، وما تُلْقي فيها من وسواس.

عن أبي هريرة ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«كُتِبَ على ابْنِ آدمَ نَصِيبُهُ من الزّنا، مُدْرِكٌ ذلك لا مَحَالَةَ؛ فالْعَيْنانِ زِناهما النَّظرُ، والأُذُنان زِنَاهُما الاسْتِمَاعُ، واللّسَانُ زِنَاهُ الكَلاَمُ، والْيَدُ زِناها الْبَطْشُ، والرِّجْلُ زِنَاهَا الخُطَا،

والقَلْبُ يَهْوَى وَيَتَمَنَّى، وَيُصَدِّق ذَلك الْفَرْجُ أو يُكَذِّبُهُ» [(١)].

قال الإمام النووي - رحمه الله تعالى - :

«معنى الحديث: أن ابن آدم قُدِّر عليه نصيب من الزّنا، فمنهم من يكون زناه حقيقيًا بإدخال الفرج في الفرج الحرام، ومنهم من يكون زناه مجازًا بالنظر الحرام أو الاستماع إلى الزّنا وما يتعلق بتحصيله، أو بالمس باليد بأن يمس أجنبية بيده، أو يقبلها، أو بالمشي بالرجل إلى الزنا، أو النظر، أو اللّمس، أو الحديث الحرام مع أجنبية، ونحو ذلك، أو بالفكر بالقلب. فكل هذه أنواع من الزّنا المجازي.

«والْفَرْجُ يُصَدّق ذلك أَوْ يُكَذِّبه». معناه أنه قد يُحَقَّق الزّنا بالفرج، وقد لا يحققه بأن لا يولج الْفَرْج في الْفَرْج، وإن قَارَب ذلك. والله أعلم»ا.هـ[(٢)].

جـ- الخلوة بالأجنبية:

وقد ورد النَّهْيُ عنها في أحاديث كثيرة، منها:

عن عامر بن ربيعة ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ :

«ألا لا يَخْلُوَنّ رَجُلٌ بامْرأةٍ إلا كان ثَالِثُهما الشَّيْطان» [(٣)].

وكم جَرّ علينا «التّسَيُّبُ» من عار.

ولِله دَرُّ القائل:

لا يَأْمن على النّساءِ أَخٌ أخًا ... ما في الرِّجالِ عَلى النِّساء أَمِينُ
إن الأمينَ وإن تَعَفَّف جُهْدَه ... لابُدّ أن بِنَظْرة سَيخونُ

---

(١) رواه مسلم (٢٦٥٧). وفي رواية له: **«والفرج يُصَدِّق ذلك أو يُكَذّبه**

(٢) «صحيح مسلم بشرح النووي» (١٥٧/١٦).

(٣) رواه أحمد، والحاكم، وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبيّ.

د- التّبرج:

والتبرّج: معناه الظهور، ويراد هنا: إظهارُ المرأة من بدنها ما يجب إخفاؤه.

قال تعالى: ﴿ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ [الأحزاب: ٣٣].

ولا يخفى أن في ظهور المرأة للأجانب وهي كاشفة عن شعرها، ونحرها، وذراعيها، وساقيها، تتمايل ذات اليمين وذات الشمال، دون حياء ولا خجل، لا يخفى أن في ذلك دعوة صريحة للزّنا، إنها تُعلن عن نفسها، قَصَدت أو لم تقصد!

ولا أدري أين ذهبت نخوةُ الرجال؟!!

وقديمًا قالوا: «إذا رَضِيَ الرّاعي بفعل الذّئب، لم يَنْبحْ الكلبُ على الغريب!».

هـ- الاختلاط المحرّم:

قال فضيلة الشيخ/ بكر بن عبد الله أبو زيد - حفظه الله - :

«إن العفّة حجاب يمزقه الاختلاط، ولهذا صار طريق الإسلام التفريق والمباعدة بين المرأة والرجل الأجنبيّ عنها، فالمجتمع الإسلامي، مجتمع فردي لا زوجي، فللرجال مجتمعاتهم، وللنساء مجتمعاتهن، ولا تخرج المرأة إلى مجتمع الرجال إلاّ لضرورة أو حاجة بضوابط الخروج الشرعية.

كل هذا لحفظ الأعراض، والأنساب، وحراسة الفضائل، والبعد عن الرِّيب، والرذائل، وعدم إشغال المرأة عن وظائفها الأساسية في بيتها؛ لذا حُرِّم الاختلاط، سواء في التعليم أم العمل، والمؤتمرات، والندوات، والاجتماعات العامة، والخاصة، وغيرها؛ لما يترتب عليه من هتك الأعراض، ومرض القلوب، وخطرات النفوس، وخنوثة الرجال، واسترجال النساء، وزوال الحياء، وتقلّص العفّة والحشمة، وانعدام الغيرة» ا.هـ[1].

قلت: وأدلة تحريم الاختلاط كثيرة، منها:

---

(١) «حراسة الفضيلة» (٩٧).

عن أبي أُسيد مالك بن ربيعة ﷺ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول وهو خارج من المسجد، وقد اختلط الرجالُ مع النساء في الطريق:

« **اسْتَأخِرْنَ، فَلَيْس لَكُنّ أن تَحْقُقْنَ الطّريق**[١] **عليكن بحَافّات الطَّريق** » فكانت المرأة تَلْصَق بالجِدَار، حتى إنّ ثَوْبَها لَيَتَعَلّق بالجِدَار من لصُوقها به. [٢]

ولا يخفى أن أعداء الإسلام - منذ زمن طويل- استهدفوا معاقل « العفّة » عندنا، وعقدوا لضربها مؤامرات ومخططات ومؤتمرات، سِرّية وعلنيّة، واستطاعوا - مؤخّرًا - فَلّ حاجزها!، وإلى الله المشتكى.

يقول الشيخ/ محمد الغزالي - رحمه الله - ما مختصره:

« إن احتلال الغرب لبلادنا عسكريًا أعقب نتائج بعيدة المدى في أخلاقنا الخاصّة وعلاُقتنا العامّة.

ويحزنني أن أعترف بأن الأجيال الجديدة تنبت في مغارس رديئة وبيئات ملوّثة، وأن الفضائل الشخصية والجنسية تذوب في حرارة الإثم الزّاحف كما تذوب كتل الجليد فوق ألسنَة اللّهب...

كنا ونحن يافعون نعتقد أن النّظر إلى مفاتن امرأة، سيئة تُسطّر في صحائف الإنسان وتدع في فؤاده نكتة سوداء.

ونعتقد أن الاتصال الحرام يُسمّى « زنا » وأن الفحش الكامن فيه لا يقل عن الفحش الكامن في جرائم القتل والشّرك وما إليهما.

وكان وازع الإيمان يصون المجتمع من مزالق الفتنة ولا يدع المنكر يظهر إلاّ شذوذًا يتوجّس منه صاحِبُه وتَهْتَزُّ له ضَمَائرُ الناس.

أمّا اليوم فإن النسوة المتبرجات في الطرق يأخذن على المرء كل وجهة.

---

(١) تَحْقُقْن: أي: تذهبن في حَاق الطريق، وهو الْوَسَط.

(٢) صحيح: رواه أبو داود، وغيره.

فإمّا أن يسير مُغمّضًا، وإما أن يفتح عينيه مُكْرَهًا على العورات المفضحة قد صُبّت في قوالب تَسْتَفِزّ الشهوات استفزازًا.

وإلى جانب هذا السّيل القذر تسهم دور اللهو وأصوات الغناء في تأجيج الشّر وإيقاظ الأهواء، وتيسير الفجور، وتسمية السّعار الحيواني المتمرّد حبًّا شريفًا أو غير شريف، ثم نعتذر عن هذا السقوط المتتابع بأنه نداء الطبيعة.

إن الغزو الخلقي المقارن للاستعمار الغربي بدأ يؤتي ثماره الْمُرَّة في تمزيق أُمَّتِنا وفَضّ تقاليدِها وإهلاكِ آدابِها.

والأمراض النفسية التي تصحب هذا التحلّل أسرع فتكًا بنا من الغربيين أنفسهم فإن انتشار الشهوات في الغرب جاء بعد ازدهار الحضارة والمعرفة، وبعد أن نال الفرد حظوظًا كبيرة من الفهم لمصلحته ومصلحة أُمّته.

فهم يقبلون على العمل وعلى اللّهو معًا.

ويبنون المصنع الفذّ والمسرح العابث، ويقسمون أوقاتهم على هذا وذاك بحكمة أو نزق...

أما نحن فقد اندفعنا إلى تقليد الغرب في ناحيته الماجنة قبل ناحيته الجادة. فلمّا سرت في بلادنا جراثيم الفسق لم تجد مناعةِ تكسر ضراوتها، فكان هذا الفساد العريض.

منذِ أيام شغلتنا إحدى الصّحف بقصّة مُدرّسة اختفت أيامًا مع عشيقها، ثم ظهرت لتجد صورتها مطبوعة يراها أهل الأرض، فلا يطالعون في ملامحها ولا في النبأ المثير الذي كُتب معها إلاّ شيئًا تعوّدوه فتركوه يَمُرّ بلا نكير.

هل فكّر أحد في المطالبة بطردها من ميدان التدريس أم ستشترك مع مثيلاتها من النّسوة العابثات والرجال الفاسدين لقيادة البلاد إلى الخراب والفوضى؟

ثم أين الأتقياء العاطفون على دينهم الْحُرّاص على اسْتِنقاذه مِمّا عَرَاه؟

أما لهم من جهد يوقفون به هذا السّيل قبل أن يتحوّل طَوفَانًا مُدَمّرًا؟

أما يتجمّعون لمدارسة الوسائل التي تحدّ من خَطَرِه وتخفّف مِنْ وَيْله؟

إن النكبة عندي لا تتمثّل في وقوع هذه الفواحش قَدْر ما تتمثّل في بَلاَدَةِ الشّعور بها، وقلّة الاكتراث بمحاربتها.

إن مستقبل الإسلام يفرض على حرّاس الشرف والعفاف أن يتيقظوا للنّوازل السُّود التي دَهَمتنا فَعَرَّضَتْ أعْرَاضَنا للذّئابِ والكلاب» ا.هـ[1].

(٢) عِفَّةُ الْبَطْنِ:

والمراد: صيانتها عن أكل الحرام والشبهات.

□ قال تعالى: ﴿ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ [النساء: ٦].

وقد ورد هذا النصّ في مقام الحديث عن اليتيم ورعاية ماله.

هذا، والنصوص الحاضّة على عفّة البطن، كثيرة، منها:

أ- عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:

«عُرِضَ عَليَّ أوّلُ ثلاثةٍ يَدْخُلون الجنّة: شَهِيدٌ، وَعَفِيفٌ متعفّف، وَعَبْدٌ أَحْسَنَ عبادةَ الله، ونَصَحَ مَوَالِيه» [2].

ب- وعن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال:

«قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ، وَرُزِقَ كَفَافًا، وَقَنَّعَه اللّهُ بِمَا آتَاه» [3].

وقد ذكرنا في صفة «طلب الحلال» مزيدًا من الأدلة، فراجعها إن شئت.

---

(١) «من معالم الحق» (١٥٥- ١٥٧) باختصار.

(٢) حسن: رواه الترمذي (١٦٤٢)، وقال: حديث حسن، وقال الشيخ/ شاكر: إسناده حسن.

(٣) رواه مسلم (١٠٥٤).

فيا أخا الإسلام:

علـيك بـتقوى اللّـهِ واقْـنَعْ برزقِه فَخَـيْرُ عـباد الله مـن هـو قَـانِع
ولا تـلهك الدنـيا ولا تطمـع بهـا فقـد يهلـك المغـرور فـيها المطـامع
وصَـبْرًا على مَا نَابَ منها فما يَسْتوي عَـبْدٌ صـبور وجـازع
أَعَـاذِل مـا يغـني الـثّراءُ عن الفتَى إذا حَشْـرَجَتْ في الـنَفْس مِنْه الأَضَالع

(٢) عِفّةُ النَّفس عن سؤال الناس:

وقد ورد فيها أحاديث كثيرة، منها:

أ- عن أبي هريرة ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

- « ليس المسكينُ الّذي تَرُدُّهُ التَّمْرَةُ والتَّمْرَتَان، ولا اللُّقْمَةُ ولا اللُّقْمَتَان، إنّما المسكينُ الذي يَتَعفَّفُ. اقْرَءوا إن شئتم - يعني قوله تعالى - ﴿ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ﴾ [البقرة: ٢٧٣] »(١).

ب- وعنه ﷺ قال:

سمعتُ رسول الله ﷺ يقول:

« لأَنْ يَغْدُو أَحَدُكُم فَيحْطِبُ على ظَهْرِهِ فَيَتَصَدَّقَ به، وَيَسْتَغْنِي به مِنَ النّاس خَيْرٌ له مِنْ أَنْ يَسْأَلَ رَجُلاً أَعْطَاهُ أَوْ مَنَعه، ذلك، فإن اليدَ العُلْيا أفضلُ من اليد السُّفْلَى، وَابْدأْ بِمَنْ تَعُول »(٢).

وقد ذكرنا في صفة « التعفّف عن المسألة » المزيد من الأحاديث فانظرها.

وقد كان الصّالحون من أشدّ الناس تَعففًا عن المسألة، حتى أنشد بعضهم:

(١) رواه البخاري (٤٥٣٩)، ومسلم (١٠٣٩).
(٢) رواه مسلم (١٠٤٢).

أُقْسِم بالله لَرَضْخ النَّوى	وَشُرْبَ ماء الْبَحْر المالحة
أعَزّ للإنسان مِنْ حِرْصِه	وَمِنْ سؤالِ الأوْجه الكَالحة
فاستشعر اليأس تكن ذا غِني	متغبّطًا بالصّفْقة الرّابحة
فالزّهد عِزٌّ والتقوى سُؤدد	ورغبة النّفس لها فاضِحة
من كان الدّنيا به بَرّة	فإنّها يَوْمًا له ذَابِحة

حكاية:

قال موسى بن طريف: «رَكِبَ إبْراهيمُ بْنُ أَدْهم - رحمه الله - البحرَ فأخذهم ريحٌ عاصِف فأشرفوا على الهَلَكَة فَلَفَّ إبراهيمُ رأسه في عباءة ونام، فقالوا له:

ما ترى ما نحن فيه من الشِّدة؟!

فقال: ليس ذَا شدّة.

قالوا: ما الشّدة؟

قال: الحاجة إلى الناس. ثم قال:

«اللّهم أَرَيْتنا قُدْرَتَك فَأَرِنَا عَفْوَك».

فَصَار الْبَحَرُ كأنه قَدَح زَيْتٍ!» [(١)].

ثالثًا: من ثمراتِ العِفّة:

اعلم - أخي الكريم - أن لِلعفّة ثَمَرات يَجْتَنيها العفيفُ في الدُّنْيا ويَوْمَ يقوم الأشهاد، منها:

(١) الاستظلال في ظلّ الله تعالى:

وهذا مقام كريم.

---

(١) «صفة الصفوة» (١٣٨/٤).

عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال:

« سبعةٌ يُظلّهم اللّهُ في ظلّه يَوْمَ لا ظلّ إلاّ ظلُّهُ: الإمام العادل، وشاب نشأ في عبادة الله ﷻ، وجلٌ قَلْبُه مُعَلّقٌ في المساجد، ورجلان تَحَابّا في الله اجْتمعا عليه وتَفرَّقا عليه، ورَجُلٌ دَعَتْهُ امرأةٌ ذاتُ مَنْصَبٍ وَجَمالٍ، فقال: إنّي أَخَافُ الله، وَرَجُلٌ تَصَدَّق بِصَدقة فأَخْفَاها حتى لا تعلمَ شِمالُهُ ما تُنْفِقُ يَمِينُه، ورجلٌ ذَكَرَ الله خاليًا ففاضتْ عَيْناه » [١].

(٢) الفوز بالجنة:

فعن عبادة بن الصامت ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

« اضْمَنُوا لي ستًّا من أَنْفُسِكم أَضْمَنْ لكم الجنّة:

اصْدُقُوا إذا حَدَّثْتُم، وَأَوْفُوا إذا وَعَدْتُمْ، وَأَدُّوا إذا ائْتُمِنْتُم، واْحفَظُوا فروجَكم، وَغُضُّوا أَبْصَارَكم، وَكُفُّوا أَيْدِيكُم » [٢].

(٣) مغفرة الذّنوب:

فعن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال:

سمعتُ رسولَ الله ﷺ يُحدّث حَديثًا لو لم أسْمَعْه إلا مَرّةً أو مَرَّتَيْن حتى عَدَّ سَبْعَ مرّات، ما حَدَّثْتُ به ولكن سمعتهُ أكْثَرَ من ذلك، سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول:

« كان الكِفْلُ مِنْ بَنِي إسْرائيلَ لا يَتورَّعُ مِنْ ذَنْبٍ عَمِلهُ، فَأَتَتْهُ امْرَأَةٌ فَأَعْطَاهَا ستِّين دِينارًا على أن يَطَأَها، فَلمَّا أَرَادَها على نفسِها ارْتَعدَتْ وبَكَتْ، فقال: ما يُبكيك؟ قالت: لأنّ هَذَا عَمَلٌ مَا عَمِلْتُهُ، وما حَمَلَني عليه إلاّ الحَاجَة. فقال: تَفْعَلِين أنْتِ هذا من مَخَافَة الله تَعالَى، فأنا أَحْرى، اذْهَبِي فَلَكِ ما أَعْطيْتُكِ، ووالله لا أَعْصيه بَعْدَها أبدًا، فماتَ من لَيْلَته، فَأَصْبَحَ

---

(١) رواه البخاري (١٤٢٣)، ومسلم (١٠٣١) واللفظ له.

(٢) حسن: رواه أحمد (٥/٣٢٣)، وغيره، وانظر: « صحيح الجامع » (١٠٢٩).

مكتوبًا على بابه: إن الله قد غَفَر لِلْكِفْل، فَعَجِب النّاسُ من ذلك» [١].

(٤) تفريج الكروب:

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ - رضي الله عنهما - قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يقول:

«انطلق ثلاثةُ نَفَرٍ مِمَّن كان قَبْلكم، حتى أواهم الْمَبيتُ، إلى غار فَدَخَلُوه، فانْحَدَرتْ صَخْرةٌ من الجَبَل فَسَدَّتْ عليهم الغَارَ؛ فقالوا: إنّه لا يُنْجِيكُم مِنْ هَذه الصَّخْرَةِ إلاّ أن تدعوا اللّه بِصَالِح أعْمَالِكم.

قال رجلٌ منهم: اللّهم كان لي أبوان، شَيْخَانِ كَبِيران، وكنتُ لا أَغْبِقُ [٢] قَبْلَهُما أَهْلاً ولا مَالاً. فَنَأى [٣] بي طَلَبُ الشَّجَر، فلم أَرُحْ [٤] عليهما حتى ناما، فَحَلَبْتُ لهما غَبُوقَهُما، فوجدتُهما نائِمَيْن، فكرهتُ أن أُوقظَهُما، وأَنْ أَغْبِقَ قَبْلَهما أَهْلاً أو مَالاً، فَلَبِثْتُ - والقَدَحُ على يَدَيَّ - أنتظرُ اسْتيقاظَهُما حتى بَرَق الفَجْرُ، والصِّبْيَةُ يَتَضَاغَوْن [٥] عند قَدميَّ، فاسْتَيْقَظا، فَشَرِبَا غَبُوقَهُما. اللَّهُمّ إن كنتُ فعلتُ ذلك ابْتغاء وَجْهِك، فَفَرِّجْ عَنّا ما نحن فيه مِنْ هَذه الصَّخْرةِ. فانْفَرجَتْ شَيْئًا لا يَسْتَطيعونَ الْخروجَ مِنْهُ.

قال الآخَرُ: اللَّهُمّ إنّه كانت لي ابنةُ عَمٍّ، كانت أحَبَّ النّاسِ إليَّ - وفي رواية - كنتُ أُحبُّها كأشد ما يُحبّ الرّجالُ النّساء، فأردتُها على نَفْسها فامْتَنَعَتْ منِّي حتى أَلَمَّتْ بها سَنَةٌ [٦] من السِّنِين، فجاءتْني فأعطَيْتُها عِشْرين ومائةَ دِينارٍ، على أن تُخَلِّي بيني وبين نَفْسِها فَفَعَلَتْ، حتى إذا قَدَرْتُ عليها - وفي رواية - فَلَمّا قَعدْتُ بَيْن رِجْلَيْها - قالت: اتّق الله،

(١) رواه الترمذي (٢٤٩٦)، وحسّنه، وأحمد (٢/٢٣)، وقال الشيخ/ أحمد شاكر: إسناده صحيح (٦/٣٣٤) برقم (٤٧٤٧)، والحاكم (٤/٢٥٤)، وقال: صحيح الإسناد و لم يخرجاه، ووافقه الذهبيّ.

(٢) أغبق: الغبوق: الشّرب آخر النهار.

(٣) نأى: بَعُد.

(٤) أرُحْ: أَرْجِع.

(٥) يتضاغون: يصيحون من شدّة الجوع.

(٦) ألمت بها سنة أي: نزل بها فاقة وفقر وحاجة.

ولا تَفُضَّ الخَاتَمَ إلاَّ بَحَقِّه[1]، فانْصَرفتُ عنها وهي أحَبُّ النّاس إليَّ، وتركْتُ الذَّهَبَ الّذي أعْطَيْتُها. اللَّهُمّ إن كُنْتُ فَعَلْتُ ذلك ابتغاءَ وَجْهِك، فافْرُجْ عَنّا ما نَحْنُ فِيه. فانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ غَيْر أنّهم لا يستطيعون الخُروج منها.

وقال الثّالثُ: اللهمّ اْستأجَرْتُ أُجَرَاءَ، وأعَطَيْتُهم أَجْرَهُمْ غَيْر رَجُلٍ وَاحِدٍ، تَرَكَ الّذي له وَذَهَبَ، فَثَمَّرْتُ أَجْرَهُ حتى كَثُرَتْ منْهُ الأمَوَالُ، فجاءَنِي بَعْد حِينٍ، فقال: يا عَبْدَ الله أَدِّ إليَّ أَجْرِي، فقلتُ: كُلُّ مَا تَرَى مِنْ أَجْرِك مِن الإبل والْبَقرِ والغنم والرَّقيق. فقال: يا عَبْدَ الله لا تَسْتَهْزِئْ بِي. فقلتُ: لا أسْتَهزِئ بكَ، فَأَخَذه كُلَّهُ، فاْستاقَه فَلَمْ يَتْرِكْ مِنْهُ شيئًا، اللَّهُمّ إن كُنْتُ فَعلتُ ذلك ابتغاءَ وَجْهِك فافْرُجْ عَنّا ما نحنُ فِيه، فَانْفرجَت الصَّخْرةُ، فَخَرجُوا يَمْشُون»[2].

ومن الدروس المستفادة من كُلّ فرد منهم:

أ- يستفاد من قصَّة الرّجل الأوّل: فضل بر الوالدين، وإيثارهما على من سواهما، وتفيد القصة، أن هذا البرّ يجعل الدّعاء مقبولاً.

ب- ويستفاد من فعل الرّجل الثاني: فضل العفاف والكف عن الحرام، وخصوصًا عند التمكن منه، والقدرة عليه، وأن هذا الْخُلُق يجعل الدّعاء مقبولاً.

جـ- ويستفاد من فعل الرجل الثالث: فضل الأمانة، وَحُسْن العهد، والسماحة في المعاملة، والسّعي في مصلحة المسلمين، وأن هذا الْخُلُق يجعل الدّعاء - أيضًا - مقبولاً.

رابعًا: لقطاتٌ مِنْ حَيَاةِ أَهْلِ العِفَّة:

ذكر القرآنُ ودَوَّن التاريخُ مواقف لأهل العفّة، أنارت للسالكين الطريق، وأصبحت مثلاً يُحتذى لمن اهتدى.

---

(١) **لا تفض الخاتم**: كناية عن الفرج وعذرة البكارة، أي: لا تزل عفافي إلاّ بالزّواج.

(٢) رواه البخاري (٣٤٦٥)، ومسلم (٢٧٤٣).

من هذه المواقف:

الموقف الأول: موقف يوسف - عليه السلام - من امرأة العزيز:

قال تعالى: ﴿ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [يوسف: ٢٣، ٢٤].

قال صاحبُ الظّلال - رحمه الله - تحت ظلال هاتين الآيتين - ما مختصره - :

«كانت المراودة مكشوفة، وكانت الدعوة فيها سافرة إلى الفعل الأخير.. وحركة تغليق الأبواب لا تكون إلاّ في اللّحظة الأخيرة، وقد وصلت المرأةُ إلى اللحظة الحاسمة:

﴿ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ ﴾ !

﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾...

والنّص هنا صريح وقاطع في أن ردّ يوسف المباشر على المراودة السافرة كان هو التّأبّي، المصحوب بتذكّر نعمة الله عليه، وبتذكّر حدوده وجزاء من يتجاوزون هذه الحدود، فلم تكن هناك استجابة في أوّل الموقف لمّا دعته إليه دعوة غليظة جاهرة بعد تغليق الأبواب، وبعد الهتاف باللفظ الصّريح الذي يتجمّل القرآن في حكايته وروايته:

﴿ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ ﴾ !

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ ﴾!

لقد حصر جميع المفسّرين القدامى والمحدثين نظرهم في تلك الواقعة الأخيرة.

فأمّا الذين ساروا وراء الإسرائيليات فقد رووا أساطير كثيرة يصوّرون فيها يوسف هائج الغريزة مندفعًا شبقًا، والله يدافعه ببراهين كثيرة فلا يندفع!

وهي واضحة التلفيق والاختراع!

وأمّا جمهور المفسّرين فسار على أنها همّت به همّ الفعل، وَهَمّ بها همّ النفس[1]، ثم

---

(١) قال الإمام أحمد: «الْهَمُّ هَمَّان: هم خطَرات، وَهَمّ إصْرار، وهَمّ الخَطَرات لا يُؤاخذ اللّهُ به، وَهَم الإصرار يؤاخذ الله به» ا.هـ. فكان نصيب يوسف عليه السلام هم الخطرات، ونصيبها الإصرار.

تَجلّى له بُرْهَانُ رَبِّه فَترك.

والذي خطر لي أن قوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ﴾.

هو نهاية موقف طويل من الإغراء، بعدما أَبَى يوسف في أوّل الأمر واستعصم... وهو تصوير واقعي صادق لحالة النفس البشرية الصالحة في المقاومة والضّعف؛ ثم الاعتصام بالله في النهاية والنجاة.

هذا ما خطر لنا ونحن نواجه النصوص[١]، ونتصوّر الظروف. وهو أقرب إلى الطبيعة البشرية وإلى العصمة النبوية. وما كان يوسف سوى بشر. نعم إنه بشر مختار.

ومن ثم لم يتجاوز همّه الميل النفسي في لحظة من اللحظات. فلمّا أن رأى برهان ربه الذي نبض في ضميره وقلبه، بعد لحظة الضّعف الطارئة، عاد إلى الاعتصام والتأبيّ.

﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾»ا.هـ[٢].

الموقف الثاني: قِصَّةُ شَابَ تكلّم بعد الموت!!:

قال **الحافظ ابن كثير** - رحمه الله - :

«وقد ذكر الحافظ ابنُ عساكر في ترجمة «عمرو بن جامع» من تاريخه:

أن شابًّا كان يتعبّد في المسجد، فهوتْهُ امرأةٌ فدعته إلى نفسها، فمازالت به حتى كاد يدخل معها المنزل، فَذَكر هذه الآية:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

فخرّ مغشيًا عليه، ثم أفاق فأعادها، فمات، فجاء عمرو فَعَزَّى فيه أباه، وكان قد دُفن ليلاً، فذهب فَصَلّى، على قَبْره بِمَن مَعَه، ثم ناداه عمرو فقال:

---

(١) يقصد هم الخطرات - الذي لا يتعدى النّفس إلى الفعل - وفي الحديث: « **مَنْ هَمَّ بسيئةٍ فلم يَعْمَلْها كَتَبها اللّهُ له عنده حَسَنة كاملة...**».

(٢) «الظلال» (١٩٨١) بأختصار.

يا فتى: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن: ٤٦].

فأجابه الفتى من داخل القبر:

«يا عَمْرو قد أعطانيهما رَبِّي ﷻ في الجنَّة مَرَّتَيْن!!» (١).

الموقف الثالث: قِصَّةُ عَابد يفوح منه الْمِسْكُ!!

روى **ابن الجوزيّ** - رحمه الله تعالى - :

«أن أبا بكر الْمِسْكي - رحمه الله - قيل له: إنا نشمّ منك رائحة المسك مع الدّوام فما سببه؟! قال:

«والله لي سنين عديدة لم أستعمل المسك، ولكن سبب ذلك أن امرأة احتالت عليَّ حتى أدخلتني دارها وأغلقت دوني الأبواب، وراودتني عن نفسي فتحيّرتُ في أمري فضاقت بِي الْحِيَلُ، فقلت لها: إن لي حاجة إلى الطهارة، فأَمَرَتْ جاريةً لها أن تمضي بي إلى بيت الرّاحة - أي دورة المياه - فَفَعَلَت، فلمّا دخلتُ بَيْتَ الرّاحة أَخَذْتُ العَذرة - أي البراز - وألقيتُها على جميع جسدي، ثم رجعتُ إليها وأنا على تلك الحالة، فلمّا رأتني دهشتْ، ثم أمرت بإخراجي فمضيتُ واغتسلتُ فلما كانت تلك الليلة رأيتُ في المنام قائلٌ يقول:

«**فَعَلْتَ ما لم يَفْعَلْه أَحَدٌ غَيْرك، لأُطَيِّبَنّ رِيحَك في الدّنيا والآخرة**»، فأصبحتُ والمسك يفوح مني، واستمرّ ذلك إلى الآن!» (٢).

الموقف الرابع: قِصّة عابد الكوفة:

ذكر **الإمام الغزالي** - رحمه الله - في «الإحياء»:

«أن شابًا عابدًا كان بالكوفة، فتعرّضت له امرأة في الطريق، وقالت له:

يا فتى، اسمع مني كلمات أُكَلّمك بها.

فقال لها: هذا موقفُ تُهْمَة، وأنا أكره أن أكون للتُّهمة موضعًا.

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٢/٤٤٢).

(٢) «المواعظ والمجالس» (٢٢٤).

فقالت له: والله ما وقفتُ موقفي هذا جهالةً مني بأمرك، ولكن معاذ الله أن يتشوّف العبادُ إلى مثل هذا مني، والذي حملني على أن لقيتُك في مثل هذا الأمر بنفسي معرفتي أن القليل من هذا عند الناس كثير، وأنتم معاشر الْعُبَّاد على مثال القوارير[1]، أدنى شيء يعيبها، وجملة ما أقوله لك: إن جوارحي كلّها مشغولة بك، فالله الله في أمري وأمرك.

ومضى الشابُّ في طريقه ثم كتب إليها يقول:

« بسم الله الرحمن الرحيم، اعلمي أيتها المرأة أن الله ﷻ إذا عصاه العبدُ حَلمَ، فإذا عاد إلى المعصية مرّة أخرى ستره، فإذا لَبِسَ لَهَا مَلاَبِسَها، غضب الله تعالى لنفسه غضبة تضيق منها السموات والأرض والجبال والشجر والدّواب، فَمَنْ ذَا يطيق غَضَبه؟ فإن كان ما ذَكَرْت باطلاً فإنّي أُذَكّرك يومًا تكون السماء فيه كالْمُهْلِ[2]، وتصير الجبال كالْعِهْن[3]، وتَجْثو الأممُ لِصَوْلة الجبّار العظيم، وإني والله قد ضَعُفْتُ عن إصلاح نفسي، فكيف بإصلاح غيري؟

وإن كان ما ذَكَرْتِهِ حقًّا، فأنا أدلّك على طبيب هدى، يداوي الكلوم[4] الممرضة، والأوجاع الْمُرْمِضَة، ذلك هو الله رب العالمين[5]، فاقصديه بصدق المسألة، فإني مشغول عنك بقوله تعالى:

﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْأَزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ۝١٨ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ [غافر: ١٨، ١٩].
فأين المهرب من هذه الآية؟ ».

وبعد أيام تعرّضت له فأراد الرجوع من الطريق فقالت له:

يا فتى، لا ترجع، فلا كان الملتقى بعد هذا اليوم أبدًا إلاّ غدًا بين يدي الله تعالى، ثم بكت، وقالت:

---

(١) القوارير: أواني الزّجاج.
(٢) المهل: الفضّة المذابة، أو دردي الزَّيت.
(٣) العهن: الصوف.
(٤) الكلوم: الجروح.
(٥) في الحديث: « اللّهُ الطّبيب » رواه أحمد، وإسناده صحيح.

أسأل الله الذي بيده مفاتيح قلبك أن يسّهل ما قد عسر من أَمْرك، وامْنُن عليّ بموعظة أَحْمِلُها عنك، وأَوْصِنِي بوصية أعمل بها.

فقال لها: أَوصيك بحفْظ نَفْسك من نفسك، وَأُذَكِّرك قولَ الله تعالى:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ﴾ [الأنعام: ٦٠] »ا.هـــ.

الموقف الخامس: طاووس اليماني ومال السُّلْطان:

قال عبد الرزّاق:

« سمعتُ النّعمان بن الزُّبَيْر الصنعاني يُحدّث أن محمد بن يوسف، أو أيوب بن يحيى - أحد الأمراء - بعث إلى طاووس بسبعمائة دينار، وقيل للرسول: إن أخذها الشيخُ منك، فإن الأمير سَيُحْسنُ إليك ويكسوك، فقدم بها على طاووس، فأراده على أخذها، فأبى، فَغَفِل طاووس، فرمى بها الرجلُ في كُوَّة[1] البيت، ثم ذهب وقال لهم: قد أخذها!!.

ثم بلغهم عن طاووس شيءٌ يكرهونه، فقال:

ابعثوا إليه، فليبعث إلينا بمالنا، فجاءه الرسولُ، فقال:

المال الذي بعث به الأمير إليك؟

قال: ما قبضتُ منه شيئًا.

فرجع الرسولُ، وعرفوا أنه صادق، فبعثوا إليه الرَّجُلَ الأوّل، فقال:

المال الذي جئتُك به يا أبا عبد الرحمن؟

قال: هل قَبَضتُ منك شيئًا؟

قال: لا، ثم نظر حيث وضعه، فَمَدَّ يَدَه فإذا بالصُّرَّة قد بنى العنكبوتُ عليها، فَذَهب بها إليهم! »[2].

فَتَسَرْبَلْ - أخي المسلم - بخُلُق « العفّة » ، وجاهد نَفْسَك وهَوَاك، وَاعْلَم أن أحبّ الأعمال إلى الله - تعالى - ما أُكْرِهَتْ عليه النّفوسُ، وفّقني اللّهُ - تعالى - وإيّاك لطاعته.

(١) الكُوّة: الفتحة غير النافذة في الحائط ونحوه.

(٢) « سير أعلام النبلاء » (٥/٤٠).

الفهرس

